

بأخبار دار المصطفى

تأليف

نور الدين علي بن أحمد السمهودي

المتوفى في عام ٩١١ من الهجرة

حققه ، وفصله ، وعلق حواشيه

محمد محيي الدين عبد الحميد

عفا الله تعالى عنه !

الجزء الثاني

الحمدُ لله الذى اختار رسولَه محمدا صلى الله عليه وسلم من أطيب الا رومات ، والصلاةُ والسلامُ الأَتمَّانِ الأَكْمَلاَن على أشرف الـكائنات ، وعلى آله وصحبه الذين فَدَوْهُ بالأَنفُس والأموال و بالآباء والأمهات . وعلى مَنِ اتبعه واتبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

الفصل الرابع

الروايات في حنين الجذع

في خبر الجِذْع الذي كان يخطب إليه صلى الله عليه وسلم واتخاذه المنبر ، وما اتفق فيه ، وماجعل بَدَلَه بعد الحريق، واتخاذ الكسوة له

روينا في صحيح البخاري عن ابن عمر قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يَخْطُبُ إلى جِذْعٍ ، فلما اتخذ المنبَرَ تحول إليه ، فحَنَّ الجذعُ ، فأتاه فمسح يده عليه

وفيه عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان يقومُ يومَ الجمعة إلى شجرة أو نخلة ، فقالت امرأة من الأنصار ، أورَجُل : يارسول الله ، ألا نجعل لك منبرا ؟ قال : إن شئتم ، فجعلوا له منبرا ، فلما كان يوم الجمعة رفع إلى المنبر ، فصاحت النخلة صياح الصبي ، ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضَمَّهُ إليه وهو يَئِنُّ أنينَ الصبي الذي يسكن ، قال : كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها .

وفيه أيضا عنه : كان المسجد مسقوفا على جُذُوع من نخل ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جِذْعٍ منها، فلما صُنِع له المنبر فكان عليه فسمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت[1] العِشار، الحديثَ .

وعند النسائي في الكبرى عن جابر : اضطربت تلك السارية كحنين الناقة الخَلُوج : أي التي انتزع ولدها منها

وعند ابن خزيمة عن أنس : فحَنَّتِ الخشبة حَنين الوالِهِ[2].

وفي روايته الأخرى عند الدارمي : خارَ[3] ذلك الجذع كخُوَار الثور .

وفي حديث أبي بن كعب عند أحمد والدارمي وابن ماجة : فلما جاوزه خار الجذع حتى تصدع وانشق .

وفي حديثه : فأخذ أبي بن كعب ذلك الجذع لما هدم المسجد فلم يزل عنده حتى بلي وعاد رُفاتا[4] .

---

(١) العشار : جمع عشراء ــ بضم العين وفتح الشين ــ وهي الناقة الحامل ، وفي القرآن الكريم : (وإذا العشار عطلت) .

(٢) الواله : وصف من الوله ، وهو ذهاب العقل حيرة من عشق أو حزن أو نحوهما.

(٣) خار : صوت . (٤) عاد : صار ، والرفات ــ بضم الراء ــ الهشيم .

وفى حـديث أبى سعيد عند الدارمى : فأمر به أن يُحفَرَ له ويُدْفَنَ ، وسيأتى أحاديث بذلك ، ولا تنافى بين ذلك ؛ لاحتمال أن يكون ظَهَرَ بعـد الهدم عند التنظيف ، فأخذهُ أبى بن كعب .

وقال أبو اليمن بن عساكر فى تحفته : وفى رواية فلما جلس عليه أى المنبر حنت الخشبة حنين الناقة على ولدها ، حتى نزل النبى صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها ، فلما كان من الغد رأيتها قد حُوِّلَتْ ، فقلنا : ما هذا ؟ قال : جاء النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر فحولوها ، انتهى .

وفى مسند الدارمى من حديث بريدة : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا خطب قام فأطال القيام ، فكان يَشُقُّ عليه قيامُه ، فأتى بجذع نخلة ، فحفر له وأقيم إلى جنبه قائما للنبى صلى الله عليه وسلم ؛ فكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا خطب فطال القيام عليه استند فاتّكى عليه، فبصر به رجل كان وَرَدَ المدينة فرآه قائما إلى جنب ذلك الجذع ، فقال لمن يليه من الناس : لوأعلم أن محمداً يحمدنى فى شىء يرفق به لصنعت له مجلسا يقوم عليه ، فإن شاء جلس ماشاء ، وإن شاء قام ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ائتونى به ، فأتوه به ، فأمر أن يصنع له هذه المراقى الثـلاث أو الأربع ، هى الآن فى مسجد المدينة ؛ فوجد النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك راحة ، فلما فارَقَ النبى صلى الله عليه وسلم الجذعَ وعمد إلى هذه التى صنع له جَزِعَ الجذع فحَنَّ كما تحنُّ الناقة ، حين فارقه النبى صلى الله عليه وسلم ، فزعم ابن بريدة عن أبيه رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم حين سمع حنين الجذع رجع إليه فوضع يده عليه ، وقال : اخْتَرْ أن أغرسك فى المكان الذى كنت فيـه فتكون كما كنت ، وإن شئت أن أغرسَكَ فى الجنـة ، فتشرب من أنهارها وعيونها فتحسُنَ زينتك ، وتثمر ، فتأ كل أولياء الله من ثمرتك وتخلد ؛ فَعَلْتُ ؛ فزعم أنه سمع من النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول له : نعم قد فعلت ، مرتين ، فسئل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : اختار أن أغرسه فى الجنة .

ولفظه عند عياض : إن شئتَ أردكَ إلى الحائط(١) الذى كنت فيه تُنْبِتُ لك عروقك، و يكمل خلقك، و يجددلك خوص وثمرة ، و إن شئْت أغرسك فى الجنة فتأكل أولياء الله من ثمرك ، ثم أصغَى له النبى صلى الله عليه وسلم يسمع مايقول ، فقال : بل تغرسنى فى الجنة فيأكل منى أولياء الله وأكون فى مكان لا أبلى فيه فسمعه مَنْ يليه ، قال صلى الله عليه وسلم : قد فعلت ، ثم قال : اخْتَارَ دار البقاء على دار الفناء ، فكان الحسن إذا حدث بهذا بكى وقال : ياعبادَ الله ، الخشبة تحنُّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شوقا إليه لمكانه ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه ، وهو فى كتاب يحيى بنحوه ، وفى حديث سهل بن سعد عند أبى نعيم : فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ألا تعجبون من حنين هذه الخشبة ، فأقبل الناس عليها فسمعوا من حنينها حتى كثر بكاؤهم .

وفى لفظ عند ابن عبد البر : فلما جاوزه خار الجذع حتى تصدع وانشق، فرجع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسحه بيده حتى سكن ، ثم رجع إلى المنبر ، قال : فكان إذا صلى صلى إليه ، فلما هُدم المسجد أخَذَ ذلك الجذعَ أبىٌّ بن كعب فلم يزل عنده حتى أكلته الأرَضَةُ وعاد رُفَاتا .

وهذا يبعد ماقدمناه من التأويل ؛ إذا ظاهرهُ أنه لم يدفن .

و يحتمل أن ذلك كان بعد دفنه، ومشى يصلى إليه قريبا منه ؛ لأنه كان عند مُصَلاَّه كما سنحققه .

وفى كتاب يحيى عن أبى سعيد : كان صلى الله عليه وسلم يخطب إلى جذع نخلة ، فأتاه رجل رومى ، فقال : أصنع لك منبرا تخطب عليه ، فصنع له منبره الذى ترون ، فلما قام عليه فخطب حَنَّ الجذع حنين الناقة إلى ولدها، فنزل إليه النبى صلى الله عليه وسلم فضَمَّهُ فسَكن ، وأمر به النبى صلى الله عليه وسلم أن يُدْفَنَ و يحفر له .

---

(١) الحائط : الحديقة والبستان من النخيل إذا كان عليه جدار

وعن عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صل الله عليه وسلم يخطب إلى جذع يتساند إليه ، فمر رومى فقال : لو دعانى محمد لعملت له ما هو أرفق له من هذا ، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إليه ، فدعاه ، فجعل له المنبر ، ثم ذكر حنين الجذع وتخيير النبى صلى الله عليه وسلم له ، قال : فقالت : فسمعنا النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول : فنعم ، فغار[١] الجذع فذهب .

وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخطب إلى الجذع ، فلما اتخذ المنبر وعدل إليه حن الجذع حتى أتاه فاحتضنه فسكن ، وقال : لو لم أفعل هذا الحنّ إلى يوم القيامة .

وذكر الإسفراييني أن النبى صلى الله عليه وسلم دعاه إلى نفسه ، فجاء يخرق الأرض ، فالتزمه ، ثم أمره فعاد إلى مكانه .

وفى كتاب ابن زبالة عن خالد بن سعيد مرسلا أن تميما الدارى كان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتدّ عليه وجع كان يجده فى فخذيه يقال له الزجر[٢] ، فقال له تميم : يا رسول الله ألا أصنع لك منبرا تقوم عليه ، فإنه أهون عليك إذا قمت و إذا قعدت ؟ قال : وكيف المنبر ؟ قال : أنا يا رسول الله أصنعه لك ، قال : فخرج إلى الغابة فقطع منها خشبات من أثل ، فعمل له درجتين : أى غير المقعد ، فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخشبة التى كان يستند إليها إذا خطب ، ثم ذكر حنينها ، وقال : بلغنا أنها دفنت تحت المنبر . صانع المنبر

وعن المطلب بن حنطب أنه صلى الله عليه وسلم أمر بالجذع فحفر له تحت المنبر فدفن هنالك ، قال : والذى عمل المنبر غلام نصيبة المخزومى ، وكان المنبر من أثلة كانت قريباً من المسجد .

وعن سهل بن سعد الساعدى نحو ما فى الصحيح أن رجالا أتوا سهلا وقد امتروا[٣] فى المنبر مِمّ عودُهُ ، فسألوه عن ذلك ، فقال : والله إنى لأعرف مِمّ هو ،

(١) فغار الجذع : أراد فغاص فى الأرض .
(٢) الزجر : هكذا وقع هذا اللفظ فى الأصول كلها ، ولم أتحققه على ما أحب .
(٣) امتروا : شكوا

ولقد رأيته أولَ يومٍ وُضِعَ ، وأول يوم جلس عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أرسل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى فلانة امرأةٍ من الأنصار قد سماها سهل : مُرِي غلامَكِ النجار ، أن يعمل لى أعواداً أجلس عليها إذا كلمت الناس ، فأمرته فعملها من طَرْفاء الغابة ، ثم جاء بها فأرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر بها فوضعت ههنا ، ثم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى عليها وكبر وهو عليها ، ثم ركع وهو عليها ، ثم نزل القَهْقَرَى فسجد فى أصل المنبر ، هذا لفظ الصحيح ، وزاد فيه ابن زبالة : وقطعْتُ خشب المنبر بيدى مع الذى بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحملت إحدى الدرجات .

ورواه يحيى بلفظ : عُمِل من أثْلٍ ، يعنى المنبر ، وكنت ممن حمل درجته هذه ، ثم ذكر حنين الجذع ، وفى رواية للبخارى فى كتاب الهبة « فجاءوا به — يعنى المنبر — فاحتمله النبى صلى الله عليه وسلم ، فوضعه حيث ترون » .

وقال الحافظ ابن حجر : صحف بعض الرواة قوله إلى فلانة امرأة من الأنصار فقال إلى علاثة (بالعين المهملة والمثلثة) وهو خطأ ، والمرأة لا يعرف اسمها ، ونقل ابن التين عن مالك أن النجار كان مولى لسعد بن عُبادة ؛ فيحتمل أنه كان فى الأصل مولى امرأته ، ونسب إليه مجازاً ، واسم امرأته فكيهة بنت عبيد بن دليم ، وهى ابنة عمه ؛ فيحتمل أن تكون هى المرأة ، لكن رواه ابن رَاهوَيْه عن ابن عيينة وقال : مولى لبنى بَيَاضة ، ووقع عند الكرمانى قيل : اسمها عائشة ، وأظنه صَحَّفَ المُصَحِّفَ ، ثم وجدت فى الأوسط للطبرانى من حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى إلى سارية فى المسجد ، ويخطب إليها ، ويعتمد عليها ، فأمرت عائشة ، فصنعت له منبره هذا ، فذكر الحديث ، وإسناده ضعيف ، ولو صح لما دل على أن عائشة هى المرادة فى حديث سهل هذا إلا بتعسف ، والله أعلم .

وأسند ابن سعد فى الطبقات من حديث أبى هريرة ، ورجاله ثقات إلا الواقدى أن النبى صلى الله عليه وسلم « كان يخطب وهو مستند إلى جذع ، فقال : إن القيام قد شَقَّ علىّ ، فقال تميم الدارى : ألا أعمل لك مِنْبَرًا كما رأيتُ يصنع بالشام ؟ فشاور النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين فى ذلك ، فرأوا أن يتخذه ، فقال العباس ابن عبد المطلب : إن لى غلاما يقال له كلاب أعمَل الناس ، فقال : مُرْهُ أن يعمل » الحديثَ .

موضع الجذع

وأسند يحيى منقطعاً عن ابن أبى الزناد وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخطب يوم الجمعة إلى جذع فى المسجد كان مَوضِعُه عند الأسطوانة المخلَّقة التى تلى القبر التى عن يسار الأسطوانة المخلَّقة التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى عندها التى هى عند الصندوق ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن القيام قد شَقَّ علىّ ، وشكا صلى الله عليه وسلم ضَعْفاً فى رجليه ، قالوا : فقال تميم الدارى — وكان رجلا من لخم من أهل فلسطين — يا رسول الله أنا أعمل لك منبراً كما رأيت يصنع بالشام ، قالوا : فلما أجمَعَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وذو الرأى من أصحابه على اتخاذه قال العباس بن عبد المطلب : إن لى غلاما يقال له كلاب أعمل الناس ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : مُرْهُ يعمل ، فأرسله الى أثلة بالغابة فقطعها ثم عملها دَرَجتين ومجلساً ، ثم جاء بالمنبر فوضعه فى موضعه اليوم ، ثم راح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة ، فلما جاوز الجذع يريد المنبرَ حَنَّ الجذع ثلاث مرات كأنه خُوار بقرة ، حتى ارتاع[1] الناس، وقام بعضهم على رجليه ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مَسَّه بيده ، فسكن ، فما سُمِع له صوت بعد ذلك ، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المنبر فقام عليه ، فلم يزل كذلك فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ، فلما هدَم عثمانُ المسجد اختلف فى الجذع ، فمنهم من قال : أخذه أبى بن كعب ، فكان عنده حتى أكلته

(١) ارتاع الناس : أخذهم الروع ، وهو الخوف .

الأرَضة ، ومنهم من قال : دفن فى موضعه .

شهرة حديث حنين الجذع

وقال عياض : حديثُ حنين الجذع مشهور منتشر ، والخبر به متواتر ، أخرجه أهل الصحيح ، ورواه من الصحابة بضعة عشر .

وقال البيهقى : قصة حنين الجذع من الأمور الظاهرة التى حَمَلَها الخلفُ عن السلف ، ورواية الأخبار الخاصة فيها كالتكلف ، وفيه دليل على أن الجمادات قد يخلق الله لها إدراكاً كأشرف الحيوان .

وقد نقل ابن أبى حاتم فى مناقب الشافعى عن أبيه عن عمرو بن سواد عن الشافعى قال: ما أُعطَى الله نبياً ماأعطى محمداً ، فقلت : أعطى عيسى إحياء الموتى ، قال : أعطى محمدا حَنِينَ الجذع حتى سمع صوته ؛ فهذا أكبر من ذلك .

الموضع الذى دفن فيه الجذع

ونقل ابن زبالة اختلافا فى دفن خشبته ؛ فعن عثمان بن محمد : دفنت دون المنبر عن يساره ، وقال بعضهم : دفنت شرقى المنبر إلى جنبه ، وقال بعضهم : دفنت تحت المنبر ، وتقدم فى روايةٍ أنه دفن فى موضعه الذى كان فيه ، ومحصل الرواية المتقدمة فى كلام يحيى أنه كان فى جهة المشرق يسار المُصَلَّى الشريف .

ونقل ابن زبالة عن عبد العزيز بن محمد أن الأسطوان الملطَّخ بالخَلُوق ثلثاها أو نحو ذلك محرابها موضع الجذع الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم يخطب إليه ، بينها و بين القبلة أسطوان ، و بينها و بين المنبر أسطوان .

قلت : وهذه الأسطوانة هى التى تقدم أنها عَلَمَ المصلَّى الشريف عن يمينه ، ولهذا روى عقبة ما قدمناه من القيام بمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة لمن عَدَلَ عنها قليلا ، وهذا مستند المطرى فى قوله : وكان هذا الجذع عن يمين مُصَلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصقاً بجدار المسجد القبلى فى موضع كرسى الشمعة اليمنى التى توضع عن يمين الإمام المُصَلِّى فى مقام النبى صلى الله عليه وسلم ، والأسطوانة التى قبلى الكرسى متقدمة عن موضع الجذع ؛ فلا يعتمد على قول

مَنْ جَعَلها فى موضع الجذع ، قال : وفيهـــا خشبة ظاهرة مثبتة بالرصاص سـدادة لموضع كان فى حجر من حجارة الأسطوانة مفتوح قد حوط عليـه بالبياض والخشبة ظاهرة ، تقول العامة : هـذا الجذع الذى حَنَّ إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وليس كذلك بل هو من جملة البدع التى يجب إزالتها لئلا يفتن بهـا الناس ، كما أزيلت الجزعة التى كانت فى المحراب القبلى ، وذكر قصـة الجزعة التى قدمناها .

بدعة اصطنعها الناس بسبب الجذع

وقال المجد : إن الخشبة المذكورة كان يُزدَحَمُ على زيارتها والتمسح بهـا ، و يعتقد الناس عامةً أنها الجذع، فظن بعض الفقهاء أن هذا من المنكر الذى يتعين إزالته ، وصرح بهـذا فى كتبه، إلى أن وافق على ذلك شيخُنا العز بن جَماعة فأمر بإزالتها ، إلى آخر ما قدمناه عنـه . قال : وكان موضع الخشبة من الأسطوان المذكور على مقدار ذراعين من الأرض ارتفاعاً ، وقد طُلِيَ عليه بالقصة ، ولا عَيْنٌ منه ولا أثر .

قلت : الذى يظهر ـ كما قدمته ـ أن هذه الخشبة كانت من العود الذى كان النبى صلى الله عليه وسـلم يضع يده عليه و يقول : عدلوا صفوفـكم ، كما تقدم ، والله أعلم .

ونقل ابن زبالة الاختلافَ فى الذى عمل المنبر ، فقيل: غلام نصيبة المخزومى ، وقيـل : غلام للعباس ، وقيل : غلام لسعيد بن العاص يقال له باقول (بموحدة وقاف مضمومة) وقيـل : غلام لامرأة من الأنصار من بنى ساعدة ، أو لامرأة لرجل منهم يقال له مينا ، وقوله «يقال له مينا» يحتمل المولى وزوجَ المرأة ، لـكن عند يحيى قال إسماعيل بن عبدالله : الذى عمل المنبر غلام الأنصارية واسمه مينا ، وعند ابن بشكوال عن أبى بن أويس : عمل المنبر غلام لامرأة من الأنصار من بنى سلمة أو بنى ساعدة أو امرأة لرجل منهم يقال له مينا ، وهذا محتمل كالأول ،

عود إلى الاختلاف فى صانع المنبر

وقيل : عمله تميم الدارى ، هذا حاصل ما ذكره ابن زبالة ، وفى رواية ليحيى : عمل المنبر صُبَاح غلام العباس (بضم المهملة بعدها موحدة خفيفة) وتقدم تسميته كلابا ، ونقل المراغى عن بعض شيوخه أن الذى عمله باقوم (بالميم) بانى الكعبة لقريش ، وفى الاستيعاب عن باقوم الرومى قال : صنعتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم منبراً من طَرْفاء له ثلاث درجات : المقعدة ، ودرجتيه ، قال ابن عبد البر : وإسناده ليس بالقائم(١) .

وفى طبقات ابن سعد أن الصحابة قالوا : يا رسول الله إن الناس قد كثروا ، فلو اتخذت شيئاً تقوم عليه إذا خطبت ، قال صلى الله عليه وسلم : ما شئتم ، قال سهل رضى الله عنه : ولم يكن بالمدينة إلا نجار واحد ، فذهبت أنا وذاك النجار إلى الغابة فقطعنا هذا المنبر من أثلة ، وفى لفظ : فحمل سهل منهن خشبة ، قال المجد : إسنادهما صحيح ، وعند قاسم بن أصبغ : وكان بالمدينة نجار واحد يقال له ميمون ، فذكر الحديث ، وعند الطبرانى عن سهل : كنت جالساً مع خال لى من الأنصار ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اخرج إلى الغابة وأتنى من خشبها فاعمل لى منبراً ، الحديثَ . وأخرج الطبرانى بإسناد فيه متروك أن اسم صانع المنبر إبراهيم ، وفى أسماء الصحابة لابن شبة مرسلا : اسمه قبيصة أو قصيبة بتقديم الصاد ، المخزومى ، مولاهم . وعند أبى داود بإسناد جيد أن النبى صلى الله عليه وسلم لما بَدَّنَ قال تميم الدارى : يا رسول الله ألا تتخذ لك منبراً يحمل ـ أو يجمع ـ عظامك ، قال صلى الله عليه وسلم : بلى ، فاتخذ له منبراً مرقاتين : أى غير المقعدة .

قال الحافظ ابن حجر : وليس فى الروايات التى سمى فيها النجار قوى السند إلا هذا ، وليس فيه تصريح بأن الذى اتخذ المنبر تميم ، بل قد تبين من رواية ابن

---

(١) قال المؤلف فى الخلاصة : إن أشهر الأقوال فى تسمية صانع المنبر أن اسمه «باقوم» بالميم ، وسيبين هنا بعد قليل أن اشتهاره لا ينافى ضعف إسناده (انظر ص٣٩٧)

سعد المتقدمة أن تميما لم يعمله ، وأشبه الأقوال بالصواب أنه ميمون ؛ لكون الإسناد من طريق سهل ، ولا اعتداد بالأقوال الأخرى لكونها واهية .

قلت : ولا ينافيه قوله فى مقدمة الشرح « باقوم أشهر الأقوال » فقد يشتهر الواهى(١) .

وفى التحفة لابن عساكر : روينا من حديث أبى كبشة السلولى عن معاذ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنْ أتَّخِذْ منبراً فقد اتخذه أبى إبراهيم ، وإن اتَّخِذِ العصا فقد اتخذها أبى إبراهيم ، صلى الله عليهما وسلم .

وأسند ابن النجار من حديث أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة إلى جنب خشبة مُسْنِداً ظهره إليها ، فلما كثر الناسُ قال : ابنُوا لى منبراً ، فبنوا له منبرا له عتبتان ، وهو يقتضى أن المنبر كان بناء ، ويحتمل أنه أطْلَقَ على تأليفه من الأخشاب اسمَ البناء ، لكن قال الحافظ ابن حجر : حكى بعض أهل السير أنه صلى الله عليه وسلم « كان يخطب على منبر من طين قبل أن يتخذ المنبر الذى من خشب » ويعكر عليه ما تقدم فى الأحاديث الصحيحة من أنه كان يستند إلى الجذع إذا خطب .

قلت : يحتمل أن ذلك المنبر المتخذ من الطين كان إلى جانب الجذع ، وكأنه كان بناء مرتفعاً فقط ، وليس له درج ومقعدة بحيث يكمل الارتفاق به ؛ فلا ينافى ما تقدم فى سبب اتخاذ المنبر من خشب ، ويؤيد ذلك ما ورد فى حديث الإفك فى الصحيحين عن عائشة قالت : فثار الحيان الأوسُ والخزرجُ حتى كادوا أن يقتتلوا ، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ، الحديثَ ، وهذه القصة متقدمة على اتخاذ المنبر من الخشب ؛ فقد جزم ابن النجار بأن عمله كان سنة ثمان ، وجزم ابن سعد بأنه كان فى السنة السابعة ، على أن ذكر تميم والعباس فى عمله كما تقدم

(١) قد نبهناك إلى هذا فى هوامش ص ٣٩٦ .

يقتضى تأخره عن ذلك أيضاً ؛ فقد كان قُدُومُ العباس بعد الفتح فى آخر سنة ثمان ، وقدومُ تميم سنة تسع ، وفى بعض طرق الحديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس بين أصحابه ، فيجيء الغريب فلا يدرى أيهم هو ، فطلبنا إليه أن نجعل له مجلسا يعرفه الغريب إذا أتاه ، فبنينا له دكاناً[1] من طين كان يجلس عليه ، الحديثَ . وفى بعض طرقه أنه جاء والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب : أى على ذلك الدكان ، والله أعلم .

وروى يحيى عن ابن أبى الزناد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجلس على المجلس ، ويضع رجليه على الدرجة الثانية ، فلما ولى أبو بكر قام على الدرجة الثانية ، ووضع رجليه على الدرجة السفلى ، فلما ولى عمر قام على الدرجة السفلى ، ووضع رجليه على الأرض إذا قعد ، فلما ولى عثمان فعل ذلك ست سنين من خلافته ؛ ثم علا إلى موضع النبى صلى الله عليه وسلم .

ثم قال : قالوا فلما استخلف معاوية زاد فى المنبر ، فجعل له ست درجات ، وكان عثمان أول مَنْ كسا المنبر قُبْطية[2] .

أراد معاوية أن ينقل المنبر إلى الشام

قالوا : فلما قدم معاوية عام حجَّ حرَّكَ المنبر ، وأراد أن يخرجه إلى الشام ، فكسفت الشمس يومئذ ، حتى بدت النجوم ، فاعتذر معاوية إلى الناس ، وقال : أردت أنظر إلى ما تحته ، وخَشِيتُ عليه من الأرَضَة . قال بعضهم : وكساه يومئذ قُبْطية أولينة . ثم أسند عن سعيد بن عمرو قصة تحريك معاوية للمنبر ، وأن الشمس كسفت ، واعتذاره بأنه خشى عليه الأرَضَة ، وأنه كساه يومئذ قُبْطية يكون عليه أولينة ، فكان يقال : هو أول من كساه ، قال يحيى : وأثبتهما عندنا أن عثمان هو أول مَنْ كساه ، وقد نقل ذلك ابن النجار عن الواقدى عن ابن أبى الزناد ، قال : فسرقت الكسوة امرأة ، فأتى بها عثمان ، فقال لها : هل سرقت ؟ قولى لا ، فاعترفت ، فقطعها ، واتفق لامرأة مع ابن الزبير مثل ذلك .

وفى تاريخ الواقدى : أراد معاوية رضى الله عنه سنة خمسين تحويل منبر

---

(١) الدكان : المكان المرتفع ، شبه الدكة ، ويسمى فى ريف مصر (مصطبة)

(٢) القبطية — بضم القاف وسكون الباء — الثوب الرقيق الأبيض من ثياب مصر

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دمشق ، فكسفت الشمس يومئذ ، وكلمه أبو هريرة رضى الله عنه فيه ، فتركه ، فلما كان عبد الملك أراد ذلك فكلمه قبيصة فتركه ؛ فلما كان الوليد أراد ذلك فأرسل سعيد بن المسيب إلى عمر بن عبد العزيز فكلمه فيه فتركه، فلما كان سليمان قيل له فى تحويله قال: لا ؛ هاالله ، أخذنا الدنيا ونعمد إلى علم من أعلام الإسلام نريد تحويله ؟ ذاك شيء لا أفعله ؛ وما كنت أحب أن يذكر هذا عن عبد الملك ولا عن الوليد ! ما لنا ولهذا ؟

رفع المنبر ست درجات

وأسند ابن زبالة عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه قال : بعث معاوية رضى الله عنه إلى مروان يأمره أن يحمل إليه منبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمر به أن يُقْلَعَ ، فأظلمت المدينة ، وأصابتهم ريح شديدة ، قال : فخرج عليهم مروان فخطبهم، وقال : يا أهل المدينة إنكم تزعمون أن أمير المؤمنين بَعَثَ إلى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأميرُ المؤمنين أعلم بالله من أن يغير منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ما وضَعه عليه ، إنما أمرنى أن أكرمه وأرفعه ، قال : فدعا نجارا فزاد فيه الزيادة التى هو عليها اليوم ، ووضعه موضعه اليوم .

وفى رواية له عن ابن قطن : قلع مروان بن الحكم منبر رسول الله ، وكان درجتين والمجلس ، وأراد أن يبعث به إلى معاوية ، قال : فكسفت الشمس حتى رأينا النجوم ، قال : فزاد فيه سِتَّ درجاتٍ ، وخطب الناس فقال : إنى إنما رفعته حين كثر الناس

وعند يحيى فى رواية أخرى : كتب معاوية رضى الله عنه إلى مروان وهو على المدينة أن أرْسِلْ لى بمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج مروان فقلعه ، فأصابتنا ريح مظلمة بَدَتْ فيها النجومُ نهارا ، ويَلْقَى الرجلُ الرجلَ يَصُكُّه(١) فلا يعرفه ، وذكر اعتذار مروان المتقدم ، وقال : إنما كتب إلىّ يأمرنى أن أرفعه من

---

(١) يصكه : أراد أن أحدهما يصطدم بالآخر دون أن يراه .

الأرض ، فدعا له النَّجَاجِرَةَ[1] ، فعمل هذه الدرجات ورفعوه عليها ، وهىَ ــ أى الدرجات التى زادها ــ ستٌّ درجاتٍ ، قال : ثم لم يزد فيه أحد قبله ولا بعدهُ .

وقال ابن زبالة عقب حديث رواه من طريق سفيان عن كثير بن زيد عن المطلب مالفظه : والذى زاد فى درج المنبر معاوية بن أبى سفيان .

قال سفيان : قال كثير : فأخبرنى الوليد بن رباح قال : كسفت الشمس يوم زاد معاوية فى المنبر حتى رؤيت النجوم .

وروى ابن النجار زيادة مروان فيه ، وأنه صار تسع درجات بالمجلس[2] ، عن ابن أبى الزناد ، ثم قال : ولما قدم المهدى المدينة سنة إحدى وستين ومائة ، فقال لمالك بن أنس : إنى أريد أن أعيد منبر النبى صلى الله عليه وسلم على حاله ، فقال له مالك : إنما هو من طرفاء ، وقد سُمِّرَ إلى هذه العيدان وشُدَّ ، فمتى نزعتهُ خِفْتُ أن يتهافت ويهلك ، فلا أرى أن تغيره ، فانصرف المهدى عن تغييره .

وروى ابن شبة قصة المهدى عن محمد بن يحيى عن محمد بن أبى فديك .

عدد درجات المنبر

قلت : وجميع ما قدمناه من كلام المؤرخين مقتضٍ لاتفاقهم على أن منبره صلى الله عليه وسلم كان درجتين غير المجلس[2] ونقله ابن النجار عن الواقدى ، لكن سبق فى رواية الدارمى «هذه المَرَاقى[3] الثلاث أو الأربع» على الشك ، وفى صحيح مسلم « هذه الثلاث درجات » من غير شك ، وقال الكمال الدميرى فى شرح المنهاج : وكان صلى الله عليه وسلم منبره ثلاث دَرَج غير الدرجة التى تسمى المستراح[4] ، ولعل مأخذه ظاهر ذلك مع حديث أن النبى صلى الله عليه وسلم رقى المنبر فلما رقى الدرجة الأولى قال : آمين ، ثم رقى الدرجة الثانية فقال : آمين ، ثم رقى الدرجة الثالثة فقال : آمين ، فقالوا : يارسول الله سمعناك قلت آمين ثلاث مرات ، قال : لما

---

(١) النجاجرة : جمع نجار . (٢) المجلس : الموضع الذى يجلس عليه .

(٣) المراقى : جمع مرقاة ، وهى الدرجة من درجات السلم ، سميت بذلك لأنه يرقى بها

(٤) المستراح : اسم للمكان الذى يستراح فيه ، وهو الذى سمى فى بعض الروايات بالمجلس وفى بعضها الآخر بالمقعد ووجه التسمية فى كل رواية ظاهر لا يحتاج إلى تنبيه .

رَقِيتُ الدرجةَ الأولى جاء جبريل عليه السلام فقال : شَقِيَ عبد أدرك رمضان فانسلخ عنه فلم يغفر له ، قلت : آمين ، ثم قال : شقى عبدٌ ذُكرتَ عنده فلم يصلِّ عليك ، قلت : آمين ، ثم قال: شقى عبد أدرك والديه أو أحَدَهما فلم يدخلاه الجنة ، فقلت : آمين ، رواه يحيى بن الحسن عن جابر، ورواه الحاكم عن كعب بن عجرة(١) وقال : صحيح الإسناد ، ولفظه : قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : احضروا المنبر ، فحضرنا ، فلما رقى درجة قال : آمين ، فلما ارتقى الدرجة الثانية قال : آمين، فلما ارتقى الدرجة الثالثة قال : آمين ، فلما نزل قلنا : يارسول الله لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كنا نسمعه ، قال : إن جبريل عَرَضَ لى فقال : بَعُدَ مَنْ أدرك رمضان فلم يغفر له ، قلت : آمين ؛ فلما رقيت الثانية قال : بَعُدَ مَنْ ذُكِرْتَ عنده فلم يصل عليك ، فقلت : آمين ، فلما رَقِيتُ الثالثةَ قال : بَعُدَ من أدرك أبويه الكبر عنده أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، قلت : آمين، ويمكن حمله على أنه صلى الله عليه وسلم ارتقى حينئذ على المجلس وهى الدرجة الثالثة .

مساحة المنبر

قال ابن زبالة : وطولُ منبر النبي صلى الله عليه وسلم خاصةً ذراعان فى السماء ، وعرضه ذراع فى ذراع ، وتربيعه سواء ، وفيه مما كان يلى ظهره إذا قَعَدَ ثلاثةُ أعوادٍ تدور ، ذَهَبَ إحداهن ، وانقلعت إحداهن سنة ثمان وتسعين ومائة ، وأمر به داود بن عيسى فأعيد ، وفيما عمل مروان فى حائط المنبر الخشب عشرة أعواد لا يتحركن ، وطول منبر النبى صلى الله عليه وسلم مرتفع فى السماء مع الخشب الذى عمله مروان ــ أى الأعواد المتقدمة ــ ثلاث أذرع ونصف .

وقال عقب كلامه الآتى فى ذرع ما عليه المنبر اليوم ، يعنى زمنه ، ما لفظه : وطول المجلس ــ أى مجلسه صلى الله عليه وسلم ــ شبران وأربع أصابع فى مثل ذلك . مربع ؛ فقوله أولا : « وعَرْضه ذراع فى ذراع » إنما أراد به مقعد المنبر ؛

---

(١) كعب بن عجرة : ابن أمية بن عدى ، أبو محمد ، القضاعى ، البلوى ، المدنى ، حليف القواقل ، روى عنه البخارى ومسلم ، مات سنة إحدى وخمسين .

لما قاله هنا فى وصف المقعد بدون درجتيه ؛ ولأنه قال هنا عقب ما تقدم : ومابين أسفل قوائم منبر النبى صلى الله عليه وسلم الأول الى رُمَّانته خمسة أشبار وشىء ؛ وعرض دَرَجِهِ شبران ، وطولها شبر ، وطوله من ورائه — يعنى محل الاستناد — شبران وشىء ؛ فيؤخذ من ذلك أن امتداد المنبر النبوى من أوله — وهو ما يلى القبلة — إلى ما يلى آخره فى الشام أربعة أشبار وشىء ؛ لقوله : إن عرض درجه شبران ، وإن المجلس شبران وأربع أصابع ، وقوله : « وما بين أسفل قوائم منبر النبى صلى الله عليه وسلم — إلى آخره » معناه أن من طرف المنبر النبوى الذى يلى الأرضَ إلى طرف رمانته التى يضع عليها يده الكريمة خمسة أشبار وشىء ؛ وذلك نحو ذراعين ونصف ، وقد تقدم أن ارتفاع المنبر النبوى خاصة ذراعان ؛ فيكون ارتفاع الرمانة نحو نصف ذراع

وقال ابن النجار : طولُ منبر النبى صلى الله عليه وسلم ذراعان وشبر وثلاث أصابع ، وعرضه ذراع راجح ، وطول صدره — وهو مستنَدُ النبى صلى الله عليه وسلم — ذراع ، وطول رُمانتى المنبر اللتين كان يمسكهما بيده الكريمتين إذا جلس شبر وأصبعان ، وعرضه ذراع فى ذراع ، يريد وتربيعه سواء ، ولا يخفى ما فيه من المخالفة لكلام ابن زبالة .

وقال ابن زبالة فى الكلام على فضل مابين القبر والمنبر ، بعد ذكر المرمر الذى حول المنبر، مالفظه : وفى المنبر من أسفله إلى أعلاه سبع كُوّى(١) مستطيرة من جوانبه الثلاث ، وفى جنبه الذى عمل مروان من قبل المشرق ثمانى عشرة كوة(١) مستديرة شبه المربعة ، ومن قبل المغرب ثمانى عشرة كوة مثل ذلك ، وكان فيه خمسة أعواد تدور ، فذهب بعضها وبقى اثنان منها ، فسقط أحدهما فى سلطان داود بن عيسى على المدينة فى سنة ثمان وتسعين ومائة ، فأمر به فأعيد .

وقال فى موضع آخر : وفيما عمل مروان فى حائط المنبر الخشب عشرة أعواد

---

(١) الكوة — بفتح الكاف أو ضمها وتشديد الواو — أصله الخرق فى الحائط، والمراد به هنا الخرق مطلقا ، والجمع : كوى ، وكواء، بضم الكاف فى الجمعين .

لا يتحركن ، ثم قال : وفى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة خمسة أعوادٍ من جوانبه الثلاث ، فذهب بعضها .

وقال بعد ما تقدم عنه فى ذَرْع منبره صلى الله عليه وسلم ما لفظه : وذَرْع طول المنبر اليوم أربع أذرع ، وعرضه ذراع وشىء يسير ، وما بين الرمانة المؤخرة والرمانة التى كانت فى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم القديم ذراع وشىء ، وما بين رمانة منبر النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرمانة المحدثة فى مقدم المنبر ذراعان وعَظْم الذراع ، وما بين الرمانة والأرض ثلاث أذرع وشىء ، وطول المنبر اليوم من أسفل عتبته إلى مؤخره سبع أذرع — أى بتقديم السين — وشبر ، وطوله فى الأرض إلى مؤخره ست أذرع ، هذه عبارته بحروفها ، ويتعين حمل كلامه على أن امتداد المنبر فى الأرض من أسفل عتبته الرخام التى أمامه إلى مؤخر المنبر سبعة أذرع وشبر ، وطول امتداده وهو فى الأرض إلى مؤخره مع إسقاط العتبة ست أذرع، حتى يلتئم كلامه ، وقد ذكر فيما قدمناه عنه أن حول المنبر مرمر مرتفع(1) قدر الذراع ، وفيه شىء مُحْدَث غير مرتفع زاده الحسن بن زيد .

وقال فى موضع آخر : والمنبر مبنى فوق رخام ، وهو فى وسط الرخام ، فسمى المرمر رُخَاما ، وقال : إن هذا الرخام حَدُّه من الأسطوانتين اللتين فى قبلة المنبر — أى خلفه — إلى الأسطوانتين اللتين تليانهما مما يلى الشام — أى أمام المنبر — وقد سمى ابن النجار هذا الرخام الذى عليه المنبر دِكَّةَ ، وقال : إن طولها شبر وعَقْد ، يعنى فى الارتفاع ، وسمى ذلك أبو الحسين بن جُبَيْر فى رحلته حَوْضاً ، وكأنه أخذ هذه التسمية مما ورد فى أن المنبر على الحوض ، وذكر فى طول هذا الرخام وعرضه ما يقرب مما قدمناه فى حدود المسجد النبوى، قال : وارتفاعه شبر ونصف .

قلت : ولما حفر متولى العمارة فى زماننا أرضَ المسجدِ الشريف وسَوَّاها بأرض المصلَّى الشريف وجَد هذا الرخام المذكور ، وارتفاعه عن أرض المصلى

(1) كذا ، والعربية تقتضى «مرمرا مرتفعا» .

الشريف نحو ما ذكره ابن النجار وابن جُبَير ؛ ثم لما أردوا تأسيس المنبر الرخام الآتى ذكره حَفَرُوا حول الدكة المذكورة فظهر أنها منخفضة عن أرض المصلّى الشريف التى استقر عليها الحالُ اليومَ يسيرا ، وخلفها من جهة القبلة إفريز نحو ثلث ذراع ، وطولها سبع أذرع ، بتقديم السين ، وشبر ، وهى مجوّفة شبيهة بالحوض ، فصح ما ذكره ابن جُبَير فى تسميتها حوضا ، وصح أيضا ما سيأتى عنه من أن سَعَة المنبر خمسة أشبار ؛ لأن جوف هذا الحوض الذى وجدناه بما دخل من عَمُودى المنبر فى أحجاره خمسة أشبار ، وقولُ ابن زبالة أولا « وذرع طول المنبر اليوم أربع أذرع » مرادُهُ ارتفاعهُ فى الهواء مع الدرج الست التى زادها مروان ؛ فيكون طول الدرج الست ذراعين ؛ فتكون كل درجة ثلث ذراع ، فيقرب مما قدمه ابن زبالة فى طول درج منبر النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى تقتضيه المناسبة

ونَقَلَ الزين المراغى عن ابن زبالة أنه قال : طول منبر النبى صلى الله عليه وسلم بما زيد فيه أربعة أذرع ، ومن أسفل عتبته إلى أعلاه تسعة أذرع وشبر .

قلت : كذا رأيته بخط الزين ، وضبط قوله « تسعة أذرع » بتقديم التاء الفوقية ، وهو غلط فى النسخة التى وقعت له ؛ لأن الذى قدمناه عن ابن زبالة إنما هو من أسفل عتبته إلى مؤخره ، وقررناه بما تقدم ، وإنما قضينا على ذلك بالغلط لأنه حينئذ لا يلتئم أطرافُ كلامِه ، ولأنه يقتضى أن يكون ارتفاع المنبر فى الهواء تسعة أذرع ، بتقديم التاء ، وشبرا ، فإذا قام عليه القائم يقرب من سقف المسجد ، ويبعد كل البعد كون منبر فى ذلك الزمان ارتفاعه هذا القدر ، وأيضا فابن زبالة قد صرح بأن الذى زاده مروان ست درج ، فيلزم أن يكون كل درجة ذراعاً وشيئا ، وهو فى غاية البعد ، وما نقلناه عن ابن زبالة يقرب مما ذكره ابن النجار ؛ فإنه قال عقب ما قدمناه عنه فى وصف منبر النبى صلى الله عليه وسلم

مالفظه : وطولُ المنبر اليوم ثلاثة أذرع وشبر وثلاث أصابع ، والدكة التى عليها من رخام طولها شبر وعقد ، ومن رأسه ـ أى المنبر ـ دون دكته إلى عتبته خمسة أذرع وشبر وأربع أصابع ، وقد زيد فيه اليوم عتبتان وجعل عليه باب يفتح يوم الجمعة ، انتهى ؛ فهو قريب مما ذكره ابنُ زبالة من أن طول المنبر ـ يعنى فى الهواء ـ أربعة أذرع ، وأمتداده هو خاصة فى الأرض من عتبته إلى مؤخره ستة أذرع ، و يوافق أيضا ما ذكره الفقيه أبو الحسين محمد بن جُبَير من حديث القدر ، فإنه قال : رأيت منبر المدينة الشريفة فى عام ثمان وسبعين وخمسمائة ، وارتفاعُه من الأرض نحو القامة أوأزيد ، وسعته خمسة أشبار ، وطوله خمس خطوات ، وأدراجه ثمانية ، وله باب على هيئة الشباك مُقْفَل يفتح يوم الجمعة ، وطوله ـ أى الباب ـ أربعة أشبار ونصف شبر ، وهذا المنبر هو الذى وصَفَه[1] ابن النجار فيما يظهر ؛ لأنه وضع تاريخه سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، وتوفى قبل حريق المسجد سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، وكان احتراق المسجد كما سيأتى سنة أربع وخمسين وستمائة ، وفيه احترق هذا المنبر ، وفقدَ الناسُ بركته .

وقد زاد ابن جبير على ابن النجار فى وصف هذا المنبر فقال : وهو مُغَشّى بعود الآبنوس ، ومقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعلاه ظاهر قد طبق عليه لوح من الآبنوس غير متصل به يَصُونه من القعود عليه ؛ فيدخل الناس أيديهم إليه ويمسحونه بها تبركا بلمس ذلك المقعد الكريم ، وعلى رأس رِجْلِ المنبر الأيمن حيث يضع الخطيبُ يدَه إذا خطب حلقةُ فضةٍ مجوّفة مستطيلة تشبه حلقة الخياط التى يضعها فى أصبعه إلا أنها أكبر منها ، وهى لاعبة تستدير فى موضعها ، انتهى .

والظاهر أن هذا المنبر غير الذى وصفه ابن زبالة لأنه لم يصفه بذلك ، ويوضح ذلك ماذكره فى الطراز لسند من المالكية حيث قال : إن منبر النبى صلى الله عليه

---

(١) فى المطبوعات كلها « وضعه » وما أثبتناه هو الذى يقتضيه المقام ، وهو الذى يعينه قول المؤلف بعد قليل « فى وصف هذا المنبر » وغيره من العبارات

وسلم جعل عليه منبر كالغلاف ، وجعل فى المنبر الأعلى طاق مما يلى الروضة ، فيدخل الناس منها أيديهم يمسحون منبر النبى صلى الله عليه وسلم ويتبركون بذلك ، انتهى ؛ فهذا شيء حدث بعد ابن زبالة .

وقد قال المطرى : حدثنى يعقوب بن أبى بكر من أولاد المجاورين ، وكان أبوه أبو بكر فراشا من قُوَّام المسجد ، وهو الذى كان حريقُ المسجد على يده ، أن المنبر الذى زاده معاوية ورفع منبر النبى صلى الله عليه وسلم عليه تهافت على طول الزمان ، وأن بعض خلفاء بنى العباس جدَّده ، واتخذ من بقايا أعواد منبر النبى صلى الله عليه وسلم أمشاطا للتبرك ، وعمل المنبر الذى ذكره ابن النجار فيما تقدم .

قال يعقوب : سمعت ذلك من جماعة بالمدينة ممن يوثق بهم ، وأن المنبر المحترق هو الذى جدده الخليفة المذكور ، وهو الذى أدركه ابن النجار ؛ لأن وفاته قبل الحريق .

قلت : وظاهر كلام ابن عساكر فى تحفته أنه كان قد بقى من المنبر الشريف بقايا فقط إلى احتراق المسجد ، وهو ممن أدرك حريقه ، وأورد فى كتابه ما ذكره شيخه ابن النجار ، ولفظه : وقد احترقت بقايا منبر النبى صلى الله عليه وسلم القديمة ، وفات الزائرين لمسُ رمانة المنبر التى كان صلى الله عليه وسلم يضع يده المقدسة المكرمة عليها عند جلوسه عليه ، ولمس موضع جلوسه منه بين الخطبتين وقبلهما ، ولمس موضع قدميه الشريفتين بركة عامة ونفع عائد ، وفيه صلى الله عليه وسلم عوض من كل ذاهب ودَرْكٌ من كل فائت ، انتهى. وهو صريح فى بقاء ما ذكره إلى حين الحريق، ويؤيده ما تقدم عن رحلة ابن جُبَير وصاحب الطراز ، بل ظفرنا بما يشهد لصحة ذلك ؛ فإنه لما أراد متولى العمارة تأسيسَ المنبر الرخام الآتى ذكره حفروا على الدكة التى تقدم أن المنبر كان عليها فوجدت مجوفة كالحوض ، وبه عبر ابن جبير عنها ، فوجدوا فيما يلى القبلة منها قطعا كثيرة من أخشاب المنبر المحترق — أعنى الذى كان فيه بقايا منبر النبى صلى الله عليه وسلم — فوضعها الأقدمون

فى جوف ذلك المحل حِرْصاً على البركة ، وبَنَوْا فوقها بالآجُرّ بحيث سدوا جوف ذلك الحوض كله ، فصار دكة مستوية ، ووضعوا المنبر الآتى ذكره عليها ، وشاهدت آثار قائمتى المنبر الشريف اللتين كان بأعلاهما رُمّانتاه قد نُحت لهما فى الحجر المحيط بالحوض المذكور على نحو ذراع وثلث من طرف باطن الحوض المذكور مما يلى القبلة ، وسَمْكُ الحوض المذكور خمسة أشبار كما ذكره ابن جُبَير فى سمة المنبر ، وعرضُ جدار الحوض المذكور خلف المنبر نحوُ نصفِ ذراع ، وقد حرصْتُ على وَضْع ماوجد من تلك الأخشاب فى محلها ، فوضع ما بقى منها فى محله من الحوض المذكور ، و بنوا عليه كما سيأتى ، والله أعلم .

ولما احترق المنبر المذكور فى جملة الحريق أرسل الملك المظفر صاحب اليمن فى سنة ست وخمسين منبرا له رمانتان من الصَّنْدَل ، فنُصبَ فى موضع منبر النبى صلى الله عليه وسلم كما ذكره المطرى فمن بعده ، قال : ولم يزل يخطب عليه عشر سنين ، فلما كان فى سنة ست وستين وستمائة أرسل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى هـــذا المنبر الموجود اليوم : أى زمن المطرى ، فقلع منبر صاحب اليمن ، وحمل إلى حاصل الحرم ، ونصب هذا المنبر مكانه ، وطوله أربع أذرع فى السماء ، ومن رأسه إلى عتبته سبع أذرع يزيد قليـلا ، وعدد درجاته تسع بالمقعد .

قال المجد : وله باب بمصراعين ، فى كل مصراع رمانة من فضة ، ومكتوب على جانبه الأيسر اسم صانعه « أبو بكر بن يوسف النجار » وكان من أكابر الصالحين الأخيار ، وهو الذى قدم بالمنبر إلى المدينة ، فوضعه فى موضعه ، فأحسن وضعه ، وأتقن نجارته وصنعته ، ثم انقطع فى المدينة .

قال الزين المراغى : و بقى منبر الظاهر بيبرس يُخْطَبُ عليه من ســنة ست وستين وستمائة إلى سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، فكانت مدة الخطبة عليه مائة سنة واثنتين وثلاثين سنة ، فبدأ فيه أكل الأَرَضَة ؛ فأرسل الظاهر برقوق صاحب

مصر هذا المنبر الموجود اليوم : أى زمن المراغى ، أرسله فى آخر سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، وقلع منبر الظاهر بيبرس ، انتهى .

قلت : ولم يزل هذا المنبر موجودا إلى مابعد العشرين وثمان مائة ، كما أخبرنى به جماعة من مشايخ الحرم منهم الشيخ صالح المعمر الجمال عبد الله بن قاضى القضاة عبد الرحمن بن صالح ، قال : فأرسل سلطان مصر الملك «المؤيد شيخ» هذا المنبر الموجودَ اليوم عام اثنين وعشرين وثمان مائة .

ثم رأيت فى كلام الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر أن المنبر الموجود اليوم أرسله المؤيد سنة عشرين وثمان مائة ؛ فهذا هو المعتمد ، لكن لم يطلع ابن حجر على ماذكره المراغى من منبر الظاهر برقوق ، وجعل إتيان منبر المؤيد هذا بدلا عن منبر الظاهر بيبرس ، وكلام المراغى أولى بالاعتماد فى ذلك ؛ فإنه كان بالمدينة حينئذ ، وعلى هذا فمدة الخطبة على منبر الظاهر برقوق ثلاث أو أربع وعشرون سنة ، ثم وضع منبر المؤيد .

وأخبرنى السراج النفطى أنه صنَعَه أهلُ الشام ، وجاؤا به المؤيدَ ليجعله بمدرسته المؤيدية ، فوجدوا أهلَ مصر قد صنعوا لها منبرا ، فجهز المؤيد منبر أهل الشام إلى المدينة الشريفة ، وقال لى الجمال عبد الله بن صالح : شاهدتُ وَضْعَه موضع المنبر الذى كان قبله .

قلت : ويدل على صحة ذلك ماقدمناه من اختبار ذَرْع مابينه وبين المصلَّى الشريف ؛ إذ المنقول أن بينهما أربعة عشر ذراعاً وشبراً ، وقد اختبرتُهُ من ناحية المصلَّى الشريف إلى ماحاذاه من المنبر فى المغرب فكان كذلك ؛ فوَضْعُه من هذه الجهة صحيح لاشك فيه ، وأما من جهة القبلة فقد قال المطرى : إن المنبر الذى أدركه بينه وبين الدرابزين الذى فى قبلة الروضة مقدار أربعة أذرع وربع ذراع ، وقد ذكر الزين المراغى فى كتابه ما ذكره المطرى من الذَّرْع ، ولم يتعقبه ؛ فاقتضى أن المنبر الذى تقدم وضعه فى زمنه وضع موضع المنبر الذى كان فى زمان المطرى ، وأقر أيضا قول المطرى فى حدود المسجد أن المنبر لم يغير عن منصبه الأول .

وقد ذكر ابنُ جماعة أيضا ذَرْعَ ما بين المنبر والدرابزين ، وهو يعنى المنبر الموجود زمن المطرى ، فقال : إن بينهما ثلاثة أذْرُع بذراع العمل ، وهو أزيد مما ذكره المطرى بربع ذراع راجح ؛ لأن ذراع العمل كما تقدم ذراعٌ ونصف ، وكأنّ المطرى يعنى ذراع المدينة اليوم كما يؤخذ من كلام المراغى فيوافق كلام ابن جماعة ، والذى بين هذا المنبر الموجود اليوم و بين الدرابزين المذكور ذراعان وثلث بذراع العمل ، وذلك ثلاثة أذرع ونصف من الذراع الذى قدمنا أنه المراد عند الإطلاق ؛ فيحتمل أن يكون هذا المنبر مقدم الوضع لجهة القبلة على المنبر الذى كان قبله ، وهو مقتضى ما نقله الأثبات ، لكنى أستبعده للأخبار ممن لقيناه بوَضْعِه موضع ذاك

ثم تبين عند انكشاف الدكة التى تقدم ذكرها من آثار المنبر المحترِقِ قديما ما علمنا به صوابَ ما ذكره المطرى وغيره أن هذا المنبر مقدم الوضع على الذى قبله من جهة القبلة بما يقرب من ذراع ، وكذا ظهر زيادته من جهة الشام أيضاً على الدكة الأصلية المتقدم وصفُها بقريبٍ من ذراع ، ووجد محرفا عنها من طرفه الشامى نحو المغرب قدر شبر لما فيها من التيامن الذى تقدمت الإشارة إليه فى التنبيه الثالث من الفصل قبله ، وكنت قد أيدت وضعه بكونه أقرب إلى ماورد فيما كان بين المنبر والجدار القبلى كما سيأتى فانكشف الحق لذى عينين ، والذى لقيناهُ وأخبر بوضعه موضع المنبر الذى كان قبله هو الجمال بن صالح فى آخر عمره ، وكان غير تام الضبط حينئذٍ ، وكنت قد أيدت خبره بأنا قد قدمنا إلى الصندوق الذى فى قبلة المصلىّ الشريف فى عرض الجدار ، وأن المُصَلَّى الشريف لم يغير باتفاق ، وأن منبر النبى صلى الله عليه وسلم كان بينه وبين الجدار القبلى ممر الشاة أو ممر الرجل منحرفا ، وأقصى ماقيل فيه ذراع وشىء كما قدمناه ، فإذا أسقطت قدر ما بين طرف المصلىّ الشريف والدرابزين الذى أمامه مما بين المنبر اليوم والدرابزين المذكور وهو ثلاثة أذرع ونصف بقى ذراع ، وهو نحو القَدر المنقول فيما بين المنبر القديم وجدار المسجد

الشريف ، ثم تبين لنا ماسبق فى حدود المسجد النبوى وبانكشاف المرمر الذى فى قبلة المنبر تقدم الدرابزين المذكور عن ابتداء المسجد النبوى بأزْيَدَ من ذراع كما قدمناه فى حدود المسجد النبوى ؛ فالصواب ماذكره المطرى ومن تبعه .

وطولُ هذا المنبر فى السماء سوى قبتِهِ وقوائمها ، بل من الأرض إلى محل الجلوس ، ستة أذرُع وثلث ، وارتفاعُ الخافقتين اللتين يمينَ المجلس وشِمَالَهُ ذراع وثلث ، وامتداد المنبر فى الأرض من جهة بابه إلى مؤخره ثمانية أذرع ونصف راجحة ، وعددُ درَجه ثمانية ، و بعدها مجلسٌ ارتفاعُه نحو ذراع ونصف ، وقبته مرتفعة ، ولها هلال قائم عليها مرتفع أيضاً ، وما أظن منبرا وضع قبله فى موضعه أرفع منه ، وله باب بمصرعتين .

وقد احترق هذا المنبر فى حريق المسجد الثانى الحادث فى رمضان عام ستة وثمانين وثمان مائة ، فكانت مدة الخطبة عليه نحو سبع وستين سنة .

ولما نظف أهلُ المدينة محله جعلوا فى موضعه منبرا من آجُرٍّ مَطْلى بالنورة ، واستمر يخطب عليه إلى أثناء شهر رجب سنة ثمان وثمانين ، فهدم رابع الشهر المذكور ، وحفروا لتأسيس المنبر الرخام الموجود اليوم ظاهر الدكة المتقدم ذكرها، فوجدت على النحو المتقدم ، ونقضوا من بعضها قريب القامة فلم يبلغوا نهايتها ، ووجدوها محكمة التأسيس فى الأرض ، فأعادوها كما كانت ، إلا ما كان فوقها من نحو أزيد من نصف ذراع من الآجر ، وسَوَّوْا ما وجد مجوفا منها كالحوض بالبناء بعد وضع ما تقدم ذكره مما وجد بمقدمها من بقايا المنبر القديم المحترق فى الحريق الأول بمقدمها أيضا ، وكانوا قد سألونى عن ابتداء حد المنبر القديم من جهة القبلة والروضة فأخبرتهم بذلك ، وأن ذلك الحوض وما به من محل قوائم المنبر الأصلى إمام يقتدى به لموافقته ما ذكره المؤرخون قديما وحديثا ، فشرعوا فى وضع رخام المنبر عليهــا على سَمْت ما ظهر من الفرضة التى وجدوها فى الحوض المذكور على الاستقامة من غــير انحراف ، و بينها و بين طرف الدكة الشرقى خمسة أصابــع ،

لمـا ظهر من أن المنبر الأصلى كان بالحوض المذكور ، ومشاهدة محل قوائمه نَقْراً فى الحجر و بقـايا الرصاص الذى كانت القوائم مثبتة به ، وما وصفه المؤرخون فى أمر المنبر الأصلى شاهدٌ لذلك ، ومعلوم أن الحوض الموجود فى باطن تلك الدكة لا يمكن وَضع المنبر فيـه إلا على الاستقامة ، سيما وَقد طابقت سَـعَته ما ذكره ابن جُبَير فى سَعَة المنـبر الأصلى ، وَ إحكامُ تلك الدكة بحيث إنهم حفروا منهـا قرب القامة ، وَلم يدركوا آخرها ، وَ إتقان فرضتى الحوض المذكور بالرصاص ، وَترخيمُ تلك الدكة قديما ، كُلّهقاضٍ بجعل السلف لها من أجل وَضع المنبر فيها ، كما صرح به المؤرخون ، وَلم يكن السلف مع عظيم إتقانهم يجعلونها لوضع المنبر و يحرفونها عن وضعه ؛ لأن وضعها تابع لوضعه إذ جعلت من أجله ، وقد كان وضعه مشاهَداً لهم ؛ لوجود المنبر النبوى بين أظهرهم و إتقانها وما سبق من المتقدمين فى ذكر تَرْخيمها شاهد بعملها فى عمارة عمر بن عبد العزيز للمسجد إن لم يكن من زمن معاوية رضى الله عنه عند تحريكه المنبر كما سبق ، ولم أرْتَبْ عند مشاهدتها فى وضع المنبر بها كذلك ، وتيامُنُ حوضها الذى كان المنبر به يَسِيرٌ جدا لا يخرج صدر المستقبل عن القبلة ، وقد أشار يحيى فيما قدمناه عنـه فى التنبيه الثالث إلى تصويب وضعه ، وأيضاً فقد يكون النبى صلى الله عليـه وسلم وضَعه متيامنا لما أوضحناه فى الرسالة الموسومة بالنصيحة ، والمنبرُ جمادٌ ليس بمصل حتى يحرر أمره فى الاستقبال و يترك ما وجد من حدوده الأصلية المجمع عليها فى الأعصر الماضية المترتب عليها حدود الروضة الشريفة ، فشرعوا فى وضع رُخَام المنبر المذكور على النحو الذى ذكرته ، غـير أنهم جعلوا جداره من جهة القبلة على الأحجار التى خلف الحوض من جهة القبلة ؛ لاقتضاء نظرهم ذلك ، ولو كان لى من الأمر شىء ما وافقت عليه .

ثم وقع من بعض ذوى النفوس ما أوضحناه فى الرسالة الموسومة (بالنصيحة الواجبة القبول ، فى بيان وضع منبر الرسول) صلى الله عليه وسلم .

والحاصل أنهم نقضوا ما سبق ، وزادوا خلف أحجار الحوض المذكور نحو ربع ذراع العمل حتى ساوى ذلك محل المنبر المحترق من جهة القبلة ، وحرفوه على تلك الدكة لجهة المغرب أزيد من تحريف المنبر المحترق ، وجعلوا هذا المنبر فى محل المحترق من جهة القبلة ومساوٍ لطرفها الشرقى مما يلى القبلة أيضاً ، وزعموا أنه لا يعول على كلام من قدمناه من الأئمة ، ويتحرر مما سبق أنه مقدم على محل المنبر الأصلى لجهة القبلة بعشرين قيراطا من ذراع الحديد ، وهو نحو ذراع اليد ، وأن المنبر النبوى لم يقع فى محله تغيير إلا من تاريخ وضع المنبر المحترق فى زماننا لأنه خفى على واضعه ما فى جوف الدكة المذكورة ، ولم يدركه أحد من مؤرخى المدينة ، وكان مفرط الطول بحيث كان قاطعاً للصف الباقى من الروضة ، وقد اقتدى به واضعُ هذا المنبر لكونه من آبائه ، ولم يبال ولى الأمر بتفويته المنقبة العظيمة فى إعادة وضع منبر الرسول صلى الله عليه وسلم على ما كان عليه ، وهذا المنبر — أعنى الرخام — أقصرُ من امتداد المنبر المحترق فى الأرض بنحو ثلاثة أرباع ذراع ، وعدد درجه مع مجلسه كالمحترق ، ومحل عود المنبر الأصلى منه مما يلى الروضة وهو الذى كان بأعلاه رمانة المنبر النبوى قبل عمود هذا المنبر بأزيد من قيراط ، وذلك على نحو ذراعين وشىء من طرف المنبر المذكور من القبلة .

وقد اشتهر محله من أحجار الدكة المذكورة بسبب تحريف المنبر المذكور بحيث تغيرت حدود الروضة الشريفة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

كسوة المنبر

وفى يوم الجمعة يجعل على باب المنبر سِتْر من حرير أسود مرقوم بحرير أبيض وقد قدمنا أول مَنْ كَسَا المنبر .

وأسند ابنُ زبالة عن هشام بن عروة أن ابن الزبير كان يلبس منبر النبى صلى الله عليه وسلم القباطى فَسَرَقَت امرأة قُبْطية فقطعها ، وقال ابن النجار : ولم يزل الخلفاء إلى يومنا هذا يرسلون فى كل سنة ثوبا من الحرير الأسود له عَلَم

ذهب يُكْسَى به المنبرُ ، قال : ولما كثرت الكسوة عندهم أخذوها فجعلوها ستوراً على أبواب الحرم .

ستور الأبواب

قلت : قد استقر الأمر بعد قَتْل الخليفة المستعصم على حَمْل الكُسْوة من مصر كما قاله الزين المراغى ، قال : والأبواب مستقلة اليوم بستور ، قال : وإنما يظهرونها فى أوقات المهمات كقدوم أمير المدينة ، وذَكَرَ ما سيأتى فى كسوة الحجْرَة من وقف قرية بمصر على ذلك وعلى كسوة الكعبة الشريفة ؛ فالكعبة تكسى كلَّ عام مرة ، والحجرة والمنبر فى كل ست سنين مرة .

كسوة الحجرة

وقال المجد : والمنبر يحمل له فى كل سبعة أعوام أو نحوها من الديار المصرية كسوة معظمة ملوكية يُكْسَاهَا من الجمعة إلى الجمعة ، ورايتان سَوْدَاوان يُنْسَجَان أبدَعَ نسج يرفعان أمام وجه الخطيب فى جانبى المنبر قريباً من الباب .

قلت : فى زماننا تمضى السبع سنين والعَشْرُ وأكثر من ذلك ولا تصل كسوة ، والذى يجعل اليوم على المنبر إنما هو الستر المتقدم ذكره مع الرايتين اللتين ذكرها المجد ، والله أعلم .

الفصل الخامس

فى فضائل المسجد الشريف

قال الله تعالى «لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التقوى من أول يوم أَحَقُّ أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المتطهرين(١)» .

المسجد الذى أسس على التقوى

روينا فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت لبعض نسائه ، فقلت : يارسول الله ، أى المسجدين الذى أسس على التقوى ؟ قال : فأخذ كفا من حَصْبَاء فضرب به الأرض ، ثم قال : هو مسجدكم هذا ، لمسجد المدينة .

---

(١) من الآية ١٠٨ من سورة التوبة .

ولأحمد والترمذى من وجه آخر عن أبي سعيد : اختلف رجُلاَنِ في المسجد الذى أسس على التقوى ، فقال أحدهما : هومسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألاه عن ذلك ، فقال : هو هـذا ، وفى ذلك — يعنى مسجد قباء — خير كثيرٌ ، وأخرجه أحمد من وجه آخر مرفوعاً ، وفى العتبية عن مالك مالفظه : وقال : المسجد الذى ذكر الله عزوجل أنه أسس على التقوى من أول يوم الآية هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا ، أى مسجد المدينة ، ثم قال : أين كان يقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أليس فى هذا ؟ ويأتونه أولئك من هنالك .

وقد قال الله سبحانه وتعالى: « وإذا رأوا تجارة أولهواً انفضوا إليها وتركوك قائما »[1] فإنما هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قال عمر بن الخطاب : لولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سمعته يريد أن يقدم القبلة ، وقال عمر بيده هكذا ، ماقدمتُها ، ثم قدمها عمر موضع المقصورة الآن ، انتهى .

قال ابن رشد فى بيانه : ما ذهب إليه مالك مروى عن النبى صلى الله عليه وسلم، وذهب قوم إلى أنه مسجد قباء ، فاستدلوا بما روى أن الآية لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر الأنصار، إن الله قد أثنى عليكم خيراً ، الحديثَ ، قال : ولا دليل فيه ؛ لأن أولئك كانوا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان معمورا بالمهاجرين والأنصار ومَنْ سواهم ، قال : واستدلالُ مالك بقول عمر المتقدم ظاهرٌ؛ لأن الله تعالى لما ذكر فيه أنه أسس على التقوى لم يستجز نَقْضَ بنائه وتبديل قبلته ، إلا بما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ورآه قد أراد أن يفعله .

---

(١) من الآية ١١ من سورة الجمعة .

قلت : ما ذكره مالك من كون مسجد المدينة هو المراد هو ظاهر ماقدمناه ، لكن قوله تعالى « من أول يوم » يقضى أنه مسجد قُباء ؛ لأنه ليس المراد أول أيام الدنيا ، بل أول أيام حُلوله صلى الله عليه وسلم بدار الهجرة ، وذلك هومسجد قباء إلا أن يدعى أن النبي صلى الله عليه وسلم شرع فى تأسيس مسجد المدينة أيضاً من أول يوم قدومه لها ، أو يقال : المراد من أول يوم تأسيسه ، وسيأتى فى مسجد قُبَاء أشياء صريحة فى أنه المراد ؛ فتعين الجمع بأن كلا منهما يصدق عليه أنه أسس على التقوى من أول يوم تأسيسه كما هو معلوم ، وأنهما المراد من الآية ، لكن يشكل عليه كونُ النبي صلى الله عليه وسلم أجاب عند السؤال عن ذلك بتعيين مسجد المدينة ، وجوابه أن السر فى ذلك أنه صلى الله عليه وسلم أراد به رفع توهم أن ذلك خاص بمسجد قباء كما هو ظاهر ما فهمه السائل ، وتنويهها بمزية مسجده الشريف لمزيد فضله ، والله أعلم .

فضل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وفى الصحيحين حديثُ أبي هريرة « لا تُشَدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى » .

وعند مسلم « إنما يسافر إلى ثلاثة مساجد : الكعبة ، ومسجدى ، ومسجد إيلياء » .

وعند أبي داود بلفظ « ومسجدى هذا » .

وفى الكبير والأوسط للطبرانى برجال ثقات عن ابن عمر ، و برجال الصحيح عن أبي الجعد الضَّمْرِى « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » ، وذكر نحو رواية الصحيحين .

وفى صحيح ابن حِبَّان ومسند أحمد والأوسط للطبرانى و إسنادهُ حسنٌ من حديث جابر « خير ما رُكِبَتْ إليه الرواحِلُ مسجدى هذا والبيت العتيق » .

وهو عند البزار بلفظ « خير ما ركبت إليه الرواحل مسجد إبراهيم ومسجد محمد صلى الله عليه وسلم » ورجاله رجال الصحيح إلا عبد الرحمن بن أبي الزناد وقد وثقه غير واحد .

فضل الصلاة فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم

فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه « صَلاَةٌ فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فى ما سواه من المساجد إلا المسجدَ الحرام » هذا لفظ البخارى ، زاد مسلم « فإنى آخر الأنبياء ، وإن مسجدى آخر المساجد » .

قلت : يريد آخر مساجد الأنبياء كما نقله المحب الطبرى عن أبى حاتم ، وإلا فهو من أول مساجد هذه الأمة ، وإذا كانت الألف واللام هنا لمعهود — وهو مساجد الأنبياء — فالألف واللام أيضا فى قوله «فيما سواه من المساجد» للعهد ، والمراد مساجد الأنبياء ؛ فيتحصل من معناه أن الصلاة فى مسجده أفضل من الصلاة فى سائر مساجد الأنبياء بألف صلاة إلا المسجدالحرام ؛ فيقتضى ذلك أن تكون الصلاة بمسجده أفضل من ألف صلاة فى بيت المقدس ؛ لأنه من جملة مساجد الأنبياء ، ولم يُسْتَثْنَ ، ويدل على ذلك ما رواه البزار عن أبىسعيد قال : وَدَّعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ فقال له : أين تريد ؟ قال : أريد بيت المقدس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صلاةٌ فى مسجدى أفضلُ من ألف صلاة فى غيره إلا المسجد الحرام ، وأسنده يحيى بزيادة تسمية الرجل فقال : عن الأرقم أنه تجهز يريد بيتَ المقدسِ ، فلما فرغ من جهازه جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم يودِّعه ، وقال فيه : فجلس الأرقم ولم يخرج ، وأسنده ابن النجار عن الأرقم بلفظه : إننى أريد الخروجَ إلى بيت المقدس ، قال صلى الله عليه وسلم : ولم ؟ قلت : للصلاة فيه ، قال : ههنا أفضل من الصلاة هناك ألف مرة ، ورواه الطبرانى برجال ثقات عن الأرقم بلفظ : صلاةٌ هُهُنَا خيرٌ من ألف صلاة ثَمَّ .

وقد روى أبو يعلى برجال ثقات عن ميمونة قالت : يارسول الله أفْتِنَا فى بيتالمقدس ، قال : أرض المحشر ، وأرض المَنْشَر ، ائتُوه فصلوا فيه ، فإن صلاة فيه كألف صلاة — أى فى غيره من مساجد الأنبياء قبله ، ومساجد غير الأنبياء ماعدا المسجدين — لقيام الدليل على ذلك ؛ فتكون الصلاة بمسجد المدينة

خيرا من ألف ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام والمسجد الأقصى، فأما المسجد الأقصى فإنها أفضلُ من ألفِ صلاةٍ فيه فقط ، ولا يعلم قدر زيادتها فى الفضل على ذلك إلا الله تعالى ، ولمثل هذا تضرب آباطُ الإبل ، وتُستحق الرحلة ، ولا يعكر على ذلك مارواه أحمد برجال الصحيح عن أبى هريرة وعائشة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة فى مسجدى خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الأقصى » لأن المحفوظ إنما هو استثناء المسجد الحرام ، وحديث أبى هريرة فى الصحيح خلا قوله « إلا المسجد الأقصى » وهو مُعارَض بما تقدم ، ولأن الهيثمى أورده فى مجمع الزوائد ثم قال : رواه أحمد ، وأعاده بعد هذا بسنده فقال : إلا المسجد الحرام ، فاتّضح بذلك ما قلناه .

وأما المسجد الحرام فاختلف الناس فى معنى استثنائه ، فذهب مالك فى رواية أشهب عنه — وقاله ابن نافع صاحبه وجماعة من أصحابه — إلى أن معنى الاستثناء أن الصلاة فى مسجد الرسول أفضلُ من الصلاة فى سائر المساجد بألف صلاة، إلا المسجد الحرام فإن الصلاة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم أفضلُ من الصلاة فيه بدون الألف ، وذهب بعضُهم إلى أن الصلاة فى مسجد المدينة أفضلُ من الصلاة فى مسجد مكة بمائة صلاة ، وحمل على ذلك الاستثناء فى الحديث المتقدم ، واحتجوا برواية سليمان بن عتيق عن ابن الزبير عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه « صلاة فى المسجد الحرام خير من مائة صلاة فى ما سواه » فيأتى فضيلة مسجد الرسول عليه بتسعمائة ، وعلى غيره بألف، وتُعُقِّبَ بأن المحفوظ بالإسناد المتقدم «صلاة فى المسجد الحرام أفضلُ من ألف صلاة فيما سواه ، إلا مسجد الرسول فإنما فَضْله عليه بمائة صلاة » .

قلت : وروى الطبرانى فى الأوسط عن عائشة مرفوعا « صلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة فى غيره » لكن فيه سويد بن عبد العزيز ، قال

البخارى : فى حديثه نظر لا يحتمل ، وقد صح ما يقتضى رد ماذهب إليه هؤلاء ؛ فقد روى أحمد والبزار وابن خُزَيمة برجال الصحيح من طريق حبيبٍ المعلِّم عن عطاء عن عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة فى مسجدى هذا أفضلُ من ألف صلاة فيما سواه من المساجد ، إلا المسجد الحرام ، وصلاةٌ فى المسجد الحرام أفضلُ من مائة صلاة فى هذا » زاد ابن خزيمة « يعنى فى مسجد المدينة » لكن لفظ البزار « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه ، إلا المسجد الحرام فإنه يزيد عليه بمائة » وهى محتملة لأن يكون الضمير فى « فإنه يزيد » لمسجده أو للمسجد الحرام ، وقد صحح ابنُ عبد البر حديثَ أحمد ، وقال : هو الحجة عند التنازع ، نص فى موضع الخلاف ، قاطعٌ له عند من أُلهِمَ رشدَهُ ، ولم تمل به العصبية ، قال: ولا مَطْعَنَ فيه إلا لمتعسف لا يُعَرِّجُ على قوله فى حبيب ، وقد كان الإمام أحمد يمدحه ، ويوثقه ، ويثنى عليه ، وكان عبد الرحمن بن مَهْدِى يحدث عنه ، ولم يروعنه القطان ، وروى عنه أئمة ثقات يُقْتَدَى بهم ، ومنهم مَنْ أعلَّه باختلاف على عطاء ؛ لأن قوما يروونه عنه عن ابن الزبير ، وآخرين يروونه عنه عن ابن عمر ، وآخرين عنه عن جابر ، ومن العلماء مَنْ يجعل مثل هذا علةً فى الحديث ، وليس كذلك ؛ لأنه يمكن أن يكون عن عطاء عنهم ، والواجبُ أن لايُدْفَعَ خبرٌ نقله العدول إلا بحجة .

قال البزار : هذا الحديث قد روى عن عطاء ، واختلف على عطاء فيه ، ولا نعلم أحداً قال بأنه يزيد على مسجد المدينة مائة إلا ابن الزبير ، وقد تابع حبيبا المعلم الربيعُ بن صُبَيح ؛ فرواه عن عطاء عن ابن الزبير ، ورواه عبد الملك ابن أبى سليمان عن عطاء عن ابن عمر ، ورواه ابن جُرَيج عن عطاء بن أبى سلمة عن أبى هريرة أو عائشة ، ورواه ابن أبى ليلى عن عطاء عن أبى هريرة ، انتهى .

وقال الذهبى فى مختصر سنن البيهقى : إسناده صالح، ولم يخرجه أصحاب السنن.

قلت : هذا أمر آخر ، وهو أن الحديث المذكور لما اختلف لفظه على وجهين أحدهما ليس نصا فى الدلالة كما قدمناه احتمل أن تكون الرواية فى الواقع به ، ومَنْ رواه بالوجه الآخر رواه بالمعنى بحسب فهمه ، إلا أن وروده من الطرق الأخرى بذلك اللفظ تُوهِنُ هذا الاحتمالَ ، وعلى تقدير ثبوته فهو من ابن الزبير، وهو أعرف بذهم مَرْوِيه ؛ لأن عبد الرزاق روى عن ابن جريج قال : أخبرنى سليمان بن عتيق وعطاء عن ابن الزبير أنهما سمعاه يقول « صلاة فى المسجد الحرام خير من مائة صلاة فيه » ويشير إلى مسجد المدينة ، وقد قال ابنُ عبد البر : إن رجال إسناد حديث ابن عمر علماء أجلاء ، ورواه ابن وضاح عن ابن الزبير من كلام عمر بن الخطاب بنفسه ، قال ابن حزم : وسندُه كالشمس فى الصحة، وروى ابن أبى خيثمة عن أبيه حدثنا مسلم عن الحجاج عن عطاء عن عبد الله بن الزبير قال : الصلاة فى المسجد الحرام تَفْضُلُ على مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بمائة ضعف ، قال : فنظرنا فإذا هى تَفْضُلُ على سائر المساجد بمائة ألف صلاة ، قال ابن عبد البر وابن حزم : فهذان صحابيان جليلان يقولان بفضل المسجد الحرام على مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا مخالف لهما من الصحابة ؛ فصار كالإجماع منهم على ذلك .

وفى ابن ماجة من حديث جابر مرفوعا « صلاة فى مسجدى أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه » وفى بعض النسخ « من مائة صلاة فيما سواه » فعلى الأول معناه فيما سواه إلا مسجد المدينة ، وعلى الثانى معناه من مائة صلاة فى مسجد المدينة لما تقدم عن جابر .

قلت: وقد روى يحيى حديث الصحيحين المتقدم عن جبير بن مطعم بلفظ « إن صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد غير الكعبة » وفى رواية النسائى وغيره « إلا مسجد الكعبة » ولهذا ذهب بعضهم إلى أن المراد من المسجد الحرام الكعبة ، وبه قال العمرانى من أصحابنا وغيره،

وروى البزار عن عائشة حديث « أنا خاتم الأنبياء ، ومسجدى خاتم مساجد الأنبياء ، أحق المساجد أن يزار وتُشَد إليه الرواحل المسجدُ الحرام ومسجدى ، وصلاة فى مسجدى أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام »

وروى ابن ماجة مرفوعاً برجال ثقات إلا أبا الخطاب الدمشقى فهو مجهول « صلاة الرجل فى بيته بصلاة ، وصلاته فى مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة ، وصلاته فى المسجد الذى يجمع فيه بخمس مائة صلاة ، وصلاته فى المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة ، وصلاة فى مسجدى بخمسين ألف صلاة ، وصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة » وهو يقتضى أن الصلاة بمسجد المدينة مساوية لمسجد بيت المقدس ، وأنهما معا على النصف من الصلاة بالمسجد الحرام ، وهو مخالف لما فى الصحيح، مع أن مفهوم العدد ليس بحجة؛ فلا ينفى ما ثبت من الزيادة لمسجد المدينة على مسجد بيت المقدس سيما بالطريقة التى قدمناها

وفى الطبرانى — وهو حسن ، وفى بعض رجاله كلام — عن أبى الدرداء مرفوعا « الصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ، والصلاة فى مسجدى بألف صلاة ، والصلاة فى بيت المقدس بخمسمائة صلاة » ورواه ابنُ خزيمة فى صحيحه بنحوه ، والبزار وحَسَّنه ، وقال المجد : أخرجه الترمذى وقال : حسن غريب ، قال : ولا نعلم حديثا يشتمل على فضيلة الصلاة بالمساجد الثلاثة خصوصا[١] سواه مما يصح عند الاعتبار معناه

قلت : لم أره فى الترمذى ، وقد ساقه ابن عبد البر محتجا به ، وهو غير مانع مما قدمناه من كون الصلاة بمسجد المدينة أفضل من ألف صلاة بمسجد بيت

---

(١) المساجد الثلاثة: هى الأقصى، ومسجد المدينة ، والمسجد الحرام ، و «خصوصا» أراد به بيان فضل الصلاة فى كل مسجد منها على انفراده من غير أن يذكر زيادة الصلاة فيه على الصلاة فى غيره من المساجد .

المقدس ؛ لأن العدد لا ينفى الزائد ، وكذا حديث الأوسط للطبرانى برجال الصحيح عن أبى ذر : تذاكرنا ونحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أيّما أفضلُ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بيت المقدس ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من أربع صلوات فيه ، ولنعم المصلَّى هو » وقد يقال فى ذلك كما قيل فى نظائره من احتمال أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أولا ببعض ذلك بحسب ما أوحى إليه ، ثم أعلم بالزيادة ، ويكون حديث الأقل قبل حديث الأكثر ، ثم تفضل الله بالأكثر شيئاً بعد شيء ، ومحصله ما قررناه من الأخذ بالزائد ، ويحتمل أن ينزل تلك الأعداد على اختلاف الأحوال[1] ؛ فالحسنة بعشر أمثالها إلى غير نهاية

ونقل الزركشى فى أعلام المساجد عن الكبير للطبرانى بسند فيه مُقَاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة فى مسجدى هذا بعشرة آلاف صلاة ، وصلاة فى المسجد الحرام بعشرة أمثالها مائة ألف صلاة ، وصلاة الرجل فى بيت المقدس بألف صلاة ، وصلاة الرجل فى بيته حيث لا يراه أحد أفضل من ذلك كله »

هل فضل الصلاة فى المساجد الثلاثة يختص بالفرض ؟

قلت : وهو ضعيف ، ولم يورده الهيثمى فى مجمعه[2] فى فضل الصلاة فى المساجد الثلاث

وهذه المضاعفة المذكورة فى هذه المساجد لا تختص بالفريضة ، بل تعم الفرض والنفل ، كما قال النووى فى شرح مسلم إنه المذهب

قال الزركشى : وهو لازم تعليل الأصحاب استثناء النفل بمكة فى الأوقات المكروهة بمزيد الفضيلة

وقال الطحاوى من الحنفية : هو مختص بالفرض ، وفعل النوافل بالبيت

---

(١) اختلاف الأحوال : أى أحوال الناس من احتمال المشقة الشديدة ، والإخلاص فى العمل ، وطهارة الظاهرة والباطن من الدنيا وعلائقها

(٢) مجمعه : هو مجمع الزوائد لابن حجر الهيتمى

أفضل ، وإليه ذهب ابنُ أبي زيد من المالكية ، وهو المرجح عندهم ، وفرق بعضهم بين أن يكون المسجد خاليا أم لا

فإن قيل : كيف تقولون إن المضاعفة تعم الفرض والنفل وقد تطابقت الأصحاب ونص الحديث الصحيح على أن فعل النافلة فى بيت الإنسان أفْضَلُ ؟

قلنا : لا يلزم من المضاعفة فى المسجد أن يكون أفضلَ من البيت كما قاله الزركشى وغيره ، وغاية الأمر أن يكون فى المفضول مزية ليست فى الفاضل ، ولا يلزم من ذلك جعله أفضل ؛ فان للأفضل مزايا إن كان للمفضول مزية ، ولهذا بحث التاج السبكى مع أبيه فى صلاة الظهر بمنى يوم النحر إذا جعلنا منًى خارجة عن محل المضاعفة: هل يكون أفضل من صلاتها فى المسجد لأنه صلى الله عليه وسلم فعلها بمنى يومئذ أو فى المسجد للمضاعفة ؟ فقال والده : بل فى منًى وإن لم يحصل بها المضاعفة ؛ فإن فى الاقتداء بأفعال النبى صلى الله عليه وسلم مايَرْبُو على المضاعفة ، على أن الحافظ ابنَ حَجَر ذكر ما يقتضى إثبات المضاعفة للتنفل فى البيوت بالمدينة ومكة ، عملا بعموم قوله صلى الله عليه وسلم «أفضل صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة » فقال : وقد تقدم النقل عن الطحاوى وغيره أن ذلك ــ يعنى التضعيف ــ مختصٌّ بالفرائض ؛ لحديث « أفضل صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة » ويمكن أن يقال : لا مانع من إبقاء الحديث على عمومه ؛ فتكون النافلة فى بيت بالمدينة أو مكة تضاعف على صلاتها فى البيت بغيرهما ، وكذا فى المسجدين ، وإن كانت فى البيوت أفضل مطلقا

مرجع مضاعفة فضل الصلاة

ثم إن التضعيف المذكور يرجع إلى الثواب بتلك الأعداد ، لا إلى الإجزاء ، باتفاق العلماء كما نقله النووى وغيره ؛ فلو كانت عليه صلوات فصلى فى أحد المسجدين صلاة لم تُجْزِه إلا عن واحدة ، وقد أوهم كلام أبي بكر النقاش فى تفسيره

خلاف ذلك ؛ فإنه قال : حسبت الصلاة فى المسجد الحرام فبلغت صلاة واحدة بالمسجد الحرام عمر خمسة وخمسين سنة وستة أشهر وعشرين ليلة ، اه . وهذا مع قطع النظر عن التضعيف بالجماعة والسواك ونحوه، لكن هل تجمع التضعيفات أولا؟ محل بحث

هل يختص التضعيف بالصلاة ؟

قلت : وينبغى أن لا يختص هذا التضعيف بالصلاة ، بل سائر أنواع الطاعات كذلك قياسا على ما ثبت فى الصلاة ، كما صرحوا به فى مسجد مكة المشرفة ، وصرح به فيما يتعلق بالمدينة صاحبُ الانتصار أبو سليمان داود من المالكية ، ثم رأيته فى كلام الغزالى فى الإحياء كما قدمناه فى فضل الخصائص ، ويشهد له ما فى الكبير للطبرانى عن بلال بن الحارث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رمضانُ بالمدينة[1] خير من ألف رمضان فيما سواها من البلدان ، وجمعة بالمدينة خير من ألف جمعة فيما سواها من البلدان » ونقل المجد عن أبى الفرج الأموى أنه أخرجه بسنده عن ابن عمر

قلت : ورواه ابن الجوزى فى شرف المصطفى عن ابن عمر أيضا بلفظ « صيام شهر رمضان بالمدينة كصيام ألف شهر فيما سواها ، وصلاة الجمعة بالمدينة كألف صلاة فيما سواها »

وروى البيهقى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، والجمعة فى مسجدى هذا أفضل من ألف جمعة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وشهر رمضان فى مسجدى هذا أفضل من ألف شهر رمضان فيما سواه إلا المسجد الحرام » ورواه أيضا عن ابن عمر بنحوه

---

(١) المراد صيام رمضان كما ورد فى الحديث الآخر الذى سيرويه المؤلف بعد هذا بقليل ؛ فالكلام على حذف مضاف ، وكذلك قوله « وجمعة » المراد به « صلاة الجمعة » إلا أن يراد بلفظ الجمعة صلاتها؛ فإن أريد به ذلك لم يحتج إلى تقدير المضاف .

وهذه الأحاديث وإن كانت ضعيفة فإذا ضمت إلى ما قدمناه من القياس على الصلاة ثم الاستدلال ، وقد قدمنا فى حدود مسجده صلى الله عليه وسلم الخلافَ المذكور فى المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « صلاة فى مسجدى هذا » ، وترجيح أن ذلك يتناول ما زيد فيه .

وروى أحمد والطبرانى فى الأوسط ورجالُه ثقاتٌ عن أنس بن مالك حديث « من صلى فى مسجدى أربعين صلاة » زاد الطبرانى « لا تفوته صلاة كتب له براءة من النار ، وبراءة من العذاب ، وبرىء من النفاق » . تقدم هذا الحديث بدون زيادة الطبرانى ، وهو عند الترمذى بغير هذا اللفظ .

وروى ابن المنذر وابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن من حين يخرج أحدكم من منزله إلى مسجدى فَرِجْلٌ تَكتُبُ حسنة وَرِجْلٌ تحطُّ عنه خطيئة » .

وقال البيهقى بعد ذكر حديث فضل مسجد قُبَاء ما لفظه : ورواه يوسف بن طهمان عن أبى أمامة بن سهل عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وزاد « ومن خرج على طهر لا يريد إلا مسجدى هذا — يريد مسجد المدينة — ليصلى فيه كانت بمنزلةِ حجة » وقد أسند ذلك ابن زبالة ومن طريقه ابن النجار عن سهل أيضاً ، وفى إسناده ابن طهمان أيضاً ، وهو ضعيف عند البخارى وابن عَدِىّ ، وذكره ابن حبان فى الثقات ، ولفظ ابن زبالة « مَنْ خرج على طهر لا يريد إلا الصلاة فى مسجدى حتى يصلى فيه كان بمنزلة حجة » وأسند هو ويحيى عن سهل بن سعد حديث « مَنْ دخل مسجدى هذا يتعلم فيه خيراً أو يعلمه كان بمنزلة المجاهد فى سبيل الله ، ومن دَخله لغير ذلك من أحاديث الناس كان كالذى يرى ما يعجبه وهو لغيره » وفى رواية لهما عن عبد العزيز بن أبى حازم عن أبيه « مَنْ دخل مسجدى هذا لا يدخله إلا ليعمل خيراً أو يتعلمه كان بمنزلة المجاهد

فى سبيل الله ، ومن دخله لغير ذلك من أحاديث الناس كان بمنزلة من يرى ما يعجبه وهو فى يَدَىْ غيره » .

وروى ابن ماجة عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ جاء مسجدى هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد فى سبيل الله ، ومن جاءه لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره » ورواه الطبرانى من حديث سعد مرفوعاً بمعناه ، إلا أنه قال « من دخل مسجدى ليتعلم خيراً أو ليعلمه » ورواه ابن حِبان فى صحيحه بلفظ الطبرانى لـكن من حديث أبى هريرة .

وأسند ابن زبالة عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دخل مسجدى هذا لصلاة أو لذكر الله أو يتعلم خيراً أو يعلمه كان بمنزلة المجاهد فى سبيل الله » ولم يجعل ذلك لمسجد غيره ، وعند يحيى أيضاً عن كعب أنه قال « ما من مؤمن يغدو أو يروح إلى المسجد لا يغدو أو لا يروح إلا ليتعلم خيراً أو يعلمه أو يذكر الله أو يذكِّرَ به إلا كان مَثَـلُه فى كتاب الله كمثل الجهاد فى سبيل الله ، وما من رجل يغدو أو يروح إلى المسجد لا يغدو ولا يروح إلا لأخبار الناس وأحاديثهم إلا كان مثله فى كتاب الله كمثل الرجل يرى الشىء يعجبه ويرى المصلين وليس منهم ، ويرى الذاكرين وليس منهم » ، وعنده أيضاً عن أبى سعيد المَقْبُرِى عن الثقة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا إخال إلا أن لـكل رجل منكم مسجداً فى بيته » قالوا : نعم يا رسول الله ، قال « فوالله لو صليتم فى بيوتكم لتركتم مسجد نبيكم ، ولو تركتم مسجد نبيكم لتركتم سننه ، ولو تركتم سننه إذاً لضللتم » .

وفى الصحيح من حديث ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى غزوة خيبر « مَنْ أكل من هذه الشجرة — يعنى الثوم — فلا يقربَنَّ مسجدنا » .

قال الكرمانى : قال التيمى : قال بعضهم : النهىُ إنما هو عن مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة ، من أجل ملائكة الوَحْيِ ، والأكثر على أنه عام ، انتهى . وقد حكى ابن بَطَّال القولَ بالاختصاص عن بعض أهل العلم ووَهَّاه[1] ، والله أعلم .

الفصل السادس

فى فضل المنبر المنيف ، والروضة الشريفة

روينا فى الصحيحين حديثَ عبد الله بن زيد المازنى رضى الله عنه « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » زاد البخارى من حديث أبى هريرة ، « ومنبرى على حَوْضِي »

وروى أحمد وأبو يعلى والبزار وفيه على بن زيد وقد وثق عن جابر بن عبد الله مرفوعا « ما بين بيتى إلى منبرى روضة من رياض الجنة ، وإن منبرى على تُرْعَة من تُرَعِ الجنة».

وروى أحمد برجال الصحيح عن سَهْل بن سعد مرفوعا « منبرى على ترعة من ترع الجنة » وفيه تفسير الترعة بالباب ، وقيل : الترعة الروضة تكون على المكان المرتفع خاصة ، وقيل : الدرجة .

ورواه يحيى عن أبى هريرة وغيره بلفظ « على رتْعَةٍ من رتع الجنة » وكذا هو فى رواية لرزين ، وظنه بعضهم تصحيفا فكتب فى هامشه « صوابه ترعة » وليس كذلك، بل معناه صحيح؛ إذ الرتع الاتساع فى الخصب،والرَّتْعَةُ ـ بسكون التاء وفتحها ـ الاتساع فى الخصب ، وكل مخصب مرتع .

وفى الحديث : « إذا مررتم برياض الجنة فارْتَعُوا » ، وروى البزار عن معاذ ابن الحارث نحوه .

---

(١) وهاه : جعله واهياً أى ضعيفاً .

وفي الكبير للطبراني من طريق يحيى الحماني وهو ضعيف عن أبي واقد الليثي مرفوعا « قوائم منبري رَوَاتِبُ في الجنة » ورواه ابن عساكر وابن النجار ويحيى عن أم سلمة ، وقال المجد: أخرجه عنها النسائي ، وفي رواية لابن عساكر « وضعت منبري هذا على تُرْعةٍ من تُرَعِ الجنة ».

وأسند يحيى عن أبي المعلى الأنصاري وكانت له صحبة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر « إن قدمي على ترعة من ترع الجنة » .

وعن أبي سعيد الخدري : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على منبره « أنا قائم الساعةَ على عقر حوضي[1] » وفي رواية له « إني على الحوض الآن » .

وأسند ابن زبالة عن نافع بن جبير عن أبيه حديث « أَحَدُ شِقَّي المنبرِ على عقر الحوض، فمن حلف عنده على يمين فاجرة يقتطع بها حق أمرئ مسلم فليتبوأ مقعده من النار » قال : وعقر الحوض من حيث يصب الماء في الحوض .

وفي سنن أبي داود من حديث جابر مرفوعا « لا يحلف أحد عند منبري هذا على يمين آثمة ولو على سواك أخضر إلا تَبَوَّأ مقعده من النار ، أو وجبت له النار » ، ورواه ابن خُزَيمة وابن حبان والحاكم وصححوه .

وروى النسائي برجال ثقات عن أبي أمامة بن ثعلبة مرفوعا « مَنْ حلف عند منبري هذا يميناً كاذبة استحَلَّ بها مالَ امرىء مسلم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صَرْفاً ولا عدلا » .

وفي الأوسط للطبراني وفيه ابن لَهِيعَةَ عن أبي سعيد الخدري مرفوعا « منبري على تُرْعَة من تُرَعِ الجنة ، وما بين المنبر و بيت عائشة روضة من رياض الجنة » .

وفي الصحيحين حديث ابن عمر « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة » .

---

(١) عقر الحوض : المكان الذي منه يصب الماء في الحوض ، وسيفسره بذلك المؤلف في الحديث التالي ، وسيفسر عقر الحوض بمؤخره في ص ٤٢٩ .

وروى أحمد برجال الصحيح عن أبى هريرة وأبى سعيد حديثَ « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ، ومنبرى على حوضى » .

وروى البزار برجال ثقات عن سعد بن أبى وَقَّاص حديثَ « مابين بيتى ومنبرى ، أو قبرى ومنبرى ، روضة من رياض الجنة » وفى الأوسط للطبرانى وفيه متروك عن أنس بن مالك حديث «مابين حُجْرَتى ومُصَلاَّىَ روضة من رياض الجنة » وفى رواية لابن زبالة من طريق عائشة بنت سعد عن أبيها « مابين منبرى والمصلى » وفى رواية «مابين مسجدى إلى المصلى روضة من رياض الجنة» ورواه أبو طاهر بن المخلص فى انتقائه ويحيى فى أخبار المدينة بلفظ «مابين بيتى ومُصَلاَّىَ روضة من رياض الجنة» قال جماعة : المراد به مصلى العيد ، وقال آخرون : مُصَلاَّهُ الذى يصلى فيه فى المسجد ، كذا قاله الخطابى .

قلت: ويؤيد الأول أن فى النسخة التى رواها طاهر بن يحيى عن أبيه يحيى عقب الحديث المذكور ما لفظه : قال أبى: سمعت غير واحد يقولون : إن سعدا لما سمع هذا الحديث من النبى صلى الله عليه وسلم بَنَى داره فيما بين المسجد والمصلى ، وكذا ما سيأتى فى مصلى العيد من رواية ابن شبة عن عائشة بنت سعد بن أبى وقاص .

قلت : وهو شاهد لما سيأتى من عموم الروضة لجميع مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، ولما زيد فيه من جهة المغرب .

وروى عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند برجال الصحيح إلا أن فيهم فليحا — وقد روى له الجماعة، وقال الحاكم : اتفاقُ الشيخين عليه يقوى أمره، وقال الساجى : ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال الدارقطنى : فليح يختلفون فيه ، وقال بعضهم : إنه كثير الخطأ — عن عبد الله بن زيد المازنى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مابين هذه البيوت — يعنى بيوتَهُ — إلى منبرى روضةٌ من رياض الجنة ، والمنبر على تُرْعَة من تُرَعِ الجنة » .

معنى كون المنبر على الحوض

وقد اختلف فى معنى ذلك؛ فقال الخطابى: معنى قوله «ومنبرى على حوضى» أن قصد منبره والحضور عنده لملازمة الأعمال الصالحة يورد الحوض ويوجب الشرب منه، وهذا قول الباقى، والثانى: أن منبره الذى كان يقوم عليه صلى الله عليه وسلم يُعِيدُهُ اللهُ كما يعيدُ سائرَ الخلائقِ، ويكون على حوضه فى ذلك اليوم، واعتمد ذلك ابن النجار، وحكى ابن عساكر القولَ بأن المراد منبره بعينه الذى كان فى الدنيا، ثم قال: وهو أظهر، وعليه أكثر الناس، فتبع شيخه ابن النجار فى ذلك، والثالث أن المراد منبر يخلقه الله تعالى له فى ذلك اليوم، ويجعله على حوضه.

قلت: ويظهر لى معنى رابع، وهو أن البقعة التى عليها المنبر تعاد بعينها فى الجنة، ويعاد منبره ذلك على هيئة تناسب ما فى الجنة؛ فيجعل المنبر عليها عند عُقْرِ الحوض، وهو مؤخره، وعن ذلك عبر بترعة من ترع الجنة، وذكر النبى صلى الله عليه وسلم ذلك لأمته للترغيب فى العمل فى هذا المحل الشريف ليُفْضِى بصاحبه إلى ذلك، وهذا فى الحقيقة جمع بين القولين الأولين، وسيأتى فى الزيارة ما ذكره ابن عساكر من أن الزائر يأتى المنبر الشريف، ويقف عنده، ويدعو

معنى أن الروضة من رياض الجنة

واختلفوا أيضاً فى معنى ما جاء فى الروضة الشريفة، قال الحافظ ابن حجر: محصل ما أول به العلماء ذلك أن تلك البقعة كروضة من رياض الجنة فى نزول الرحمة وحصول السعادة بما يحصل فيها من مُلَازمة حِلَقِ الذكر، لا سيما فى عهده صلى الله عليه وسلم؛ فيكون مجازا، أو المعنى أن العبادة فيها تُؤَدِّى إلى الجنة، فيكون مجازاً أيضا، أو هو على ظاهره، وأن المراد أنها روضة حقيقية بأن ينقل ذلك الموضع إلى الجنة؛ ثم قال: وهذه الأقوال على ترتيبها هذا فى القوة، وهو محتمل لتقوية الأول أو الأخير، والأخير أقواها عندى، وهو الذى ذهب إليه ابن النجار، ونقله البرهان ابنُ فرحون فى منسكه عن ابن الجوزى وغيره عن مالك، فقال: وقوله «ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة» حمله مالك رحمه الله على ظاهره، فنقل عنه ابن الجوزى وَغيره أنها روضة من رياض الجنة تنقل إلى الجنة، وأنها ليست

كسائر الأرض تذهَبُ وتَفْنَى ، ووافقه على ذلك جماعة من العلماء ، انتهى ونقله الخطيبُ ابن حملة عن الداروردى ، وصححه ابن الحاج فى مدخله ؛ لان العلماء فهموا من ذلك مزية عظيمة لهذا المحل

ثم رأيت فى كلام الحافظ ابن حجر ترجيحَه فى موضع آخر ، فقال فى الكلام على الحوض : والمرادُ بتسمية ذلك الموضع روضة أن تلك البقعة تنقل إلى الجنة فتكون روضة من رياضها ، أو أنها على المجاز لكون العبادة فيه تؤولُ إلى دخول العابد روضة الجنة ، ثم قال : وهذا فيه نظر ؛ إذ لا اختصاص لذلك بتلك البقعة ، والخبر مَسُوق لمَزيد شرف تلك البقعة على غيرها ، انتهى

قلت: وأحْسَنُ من ذلك ماذهب إليه ابن أبى جَمْرَةَ من الجمع بين هذا وما قبله ، ومنه استنبطنا ما قدمناه فى أمر المنبر ؛ فإنه لم يُعَوِّل على ذكر المعنى الأول وقال بعد ذكر المعنيين الأخيرين : الأظهر — والله أعلم — الجمعُ بين الوجهين ؛ لأن لكل منهما دليلا يُعَضِّده(١) ، أما الدليلُ على أن العمل فيها يوجب الجنة فلما جاء فى فضْل مسجدها من المضاعفة ، ولهذه البقعة زيادة على باقى بُقَعِهِ ، وأما الدليل على كونها بعينها فى الجنة فلإخباره صلى الله عليه وسلم بأن المنبر على الحوض ، لم يختلف أحَد من العلماء أنه على ظاهره ؛ وأنه حق محسوس موجود على حوضه .

قلت : وفيه نظر ؛ لما قدمناه

قال: وقد تقرر فى قواعد الشرع أن البُقع المباركة مافائدة بركتها لنا والإخبار بذلك إلا تعميرها بالطاعات؛ قال: ويحتمل وجها ثالثا؛ وهو أن تلك البقعة نفسها روضة من رياض الجنة كما أن الحجر الأسود من الجنة ؛ فيكون الموضع المذكور روضة من رياض الجنة الآن ؛ ويعود روضة فى الجنة كما كان ؛ ويكون للعامل بالعمل فيه روضة فى الجنة ؛ قال : وهو الأظهر ؛ لعلو مكانته عليه السلام ؛ وليكون بينه

---

(١) يعضده : يقويه ويؤيده .

و بين الأبوة الإبراهيمية فى هذا شبه ، وهو أنه لما خص الخليل بالحَجَر من الجنة خص الحبيب بالروضة منها .

قلت : وهو من النفَاسة بمكان ، وفيه حمل اللفظ على ظاهره ؛ إذ لا مقتضى لصَرْفه عنه ، ولا يقدح فى ذلك كونُها تُشَاهَد على نسبة رياض الدنيا فإنه مادام الإنسان فى هذا العالم لا ينكشف له حقائق ذلك العالم لوجود الحُجب الكثيفة والله أعلم .

وتخصيص ما أحاطت به البَيْنِيَّةُ المذكورة بذلك إما تعبد وإما لكثرة تردده صلى الله عليه وسلم بين بيته ومنبره وقرْب ذلك من قبره الشريف الذى هو الروضة العظمى كما أشار إليه ابنُ أبى جَمْرَة أيضا .

وقال الجمال محمد الراسانى الريمى : اتفقوا على أن هذا اللفظ معقول المعنى ، مفهوم الحِكْمَة ، و إنما اختلفوا فى ذلك المعنى ماهو ، فقيل : اللفظ على حقيقته ، و إن ذلك روضة من رياض الجنة بمعنى أنه بعينه نُقِل من الجنة ، أو أنه سينقل إليها ، وقيل: مجاز معناه أن العبادة فيه تُؤَدِّى إلى الجنة ، أولما ينزل فيه من الرحمة وحصول المغفرة ، كما سمى مجالس الذكر رياض الجنة فى حديث « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا[1] » وفى رواية لأبى هريرة « قلت : ما رياض الجنة ؟ قال : المساجد ، قلت : وما الرتع ؟ قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر » .

وقال ابن عبد البر : لما كان صلى الله عليه وسلم يجلس فى ذلك الموضع ويجلس الناسُ إليه للتعلم شَبَّهه بالروضة؛ لكريم مايجتنى فيه ، وأضافها إلى الجنة لأنها تؤول إلى الجنة ، كقوله « الجنة تحت ظلال السيوف » أى أنه عمل يُدْخِلُ الجنةَ .

وقال الخطابى : روضة من رياض الجنة بالطاعة فيه ، كقوله « عائد المريض

(١) قال ابن الأثير (النهاية : ٢/٦٤) « ومنه الحديث إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، أراد برياض الجنة ذكر الله ، وشبه الخوض فيه بالرتع فى الخصب » اهـ .

فى مَخْرَفَةِ الجنة(١) » أى يرجى له بذلك مخرفة الجنة؛ فأطلق اسم المسبب على سببه كقوله « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

هذا ما نقله الخطيب ابن حملة من المعانى ، ثم تعقب الأخير بأنه لا يبقى حينئذ لهذه الروضة مزية ، وقد فهم الناس من ذلك المزية العظيمة التى بسببها فضلها مالك على سائر البقاع

وقد تعقب الجمالُ الريمى الخطيب فى ذلك ، وقال : أظهر المعانى تضعيف أجر الطاعات ، وتعليم الناس وجوه الخير ؛ لاتفاق الخطابى وابن عبد البر عليه ، وهما عمدة الأمة فى فقه الحديث ، ولأن النظائر تؤيده ، وأما المعنَيَانِ الآخَرَان فلم يعزُهما الخطيبُ إلى أحد ، فدلّ على ضعفهما ، ولم يذكر عياضٌ القولَ بأن هذا الموضع بعينه نقل من الجنة ، وذكر ما عداه ، فدل على شذوذه ؛ لأن مثل هذا طريقه التوقيفُ كما جاء فى الركن والمقام ، على أن القول به يؤدى إلى إنكار المحسوسات أو الضروريات ، وجواب ما ذكره الخطيب أن المزية ظاهرة ، وهو أن العمل فى النظائر المتقدمة يؤدى إلى رياض الجنة ، والعمل فى هذا المحل يؤدى إلى روضة أعلى من تلك الرياض .

قلت : إنما حَمَله على هذا ذهابُه إلى أن اسم الروضة يعم جميع مسجده صلى الله عليه وسلم، وأنه إذا ثبت لما زِيدَ فيه حكمُ المضاعفة تعدى ذلك إليه، فاختار كون التسمية بذلك مجازية ، ووضع فى ذلك كتاباً سماه « دلالات المسترشد ، على أن الروضة هى المسجد » وقد صنف الشيخ صفى الدين الكازرونى المدنى مصنفاً فى الرد عليه ، وقد لخصتهما مع سلوك طريق الإنصاف بينهما فى كتابى الموسوم « بدفع التعرض وَالإنكار ، لبسط رَوْضة المختار » وَسنذكر الصوابَ فى ذلك، وَاستدلالُه على ضعف القول بأن ذلك الموضع بعينه نقل من الجنّة بأن عياضا لم يذكره عجيبٌ لاحتمال أنه لم يَطلع عليه ، وقوله « إن ذلك طريقهُ التوقيف

(١) فى النهاية « عائد المريض على مخارف الجنة حتى يرجع » والمخارف : جمع مخرف أو مخرفة ـ بفتح الراء فيهما ـ وهو الحائط من النخل : أى أن العائد فيما يحوز من الثواب كأنه على نخل الجنة يخترف ثمارها ، وقيل : المخارف جمع مخرفة ، وهى سكة بين صفين من نخل يجتنى من أيهما شاء .

كما جاء فى الركن » فنقول : أى توقيف أعظم من إخبار الصادق المصدوق بذلك ؟ وهو المخبر بأمر الركن والمقام ، والأصلُ فى الإطلاق الحقيقة ، فكيف سَلَّمه فى الركن والمقام ولم يسلمه هنا ؟ والذى فهمه العلماء من الحديث أن هذا الموضع روضة ، سواء كان به ذاكرون ومصلون أم لم يكن ، بخلاف حِلَقِ الذكر مثلا ، فإن ذلك يزول عنها بقيامهم ، فالروضة ماهم فيه بخلاف هذه ، ولهذا فسر الرَّتْعَ هناك بالذكر ، والمراد فى حديث « الجنة تحت أقدام الأمهات » أن لزوم خدمتهن تؤدى إليها ، وقوله « إن القول بذلك يؤدى إلى ماذكره » عجيبٌ ، وقد قدمنا السبب المانع من شهود ذلك على حقيقته ، وأى حُسْن أحْسَن من القول بأن ذلك روضة من الجنة أكرم الله به نبيه ؟ ويؤيده أحاديثُ المنبر المتقدمة وماسيأتى فى أُحُدٍ وعَيْرٍ ؛ إذ لم يقل أحد إن المراد أن المتعبد عند أُحُدٍ يُفْضِى به ذلك إلى الجنة ، والمتعبد عند عَيْرٍ يفضى به ذلك إلى النار ، وأما قوله فى بيان المزية « إن العمل فى ذلك المحل يؤدى إلى روضة أعلى » فليس فى الحديث وصفه بأنه أعلى الرياض ، بل أطلق ذلك ، فإذا ثبت ذلك لغيره فلا خصوصية ، بل قد يقول الذاهب إلى تفضيل مكة : إن العمل فيها يؤدى إلى روضة أعلى وأفضل ، ولظهور مزية تلك البقعة على غيرها بذلك استدل به بَعْضُ الأئمة على تفضيل المدينة على مكة بإضافة حديث « لَقَابُ قوسٍ[1] أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما فيها » وتعقبه ابن حزم بأن جعلها من الجنة إنما هو على سبيل المجاز ، إذ لو كانت حقيقة لكانت كما وصف الله الجنة « إنَّ لَكَ أَنْ لاَّ تَجُوعَ فِيها وَلاَ تَعْرَى » قال : وإنما المراد أن الصلاة فيها تؤدى إلى الجنة كما يقال فى اليوم الطيب : هذا يومٌ من أيام الجنة .

قلت : لايلزم من ثبوت عدم الجوع والعُرْيِ لمن حل فى الجنة ثبوتُه لمن حل

(١) قاب القوس : مقداره ، وفى القرآن الكريم : (ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى)

فى شىء أخرج منها ؛ إذ يلزمه أن ينفى بذلك عن حجر المقام كونه من الجنة حقيقة، ولا قائل به، ومسألة عموم الروضة لجميع مسجده صلى الله عليه وسلم ذات خلاف ؛ فقد قال الأقشهرى : سئل أبو جعفر بن نصر الداودى المالكى عن قوله « ما بين بيتى ومنبرى روضة » فقال : هو روضة كله ، ونقل الريمى عن الخطيب ابن حملة أنه قال:قوله «ما بين بيتى» مفرد مضاف قد يفيد العموم فى بيوته، ثم ذكر بيان مكان بيوته، ثم قال: ولهذا قال السمعانى فى أماليه: لما فضّل الله مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرفه وبارك فى العمل فيه وضعفه سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم روضة من رياض الجنة ، فتراه جعل المسجد كله روضة ، والمشهور أن المراد بيت خاص ، وهو بيت عائشة رضى الله عنها ؛ للرواية الأخرى « ما بين قبرى ومنبرى » قال ابن خزيمة: أراد بقوله ما بين بيتى الذى أقبر فيه ؛ إذ النبى صلى الله عليه وسلم قبر فى بيته الذى كانت تسكنه عائشة ، قال الخطيب : فعلى هذا تُسَامِتُ ــ يعنى الروضة ــ حائط الحجرة من القبلة والشمال من جهة الحجرة، ولا تزال تقصر إلى جهة المنبر ، أو توجد المسامتة مستوية فلينظر ، هذا كله كلام الخطيب .

قلت : فتلخص من ذلك ثلاثة آراء : الأول : أنها المسجد الموجود فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، الثانى : أنها ماسامَتَ(1) المنبر والحجرة فقط ، فتتسع من جهة الحجرة وتضيق من جهة المنبر لما تقدم فى مقداره ، وتكون منحرفة الأضلاع لتقدم المنبر فى جهة القبلة وتأخر الحجرة فى جهة الشام ، فتكون كشكل مثلث ينطبق ضلعاه على قدر المنبر ، الثالث : أنها ماسامَتَ(1) كلا من طرفى الحدين ، فتشمل ماسامَتَ المنبر من مقدم المسجد فى جهة القبلة وإن لم يسامت(1) الحجرة ، ويشمل ما سامَتَ الحجرة من جهة الشمال وإن لم يسامت(1) المنبر ، فتكون مربعة ، وهى الأروقة الثلاثة : رواق المصلى الشريف ، والرواقان بعده ، وذلك هو مسقف مقدم المسجد فى زمنه صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه قد تحرر لنا فى هذه العمارة التى أدركناها

---

(1) سامت الشىء الشىء : قابله ووازاه

أن صف أسطوان الوُفودِ ــ وهى التى كانت إلى رحبة المسجد كما سيأتى ــ واقعٌ خلف الحجرة سواء، حتى إن الأسطوانة التى تلى مربعة القبر فى صفها الداخلة فى الزور بعضها داخل فى جدار الحجرة الشامى كما سيأتى بيانه .

وأما أدلة هذه الأقوال فقد استدل الريمى للأول بأشياء غالبها ضعيفٌ مبناه على أن إطلاق الروضة من قبيل المجاز لما فى ذلك من المضاعفة ونحوه، وأحسنها ما أشار إليه الخطيبُ ابن حملة وأيده الريمى بأشياء ، فقال : قوله « بيتى » من قوله « ما بين بيتى » مفرد مضاف ، فيفيد العمومَ فى سائر بيوته صلى الله عليه وسلم ، وقد كانت بيوته مُطيفة بالمسجد من القبلة والمشرق ــ وفيه بيت عائشة ــ والشام كما سيأتى عن ابن النجار وغيره ، ولم يكن منها فى جهة المغرب شىء ، فعرف الحد من تلك الجهة بالمنبر الشريف ، فإنه كان فى آخر جهة المغرب بينه و بين الجدار يسير ؛ لأن آخره من تلك الجهة الأسطوانة التى تلى المنبر ، والمنبر على ترعة من ترع الجنة ، فقد حدد الروضة بحدود المسجد كلها .

قلت : وهو مُفَرَّع على ما ذكره ابن النجار فى تحديد المسجد من جهة المغرب ، وقد مشيت عليه فى تواليفى قبل أن أقف على ما قدمته فى حد المسجد ، وقد مشى على ذلك الزين المراغى فقال : ينبغى اعتقاد كون الروضة لا تختص بما هو معروف الآن ، بل تتسع إلى حد بيوته صلى الله عليه وسلم من ناحية الشام ، وهو آخر المسجد فى زمنه صلى الله عليه وسلم ؛ فيكون كله روضة ، وهذا إذا فرعنا على أن المفرد المضاف (١) للعموم ، وقد رجحه فى كتب الأصول جماعة ، ثم ذكر ما تقدم .

قلت : وفاتهم الجميع الاستدلال بحديث زوائد مسند أحمد المتقدم بلفظ « ما بين هذه البيوت » يعنى بيوته « إلى منبرى روضة من رياض الجنة » والعجبُ أن المعتنين بأمر الروضة لم يذكروه ، مع أن فيه غنية عن التمسك بكون

(١) هو قوله فى الحديث « بيتى » والمراد بعمومه أنه يشمل كل بيوته صلى الله عليه وسلم ، ولهذا كانت رواية « ما بين هذه البيوت إلخ » يغنى عن الرجوع إلى هذه القاعدة

المفرد المضاف يفيد العموم ، فقد ناقش الصفى الكازرونى فى ذلك بأشياء : منها أن رواية « ما بين قبرى ومنبرى » بينت المراد من البيت المضاف . قلت : ليته قال رواية « ما بين المنبر و بيت عائشة » لأنه يلزم عليه أن يكون الروضة بعرض القبر فقط ، والتخصيصُ بذلك بعيد ، ومن قال «إن المراد من البيت القبر» ليس مراده والله أعلم إلا أن رواية القبر لعدم إبهامها تعين البيت ، ولعله مراد الصفى ، ولهـذا قال الطبرى : و إذا كان قبره صلى الله عليه وسلم فى بيته اتفقت معانى الروايات ، ولم يكن بينها خلاف، انتهى ، ولك أن تقول : رواية «قبرى»ورواية « حجرة عائشة » من قبيل إفراد فرد من العام، وذكره بحكم العام ، وهو لا يقتضى التخصيص على الأصح ، بل يقتضى الاهتمام بشأن ذلك الفرد ، على أن القرطبى قال : الرواية الصحيحة « بيتى » و يروى « قبرى »وكأنه بالمعنى ، والله أعلم .

ومنها : أن القرافى حمل إطلاق عموم اسم الجنس على ما يقع منه على القليل والكثير كالماء والمال ، بخلاف مالا يصدق إلا على الواحد كالعبد والبيت والزوجة فلا يعم ، ولهذا لو قال عبدى حر أو امرأتى طالق لا يعم سائر عبيده ونسائه، قال : ولم أره منقولا . قلت: قال التاج السبكى : خالف بعض الأئمة فى تعميم اسم الجنس المعرف والمضاف[1] ، والصحيح خلافه ، وفصل قوم بين أن يصدق على القليل والكثير فيعم ، أو [لا][2] فلا ، واختاره ابن دقيق العيد ، انتهى .

فقد جعل مابحثه القرافى وجهاً ثالثاً مفصلا ، وذلك يأبى حمل إطلاق المطلقِينَ عليه ، فما بحثه منقول ، لكن الصحيح خلافه ، وما استدل به من عدم عموم عبدى حر وامرأتى طالق جوابه من أوجه ذكرناها فى دفع التعرض ، وأحسنها ما أشار إليه الأسنوى من أن عدم العموم فى ذلك لكونه من باب الأيمان ، والأيمان يسلك فيها مسلك العرف ، انتهى . ونقل الأزرقى فى نفائسه عن ابن

(١) فى جميع المطبوعات «المعروف» تطبيع ، والمراد باسم الجنس المعرف المقترن بالألف واللام مثل : الماء ، والخل ، والزيت

(٢) كلمة «لا» هذه ساقطة من الأصول كلها ، ولا يتم الكلام بدونها .

عبد السلام أنه قال : الذى تبين لى طَلَاقُ الجميع وعتق الجميع ، وفى كتب الحنابلة نص أحمد على أنه لو قال مَنْ له زوجتان أو عبيدٌ «زوجتى طالق ، أو عبدى حر» ولم ينو[(١)] مُعَيَّناً ، وقع الطلاق والعتق على الجميع، تمسكا بالقاعدة المذكورة ، فقد جرى ابن عبدالسلام والحنابلة على مقتضى ذلك ؛ فهذه الطرق من أحسن الأدلة، ولكن على شمول الروضة لما بين المنبر والبيوت الشريفة فهو رأى آخر ، وقد قدمنا من الحديث ما يصرح به ، وَيؤيده ما أشار إليه الريمى من أن المقتضى لكون ذلك روضة كثرة تردده صلى الله عليه وسلم فيه ، وكان يصلى قبل تحويل القبلة فى طرفه الذى يلى الشام ، ومُتَهَجَّدُه كما سيأتى فى جهة المشرق إلى الشام أيضاً ، ومنبره الشريف فى نهاية هذا الموضع المحدود من جهة المغرب ، ومصلاه الشريف بمقدمه وبه الأساطين الآتية ذوات الفضل .

وأما الرأى الثانى فدليله التمسكُ بظاهر لفظ البينيَّة الحقيقية ، وحمل البيت على حجرة عائشة رضى الله عنها ، ويضعفه أن مقدم المصلى الشريف يلزم خروجه عن اسم الروضة حينئذ ؛ لخروجه عن موازاة طرفى المنبر والحجرة ، مع أن الظاهر أن معظم السبب فى كون ذلك روضة تشرفهُ بجبهته الشريفة ، على أنى لم أر هذا القول لأحد ، وإنما أخذته من تردد الخطيب ابن حملة المتقدم .

وأما الرأى الثالث فهو ظاهر ما عليه غالب العلماء وعامة الناس، ووَجْهُه حَمْل البيت على ما فى الرواية الأخرى من ذكر حجرة عائشة ، وجعل ما تقدم فى أمر خروج مقدم المصلى الشريف دليلا على أن المراد من البينية ما حاذى واحداً من الطرفين ، وأن المراد مقدم المسجد المنتهى من جهة مؤخر الحجرة الشريفة لصف أسطوان الوفود كما قدمناه ، وفى كلام الأقشهرى إشارة له ، وهذا إنما علمناه فى العمارة التى سنذكرها ، ولم يكن معلوماً قبل ذلك ، ولهذا قال المجد فى الباب الأول فى فصل الزيارة من كتابه ما لفظه: ثم يأتى -يعنى الزائر- إلى الروضة المقدسة،

---

(١) يريد لم ينو زوجة معينة من الزوجتين أو الزوجات ، ولا عبدا معينا من العبدين أو العبيد

وهى ما بين القبر والمنبر طولا ، ولم أر مَنْ تعرض له عرضاً[1] ، والذى عليه غلبة الظنون أنه من المحراب إلى الأسطوانة التى تُجَاهَهُ ، وأنا لا أوافق على ذلك ، وقد بينته فى موضعه من هذا الكتاب ، وذكرت أن الظاهر من لفظ الحديث يقتضى أن يكون أكثر من ذلك ؛ لأن بيت النبى صلى الله عليه وسلم بجميع مَرَافق الدار كان أكثر من هذا المقدار ، انتهى .

ولم يذكر فى الموضع الذى أحال عليه شيئاً ، وقوله «من المحراب إلى الأسطوانة التى تجاهه» كأنه يريد به الأسطوان المخلّق وماحاذاها ؛ فتكون الروضة على ذلك التقدير الرواق الأول منها فقط ، وهو غلط ؛ لأن الحجرة الشريفة متأخرة عن ذلك لجهة الشام ؛ وصَفُّ الأسطوان المذكور مُحَاذٍ لطرف جدارها القبلى . وقال ابن جماعة : قد تحرر لى طول الروضة ، ولم يتحرر لى عرضها ، يريد أن طولها من المنبر إلى الحجرة ، وهو كما قال ابن زبالة ثلاثة وخمسون ذراعا وشبرا ، وقال فى موضع آخر : أربعة وخمسون ذراعاً وسدس .

قلت : وما ذكره أولا أقربُ إلى الصواب كما اختبرناه ، فإنى ذَرَعْتُ بحبل من صفحة المنبر القبلية إلى طرف صفحة الحجرة القبلية فكان ثلاثة وخمسين ذراعاً .

وذكر ابن جماعة ذراعاً أقل من هذا ، وكأنه ذَرَعَ على الاستقامة ، ولم يعتبر الذَّرْعَ من الطرفين المذكورين ، فقال : وذرعت ما بين الجدار الذى حول الحجرة الشريفة و بين المنبر فكان أربعاً وثلاثين ذراعا وقيراطاً بذراع العمل . قلت : وذلك نحو اثنين وخمسين ذراعا بذراع اليد الذى قدمنا تحريره ، وأما قول من قال «إن طول الروضة اليوم ينقص عن خمسين ذراعاً بثلثى ذراع» فلا وجه له إلا أن يكون اعتبر بذراع اليد المفرط الطول ، والله أعلم .

وأما نهاية الحجرة فلم تكن معلومة لابن جماعة وغيره ، وعليها يتوقف بيان

---

(١) يريد أنه لم يقف فى كلام أحد على بيان مقدار عرضه ومبدئه ومنتهاه .

العرض ، ولهذا قال الريمى : لا ندرى الحجرة فى وسط البناء المحيط بها أم لا ؟ ولا ندرى إلى أين ينتهى امتدادها ؟ وغالب الناس يعتقدون أن نهايتها فى محاذاة أسطوان على رضى الله عنه ، ولهذا جعلوا الدرابزين الذى بين الأساطين ينتهى إلى صفها ، واتخذوا الفرش لذلك فقط ، والصوابُ ما قدمناه ؛ فقد انجلى الأمر ولله الحمد .

الفصـــــل السابـع
فى الأساطين المنيفة

الأسطوان المخلق

منها الأسطوان الذى هو عَلَمٌ على المصلَّى الشريف ، و يعرف بالمخلَّق ، وقد قدمنا قول ابن زبالة « المخلق نحو من ثلثيها » وقول ابن القاسم « إن المصلى الشريف حيث الأسطوان المخلق » و بينّا أن المراد أنها أقربُ أسطوان إليه ، وأن الجِذْعَ الذى كان يخطب إليه صلى الله عليه وسلم و يتكئُ عليه كان هناك ، وأن الأسطوان الموجود اليوم متقدم على المحل الأول ، وأن المحل الأصلى هو موضع كرسى الشمعة التى عن يمين الإمام الواقف فى المصلى الشريف ، فمن أراد التبرك بذلك فليصل هناك .

وروى ابن زبالة عن يزيد بن عبيد أنه كان يأتى مع سَلَمَةَ بن الأكوع إلى سبحة الضحى ، فيعمد إلى الأسطوان دون المصحف فيصلى قريباً منهما ، فأقول : ألا تصلى ههنا ؟ وأشير له إلى بعض نواحى المسجد ، فيقول : إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يَتَحَرَّى هذا المقام ، وهذا الحديثُ فى الصحيحين ، ولفظ البخارى « كنت آتى مع سَلمَةَ بن الأكوع ، فيصلى عند الأسطوان التى عند المصحف ، فقلت : يا أبا سلمة أراك تتحرى الصلاة عند هذه الأسطوانة ، قال : فإنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرى الصلاة عندها » ولفظ مسلم عن سلمة أنه كان يتحرّى موضعَ المصحف يسبح[1] فيه ، وذكر أن النبى صلى الله عليه

(١) يسبح : يصلى ، والسبحة ؛ بالضم : صلاة النافلة ، والمراد هنا سبحة الضحى ، كما ورد فى رواية ابن زبالة ، وقال ابن الأثير « وقد تكرر ذكر السبحة فى الحديث كثيرا ، فمنها الحديث : اجعلوا صلاتكم معهم سبحة ، أى نافلة » اهـ

وسلم كان يتحرى ذلك ، وقد قدمنا فى الـكلام على المصلى الشريف ما يبين أن المراد هذه الأسطوانة .

أسطوان القرعة

ومنها أسطوان القُرْعَة ، وتعرف بأسطوان عائشة رضى الله عنها ،و بالأسطوان المخلق أيضاً ، و بأسْطوان المهاجرين .

روينا فى كتاب ابن زبالة عن إسماعيل بن عبد الله عن أبيه أن عبد الله بن الزبير ومروان بن الحـكم وثالثاً كان معهما دخلوا على عائشـــة رضى الله عنها فتذاكروا المسجد ، فقالت عائشة : إنى لأعلم سارية من سَوَارى المسجد لو يعـلم الناس ما فى الصلاة إليها لاضطربوا عليها بالسُّهْمَان(١) ، فخرج الرجلان و بقى ابن الزبير عند عائشة ، فقال الرجلان : ما تخلَّفَ إلا ليسألها عن السارية ، ولئن سألها لتخبرَنّه ، ولئن أخبرته لا يعلمنا ، و إن أخبرته عَمِدَ لها إذا خرج فصـلَّى إليها ، فاجلس بنا مكاناً نراه ولا يرانا ، ففعلا ، فلم يَنْشَبْ أن خرج مسرعاً فقام إلى هذه السارية فصلى إليها متيامناً إلى الشق الأيمن منها ، فعُـلم أنها هى ، وسميت أسطوانة عائشة بذلك ، و بلغنا أن الدعاء عندها مُسْـتَجَاب ، هذا لفظ ابن زبالة .

وفى الأوسط للطبرانى عن عائشة رضى الله عنها قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن فى مسجدى لبقعة قبل هذه الأُسطوانة لو يعلم الناسُ ماصلّوا فيها إلا أن تطير لهم قرعة ، وعند عائشة جماعة من أبناء الصـحابة فقالوا : يا أم المؤمنين وأين هى ؟ فاستعجمت عليهم ، فمـكثوا عندها ساعة ثم خرجوا وثبت عبدُ الله بن الزبير فقالوا : إنها ستخبره بذلك المـكان ، فأَرقُبوه فى المسجد حتى

---

(١) السهمان : جمع سهم ، والسهم فى الأصل القدح الذى يضرب به فى الميسر ثم سمى به مايفوز به الفالج ، وكثر ذلك حتى سمى كل نصيب سهما ، والمراد من قولها « لاضطربوا عليها بالسهمان » أنهم كانوا لايسمحون لأحـدهم بالصلاة عندها إلا إذا ضربوا عليها بالسهام فخرج لأحدهم سهم بالصلاة فيها ؛ لحرص كل واحد على الصلاة عندها

تنظروا حيث يصلى ، فخرج بعد ساعة فصلى عند الأسطوانة التى صلى إليها عامر ابن عبد الله بن الزبير ، فقيل لها : أسطوانة القُرْعَة .

قال عتيق : وهى الأسطوانة التى [هى] واسطة بين القبر والمنبر : عن يمينها إلى المنبر أسطوانتان ، و بينها و بين القبر أسطوانتان ، و بينها و بين الرحبة أسطوانتان ، وهى واسطة بين ذلك ، وهى تسمى أسطوانة القرعة ، هذا لفظ الأوسط .

وقال ابن زبالة : حدثنى غير واحد من أهل العلم منهم الزبير بن حبيب أن الأسطوان التى تدعى أسطوان عائشة هى الثالثة من المنبر ، والثالثة من القبر ، والثالثة من القبلة ، والثالثة من الرحبة ، أى قبل زيادة الرواقين الآتى ذكرها المتوسطة للروضة أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى إليها بضع عشرة المكتوبة ثم تقدم إلى مُصَلاَّه الذى وُجَاه المحراب فى الصف الأوسط ، أى الرواق الأوسط ، وأن أبا بكر وعمر والزبير بن العوام وعامر بن عبد الله كانوا يصلون إليها ، وأن المهاجرين من قريش كانوا يجتمعون عندها ، وكان يقال لذلك المجلس مجلس المهاجرين ، انتهى .

وقد ذكر ابن النجار هذه الرواية عن الزبير بن حبيب ، وزاد : وقالت عائشة فيها: لو عرفها الناس لاضطربوا على الصلاة عندها بالسهمان ، فسألوها عنها فأبت أن تسميها ، فأصغى إليها ابن الزبير فسارَّتْهُ بشىء ، ثم قام فصلى إلى التى يقال لها أسطوان عائشة ، قال : فَظَنَّ مَنْ معه أن عائشة أخبرته أنها تلك الأسطوانة ، فسميت أسطوان عائشة ، قال : وأخبرنى بعض أصحابنا عن زيد ابن أسلم قال : رأيت عند تلك الأسطوانة موضع جبهة النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم رأيت دونه موضع جبهة أبى بكر ، ثم رأيت دون موضع جبهة أبى بكر موضع جبهة عمر ، ويقال : الدعاء عندها مستجاب ، هذا لفظ روَاية ابن النجار عقب ما قدمناه من رواية ابن زبالة . وزاد فيما ذكره ابن زبالة عقب قوله « إن النبى صلى الله عليه وسلم صلى إليها المكتوبة بضعَ عشرة ، ثم تقدم إلى مصلاه

اليوم » مالفظه : وكان يجعلها خلف ظهره ، قلت : ولم أره فى كلام غيره ،والظاهر أن مراده أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يستند إليها إذا جلس هناك ، لا أنه يجعلها خلف ظهره إذا صلى ؛ لما ذكره عن زيد بن أسلم من أنه رأى موضع جبهة النبى صلى الله عليه وسلم عندها ، ووصف هذه الأسطوانة بالمخلَّقة يؤخذ مما تقدم عن ابن زبالة من قول أبى هريرة « وكان مصلاه صلى الله عليه وسلم الذى يصلى فيه بالناس إلى الشام من مسجده أن تضع موضع الأسطوان المخلقة خلف ظهرك ثم تمشى إلى الشام » إلى آخر ماتقدم قلت : وهـذه الأسطوان بصف الأساطين التى خلف الإمام الواقف بالمصلى الشريف ، وهى الثالثة من القبلة وكانت الثالثة أيضا من رحبة المسجد كما تقدم ، وذلك قبل أن يزاد فى مسقف مقدم المسجد الرواقان الآتى بيانهما فى رحبته ، وبهما صارت خامسة من الرحبة .

أسطوان التوبة

ومنها أسطوان التوبة ، وتعرف بأسطوان أبى لبابة بن عبد المنذر أخى بنى عمرو بن عوف الأوسى أحدِ النقباء ، واسمه رفاعة ، وقيل غير ذلك ، سميت به لأنه ارتبط إليها حتى أنزل الله توبته كما قدمناه فى غَزْوَة بنى قُرَيظَة .

وقال الأقشهرى : اختلف أهل السير والتفسير فى ذنب أبى لبابة ، فقال قوم : كان من الذين تخلَّفُوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تَبُوكَ ، وقال ابن هشام تبعا لابن إسحاق : سببه قضية بنى قُرَيظَة واستشارتهم إياه ، وأسند يحيى عن عبد الرحمن بن يزيد قصته معهم ، وأنهم قالوا له : أننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه ، وهو الذبح . وفى رواية أخرى أنه لما جاءهم قام إليه الرجال ، وأجْهَشَ إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه ، فرقَّ لهم ، فكان منه ما تقدم ، قال أبو لُبَابَة : فوالله ما زالت قَدَمَاىَ حتى علمت أنى خُنْتُ الله ورسوله . قال يحيى فى الرواية المتقدمة : فلم يرجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ومضى إلى المسجد ، وارتبط إلى جِذْع فى موضع أسطوانة التوبة ، وأنزل الله عز وجل فيه « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » وفى رواية : فربَطَ نفسه فى السارية ، وحلف لا يحل

نفسه حتى يحله رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تنزل توبته ، قال : فجاءت فاطمة رضى الله عنها تحله ، فقال : لا ، حتى يحلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم: إنما فاطمة بضْعَةٌ منى،وفى رواية لابن النجار أن أبا لُبَابة عاهد الله تعالى أن لا يطأ بنى قريظة أبدا ، وقال: لا يرانى اللهفى بلدٍ خُنْتُ الله ورسوله فيه أبدا ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال لما بلغه خبره — وكان قد استبطأه — «أما لو جاءنى لاستغفرت الله له ، فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه » فأنزلت توبته ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت أم سلمة ، قالت : فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من السَّحَر يضحك ، فقلت : مِمَّ تضحك أضْحَكَ الله سِنّكَ ؟ قال : تِيبَ على أبى لُبَابة ، قلت : ألا أبشره بذلك يارسول الله ؟ قال : بلى إن شئتِ ، فقامت على باب حجرتها قبل أن يُضْرَبَ عليهن الحجابُ فقالت : يا أبا لبابة أبْشِرْ فقد تاب الله عليك ، قال : فثار الناسُ إليه ليطلقوه ، قال : لا والله حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يُطْلِقُنِى بيده ، فلما مر عليه خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه .

وروى البيهقى فى الدلائل عن سعيد بن المسيب قصة أبى لبابة فى بنى قريظة ، وأنه تخلف فى غزوة تبوك، فلما قَفَل[1] رسولُ الله صلى اللهعليه وسلم جاءه يُسَلِّم عليه ، فأعرض عنه ، ففزع[2] أبو لبابة ، فارتبط بسارية التوبة التى عند باب أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم سبعا بين يوم وليلة فى حر شديد لا يأكل فيهن ولا يشرب قَطْرَةً .

وروى مالك بن أنس عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم أن أبا لُبَابة ارتبط إليها بسلسلة ربوض ، والربوض : الثقيلة[3] ، بِضْعَ عَشْرَةَ ليلةً ،حتى ذهب سمعه

---

(١) قفل : رجع (٢) فزع: خاف أشد الخوف (٣) قال ابن الأثير «وفى حديث أبى لبابة أنه ارتبط بسلسلة ربوض ، هى الضخمة الثقيلة اللازقة بصاحبها ، وفعول من أبنية المبالغة يستوى فيه المذكر والمؤنث » اه

فما يكاد يسمع ، وكاد بصره يذهب ، وكانت ابنته تحله إذا حضرت الصلاة وإذا أرادَ أن يذهب لحاجته حتى يفرغ ثم تأتى به فتردّه فى الرباط كما كان .

وأورد الزمخشرى قصة أبى لُبَابة فى تفسير قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لاتَخُونُوا الله والرسول» الآية ، وقال فيها : قال أبولبابة : فما زالت قَدَمَاىَ حتى علمت أنى قدخُنْتُ الله ورسوله ، فنزلت : أى الآية المتقدمة ، فشدّ نفسَه على سارية من سوارى المسجد وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علىّ ، فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه ، ثم تاب الله عليه ، وذكر فى القصة أن النبى صلى الله عليه وسلم جاءه فحلَّه فقال : إن من تمام توبتى أن أهجر دارَ قومى التى أصَبْتُ فيها الذنبَ ، وأن أنخلع من مالى ، فقال عليه السلام « يُجْزِئُكَ الثلثُ أن تتصدق به »

ونقل ابن النجار عن إبراهيم بن جعفر أن السارية التى ربط إليها ثمامة ابن أثال الحنفى هى السارية التى ارتبط إليها أبو لبابة ، ونقل ذلك أيضا عن ابن شبة

وروى البيهقى عن ابن عباس فى قوله تعالى « وآخَرُون اعترفوا بذنوبهم » الآية ، قال : كانوا عشرةَ رَهْطٍ تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تَبُوكَ ، فلما حضر رجوع النبى صلى الله عليه وسلم أوثق سبعةٌ منهم أنفسَهم بسَوَارى المسجد ، فلما رآهم النبى صلى الله عليه وسلم قال : مَنْ هؤلاء ؟ قالوا : هذا أبو لُبَابة وأصحابٌ له تخلفوا عنك ، الحديث ، وفيه توبة الله عليهم وأنه صلى الله عليه وسلم أرسل إليهم وأطلقهم

وروى ابن زبالة عن عمر بن عبد الله بن المهاجر عن محمد بن كعب أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى نوافله إلى أسطوانة التوبة

وفى رواية له عن عمر بن عبد الله ، لم يذكر ابن كعب، أنه قال فى أسطوان التوبة : كان أكثر نافلة النبى صلى الله عليه وسلم إليها ، وكان إذا صلى الصبح

انصرف إليها ، وقد سبق إليها الضعفاء والمساكين وأهل الضر وضيفان النبى صلى الله عليه وسلم والمؤلفة قلوبهم ومن لا مَبِيتَ له إلا فى المسجد ، قال : وقد تحلقوا حولها حِلَقًا بعضها دون بعض، فينصرف إليهم من مُصَلَّاه من الصبح،فيتلو عليهم ما أنزل الله عليه من ليلته ، ويحدثهم ويحدثونه ، حتى إذا طلعت الشمسُ جاء أهل الطَّوْلِ والشرف والغنى فلم يجدوا إليه مجلسا ، فتَاقَتْ أنفسهم إليه وتاقت نفسه إليهم ، فأنزل الله تعالى « واصْبِرْ نَفْسَكَ مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » إلى منتهى الآيتين، فلما نزل ذلك فيهم قالوا : يارسول الله اُطْرُدْهُمْ عنا ، ونكون نحن جلساءك وإخوانك ولانفارقك ، فأنزل الله عز وجل « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » إلى منتهى الآيتين .

وفى العُتْبِية عن مالك وَصْفُ أسطوان التوبة بالمخلَّقة ، وقد قدمنا فى الكلام على المصلى الشريف ما ذكره ابن زبالة من خلوقها وخلوق غيرها من الأساطين .

وروى ابن زبالة خبر مالك بن أنس المتقدم عن عبد الله بن أبى بكر بنحو ما تقدم ، وقال فيه : وهى الأسطوان المخلق نحو من ثلثيها ، تُدْعَى أسطوان التوبة ، منها حلَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أبا لُبَابَة حين نزلت توبته ، وبينها وبين القبر أسطوان .

وأسند أيضا عن ابن عمر أنه كان يقول فى الأسطوان التى ارتبط إليها أبو لبابة :هى الثانية من القبر ، وهى الثالثة من الرحبة .

قلت : كانت الثالثة من الرحبة قبل تجدد الأسطوانتين المشار إليهما فى أسطوانة القرعة بسبب تجدد الرواقين الآتى ذكرها ، وهذه الأسطوانة إلى جانب الأسطوانة المتقدم ذكرها من جهة المشرق ؛ فهى الرابعة من المنبر ، والثانية من

---

(١) الضيفان : أحد جموع ضيف ، ومن جموعه أضياف وضيوف

القبر ، والثالثة من القبلة ، والخامسة فى زماننا من رحبـــة المسجد ، وفيها اليوم هيئة محراب من الجص تتميز به عن سائر الأساطين ، لـكنه أزيل فى الحريق الثانى

وفهم البدر ابن فرحون من رواية ابن عمر المتقدمة أنها التى تلى هـــذه الأسطوانة فى جهة المشرق ، وهى اللاصقة بالشباك اليوم كما سيأتى ، فقال : إن أسطوان التوبة هى اللاصقة بالشباك على ما قاله عبد الله بن عمر،وتبعه مالك بن أنس ، وما قيل إنها غيرها فغلط أوجبه أشياء يطول ذكرها ، انتهى كلامه .

قلت : بل الصواب ما قدمناه فى بيانها ، ومنشأ ما فهمه عَدُّهُ للأسطوانة اللاصقة بجدار القبر ، فحمل قول ابن عمر أنها الثانية من القبر ، وقولَ مالك بينها و بين القبر أسطوان على الأسطوانة اللاصقة بالشباك اليوم ، وقد علم من كلامهم فى أسطوان القرعة أنهم لا يعدُّون اللاصقة بجدار القبر لما تقدم من قولهم فيها : إنها الثالثة من المنبر والثالثة من القبر ، ولو عدوا اللاصقة بجدار القبر لـكانت الرابعة من القبر ، وأيضاً فاللاصقة بجدار القبر أحْدَثَها عمرُ بن عبد العزيز ، ولم يدرك ذلك ابن عمر ، وأوضح من ذلك أن ابن زبالة قال : إن بين أسطوان التوبة و بين جدار القبر الشريف عشرين ذراعاً ، وقد اعتبرتُ ذلك من الأسطوانة التى ذكرناها فكان كذلك .

وقال أيضاً فيما قدمناه عنه: « إن ذَرْعَ ما بين مُصَلَّى النبى صلى الله عليه وسلم و بينها سبع عشرة ذراعاً » وقد قدمنا فى المصلى الشريف ما يقتضى صحة ذلك عند اختبارنا لما بينهما مع بيان أن المصلى الشريف فى طرف الحفر الذى يلى المغرب، و إن جعـل المصلى الشريف على تلك الهيئة حادث ، وفى نسخة من ابن زبالة « تسع عشرة ذراعا » بتقديم التاء ، فإن صحت[1] فقد علمت أنه لم يكن المصـلى الشريف فى عهـد ابن زبالة على هذه الهيئات ، بل كانت الأرض مستوية ،

(١) يريد إن صحت هذه النسخة من الرسم ، ولم تكن خطأ من الناسخ فإن لها وجها يجعلها غير متخالفة مع النسخة الاخرى

فكأنه اعتبر الذراع من ابتداء طرف المصلى الشريف الغربى ، ومنه إلى الأسطوان المذكور تسع عشرة ذراعا بتقديم التاء ، وأما ذَرْعُ ما بين المصلّى الشريف والأسطوانة التى يعنيها البدر فخمس وعشرون ذراعاً ، فلا يصح إرادتها بوجه .

وأسند ابن زبالة ويحيى فى بيان مُعْتَكَفِ النبى صلى الله عليه وسلم عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم « كان إذا اعتكف طرِحَ له فراشه ووضع له سرير وراء أسطوانة التوبة » .

وروى ابن ماجة عن نافع أن ابن عمر أراهُ المكانَ الذى كان يعتكف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم روى عن نافع عن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم « كان إذا اعتكف طُرِحَ له فراشُه ووضع له سرير وراء أسطوانة التوبة » . قال البدر بن فرحون : ونقل الطبرانى فى معجمه عن ابن عمر رضى الله عنهما أن ذلك مما يلى القبلة « يستند إليها »(١) .

قلت : رواه البيهقى بسند حسن ، ولفظه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا اعتكف يُطْرَحُ له فراشه أو سريره إلى أسطوانة التوبة مما يلى القبلة يستند إليها » ونقل عياض عن ابن المنذر أن مالك بن أنس كان له موضع فى المسجد ، قال : وهو مكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو المكان الذى كان يُوضَعُ فيه فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اعتكف ، كذا قال الأويسى .

أسطوان السرير

ومنها: أسطوان السرير ، أسند ابن زبالة ويحيى فى بيان معتكف النبى صلى الله عليه وسلم عقب ذكر ما تقدم من وضع فراشه وسريره وراء أسطوان التوبة عن محمد بن أيوب أنه « كان للنبى صلى الله عليه وسلم سرير من جَرِيد فيه سعَفه(٢) يوضَع بين الأسطوان التى تُجاه القبر و بين القناديل ، كان يضطجع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

---

(١) هذه الجملة « يستند إليها » من تتمة وصف ما كان النبى صلى الله عليه وسلم يفعله

(٢) السعف — بفتح السين والعين جميعا — جمع سعفة ، وهى أغصان النخيل إذا كانت رطبة ، كذا قال ابن الأثير ، والظاهر من هذا الحديث أن السعف هو الخوص ، وأن الجريد هو الغصن .

قلت : وهذه الأسطوانة هى اللاصقة بالشباك اليوم فى شرقى أسطوان التوبة وابن فرحون يجعلها إياها كما تقدم ، ويؤيده ما تقدم فى أسطوان التوبة من أن سريره صلى الله عليه وسلم كان يوضع إليها ، إلا أن يجاب بأنه كان يوضع مرة عند هذه ومرة عند تلك ، بدليل أنه تقدم فى أسطوان التوبة أن وضع ذلك كان مما يلى القبلة يستند إليها ، وذكر فى هذه أنه « كان يوضع بينها وبين القناديل » وذلك فى جهة شرقيها .

وقال البدر ابن فرحون : روينا بالسند الصحيح إلى ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم « كان إذا اعتكف يُطْرَحُ له وِسادة ، ويوضع له سرير من جَريد فيه سَعَفه ، يوضع له فيما بين الأسطوان التى وُجَاه القبر الشريف وبين القناديل ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضطجع عليه » قال أبو وحرة ـ بحاء مهلة ـ السعدى وهو يذكر السرير ويمدح آل الزبير لقرب مجلسهم منه :

وإذا غَدَا آلُ الزبير غدا النَّدَى وإذا انتَدَى فإليهمُ ما يَنْتَدِى

وإذا هُمُ راحوا فإنهـمُ هُمُ أهل السرير وأهل صَدْر المسجد

أسطوان المحرس

ومنها : أسطوان المحرس(١) ، ويسمى أسطوان أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه .

قال يحيى : حدثنا موسى بن سلمة قال : سألت جعفر بن عبد الله بن الحسين عن أسطوان على بن أبى طالب ، فقال : إن هذه المحرس(١) ، كان على بن أبى طالب يجلس فى صفحتها التى تلى القبر مما يلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحرُسُ النبى صلى الله عليه وسلم .

قال الجمال المطرى وتبعه مَنْ بعده : وهو مقابل الخوخة التى كان النبى

---

(١) المحرس : اسم مكان من «حرسه يحرسه» لما سيأتى من أن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه كان يجلس إلى هذه الأسطوانة ليحرس النبى صلى الله عليه وسلم

صلى الله عليه وسلم يخرج منها إذا كان فى بيت عائشة إلى الروضة للصلاة ، وهى خلف أسطوان التوبة من جهة الشمال .

قلت : هى الأسطوان الذى يصلى عندها أمير المدينة يجعلها خلف ظهره ، ولذا قال الأقشهرى : إن أسطوان مُصَلَّى علىّ كرم الله وجهه اليوم أشهر من أن تخفى على أهل الحرم ، ويقصد الأمراء الجلوس والصلاة عندها إلى اليوم ، وذكر أنه كان يقال لها مجلس القلادة لشرف من كان يجلس فيه ، وذلك إنما هو فى أسطوان الوفود لما سيأتى .

أسطوان الوفود

ومنها : أسطوان الوفود ، قال المطرى : هى خلف أسطوان المحرس من جهة الشمال ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس إليها لوفود العرب إذا جاءته ، وكانت مما يلى رحبة المسجد قبل أن يزاد فى السقف القبلى الرواقان ، وكانت تعرف أيضاً بمجلس القلادة ، يجلس إليها سَرَوَاتُ الصحابة وأفاضلهم رضوان الله عليهم .

وقال الأقشهرى ، ومن خطه نقلتُ : وأما الأسطوان الذى كان يجلس إليها صلى الله عليه وسلم لوفود العرب إذا جاءته ، فقال : إذا عَدَدْتَ الأسطوان التى فيها مقام جبريل عليه السلام كانت هى الثالثة ، انتهى ، وكأنه سقط من خطه فاعدد فقال ، وقد أخذه من تحفة ابن عساكر ، وقد رأيت فى نسخة معتمدة منها موضع بياض بعد « فقال » .

وهذا مطابق لما تقدم عن المطرى ؛ لأن الأسطوان التى فيها مقام جبريل هى مربعة القبر كما سيأتى ، و بينها و بين أسطوان الوفود المذكور أسطوان .

وقال ابن زبالة : حدثنا غيرُ واحدٍ من أهل العلم منهم عبد العزيز بن محمد أن الأسطوان التى إلى الرحبة التى فى صف أسطوان التوبة بينها و بين أسطوان التوبة مصلى على بن أبى طالب ، وأنه المجلس الذى يقال له مجلس القلادة ، كان يجلس فيه سَرَاةُ الناسِ قديما .

وأورده المجد، وزاد فى آخره : و إنما سمى القلادة لشرف مَنْ كان يجلس إليها من بنى هاشم وغيرهم .

أسطوان مربعة القبر

ومنها أسطوان مربعة القبر ، وسيأتى أنه يقال له أيضاً أسطوان مقام جبريل عليه السلام ، وقد تقدم فيما نقله الأقشهرى فى أسطوان الوفود ما يشهد له .

وأسند ابن زبالة ويحيى عن سليمان بن سالم عن مسلم بن أبى مريم وغيره : كان باب بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المربعة التى فى القبر ، قال سليمان : قال لى مسلم : لا تنس حظك من الصلاة إليها ؛ فإنها باب فاطمة رضى الله عنها الذى كان على يدخل عليها منه .

قلت : وهى فى حائز عمر بن عبد العزيز عند منحرف الصفة الغربية منه إلى جهة الشمال ، فى صف أسطوان الوفود ، بينهما الأسطوانة اللاصقة بالشباك التى شرقى أسطوان الوفود ، وسيأتى لها مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

ومن فضلها ما أسنده يحيى عن أبى الحمراء قال : شهدتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين صباحا يجىء إلى باب على وفاطمة وحَسَن وحُسَين حتى يأخذ بعِضَادتى[(١)] الباب ويقول : السلام عليكم أهل البيت « إنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عنكم الرِّجْسَ أهْلَ البيتِ ويطهركم تطهيراً » وفى رواية له : رابطتُ بالمدينة سبعة أشهر كيوم واحد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى بابَ علىٍّ كلَّ يوم فيقول : الصلاةَ ، الصلاةَ ، ثلاث مرات « إنما يريدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهلَ البيتِ ويطهركم تطهيراً » وقد حرم الناسُ الصلاةَ إلى هذه الأسطوان لإدارة الشباك الدائر على الحجرة الشريفة وغلق أبوابه .

أسطوان التهجد

ومنها : أسطوان التهجد ، أسند يحيى عن عيسى بن عبد الله عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخرِجُ حَصِيراً كل ليلة إذا انكَفَتَ الناس[(٢)]، فيُطْرَحُ وراء بيت على ، ثم يصلى صلاة الليل ، فرآه رجل فصلى بصلاته ، ثم

---

(١) عضادتا الباب — بكسر أوله — خشبتان من جانبيه .

(٢) انكفت الناس : انصرفوا إلى منازلهم .

آخر فصلى بصلاته ، حتى كثروا ، فالتفتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا بهم ، تأمر بالحصير فطُوِىَ ثم دخل ، فلما أصبح جاءوه فقالوا : يا رسول الله ، كنتَ فصلى الليل فنصلى بصلاتك ، فقال : إنى خَشِيتُ أن ينزل عليكم صلاة الليل ثم لا تقوون عليها ، قال عيسى بن عبد الله : وذلك موضع الأسطوان التى على طريق باب النبى صلى الله عليه وسلم مما يلى الزوراء .

قلت : صَحَّفَ بعضُهم هـذه اللفظة فقال : ممـا يلى الدور(١) ، ورأيت بخط الأقشهرى : لعله مما يلى دوره ، انتهى . والظاهر أن الرواية ممـا يلى الزور — بالزاى — يعنى الموضع المزور فى بناء عمر بن عبد العزيز خلف الحجرة كما سيأتى ، والله أعلم .

قال عيسى : وحدثنى سعيد بن عبدالله بن فضيل قال: مرّ بى محمد بن الحنفية وأنا أصلى إليها ، فقال لى: أراك تلزم هذه الأسطوانة ، هل جاءك فيها أثر ؟ قلت: لا ، قال : فالزمها فإنها كانت مُصَلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل .

قلت : تقدم فى حدود المسجد النبوى ما يقتضى أن الموضع المذكور كان خارج المسجد تُجَاه باب جبريل قبل تحويله إلى محله اليوم ، وهو موافق لما سيأتى عن المؤرخين فى بيان موضع هذه الأسطوانة ، والمعروف من حاله صلى الله عليه وسلم أن قيامه فى غير رمضان إنما كان فى بيته ، وهذا الموضع ليس منه ، وفيما سبق مع أحاديث قيام رمضان ما يوهم أن القصة المذكورة كانت فيه ، ففى صحيح البخارى عن زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «اتَّخذ حجرة ، قال : حسبت أنه قال : من حصير ، فى رمضان فصلى فيهـا ليالى فصَلَّى بصلاته ناس — الحديث » ورواه مسلم عنه بلفظ أن النبى صلى الله عليـه وسلم « اتخذ حجرة فى المسجد من حصير ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ليلا ، حتى اجتمع إليـه ناس ، فذكره نحوه » وفى رواية لأبى عَوَانة عن زيد « اتخذ حجرة من

---

(١) وقع فى المطبوعات « الدوره » بهاء فى آخره ، تطبيع .

حصير فى المسجد فى رمضان ـ الحديث » . ولعلها القبة التى كان يعتكف صلى الله عليه وسلم فيها فى رمضان ، فقد روى الطبرانى فى الكبير عن أبى ليلى قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتكف فى قبة من خوص ، وفى الكبير والأوسط عن مُعَيْقِيب قال : « اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبة من خوص بابُها من حصير والناس فى المسجد » وأسند يحيى عن أبى حازم مولى الأنصار قال : « اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد فى رمضان فى قبة على بابها حصير » ، وعن ابن عمر قال : بنى النبى صلى الله عليه وسلم بيتا من سَعَف فى المسجد فى آخر شهر رمضان يصلى فيه .

وقال المطرى فى بيان موضع هذه الأسطوانة : هى خلف بيت فاطمة رضى الله عنها ، والواقفُ إليها يكون بابُ جبريل المعروفُ قديما بباب عثمان على يساره ، وحولها الدرابزين : أى لاصقاً بها يميناً ويسارا ، وهو الشباك الدائر على الحجرة الشريفة وعلى بيت فاطمة رضى الله عنها ، وقد كتب فيها بالرخام : هذا مُتَهَجَّدُ النبى صلى الله عليه وسلم(١) .

وقال ابن النجار : هذه الأسطوانة وراء بيت فاطمة من جهة الشمال ، وفيها محرابٌ إذا توجه المصلى إليه كانت يساره إلى باب عثمان المعروف اليوم بباب جبريل .

قلت : وقد جدد محرابها فى هذه العمارة التى أدركناها أولا ، وزيد فى رخامه فوق المحراب الأول ، وكتبوا فى ذلك بالرخام بروز الأمر بتجديد عمارة الحجرة الشريفة من السلطان الأشرف قايتباى ـ أعز الله أنصاره ! ـ وأن ذلك على يد الخواجا الجناب الشمسى بن الزمن ، وتاريخ العمارة المذكورة ، كل ذلك مكتوب بالرخام فى أعلى محراب الأسطوانة المذكورة ، ثم لما جاء الحريق الحادث

---

(١) متهجد النبى : موضع تهجده .

بعد تمام هذا التأليف أزال ذلك كله ، ثم اقتضى رأيهم عند بناء الدعائم التى اتخذوها للقبة المحاذية لأعلى الحجرة والعقود التى خلفها إبدالَ هذه الأسطوانة بدِعامة اتخذوا فيها محرابا .

وهذه الأسطوانة آخر الأساطين التى ذكر لنا أهلُ التاريخ فضلا خاصا ، وإلا فجميعُ سَوَارى المسجد الشريف لها فضل ؛ ففى البخارى من حديث أنس قال : لقد أدركت كبار أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يبتدرون السوارى عند المغرب ، قال ابن النجار : فعلى هذا جميعُ سَوَارى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم يستحب الصلاة عندها ؛ لأنه لا يخلو أن كبار الصحابة صَلَّوْا إليها ، والله أعلم .

الفصل الثامن

فى الصُّفة وأهلها ، وتعليق الأقناء لهم بالمسجد

وصف الصفة وموضعها

قال عياض : الصفة — بضم الصاد وتشديد الفاء — ظُلة فى مؤخر مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، يأوى إليها المساكين ، وإليها ينسب أهل الصُّفة على أشهر الأقاويل .

وقال الحافظ الذهبى : إن القبلة قبل أن تُحَوَّلَ كانت فى شمالى المسجد ، فلما حُوِّلَتْ القبلة بقى حائط القبلة الأعلى مكان أهل الصفة .

وقال الحافظ ابن حجر : الصفة مكان فى مؤخر المسجد النبوى مُظَلَّل أعد لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل ، وكانو يكثرون فيه ويقلون بحسب من يتزوج منهم أو يموت أو يسافر .

وقد سَرَدَ أسماءهم أبو نعيم فى الحلية فزادوا على المائة ، وقد أخرج أبو نعيم فى الحلية من مرسل الحسن قال : بُنِيت صُفَّةٌ فى المسجد لضعفاء المسلمين .

وقال المجد نقلا عن الدارقطنى : الصفة هى ظُلة كان المسجد فى مؤخرها ،

ثم قال المجد : وذكر ابن جُبَيْر فى رحلته عند ذكر قباء قال : وفى آخر القرية تلّ مشرف يعرف بعرفات يدخل إليه على دار الصفة حيث كان عمار وسَلْمَان وأصحابهما المعروفون بأهل الصفة ، وكأن هذا وهم ، والله أعلم .

قلت : يظهر من قول عياض فيما قدمناه عنه « على أشهر الأقوال » أن فى ذلك خلافا ؛ فيكون ماذكره ابن جبير أحد الأقوال ، لكنه مرجوح أو مُؤَول بأن مَنْ ذكر من أهل الصفة اتخذوا تلك الدار بعد ، فاشتهرت بذلك .

أهل الصفة

وقد روى ابن سعد فى مرسل يزيد بن عبد الله بن قسيط : كان أهل الصفة ناسا فقراء لا منازل لهم ، فكانوا ينامون فى المسجد لا مأوى لهم غيره .

وروى البيهقى عن عثمان بن اليمان قال : لما كثرت المهاجرون بالمدينة ولم يكن لهم دار ولا مأوى أنزلهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المسجد ، وسماهم أصحاب الصفة ، فكان يجالسهم و يأنس بهم .

وأسند يحيى عن فضالة بن عبيد قال : كنا نصلى مع رسول صلى الله عليه وسلم فيخر قوم من قامتهم من الخَصَاصة[1] ، حتى يقول الأعرابى : مجانين ، وهم أهل الصفة ، فإذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم فوقَفَ عليهم ، فقال : لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فقرا وحاجة .

وفى صحيح البخارى عن عبد الرحمن بن أبى بكر أن أصحاب الصفة كانوا ناسا فقراء ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال مرة : مَنْ كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس ـ الحديثَ .

وفيه من حديث أبى هريرة قال : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة مامنهم رجل عليه رداء إما إزار و إما كساء قد رَبَطُوه ، فمنها ما يبلغ نصف الساقين ، ومنها ما يبلغ الكعبين ، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته .

(١) الخصاصة — بفتح الخاء المعجمة — الفقر والحاجة ، وفى القرآن الكريم (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) .

وفيه من حديث أبي هريرة أيضا أنه كان يقول : والله الذى لا إلهَ إلاهو إنْ كنت لأعتمد بكَبِدِى على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشدُّ الحجَر على بطنى من الجوع ، ولقد قعدتُ يوما فى طريقهم الذى يخرجون منه ، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليستتبعنى ، فمر ولم يفعل ، ثم مر بى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فتبسَّم حين رآنى وعرَف مافى نفسى وما فى وجهى ، ثم قال : أباهر ، قلت : لبَّيْكَ يا رسول الله ، قال : الحق ، فمضى فتبعته ، فدخل فاستأذن ، فأذن لى ، فدخلت فوجدنا لبنا فى قدح ، فقال : من أين هذا اللبن ؟ فقالوا : أهداهُ لك فلان أو فلانة ، قال : أباهر ، قلت : لبيك يارسول الله ، قال : الحق إلى أهل الصفة فادْعُهُم لى ، وأهلُ الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد ، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ، ولم يتناول منها شيئا ، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها ، فساءنى ذلك ، فقلت : وما هذا اللبن فى أهل الصفة ؟ كنتُ أحقّ أن أصيب من هذا اللبن شَرْبَة أتقوّى بها ، فلما جاؤا أمرنى فكنت أنا أعطيهم ، وما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن ؟ ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد ، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا ، فاستأذنوا فأذن لهم ، فأخذوا مجالسهم من البيت ، قال : يا أبا هريرة ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : خُذْ فأعطهم ، فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يردُّ علىّ القدحَ فآخذه فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ، ثم انتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقد روى القومُ كلهم ، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلى فتبسم ، وقال : يا أبا هر ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : بقيتُ أنا وأنت ، قلت : صَدَقت يارسول الله قال : اقعد فاشرب ، فقعدت فشربت ، فقال : اشرب ، فشربت ، فما زال يقول اشرب حتى قلت : لا والذى بعثك بالحق ما أجدُ له مسلكا ، قال : فأرِنِى ، فأعطيته القدح ، فحمد الله وسمى وشرب الفَضْلَة .

وقد وقع لأبى هريرة رضى الله عنه قصة أخرى فى تكثير الطعام مع أهل الصفة

وأخرج ابن حبان من طريق مسلم بن حيان عن أبيه عنه قال : أتت علىّ ثلاثة أيام لم أطعم ، فجئت أريد الصفة ، فجعلت أسقط ، فجعل الصبيان يقولون : خر أبو هريرة ، حتى انتهيت إلى الصفة ، فوافيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بقصعة من ثريد ، فدعا عليها أهل الصفة وهم يأكلون منها ، فجعلت أتطاول كى يَدْعُونى ، حتى قاموا وليس فى القصعة إلا شىء فى نواحيها ، فجمعه صلى الله عليه وسلم فصارت لقمة ، فوضعها على أصابعه فقال لى : كُلْ باسم الله ، فوالذى نفسى بيدهِ ما زلت آكل منه حتى شبعت .

وروى أبو نعيم فى الحلية من حديث معاوية بن الحكم فقال : بينا أنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصفة ، فجعل يوجه الرجل مع الرجل من الأنصار ، والرجلين والثلاثة ، حتى بقيت فى أربعة ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم خامسُنا ، فقال : انطلقوا بنا ، فقال : يا عائشة عَشِّينَا — الحديث .

وروى أيضا من طريق نعيم المجمر عن أبى هريرة : كنت من أهل الصفة ، وكنا إذا أمسينا حَضَرَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فيأمر كل رجل فينصرف برجل أو أكثر ، فيبقى مَنْ بقى عشرة أو أقل أو أكثر ، فيؤتى النبى صلى الله عليه وسلم بعشائه فيتعشى معهم ، فإذا فرغنا قال : ناموا فى المسجد .

وروى ابن شبة عن طلحة البصرى قال : كان مَنْ قَدِم المدينةَ فكان له بها عريف نزل على عريفه ، ومن لم يكن له بها عريف نزل الصفة ، فكنت فيمن نزل الصفة ، فوافقت رجلين كان يُجْرَى علينا فى كل يوم مُدَّيْنِ من تمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فناداه رجل من أهل الصفة : يا رسول الله أَحْرَقَ التمرُ بطونَنَا وتحرفت علينا الحرف ، فقال

النبي صلى الله عليه وسلم إلى منبره فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر مالقى من قومه حتى إن كان ليأتى علىّ وعلى صاحبي بضعة عشر يوماً مالنا طعام إلا البرير[1]، فقدمنا على إخواننا من الأنصار وجُلُّ طعامهم التمر ، فواسَوْنا ، ولو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكم ، ولكن لعلكم ستدركون زماناً أو مَنْ أدركه منكم يلبسون فيه مثل أستار الكعبة ويغدى ويراح عليكم بالجفان .

مبدأ تعليق الأقناء

وقال ابن النجار : روى أهلُ السير أن محمد بن مسلمة رأى أضيافاً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، فقال : ألا نفرق هذه الأضياف فى دور الأنصار ، ونجعل لك فى كل حائط قِنْواً ليكون لمن يأتيك من هؤلاء الأقوام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بلى ، فلما جَدَّ ماله[2] جاء بقنو فجعله فى المسجد بين ساريتين ، فجعل الناس يفعلون ذلك ، وكان معاذ بن جبل يقوم عليه ، وكان يجعل حَبْلاً بين الساريتين ثم تُعَلَّقُ الأقناء على الحبل ، وتجمع العشرين وأكثر فيهش عليهم بعصا من الأقناء فيأكلون حتى يشبعون ، ثم ينصرفون ويأتى غيرهم فيفعل بهم مثل ذلك ، فإذا كان الليل فعل لهم مثل ذلك .

قلت : بَوَّبَ البخارى للقسمة وتعليق القنو فى المسجد ، ولم يذكر فى الباب تصريحاً بتعليق القنو ، فأشار بذلك إلى ما رواه النسائى عن عوف بن مالك الأشجعى قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيده عصا ، وقد علَّق رجلٌ قِنْوَ حَشَفٍ ، فجعل يطعن فى ذلك القنو ، ويقول : لو شاء ربُّ هذه الصدقة تصدق بأطيب من هذا ، إن رب هذه الصدقة يأكل حَشَفًا يوم القيامة ، وليس على شرط البخارى ، وإن كان إسناده قوياً ، فأشار إليه بالتبويب ولم يذكره كعادته .

وروى ابن زبالة عن إبراهيم بن محمد عن جعفر بن محمد عن أبيه أن ناساً كانوا يقدمون على النبي صلى الله عليه وسلم لا شيء لهم ، فقالت الأنصار :

---

(١) البرير — بفتح الباء بزنة رغيف — ثمر الأراك .

(٢) جد ماله : قطعه ، وماله هو التمر .

يا رسول الله ، لو عجلناك قنوا من كل حائط لهؤلاء ، قال: أجل فافعلوا ، ففعلوا ، فجرى ذلك إلى اليوم ، فهى الأقناء التى تعلق فى المسجد عند جدار النخل فيعطاها المساكين ، وكان عليها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل .

وقال يحيى : حدثنى هرون بن موسى عن غير واحد من أهل المدينة أن الناس أصابتهم فى ثمارهم عاهة من العاهات فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما على أحدكم لو بعث بقنو من نخله للمساكين ، فبعث ذلك الناس ، واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأقناء معاذ بنَ جبل ، فكان يمد حبلا بين جذعين و يعلق عليه الأقناء ، فرفع الله تلك العاهة ، فصارت سنة ، ولم تزل الأئمة عليها إلى اليوم .

وروى يحيى أيضاً عن عاصم بن سويد قال : سمعت أبى يقول : عُوَيْم بن ساعدة أتى بقنو إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأْتسَى الناسُ به أهل العالية وأهل السافلة .

وأخرج ثابت فى الدلائل أن النبى صلى الله عليه وسلم « أمر من كل حائط بقنو يعلق فى المسجد » يعنى للمساكين .

وفى رواية له : وكان عليها معاذ بن جبل : أى على حفظها ، أو على قسمتها، والله أعلم .

الفصل التاسع

فى الحجرة الشريفة ، و بيان إحاطتها بالمسجد الشريف إلا من جهة المغرب

قد تقدم أنه صلى الله عليه وسلم لما بنى مسجده الشريف بنى بيتين لزوجتيه عائشة وسَوْدَة رضى الله عنهما على نعت بناء المسجد من لبن وجريد النخل .

قال ابن النجار: وكان لبيت عائشة مصراع واحد من عَرْعَر أوساج[1]، قال :

---

(١) العرعر — بوزن جعفر — هو شجر السرو ، والساج : شجر يعظم جداً ، وخشبه أسود رزين لا تكاد الأرض تبليه ، ومنبته بلاد الهند .

ولما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه بنى لهن حُجَراً ، وهى تسعة أبيات ، وهى ما بين بيت عائشة رضى الله عنها إلى الباب الذى يلى باب النبى صلى الله عليه وسلم ، انتهى . ومراده بالباب الذى يلى باب النبى صلى الله عليه وسلم الباب الذى فى الجهة المقابلة له من المغرب ، وهو المعروف الآن بباب الرحمة ، وإنما حملنا كلامه على ذلك لأنه وقع فى كلامه استعمال الباب الذى يليه بمعنى الباب الذى يقابله ، ولأنه قال عقبه : قال أهل السير : ضرب النبى صلى الله عليه وسلم الحجرات ما بينه و بين القبلة والشرق إلى الشام ، ولم يضر بها فى غر بيه ، وكانت خارجة من المسجد مديرة به إلا من المغرب ، وكانت أبوابها شارعة فى المسجد ، انتهى .

وكأن الخطيب ابن حملة فهم من هذا اختلافا فى مواضع الحجر ، فقال : قيل كانت كلها فى جهة المشرق ، وقيل : فى جهات المسجد ما عدا المغرب .

قلت : و يرجح ما قررناه ما رواه ابن الجوزى فى شرف المصطفى بسنده إلى محمد بن عمر قال : سألت مالك بن أبى الرجال : أين كانت منازل أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ؟ فأخبرنى عن أبيه عن أمه أنها كانت كلها فى الشق الأيسر إذا قمت إلى الصلاة إلى وجه الإمام فى وجه المنبر هذا أبعدها ، ولما توفيت زينب أدخل — أى النبى صلى الله عليه وسلم — أم سلمة بيتها ، انتهى ، ووجه المنبر ووجه الإمام يعنى إذا قام على المنبر بجهة الشام فى جهة الباب المعروف الآن بباب الرحمة قبل أن ينقل إلى محله اليوم ، وهو يقتضى أنه لم يكن من الحجر شىء فى جهة القبلة ، إلا أن تكون الرواية إلى وجه الإمام وفى وجه المنبر فيوافق ما تقدم عن أهل السير .

وأسند ابن زَبالة عن محمد بن هلال قال : أدركت بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم كانت من جريد مستورة بمسوح الشعر[1] مستطيرة فى القبلة وفى

---

(١) المسوح : جمع مسح — بالكسر — كساء من شعر كثوب الرهبان ، ويجمع على أمساح أيضاً ، وانظر حديث عطاء الخراسانى فى ص ٤٦١ الآتية .

المشرق والشام ، ليس فى غربى المسجد شىء منها ، وكان باب عائشة مواجهَ الشام ، وكان بمصراع واحد من عرعر أوساج .

وأسند يحيى من طريق الواقدى عن عبد الله بن يزيد الهذلى قال : رأيت بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم حين هدمها عمر بن عبد العزيز كانت من لبِن[١] ، ولها حجر من جريد مطرورة بالطين ، عددت تسعة أبيات بحُجَرها ، وهى ما بين بيت عائشة إلى الباب الذى يلى باب النبى صلى الله عليه وسلم إلى منزل أسماء بنت حسن اليوم .

قلت : وقوله « إلى الباب الذى يلى باب النبى صلى الله عليه وسلم » قد تقدم ما يؤخذ منه أن المراد به باب الرحمة ، وقوله « إلى منزل أسماء إلى آخره » يقتضى أن البيوت المذكورة كان بعضها خارجاً عن سَمْتِ[٢] المسجد؛ لأن بيت أسماء المذكور كان فى مقابلة الباب الذى كان يلى باب النساء من شاميه ، ويبعد أن يكون المسجد النبوى ممتداً إلى تلك الجهة فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، لكن سيأتى فى بيت فاطمة رضى الله عنها ما يصرح بأن بيتها كان ينتهى إلى الباب المذكور ؛ فيحتمل أن المسجد كان ممتداً إليه ، ويحتمل أن بعض البيت المذكور لم يكن فى محاذاة المسجد ، على أن البخارى روى فى صحيحه حديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد وعنده أزواجه فرجعن ، فقال لصفية بنت حيى : لا تعجلِى حتى أنصرف معك ، وكان بيتها فى دار أسامة ، فخرج النبى صلى الله عليه وسلم معها — الحديث » .

وفى رواية له عن صفية قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتكفاً ، فأتيته أزوره ليلا ، فحدثته ثم قمت ، فانقلبت ، فقام معى ليقلبنى ، وكان مسكنها فى دار أسامة بن زيد ، فمر رجلان من الأنصار — الحديثَ .

وفى رواية له أنها جاءت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم تزورُه وهو معتكف

---

(١) اللبن — بفتح فكسر — الطوب النىء

(٢) سمت المسجد : طريقه .

فى المسجد فى العشر الأواخر من رمضان ، ثم قامت تنقلب ، فقام معها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا بلغ قريباً من باب المسجد عند باب أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم مر بهما رجلان من الأنصار ـ الحديث ، وهو يقتضى أن صفية لم يكن مسكنها فى الحجر المحيطة بالمسجد .

ولم يتعرض ابن شبة لاتخاذ أسامة لدار ، وذكر أن أباه اتخذ دارين إحداها دخلت فى المسجد لما زيد فيه ، ولعلها المرادة والله أعلم .

ولنرجع إلى بقية ما أسنده يحيى عن عبد الله بن زيد ، قال : ورأيت بيت أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم وحجرتها من اللبن ، فسألت ابن ابنها ، فقال : لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم دُومَة الجندل بنت حجرتها باللبن ، فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم نظر إلى اللبن ودخل عليها أول نسائه ، فقال : ماهذا البناء؟ فقالت : أردتُ يارسول الله أن أكُفَّ أبصار الناس ، فقال : يا أم سلمة إن من شر ماذهب فيه مالُ المسلم البنيان ، قال الواقدى : فحدثت بهذا الحديث معاذ بن محمد الأنصارى ، فقال : سمعت عطاء الخراسانى فى مجلس فيه عمران بن أبى أنس يقول وهو فيما بين القبر والمنبر : أدركت حُجُرات أزواج النبى صلى الله عليه وسلم من جريد على أبوابها المسوح من شعر أسود (١) ، فحضرت كتاب الوليد ابن عبد الملك يقرأ يأمرنا بهدم حُجَر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فما رأيت يوما كان أكثر باكيا من ذلك اليوم . قال عطاء : فسمعت سعيد بن المسيب يقول : والله لوددت أنهم تركوها على حالها يَنْشَأ ناشىء من المدينة ويقدم قادم من الآفاق فيَرَى ما اكتفى به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، ويكون ذلك مما يزهد الناس فى التكاثر والتفاخر فيها ، قال معاذ : فلما فرغ عطاء الخراسانى من حديثه قال عمران بن أبى أنس : كان فيها أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد ، وكانت خمسة أبيات من جريد مُطَينة لا حجر لها على أبوابها مسوح الشعر ، ذرعت الستر فوجدته

(١) انظر ص ٤٥٩ السابقة .

ثلاثة أذرع فى ذراع وعظم الذراع ، فأما ماذكرت من كثرة البكاء فلقد رأيتنى فى المسجد وفيه نفر من أبناء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أبو سلمة بن عبد عبدالرحمن وأبو أمامة بن سهل وخارجة بن زيد وإنهم ليبكون حتى أخضَلَ لحاهم الدمع ، وقال يومئذ أبو أمامة : ليتها تركت حتى ينقص الناس من البنيان ويروا مارضى الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ومفاتيحُ خزائن الدنيا بيده .

وروى رزين عن عبدالله بن يزيد الهذلى قال: رأيت بيوتَ أزواج النبى صلى الله عليه وسلم حين هدَمها عمرُ بن عبد العزيز يُدخِلها فى المسجد مبنيةً باللبِن حولها حُجَر من جريد ممدودة إلا حجرة أم سلمة ، وذكر نحو ما تقدم باختصار .

وقال ابن الجوزى فى الوفاء : قال محمد بن عمر : كانت لحارثة بن النعمان منازل قرب المسجد وحوله ، وكلما أحدث رسول الله صلى عليه وسلم أهلا(١) نزل له حارثة عن منزله حتى صارت منازله كلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه .

قلت : وظاهره يخالف ماتقدم من أنه صلى الله عليه وسلم بنى أولا بيتين لزوجتيه ، وأنه لما تزوج نساءه بنى لهن حجرا ، وظاهره أنه كان كلما أحدث زوجة أحدث لهابناء حجرة ، فيحمل ما هنا على أن حارثة كان ينزل له عن مواضع المساكن ، وكان صلى الله عليه وسلم يبنيها .

ونقل الزركشى عن الشمس الذهبى أنه قال : لم يبلغنا أنه صلى الله عليه وسلم بنى له تسعة أبيات حين بنى المسجد ، ولا أحسبه فعل ذلك ، إنما كان يريد بيتا واحدا حينئذ لسودة أم المؤمنين ، ثم لم يحتج إلى بيت آخر حتى بنى لعائشة رضى الله عنها ، فى شوال سنة اثنين ، فكأنه صلى الله عليه وسلم بناها فى أوقات مختلفة . انتهى .

وهو مقتضى ماقدمناه ، غير أنه مخالف لما قدمناه فى بيت عائشة رضى الله عنها ، لما تقدم أنه بناه مع بناء المسجد ، وهو الظاهر ؛ لأنها كانت حينئذ زوجته ،

(١) أهل الرجل هنا : زوجته ، يريد كلما تزوج النبى صلى الله عليه وسلم .

غير أنه لم يَبْنِ لها فتأهب لذلك بأن بنى لها حجرتها .

وذكر الأقشهرى أن ابن عبد البر روى من طريق الزبير بن بكار عن عائشة رضى الله عنها خبرا طويلا فى قدومها المدينة قالت فيه : ثم إنا قدمنا المدينة ، فنزلتُ مع آل أبى بكر ، ونزل آلُ النبى صلى الله عليه وسلم عليه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبنى مسجده وأبياتا حول المسجد ، فأنزل فيها أهله ، فمكثنا أياما ، ثم قال أبو بكر : يارسول الله ما يمنعك أن تبنى بأهلك ؟ قال : الصداق ، فأعطاه أبو بكر اثنتى عشرة أوقية ونَشًّا[1] فبعث بها إلينا ، وبنى لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى هذا الذى أنا فيه ، وهو الذى توفى فيه ودفن فيه .

المشربة

قلت : ولم أرَ فى كلام المؤرخين مَنْ تعرض للمشربة التى اعتزل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم لما آلىٰ من نسائه شهرا ، ومقتضى ذلك أنه لم يكن بابها من بيت واحدة منهن ليتأتى عدم الدخول عليهن ، والذى فى الصحيح قول حفصة : هو ذا فى المشربة ، وفى رواية تسميتها عِلِّية ، وفى رواية غرفة ، وقد بوب عليه البخارى باب هجرة النبى صلى الله عليه وسلم نساءه فى غير بيوتهن ، وفى رواية « هو فى خزانته فى المشربة » وفى رواية « فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشربة يرقى عليها بعجلة » وفى رواية « فدخلت فإذا أنا برباح غلام رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد على أُسْكُفَّةَ المشربة[2] مدل رجليه على نقير من خشب وهو جذع يرقى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وينحدر »

وقال السهيلى: قال الحسن البصرى : كنت أدخل بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا غلام مراهق وأنال السقف بيدى ، وكان لكل بيت حجرة ، وكانت حجرة من أكسية من خشب عَرْعَرَ .

---

(١) النش — بفتح النون وتشديد الشين — نصف الأوقية ، وهو عشرون دورها . ويطلق النش على النصف من كل شىء .

(٢) الأسكفة — بضم الهمزة وسكون السين وضم الكاف وتشديد الفاء مفتوحة — الخشبة التى يطأ عليها الداخل من الباب .

وورد أن بابه صلى الله عليه وسلم كان يقرع بالأظافير : أى لا حلَق له .

وقال مالك : كان المسجد يضيق عن أهله ، وحُجَر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ليست من المسجد ، ولكن أبوابها شارعة فى المسجد [1] .

وقال ابن سعد : أوصت سَوْدَة ببيتها لعائشة رضى الله عنها ، وباع أولياء صفية بنت حُيَي بيتها من معاوية بمائة ألف وثمانين ألف درهم ، واشترى معاوية من عائشة منزلها بمائة ألف وثمانين ألف درهم ، وقيل : بمائتى ألف ، وشرط لها سكناها حياتها ، وحمل إليها المال ، فما قامت من مجلسها حتى قسمته ، وقيل : بل اشتراه ابن الزبير من عائشة ، وبعث إليها خمسة أجمال تحمل المال ، وشَرط لها سكناها حياتها ، ففرقت المال .

وأسند ابن زبالة عن هشام بن عروة قال : إن ابن الزبير ليعتدُّ بمكرمتين مايعتد أحد بمثلهما : أن عائشة أوصته ببيتها وحجرتها ، وأنه اشترى حجرة سَوْدة.

قلت : وهذا يقتضى أن الحجر الشريفة كانت على ملك نسائه صلى الله عليه وسلم ، ويؤيده ما تقدم من تصرف أم سلمة وبنائها لحجرتها فى غيبته صلى الله عليه وسلم ، ويعارضه ما تقدم من أن زينب بنت خزيمة لما توفيت أدخل النبىُّ صلى الله عليه وسلم أم سلمة بيتها ، وقد أضيفت البيوت فى القرآن العظيم مرة إليه صلى الله عليه وسلم ومرة إليهن ، والظاهر أن الإضافة الأولى هى الحقيقية ؛ لما تقدم من أن النبى صلى الله عليه وسلم بناها ، ولأنه كان يجب عليه إسكانهن ، غير أن لهن فيها بعده حق السكنى لحبسهن لحقه صلى الله عليه وسلم .

وقال الزبير بن المنير : إن غرض البخارى حيث ترجم بقوله « باب ماجاء فى بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم » وما نسب من البيوت إليهن وقول الله عز وجل « وَقَرْنَ فى بيوتكن » « ولا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم » أن يبين أن بهذه النسبة تحقيق دوام استحقاقهن البيوت ما بَقِينَ ؛ لأن نفقتهن وسكناهن من خصائص النبى صلى الله عليه وسلم ، والسر فيه حَبْسُهن عليه ، انتهى

---

(١) شارعة فى المسجد : مفتوحة فيه .

ويحتمل أنه صلى الله عليه وسلم كان قد مَلَّكَ بعضهن بيتها ، أو ملكهن كلهن كما ذهب إليه بعضهم .

قال الطبرى : قيل : كان النبى صلى الله عليه وسلم مَلَّكَ كلا من أزواجه البيت التى هى فيه فسكنَّ بعده فيهن بذلك التمليك ، وقيل : إنما لم يُنَازَعْنَ فى مساكنهن لأن ذلك من جملة مؤنتهن التى كان النبى صلى الله عليه وسلم استثناه لهن مما كان بيده أيام حياته حيث قال : ما تركت بعد نفقة نسائى ومؤنة عاملى فهو صدقة ، قال الطبرى : وهذا أرجح ، ويؤيده أن ورثتهن لم يرثوا عنهن منازلهن ، ولو كانت البيوت ملكا لهن لانتقلت إلى ورثتهن ، وفى ترك ورثتهن حقوقهم منها دلالة على ذلك ، ولهذا زيدت بعدهن فى المسجد لعموم نفعه للمسلمين ، انتهى .

وقد يناقش فيما ذكره من عدم إرث ورثتهن لمنازلهن ؛ إذ لا يلزم من عدم نقله انتفاءه مع أن فى قصة إدخال بيت حَفْصة فى المسجد وما وقع من آل عمر فى أمر طريق بيت حفصة ما يشهد لأن ورثتهن ورثوا ذلك ، ويحتمل أن إدخال الحُجَر فى المسجد كان بعد شرائها من الورثة ، وقد تقدم عن ابن سعد مايشهد لذلك ، وقد قال فى طبقاته أيضاً : أخبرنا إسرائيل عن جابر عن عامر قال : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يُوصِ إلا بمسكن أزواجه وأرض ، انتهى . وهذا يحتمل الوصية للأزواج بذلك ، ويحتمل غيره ، والله أعلم .

وادعى المهلب أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد حبس عليهن بيوتهن ، ثم استدل به على أن مَنْ حبس دارا جاز له أن يسكن منها فى موضع ، وتَعَقَّبَه ابن المنير بمنع أصل الدعوى ، وقد ترجم ابن شبة لعلم دور أزواج النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وذكر عن جماعة منهن اتخاذ دور فى أماكن متفرقة من المدينة ، فتلك غير الحُجَر المذكورة ، والظاهر أن اتخاذهن لذلك كان بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

الفصل العاشر

فى حجرة فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنها

أسند يحيى عن عيسى بن عبد الله عن أبيه أن بيت فاطمة رضى الله عنها فى الزور الذى فى القبر ، بينه و بين بيت النبى صلى الله عليه وسلم خَوْخَة .

وأسند عن عمر بن على بن عمر بن على بن الحسين قال : كان بيت فاطمة فى موضع الزور مخرج النبى صلى الله عليه وسلم، وكانت فيه كُوَّةٌ(١) إلى بيت عائشة رضى الله عنها ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى المخرج اطلع من الكوة إلى فاطمة فعلم خبرهم ، وأن فاطمة رضى الله عنها قالت لعلى : إن ابنىَّ أمْسَيَا عليلين فلو نظرت لنا أدما(٢) نستصبح به(٣) ، فخرج علىّ إلى السوق فاشترى لهم أدما ، وجاء به إلى فاطمة فاستصبحت ، فدخلت عائشة المخرج فى جوف الليل فأبصرت المصباح عندهم ، وذكر كلاما وقع بينهما ، فلما أصبحوا سألت فاطمة النبى صلى الله عليه وسلم أن يَسُدَّ الكوة ، فسدها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأسند يحيى عقب ذلك حديث عائشة « قلت : يارسول الله ندخل كنيفك فلا نرى شيئاً من الأذى ، فقال : الأرض تبلع ما يخرج من الأنبياء من الأذى فلا يرى منه شىء » فأشعر صنيع يحيى أن المراد من المخرج موضع الكنيف ، وأفهم ذلك أن المخرج المذكور كان خلف حجرة عائشة رضى الله عنها ، بينها و بين بيت فاطمة رضى الله عنها ، وذلك يقتضى أن يكون محله فى الزور ، أعنى الموضع المزور شبه المثلث فى بناء عمر بن عبد العزيز فى جهة الشام .

و يشهد لذلك ما أسنده يحيى عن مسلم عن ابن أبى مريم أن عرض بيت

---

(١) كوة ـ بضم الكاف أو فتحها وتشديد الواو مفتوحة ـ الخرق فى الحائط .

(٢) الأدم : أراد به هنا الزيت ، وأصله كل ما يؤكل مع الخبز

(٣) نستصبح به : نستضىء ، ومعناه الحرفى نطلب به الصباح

فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأسطوانة التى خلف الأسطوان المواجهة الزور ، قال : وكان بابه فى المربعة التى فى القبر .

وقد أسند أبو غسان كما قاله ابن شبة عن مسلم بن سالم بن مسلم بن أبى مريم قال : عَرَّسَ على رضى الله عنه بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأسطوان التى خلف الأسطوان المواجهة الزور ، وكانت داره فى المربعة التى فى القبر ، قال سليمان : وقال مسلم : لا تَنْسَ حظك من الصلاة إليها ؛ فإنه باب فاطمة التى كان علىّ يدخل إليها منه ، وقد رأيت حسن بن زيد يصلى إليها .

وقد ذكرنا فى فضل أسطوان مربعة القبر ماورد من أنه صلى الله عليه وسلم « كان يأتى باب على كل يوم » وفى رواية « عند صلاة الصبح » وفى رواية يحيى « إلى باب علىّ وفاطمة وحسن وحسين حتى يأخذ بعضادتى الباب ويقول : السلام عليكم أهل البيت » وفى رواية فيقول « الصلاةَ الصلاةَ الصلاةَ ، ثلاث مرات ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » وذكرنا أيضاً أن أسطوان التهجد خلف بيت فاطمة رضى الله عنها .

وروى الطبرانى من حديث أبى ثعلبة : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم يثنى بفاطمة ، ثم يأتى أزواجه ، وفى لفظ : ثم بدأ ببيت فاطمة ، ثم يأتى بيوت نسائه .

وأسند يحيى عن محمد بن قيس قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر أتى فاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث ، فخرج مرة فى سفر وصنعت فاطمة مَسكتين (١) من ورِق وقلادةً وقُرْطين ، وسترت باب البيت لقدوم أبيها وزوجها ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليها ، ووقف أصحابه على

---

(١) مسكتين : تثنية مسكة ـ بالتحريك ، والمسكة : السوار يتخذ من قرون الأوعال ، وقيل من جلود دابة بحرية ، والمراد هنا السوار مطلقاً ؛ لأنه ذكر أنهما من فضة .

الباب لايدرون أيقيمون أم ينصرفون لطول مكثه عندها ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عُرِف الغَضَبُ فى وجهه ، حتى جلس على المنبر ، ففطنت فاطمة أنه فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والستر ، فنزعت قرطيها وقلادتها ومسكتيها ونزعَتِ الستر و بعثت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت للرسول : قل له تقرأ عليك ابنتُكَ السلام، وتقول لك : اجعل هذا فى سبيل الله ، فلما أتاه قال : قد فَعَلَتْ فداها أبوها ، ثلاث مرات ، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جَنَاحَ بعوضةٍ ما سقى كافرا منها شربة ماء ، ثم قام فدخل عليها .

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قومٌ عُرَاة كانوا غُزَاة بالروم ، فدخل على فاطمة وقد سترت سترا قال : أيَسُرُّك أن يسترك الله يومَ القيامة ؟ فأعطنيه ، فأعطته ، فخرج به فشقه لكل إنسان ذراعين فى ذراع .

وعن على رضى الله عنه قال : زارنا النبى صلى الله عليه وسلم ، فبات عندنا والحسنُ والحسين نائمان، واستسقى الحسن، فقام النبى صلى الله عليه وسلم إلى قِرْبة لنا فجعل يعصرها فى القدح ثم جعل يَصُبُّه[1] ، فتناول الحسين فمنعه ، و بدأ بالحسن، فقالت فاطمة : يارسول الله كأنه أحَبُّ إليك ، قال : إنما استسقى أول ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى و إياك وهذان وهذا الراقد يعنى عليا يوم القيامة فى مكان واحد ، وعن أبى سعيد الخدرى أيضاً مثله .

وعن على قال : زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعملنا له خزيرة[2] ، وأهدت لنا أم أيمن قَعْباً من لبن وصحفة من تمر ، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكلنا معه ، ثم وَضَّأت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمسح رأسه وجبهته بيده ، ثم استقبل القبلة فدعا بما شاء ، ثم أكَبَّ إلى الأرض بدموع

---

(١) وقع فى المطبوعات كلها «يعبعبه» تحريف ما أثبتناه

(٢) خزيرة: هى لحم يقطع صغاراً ويصب عليه ماء كثير، فإذا نضج ذر عليه الدقيق .

غزيرة[١]، يفعل ذلك ثلاث مرات، فتهيبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نسأله ، فوثب الحسينُ على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم و بكى ، فقال له : بأبى وأمى ما يبكيك ؟ قال : يا أبتِ رأيتك تصنع شيئا ما رأيتك تصنع مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بنىّ سُرِرْتُ بكم اليوم سرورا لم أسرَّ بكم مثله قط ، و إن حبيبى جبريل عليه السلام أتانى وأخبرنى أنكم قَتْلَى ، وأن مصارعكم شتّى ، فأحزننى ذلك ، ودعوت الله تعالى لكم بالخِيَرَة .

وقال ابن النجار : و بيت فاطمة اليوم حوله مقصورة وفيه محراب ، وهو خلف حجرة النبى صلى الله عليه وسلم .

قلت : المقصوره اليوم دائرة عليه وعلى حجرة عائشة رضى الله عنها كما سيأتى بيانه ، والمحراب الذى ذكره خلف حجرة عائشة من جهة الزور بينه و بينه موضع تحترمه الناس ولا يدوسونه بأرجلهم ، يذكر أنه موضع قبر فاطمة رضى الله عنها كما هو أحد الأقوال الآتية فيه ، وقد اقتضى ماقدمناه أن بيت فاطمة رضى الله عنها كان فيما بين مربعة القبر وأسطوان التهجد ، وأنه عَرَّس بها إلى الأسطوان الذى إليه المحراب الموجود اليوم فى بيتها ؛ لأن الأسطوان المواجه للزور هو الأسطوان الذى فى صف المربعة اللاصق بالجدار الداخل من الحجرة الشريفة ، كان بعضه فى حائطها الشامى ، وأدخل كله فيه فى العمارة التى أدركناها ، وخلفه الأسطوانة التى التقى عندها زاويتا الزور ، وخلفها الأسطوانة التى إليها المحراب المذكور ؛ فيصدق عليها ما تقدم فى كلام ابن شبة نقلا عن رواية أبى غسان من أن عليا رضى الله عنه عَرَّس بفاطمة إلى الأسطوان التى خلف الأسطوان المواجه الزور ، لكن قال ابن شبة قبل ذلك ما لفظه : واتخذ على بن أبى طالب بالمدينة دارين إحداهما دخلت فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى منزل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التى كان يسكن ، وموضعها من المسجد بين دار

---

(١) غزيرة : كثيرة

عثمان بن عفان التى فى شرقى المسجد و بين الباب المواجه دار أسماء بنت حسن ابن عبد الله بن عبيد الله بن عباس فى شرقى المسجد ، والأخرى دار علىّ التى بالبقيع ، وهى بأيدى ولد علىّ على حوز الصدقة ، اه .

وقوله « بين دار عثمان » أى ما يحاذيها ، وقوله « و بين الباب المواجه دار أسماء » أى ما يحاذيه أيضا ، وسيأتى أن هذا الباب كان بعد باب النساء مقابلا لرباط النساء المعروف اليوم برباط السبيل ، وهو بعيد من وجوه :

أحدها : ما تقدم فى أسطوان التهجد من أنه كان خلف بيت فاطمة .

الثانى : أنهم متفقون على أن باب جبريل المقابل لدار عثمان كان موجودا فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، فكيف يصح كون دار على فى ذلك الموضع .

الثالث : أن عمر بن الخطاب أول من زاد فى المسجد وأحدث باب النساء ، وهو فيما بين باب جبريل والباب الذى ذكره ابن شبة ، و بيتُ فاطمة إنما أدخله فى المسجد الوليدُ ، وسنذكر ما اتفق عند إدخاله فى زيادة الوليد .

وقد يقال : إن الشارع كان بين المسجد النبوى و بين بيت فاطمة من جهة مؤخرهِ ، فيتأتى مع ذلك اتخاذ عمر لباب النساء من غير تعرض لبيت فاطمة ، وكذا يقال فى باب جبريل : إنه كان فى محاذاة موضعه اليوم ، لكن كان الشارع بينه و بين بيت فاطمة من تلك الجهة . ويؤيد ذلك أنهم لما حفروا للدعامة الغربية التى إليها باب الحجرة الشامى عند بناء القبة والعقود التى حولها بالحجرة الشريفة بعد الحريق الذى أدركناه وجدوا فى محاذاة باب جبريل أمام باب الحجرة المذكور درجا تحت الأرض آخذة لجهة الشام ، وقدسبق فى حدود المسجد النبوى ما يقتضى أن جداره فى المشرق كان هناك ، فترجح عندى أن تلك الدرج كانت لباب جبريل عليه السلام ، وأنه كان هناك قبل تحويله ، والله أعلم

الفصل الحادى عشر

فى الأمر بسدِّ الأبواب الشارعة فى المسجد الشريف

و بيان ما استثنى من ذلك .

قال البخارى : باب قول النبى صلى الله عليه وسلم سُدُّوا الأبواب إلا باب أبى بكر ، قاله ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد وَصَله البخارى فى الصلاة بلفظ سدوا عنى كل خوخة ، فكأنه ذكره هنا بالمعنى ، ثم أسند البخارى فى الباب حديثَ أبى سعيد الخدرى قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناسَ وقال : إن الله خَيَّرَ عبدا بين الدنيا و بين ما عنده ، فاختار ذلك العبدُ ما عند الله . قال : فبكى أبو بكر ، فتعجبنا لبكائه أن يخبر[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خُيِّر ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير ، وكان أبو بكر أعلَمَنَا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أَمَنَّ الناس علىّ فى صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقَيَنَّ فى المسجد بابٌ إلا سُدَّ إلا بابَ أبى بكر .

ورواه مسلم من طريق مالك بن أنس بنحوه ، وقال : لا يبقَيَنَّ فى المسجد خَوْخة إلا خَوْخة أبى بكر .

والخوخة : طاقة فى الجدار تفتح لأجل الضوء ، ولا يشترط علوها ، وحيث تكون سفلى يمكن الاستطراق منها لاستقراب الوصول إلى مكان مطلوب ، وهو المقصود هنا ، لهذا أطلق عليها باب ، وقيل : لا يطلق عليها باب إلا إذا كانت تغلق

وفى حديث ابن عباس المشار إليه فى الصلاة أن ذلك فى مرضه صلى الله عليه وسلم الذى مات فيه ، ولمسلم من حديث جندب : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول قبل أن يموت بخمس ليال ، وذكر الحديث .

---

(١) « أن يخبر » أى لأن يخبر ، ومعناه فتعجبنا لبكائه من أجل أن يخبر النبى صلى الله عليه وسلم عن عبد خيره الله — إلخ

وروى عبدُ الله بن أحمد برجال ثقات عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبو بكر صاحبي ومؤنسي في الغار ، سُدُّوا كل خَوْخة في المسجد غير خَوْخة أبي بكر .

وروى الطبراني بإسنادٍ حسنٍ عن معاوية رضى الله عنه نحوه ، وفيه أن ذلك بعد أن صُبَّ عليه صلى الله عليه وسلم من سبع قرب من آبار شتى ، ولفظه : انظروا هذه الأبواب الشوّارع[1] في المسجد فسدوها إلا ما كان من باب أبي بكر .

وروى أبو يَعْلَى — ورجالُه ثقات — عن عائشة نحوه أيضا .

وفي طبقات ابن سعد : أخبرنا قتيبة بن سعيد البَلْخِي ثنا الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن أعظم الناس على مَنًّا في صحبته وذات يده أبو بكر ، فأغلقوا هذه الأبواب الشارعة كلها في المسجد إلا باب أبي بكر .

وقال قتيبة بن سعيد : قال الليث بن سعد : قال معاوية بن صالح : فقال ناس : أَغْلَقَ أبوابنا وترك باب خليله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد بلغني الذي قلتم في باب أبي بكر ، وإني أرى على باب أبي بكر نورا ، وأرى على أبوابكم ظلمة .

وفيها أيضاً : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثني الزبير بن موسى عن أبي الحويرث قال : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأبواب تسد إلا باب أبي بكر قال عمر : يا رسول الله دَعْنِي افتحْ كَوَّةً أنظر إليك حين تخرج إلى الصلاة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا

قال الخطابي وابن بطال : في هذا الحديث إشارة قوية إلى استحقاق أبي بكر رضي الله عنه للخلافة ، ولاسيما وقد ثبت أن ذلك كان في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم في الوقت الذي أمرهم فيه أن لا يؤمهم إلا أبو بكر

---

(١) الشوارع : جمع شارع ، ومعناه نافذ ، أي الأبواب النافذة في المسجد

قال الحافظ ابن حجر : وقد ادعى بعضهم أن الباب كناية عن الخلافة ، والأمر بالسد كناية عن طلبها ، كأنه قال : لا يطلبن أحد الخلافة إلا أبا بكر فإنه لا حَرَجَ عليه فى طلبها ، و إلى هذا جَنَحَ ابن حبان، وقوى بعضهم ذلك بأن منزل أبى بكر كان بالسُّنْح[1] من عوَالى المدينة فلا يكون له خَوْخة إلى المسجد

قال الحافظ ابن حجر:وهذا الاستناد ضعيف ؛ لأنه لا يلزم من كون منزله كان بالسُّنْح[1] أن لا يكون له دار مجاورة للمسجد، ومنزله الذى كان بالسنح[1] هو منزل أصهاره من الأنصار ، وقد كان له إذ ذاك زوجة أخرى، وهى أسماء بنت عُمَيْس ، بالاتفاق ، وأم رومان على القول بأنها كانت باقية يومئذ ، وقد ذكر عمر بن شبة فى أخبار المدينة أن دار أبى بكر التى أذن له فى إبقاء الخوخة منها إلى المسجد كانت ملاصقة للمسجد ، ولم تزل بيد أبى بكر حتى احتاج إلى شىء يعطيه لبعض مَنْ وفَدَ عليه فباعها فاشترتها منه حفصة أم المؤمنين بأربعة آلاف درهم .

قلت : وسيأتى بقية ما ذكره فى إدخالها فى المسجد فى زيادة عمر رضى الله عنه

وقال ابن شبة أيضا فى ذكر دور بنى تَيْم : اتخذ أبو بكر رضى الله عنه دارا فى زُقَاق البقيع قبالة دار عثمان الصغرى ، واتخذ منزلا آخر أيضا عند المسجد ، وهو المنزل الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : سدوا عنى هذه الأبواب إلا ما كان من باب أبى بكر .

قال أبو غسان : أخبرنى محمد بن إسماعيل بن أبى فديك أن عمه أخبره أن الخوخة الشارعة فى دار القضاء فى غربى المسجد خوخة أبى بكر الصديق التى قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : سُدُّوا عنى هذه الأبواب إلا ما كان من خوخة أبى بكر الصديق، واتخذ أبو بكر أيضا بيتا بالسُّنْح[1]، اهـ كلام ابن شبة .

وقال الجمال المطرى : وأما خوخة أبى بكر رضى الله عنه فإن ابن النجار قال : قال أهل السير: إن باب أبى بكر كان غربى المسجد، ونقل أيضا أنه كان قريب المنبر،

---

(١) السنح ـ بضم السين وسكون النون ويقال : بضم السين والنون جميعاً ـ موضع بعوالى المدينة فيه منازل بنى الحارث بن الخزرج

ولما زادوا فى المسجد إلى حده فى الغرب نقلوا الخوخة[1] وجعلوها فى مثل مكانها أولا، كما نقل باب عثمان إلى موضعه اليوم .

قال المطرى : وباب خوخة أبى بكر اليوم هو باب خزانة لبعض حواصل الحرم ، إذا دخلت من باب السلام كانت على يسارك قريباً من الباب .

قلت:وهذه الخزانة جعل فى جهتها عند عمارة المدرسة الأشرفية ثلاثة أبواب، ومحل الخوخة من ذلك الباب الثالث من على يسارك إذا دخلت من باب السلام، وتعرف قديماً بخزانة النورة لوضعها فيها للعمارة .

وكلامه فى ذلك يوافق ما ذكره ابن زبالة فإنه قال : وحدثنى محمد بن إسماعيل عن إسحاق بن مسلم أن الخوخة التى إلى جنب باب زياد فى غربى المسجد الشارعة فى رحبة القضاء هى يُمْـنَى خوخة أبى بكر ، لما زيد فى المسجد نُحِّيَتْ فجعلت يمناها : أى فى موازاتها من جهة اليمين ، ورحبة القضاء خلف الخوخة المتقـدم وصفها من جهة الحصن العتيق المتخذ مدرسة للسلطان الأشرف بعد الحريق الذى أدركناه .

قال الحافظ ابن حجر : وقد جاء فى سد الأبواب التى حول المسجد أحاديث يخالف ظاهرها ما تقدم : منها حديث سعد بن أبى وقاص قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب الشارعة فى المسجد ، وترك باب على ، أخرجه أحمد والنسائى وإسناده قوى ، وفى رواية للطبرانى فى الأوسط رجالها ثقاة : فقالوا يا رسول الله سددت أبوابنا ، فقال : ما أنا سددتها ولـكن الله سدها ، وعن زيد ابن أرقم قال : كان لنفر من الصحابة أبواب شارعة فى المسجد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سُدُّوا هذه الأبواب إلا باب علىّ ، فتكلم ناس فى ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى والله ماسددت شيئا ولا فتحته ، ولـكن أمرت بشىء فاتبعته ، أخرجه أحمد والنسائى والحاكم ورجاله ثقات .

---

(١) الخوخة ــ بفتح الخاء وسكون الواو ــ باب صغير كالنافذة الـكبيرة،وتكون بين بيتين ينصب عليها باب ، قاله ابن الأثير .

قلت : لفظ رواية أحمد : عن زيد بن أرقم قال : كان لنفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبواب شارعة فى المسجد ، قال : فقال يوماً : سُدُّوا هذه الأبواب إلا باب علىّ ، فتكلم أناس فى ذلك ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه وقال : أما بعد فإنى قد أمَرْتُ بسدِّ هذه الأبواب غير باب على ، فقال فيه قائلكم ، و إنى والله ما سَدَدْتُ شيئاً ولا فتحته ، الحديثَ .

وعن ابن عباس قال : أمَرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بأبواب المسجد فسُدَّت إلا باب على ، وفى رواية : وأمر بسد أبواب المسجد غير باب على ؛ فكان يدخل المسجد وهو جنب ليس له طريق غيره ، أخرجهما أحمد والنسائى ، ورجالهما ثقات .

وعن جابر بن سمرة قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب كلها غير باب على ، فربما مر فيه وهو جنب ، أخرجه الطبرانى .

وعن ابن عمر : كنا نقول فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم : رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خيرُ الناس ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ولقد أعطى على بن أبى طالب ثلاث خصال لأن يكونَ لى واحدةٌ منهن أحَبُّ إلىّ من حُمُرِ النَّعَم: زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته وولدت له ، وسدَّ الأبواب إلا بابه فى المسجد ، وأعطى له الراية يوم[1] خيبر ، أخرجه أحمد ، و إسناده حسن .

وأخرج النسائى من طريق العلاء بن عرار — بمهملات — قال : قلت لابن عمر : أخبرنى عن على وعثمان ، فذكر الحديث ، وفيه : وأما على فلا تسأل عنه أحَداً ، وانظر إلى منزله مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد سدَّ أبوابنا فى المسجد وأقر بابه ، ورجاله رجالُ الصحيح ، إلا العلاء وقد وثَّقه يحيى بن مَعين وغيره.

---

(١) أى بعد أن قال قبل إعطائها إياه : « لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله »

قال الحافظ ابن حجر : وهذه الأحاديث تقوى بعضها بعضاً ، وكل طريق منها صالحة للاحتجاج ، فضلا عن مجموعها ، وقد أورد ابن الجوزى هذا الحديث فى الموضوعات ، وأخرجه من حديث سعد بن أبى وقاص وزيد بن أرقم وابن عمر مقتصراً على بعض طرقه عنهم ، وأعَلَّه ببعض من تكلم فيه من رواته ، وليس ذلك بقادح لما ذكرت من كثرة الطرق ، وأعله أيضاً بأنه مخالف للأحاديث الصحيحة الثابتة فى باب أبى بكر ، وزعم أنه من وضع الرافضة قابلوا به الحديث الصحيح فى باب أبى بكر .

قال الحافظ ابن حجر : وقد أخطأ فى ذلك خطأ شنيعاً ؛ فإنه سلك رد الأحاديث الصحيحة بتوهمه المعارضة ، مع أن الجمع بين القصتين ممكن .

وقد أشار إلى ذلك البزار فى مسنده فقال : وَرَدَ من روايات أهل الكوفة بأسانيدَ حسانٍ فى قصة على ، وورد من روايات أهل المدينة فى قصة أبى بكر فإن ثبتت روايات أهل الكوفة فالجمعُ بينهما بما دل عليه حديثُ أبى سعيد الخدرى — يعنى الذى أخرجه الترمذى — أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا يحلُّ لأحد أن يطرق هذا المسجد جنباً غيرى وغيرك ، والمعنى أن باب على كان إلى جهة المسجد ، ولم يكن لبيته باب غيره ؛ فلذلك لم يؤمر بسده .

ويؤيد ذلك ما أخرجه إسماعيل القاضى فى أحكام القرآن من طريق المطلب ابن عبد الله بن حنطب أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يأذن لأحدٍ أن يمر فى المسجد وهو جنب إلا لعلى بن أبى طالب ؛ لأن بيته كان فى المسجد ، ومحصل الجمع أن الأمر بسد الأبواب وقع مرتين ؛ ففى الأولى استثنى علياً لما ذكره من كون بابه كان إلى المسجد ولم يكن له غيره ، وفى الأخرى استثنى أبا بكر ، ولكن لا يتم ذلك إلا بأن يحمل ما فى قصة علىّ على الباب الحقيقى ، وما فى قصة أبى بكر على الباب المجازى ، والمراد به الخوخة كما صرح به فى بعض طرقه ،

وكأنهم لما امِرُوا بسد الأبواب سَدُّوها وأحدثوا خوخا يستقربون الدخول إلى المسجد منها ، فأمروا بعد ذلك بسدها .

فهذه طريقة لا بأس بها في الجمع بين الحديثين المذكورين ؛ وبها جَمعَ بينهما الطحاوى فى مشكل الآثار ، والكلاباذى فى معانى الأخبار ، وصرح بأن بيت أبى بكر كان له باب من خارج المسجد وخوخة إلى داخل المسجد ، وبيت على لم يَكن له باب إلا من داخل المسجد ، انتهى ما أورده الحافظ بن حجر فى ذلك .

قلت : والعبارة تحتاج إلى تنقيح ؛ لأن ما ذكره بقوله « ومحصل الجمع » طريقة أخرى فى الجمع غير الطريقة المتقدمة ؛ إذ محصل الطريقة المتقدمة أن البابين بَقيا ، وأن المأمورين بالسد هم الذين كان لهم أبواب إلى غير المسجد مع أبواب من المسجد ، وأما على فلم يكن بابه إلا من المسجد ، وأن الشارع صلى الله عليه وسلم خَصَّه بذلك ، وجعل طريقه إلى بيته المسجدَ لما سبق ، فباب أبى بكر هو المحتاج إلى الاستثناء ، ولذلك اقتصر الأكثر عليه ، ومَنْ ذكر باب على فإنما أراد بيان أنه لم يسد ، وأنه وقع التصريح بإبقائه أيضاً ، والطريقة الثانية تعدد الواقعة ، وأن قصة على كانت متقدمة على قصة أبى بكر رضى الله عنهما .

ويؤيد ذلك ما أسنده يحيى من طريق ابن زبالة وغيره عن عبد الله بن مسلم الهلالى عن أبيه عن أخيه قال : لما أمر بسد أبوابهم التى فى المسجد خرج حمزة بن عبد المطلب يجرُّ قطيفةً له حمراء ، وعيناه تَذْرِفَانِ يبكى يقول : يا رسول الله أخرجْتَ عمك وأسكنت ابن عمك ، فقال : ما أنا أخرجتك ولا أسكنته ، ولكن الله أسكنه ، فذكر حمزة رضى الله عنه فى القصة يدل على تقدمها .

وروى البزار وفيه ضعفاء قد وثقوا عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انطلق فمرهم فليسدوا أبوابهم ، فانطلقت فقلت لهم ،

ففعلوا إلا حمزة ، فقلت : يارسول الله قد فعلوا إلا حمزة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل لحمزة فليحول بابه ، فقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تحول بابك ، فحوله ، فرجعت إليه وهو قائم يصلى ، فقال : ارجع إلى بيتك .

وروى البزار بإسنادٍ قال الهيثمى : فيه من لم أعرفه ، عن على رضى الله عنه قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى ، فقال : إن موسى سأل ربه أن يطهر مسجده بهارون ، وإنى سألت ربى أن يطهر مسجدى بك وبذريتك ، ثم أرسل إلى أبى بكر أن سُدَّ بابك ، فاسترجع ثم قال : سمع وطاعة ، فسد بابه ، ثم أرسل إلى عمر ، ثم أرسل إلى العباس بمثل ذلك ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما أنا سَدَدْتُ أبوابكم وفتحت باب على ، ولكن الله فتح باب على وسد أبوابكم »

قلت : ذِكْرُ العباسِ بَدَل حمزة هنا وفيما سيأتى فيه نظر ؛ لأنه يقتضى تأخر ذلك ؛ لأنه إنما قدم المدينة عام الفتح

وأسند ابن زَبالة ويحيى من طريقه عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينما الناسُ جلوس فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ خرج مُنادٍ فنادى : أيها الناس سُدُّوا أبوابكم ، فتحسحس(١) الناس لذلك ولم يقم أحد ، ثم خرج الثانية فقال : أيها الناس سدوا أبوابكم ، فلم يقم أحد ، فقال الناس: ما أراد بهذا ؟ فخرج فقال : أيها الناس سدوا أبوابكم قبل أن ينزل العذاب ، فخرج الناس مبادرين ، وخرج حمزة بن عبد المطلب يجر كساءه حين نادى سدوا أبوابكم ، قال : ولكل رجل منهم باب إلى المسجد أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم ، قال : وجاء على حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : مايقيمك ؟

---

(١) تحسحس الناس لذلك : توجعوا ، يقال : حسست لهذا الأمر أحس — من باب ضرب — وحسست وتحسحست : أى توجعت له ورققت وتحركت

ارجع إلى رَحْلك ، ولم يأمره بالسد ، فقالوا : سدَّ أبوابَنَا وترك باب على وهو أحْدَثُنا (١) ،فقال بعضهم: تركه لقرابته، فقالوا: حمزة أقربُ منه، وأخوه من الرضاعة وعمه ، وقال بعضهم : تركه من أجل ابنته ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم بعد ثالثة فحمد الله وأثنى عليه محمرا وجهه — وكان إذا غضب احمر عِرْقٌ فى وجهه — ثم قال : أما بعد ذلكم فإن الله أوحى إلى موسى أن اتخذ مسجدا طاهرا لا يسكنه إلا هو وهارون وأبناء هارون شبرا وشبيرا ، وإن الله أوحى إلى أن أتخذ مسجداً طاهرا لا يسكنه إلا أنا وعلى وأبناء على حسن وحسين ، وقد قدمت المدينة ، واتخذت بها مسجدا ، وما أردت التحول إليه حتى أمرت ، وما أعلم إلا ما عُلِّمت ، وما أصنع إلا ما أمرت . فخرجْتُ على ناقتى ، فلقينى الأنصار يقولون : يارسول الله انزل علينا ، فقلت : خلوا الناقة فإنها مأمورة حتى نزلت حيث بركت ، والله ما أنا سددت الأبواب وما أنا فتحتها ، وما أنا أسكنت علياً ، ولكن الله أسكنه .

وروى أحمد بإسناد حسن عن سعد بن مالك قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب الشارعة فى المسجد ، وترك باب على رضى الله عنه ، ورواه أبو يعلى والبزار والطبرانى فى الأوسط ، وزاد : قالوا : يا رسول الله سددت أبوابنا كلها إلا باب على ، قال : ما أنا سددت أبوابكم ، ولكن الله سدها .

وأسنده يحيى عنه بلفظ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالأبواب فسدت إلا باب على ، فقال العباس : يارسول الله سددت أبوابنا إلا باب على ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا سددتها ولا أنا فتحتها .

وعن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سُدّوا أبواب المسجد إلا باب على ، فقال رجل : اترك لى قَدْرَ ما أخرج وأدخل ، فقال رسول

---

(١) أحدثنا : أصغرنا سناً

الله صلى الله عليه وسلم : لم أومر بذلك ، قال : اترك بقدر ما أخرج صدرى يارسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أومر بذلك ، وانصرف ، قال رجل : فبقدر رأسى يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أومر بذلك ، وانصرف واجدا (١) باكيا حزينا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أومر بذلك ، سدوا الأبواب إلا باب على .

و رواه الطبرانى عن جابر مختصرا ، وفيه ناصح بن عبد الله ، وهو متروك ، ولفظ الطبرانى : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب كلها غير باب على رضى الله عنه ، فقال العباس : يا رسول الله اترك لى قدر ما أدخل أنا وحدى وأخرج ، فقال : ما أمرت بشىء من ذلك ، فسدّها كلها غير باب على ، قال : وربما مر وهو جنب .

وأسند ابن زَبَالة و يحيى من طريقه عن عمرو بن سهل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بسدّ الأبواب الشوارع فى المسجد ، قال له رجل من أصحابه : يارسول الله دَعْ لى كُوَّةً أنظر إليك منها حين تغدو وحين تروح ، فقال : لا والله ولا مثل ثقب الإبرة .

قلت : وقد اقتضى ذلك المنع من الخوخة أيضا ، بل ومما دونها ، عند الأمر بسد الأبواب أولا ، فإن صح ذلك فيحمل الإذن بعده فى اتخاذ الخوخ ، ثم كانت قصة أبى بكر بعد ذلك .

وفى طبقات ابن سعد : أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثنى عبد الرحمن بن الواقفى عن صالح بن حسان عن أبى البداح بن عاصم بن عدى قال : قال العباس بن عبد المطلب : يا رسول الله ما بالُكَ فتحت أبواب رجال فى المسجد ، وما بالك سَدَدْتَ أبواب رجال فى المسجد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عباس ما فتحتُ عن أمرى ولا سددت عن أمرى ، والله أعلم .

---

(١) واجداً : غضبان ، وجد يجد وجداً وموجدة : أى غضب ، وفى حديث الإيمان « إنى سائلك فلا تجد على » أى لا تغضب من سؤالى

الفصل الثانى عشر
فى زيادة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى المسجد

سيأتى فى الفصل الرابع عشر من رواية البخارى وأبى داود عن ابن عمر أن أبا بكر رضى الله عنه لم يَزِدْ فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، وزاد فيه عمر ، وسيأتى فى رواية لأبى داود أن سَوَارِىَ المسجد نَخِرَتْ فى خلافة أبى أبى بكر ، فبناها بجذوع النخل ، وهو لاينافى رواية أنه لم يزد فيه ، وقال أهل السير : لم يزد أبو بكر فى المسجد شيئاً لأنه اشتغل بالفتح ، فلما ولى عمر قال : إنى أريد أن أزِيدَ فى المسجد ، ولولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينبغى أن يزاد المسجد » مازدت فيه شيئا .

وفى تاريخ اليافعى أن زيادته فيه كانت فى سنة سبع عشرة ، وذكر غيره أنه زاد فى هذه السنة فى المسجد الحرام ، ولم يتعرض لتاريخ زيادته فى مسجد المدينة .

وأسند ابن زَبالة عن أنس قال : لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وولى أبو بكر لم يحول المسجد ، فلما ولى عمر جعل أساطينه من لَبِن[1] ، ونزع الخشب ، ومده فى القبلة ، وكان حد جدار عمر من القبلة ، على أول أساطين القبلة التى إليها المقصورة : أى التى كانت بين صف الأساطين التى تلى القبلة على الرواق القبلى .

والذى فى صحيح البخارى وسنن أبى داود كما سيأتى أن عمر رضى الله عنه زاد فى المسجد ، وبَنَاه على بنائه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم باللَّبِن[1] والجريد ، وأعاد عمده خَشَبا ، وهذا مخالف لما فى رواية ابن زبالة من أن عمر جعل أساطينه من لَبِن[1] ، والمُعَوَّلُ عليه روايةُ الصحيح .

وروى أحمد عن نافع أن عمر رضى الله عنه زاد فى المسجد من الأسطوانة

(١) اللبن — بفتح فكسر — الطوب النىء الذى لم يحرق بالنار .

إلى المقصورة ، ، وقال عمر : لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينبغى أن نَزِيد فى مسجدنا » مازدت .

وأسند يحيى عن ابن عمر أن عمر رضى الله عنهما قال : لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينبغى أن نزيد فى المسجد » ما زدت فى المسجد شيئاً .

وفى رواية له أن ابن عمر قال : إن الناس كثروا فى عهد عمر ، فقال له قائل : يا أمير المؤمنين لو وسَّعْتَ فى المسجد ، فقال عمر : لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنى أريد أن أزِيدَ فى قبلة مسجدنا » ما زدت فيه .

وأسند ابن زَبَالة عن مسلم بن حباب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوما وهو فى مصلاه فى المسجد « لو زدنا فى مسجدنا » وأشار بيده نحو القبلة ، فأدخلوا رجلا وأجلسوه فى موضع مصلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم رفعوا يَدَ الرجل وخفضوها حتى رأوا أن ذلك نحو ما رأى النبى صلى الله عليه وسلم رفع يده ، ثم مدوا مِقَاطاً[(١)] فوضعوا طرفه بيد الرجل ، ثم مدوه، فلم يزالوا يقدمونه و يؤخرونه حتى رأوا أن ذلك فيه بما أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم من الزيادة ، فقدم عمر القبلة ، فكان موضع جدار عمر فى موضع عيدان المقصورة .

بين عمر والعباس

وقال ابن سعد : أنا يزيد بن هارون ، أنا أبو أمية بن يعلى عن سالم أبى النضر قال : لما كثر المسلمون فى عهد عمر رضى الله عنه وضاق بهم المسجد فاشترى عمر ما حول المسجد من الدور إلا دار العباس بن عبد المطلب وحُجَرَ أمهات المؤمنين ، فقال عمر للعباس : يا أبا الفضل ، إن مسجد المسلمين قد ضاق بهم ، وقد ابتعتُ ما حوله من المنازل نوسع به على المسلمين فى مسجدهم إلا دارك وحُجَر أمهات المؤمنين، فأما حُجَر أمهات المؤمنين فلا سبيل إليها ، وأما دارك فبعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين أوَسِّع بها فى مسجدهم، فقال العباس: ما كنت لأفعل، قال : فقال له عمر:

(١) المقاط — بكسر الميم ، بزنة الكتاب — حبل صغير شديد الفتل يكاد يقوم من شدة فتله ، قاله ابن الأثير ، وقد وقع فى المطبوعات «مدوا مقطا» بدون ألف .

اختر منى إحدى ثلاث : إما أن تبيعنيها بماشئت من بيت المال ، وإما أن أخطك حيث شئت من المدينة وأبنيها لك من بيت مال المسلمين ، وإما أن تَصَّدَّقَ بها على المسلمين فتوسع فى مسجدهم ، فقال : لا ، ولا واحدة منها ، فقال عمر : اجعل بينى و بينك مَنْ شئت ، فقال : أبى بن كعب ، فانطلقا إلى أبى فقصّا عليه القصة ، فقال أبى : إن شئتما حدثتكما بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالا : حَدِّثْنا ، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله أوحى إلى داود أن ابْنِ لى بيتا أذكر فيه ، فخط له هذه الخطة خطة بيت المقدس ، فإذا تربيعها بزاوية بيت رجل من بنى إسرائيل ، فسأله داود أن يبيعه إياها ، فأبى ، فحدث داود نفسه أن يأخذه منه ، فأوحى الله إليه : أن ياداود أمرتك أن تبنى لى بيتاً أذكر فيه ، فأردت أن تدخل فى بيتى الغَصْبَ ، وليس من شأنى الغَصْبُ ، وإن عقو بتك أن لاتبنيه ، قال: يارب فمن ولدى، قال : فمن ولدك ، فأخذ عمر بمجامع أبى بن كعب فقال: جئتك بشىء فجئت بماهو أشد منه، لتخرجَنَّ مما قلت(١) ، فجاء يقوده حتى دخل المسجد ، فأوقفه على حلقة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم أبوذر ، فقال أبىٌّ : نشَدْتُ الله رجلا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر حديث بيت المقدس حين أمر الله داود أن يبنيه إلا ذكره، فقال أبوذر : أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال آخر : أنا سمعته، يعنى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فأرْسَلَ أبيا ، قال : فأقبل أبى على عمر فقال : يا عمر أتتهمنى على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : والله يا أبا المنذر ما اتهمتك عليه ، ولكن أردت أن يكون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهراً ، قال : وقال عمر للعباس: اذهب فلا أعرض لك فى دارك ، فقال العباس: أما إذ قلت ذلك فإنى قد تصدقت بها على المسلمين أوسع عليهم فى مسجدهم ،

(١) كان عمر — رضى الله تعالى عنه — شديد الحرص على ألا يروى أحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عن تثبت ، وله فى ذلك حوادث كثيرة ، ومقصده بقوله «لتخرجن مما قلت» أن يجيئه بمن يشهد له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال ذلك .

فأما وأنت تخاصمنى فلا ، قال : فخط له عمر داره التى هى اليوم ، و بناها من بيت مال المسلمين .

وفى سنن البيهقى قبل كتاب الرجعة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما أراد عمر رضى الله عنه أن يزيد فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعت زيادته على دار العباس رضى الله عنه ، فأراد عمر أن يدخلها فى المسجد و يعوضه منها ، فأبى ، وقال: قطيعةُ[1] رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فاختلفا ، فجعل بينهما أبى بن كعب رضى الله عنه ، فأتياه فى منزله ، وكان يسمى سيد المسلمين ، فأمر لهما بوسادة ، فألقيت لهما فجلسا عليها بين يديه ، فذكر عمر ماأراد ، وذكر العباس قطيعة[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبى رضى الله عنه : إن الله عز وجل أمر عبده ونبيه داود أن يبنى له بيتا ، قال : أىْ ربّ ، وأين هذا البيت ؟ قال : حيث ترى الملك شاهرا سيفه ، فرآه على الصخرة ، و إذا ماهناك يومئذ أندر[2] لغلام من بنى إسرائيل، فأتاه داود عليه السلام فقال : إنى قد أمرت أن أبنى هذا المكان بيتا لله تعالى ، فقال له الفتى: الله أمرك أن تأخذ منى بغير رضاى ؟ قال : لا ، فأوحى الله إلى داود إنى قد جعلت فى يَدِكَ خزائنَ الأرض فأرضِهِ ، فأتاه داود عليه السلام فقال : إنى قد أُمِرْتَ برضاك ، فلك بها قنطار من ذهب ، فقال : قد قبلت ، فيا داود هى خير أم القنطار ؟ فقال : بل هى ، قال : فأرضِنِى ، قال : فلك بها ثلاثُ قناطير ، فلم يزل يشدد على داود حتى رضى منه بتسع قناطير ، قال العباس رضى الله عنه : اللهم لا آخذ لها ثَوَابا ، وقد تصدقت بها على جماعة المسلمين ، فقبلها عمر ، فأدخلها فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : وهذا يُفهِمُ أن داود صلوات الله وسلامه عليه بنى بيت المقدس ، وأنه

---

(١) قطيعة رسول الله : أى أن الرسول صلى الله عليه وسلم أقطعه إياها ، والإقطاع يكون تمليكا يستبد به وينفرد ، ويكون غير تمليك كعارية وإباحة وما أشبه ذلك ، وظاهر من كلام العباس رضى الله عنه أنه كان ملكه هذه البقعة .

(٢) الأندر والبيدر بمعنى ، وهما فى لغة أهل مصر الجرن .

أول مَنْ بناه ، والرواية المتقدمة تقتضى أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه هو الذى بناه ، ويؤيده ما روى الطبرانى من حديث رافع بن عميرة مرفوعا قال : قال الله عز وجل لداود : ابنِ لى بيتا فى الأرض ، وإن داود عليه السلام بنى المسجد ، فلما تم السور سقط ثلثاه ، فشكا ذلك إلى الله تعالى ، فأوحى الله إليه إنه لا يصلح أن يبنى لى بيتا ، وذكر قصة غير ما تقدم ، فشق ذلك على داود ، فأوحى الله تعالى إليه : إنى سأقضى بناءه على يد ابنك سليمان .

وروى النسائى من حديث عمرو بن العاص مرفوعا بإسناد صحيح أن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خلالا ثلاثا — الحديث .

وسواء كان البانى له داود أو سليمان عليهما السلام يشكل عليه ما فى الصحيحين عن أبى ذر : سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع على الأرض ، فقال : المسجد الحرام ، قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى ، قلت : وكم بينهما ؟ قال : أربعون عاما ، ووجه الإشكال كما ذكره ابن الجوزى أن إبراهيم عليه السلام بنى الكعبة وبينه وبين سليمان أكثر من ألف سنة ، وقد مشى ابن حبان على ظاهر الحديث المذكور ، فقال : فيه رد على من زعم أن بين داود وإبراهيم ألف سنة ، ولو كان كما قال لكان بينهما أربعون سنة ، وهذا عين المحال ؛ للاتفاق على طول الزمان بين إبراهيم وموسى عليهما السلام ، ثم إن نص القرآن أن قصة داود فى قتل طالوت كانت بعد موسى بمدة .

وأجاب ابن الجوزى بأن الإشاره فى حديث الصحيحين إلى أول البناء ، ووضع أساس المسجد ، وليس إبراهيم أول من بنى الكعبة ، ولا سليمان أول من بنى بيت المقدس ؛ فقد روى أن أول من بنى الكعبة آدم ، ثم انتشر ولده فى الأرض ، فجائز أن يكون بعضُهم قد وضع بيت المقدس بعد ذلك بأربعين سنة ، ثم بنى إبراهيمُ الكعبةَ بنص القرآن .

وذكر ابن هشام فى كتاب التيجان أن آدم عليه السلام لما بنى البيت أمره جبريل عليه السلام بالمسير إلى بيت المقدس وأن يبنيه ، فبناه ونَسَكَ فيه (١) .

وأجاب بعضُهم بأن داود وسليمان عليهما السلام إنما كان لهما من المسجد الأقصى تجديدُه لا تأسيسه ، والذى أسسه هو يعقوب بن إسحاق عليهما السلام بعد بناء إبراهيم الكعبة بهذا القدر

ويشكل على ذلك ذكر القصة المتقدمة ؛ لأنه حينئذ لا يحتاج إلى شراء أرضه ، نعم قال الخطابىُّ : يشبه أن يكون المسجد الأقصى وُضِع قبل داود وسليمان ، ثم زادا فيه ووسَّعاه فأضيف إليهما بناؤه ، فيحتمل حينئذ أن القصة المتقدمة وقعت فيما وقع الأمر بزيادته فيه ، ويؤيد ذلك ما رواه الحاكم فى مستدركه من حديث أبى يحيى الضرير زيد بن الحسن البصرى حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب أنه قال للعباس رضى الله عنهما: إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : نزيد فى المسجد ، ودارك قريبة من المسجد ، فأعطِناها نزيدها فيه ، وأقطع لك أوسع منها ، قال : لا أفعل ، قال : إذاً أغلبك عليها ، قال : ليس لك ذلك ، قال : فأجعل بينى و بينك من يقضى بالحق ، قال : ومن هو ؟ قال : حُذَيفة بن اليمان ، قال : فجاءوا إلى حذيفة رضى الله عنه ، فقصوا عليه ، فقال حذيفة : عندى فى هذا خبر ، قالوا : وما ذاك ؟ قال : إن داود النبى صلى الله عليه وسلم أراد أن يزيد فى بيت المقدس ، وقد كان بيتٌ قريب من المسجد لِيَتيم ، فطلب إليه فأبى ، فأراد أن يأخذه منه ، فأوحى الله عز وجل إليه إنَّ أنزَهَ البيوتِ عن الظلم لَبَيْتِى ، قال : فتركه ، فقال له العباس : فبقى شىء ؟ قال : لا ، قال : فدخل عمر المسجد فإذا ميزاب للعباس شارعٌ فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسيل ماء المطر منه ، فقال عمر بيده فقلَع الميزاب ، فقال : هذا الميزاب لا يسيل فى مسجد رسول الله

(١) نسك فيه : النسك ـ بضم النون والسين جميعاً ـ العبادة والطاعة وكل ما تقرب به إلى الله تعالى ، وماأمرت به الشريعة ، والناسك : العابد ، وأصل مأخذه من النسيكة ، وهى سبيكة الفضة المصفاة ، كأنه سمى بذلك لأنه صفى نفسه لله تعالى .

صلى الله عليه وسلم ، فقال له العباس : والذى بعث محمدا بالحق إنه هوالذى وضع هذا الميزاب فى هذا المكان ونزعْتَه أنت يا عمر ، فقال عمر رضى الله عنه : ضَعْ رجليك على عنقى لترده إلى ما كان ، ففعل ذلك العباس ، ثم قال العباس رضى الله عنه [قد أعطيتك الدار تزيدها(1)] فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزادها عمر فى المسجد، ثم قطع للعباس دارا أوسع منها بالزوراء ، وقال الحاكم : هذا الحديث كتبناه [عن أبى جعفر وأبى على الحافظ(1)] ولم يكتبه إلا بهذا الإسناد ، والشيخان لم يحتجا بعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال : وقد وجدت له شاهدا من حديث أهل الشام ، ثم ساقه من طريق شعيب الخراسانى عن عطاء الخراسانى عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما أراد أن يزيد فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعت منازعة على دار العباس ، فذكر نحوه .

وروى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن عبد الله بن أبى بكر قال : كان للعباس بيت فى قبلة المسجد ، وكثر الناس ، وضاق المسجد ، فقال عمر للعباس : إنك فى سَعَة فأعطنى بيتك هذا أوسع به فى المسجد ، فأبى العباس ذلك عليه ، فقال عمر : إنى أثمنك وأرضيك ، قال : لا أفعل ، لقد ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم على عاتقى وأصلح ميزابه بيده فلا أفعل ، قال عمر : لآخذنَّه منك ، فقال أحدهما لصاحبه : فاُجعل بينى و بينك حكما ، فجعلا بينهما أبى بن كعب ، فأتياه فاستأذنا على الباب ، فحَبَسهما ساعة ثم أذن لهما وقال : إنما حبستكما أنى كنت كما كانت الجارية تغسل رأسى ، فقص عليه عمر قصته ، ثم قص عباس قصته ، فقال : إن عندى علما مما اختلفتما فيه ، ولأقضين بينكما بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعته يقول : إن داود لما أراد أن يبنى بيت المقدس وكان بيت ليتيمين من بنى إسرائيل فى قبلة المسجد

(1) هذه الزيادة عن كتاب المستدرك لأبى عبدالله الحاكم (ج٣ ص ٣٣٢ طبع حيدرأباد سنة ١٣٤١) وفى موضعها بياض فى أصول كتابنا هذا .

فأراد منهما البيع فأبيَا عليه ، فقال: لآخذنه ، فأوحى الله عز وجل إلى داود : إن أغنَى البيوت عن المظالمة بيتى ، وقد حرّمتُ عليك بنيان بيت المقدس، قال: فسليمان، فأعطاه سليمان ، فقال عمر لأبى : ومَن لى بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا ؟ فقال أبى لعمر : أتظن أنى أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لتخرجَنّ من بيتى ، فخرج إلى الأنصار فقال : أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا ؟ فقال هذا : أنا ، وقال هذا : أنا ، حتى قال ذلك رجالٌ ، فلما علم ذلك عمر قال : أما والله لو لم يكن غيرك لأجزت قولك ، ولكنى أردت أن أستثبت .

وفى رواية ليحيى عن أبى الزناد أنّ عمر بن الخطاب لما زاد فى المسجد دعا مَنْ كان له إلى جانبه منزل فقال : اختاروا منى بين ثلاث خصال : إما البيع فأثمن ، وإما الهبة فأشكر ، وإما الصدقة على مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابه الناس ، وكان للعباس دار عن يمين المسجد ، فدعاه عمر، فقال : يا أبا الفضل اختر منى بين ثلاث خصال ، وذكر نحو ما تقدم ، فقال العباس : ما أجيبك إلى شىء مما دعوتنى إليه ، فقال عمر : إذاً أهدمها ، فقال العباس : مالك ذلك ، وذكر التحاكم إلى أبى ، وقصّةَ بيت المقدس مع مخالفةٍ فى ذكر قصته لبعض ما تقدم .

وفى رواية له عن ابن عمر أن عمر رضى الله عنه كلّم العباس فى داره ، وكانت فى ما بين موضع الأسطوان المربعة التى تلى دار مروان بن الحكم ، قطيعةً كان قطع له النبى صلى الله عليه وسلم ، فكلمه عمر رضى الله عنه يُدْخِلها فى المسجد ، وأعطاه بها ثمنا حسنا ، وقال : يا أبا الفضل إن الناس قد شكَوْا ضيق مسجدهم ، وأحبّوا الاتساع ؛ فأبى العباسُ أن يبيعه، فقال عمر : أنا أعطيك خيرا منها فى أى نواحى المدينة شئت ، فأبى العباس ذلك ، فقال عمر : فتصدّقْ على الناس ، فأبى

فقال عمر : لآخذنه ، فقال العباس : ليس ذلك لك ، قال عمر : اجعل بيني و بينك رجلا ، فجعلا أبي بن كعب ، فأتياه فحبسهما ساعة ثم أذن لهما ثم قال : إن جاريتي كانت تغسل رأسي ، فأيكما يستعدى على صاحبه ؟ فقال عمر : أنا ، جعلناك حكما بيننا ، وما رأيتَ من أمرٍ لزمَنا ، فقال أبي : ماتقول يا أبا الفضل ؟ قال : أقول ذلك ، فذهب عمر يتكلم ، فقال أبي : تكلم يا أبا الفضل ، دَعْه يابن الخطاب يتكلم لمكانه من نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فتكلم العباسُ فقال : هذه خِطّة خطَّها لي رسول الله صلى الله عليه وسلم وابتنيتُها و بناها رسول الله صلى الله عليه وسلم معي ، وهو والله شَدَّ هذا الميزاب الذي يصبُّ في المسجد ، وذكر القصة أيضا ، وأن العباس قال : أما إذ قضيت به لي فهوصدقة على المسلمين أما والله يا عمر لقد هَدَمْتَ الميزابَ وما شددتُه إلا ورجلاى على عاتِقَيْ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال عمر : فو الله لاتشدُّه إلا ورجلاك على عاتقي ، قال : ثم هدم الدار ووسَّع في المسجد وغَيَّرَ جذوعا كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أسفلها قد أكلته الأرَضَة .

وقد أورد رزين في كتابه خبر ابن عمر المتقدم ، ولفظه: عن نافع عن ابن عمر قال : إن الناس كثروا في عهد عمر رضى الله عنه ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين لو وسَّعْتَ لنا في المسجد ، فزاد فيه عمر ، فكلم عمر العباس في داره ، وكانت لاصقةً بالمسجد ، وقال له : أعطيك خيرا منها وتصدَّقْ بها على الناس، فأبى العباس ، وقال : خطَّها لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ووضع ميزابها بيده ، فقال عمر : فإني آخذها ، قال العباس : ليس لك ذلك ، فجعلا بينهما أبيا ، فحجبهما ساعة ثم أذن لهما فقصَّا عليه خبرهما، فقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لما أراد داود عليه السلام أن يبني بيت المقدس كان ليتيمين من بني إسرائيل بيتٌ في الموضع الذي خط أن يبني المسجد عليه ، فقال لهما : بِيعَاهُ مني

(١) الخطة ـ بالكسر ـ الأرض يختطها الإنسان لنفسه ، بأن يعلم عليها علامة ويخط عليها خطا ليعلم أنه قد احتازها ، قاله ابن الأثير .

ورغبهما فى الثمن ، فباعاه ثم قالا له : الذى أخذت منا خير أم الذى أعطيتنا ؟ قال الذى أخذت ، قالا : فإنا لا نجيز البيع ، فزادهما حتى كان ذلك منهما ومنه سبع مرات ، فقال : أزيدكما كذا وكذا على أن لا تسألانى ، فقالا له : نبيعك بحكمنا ولا نسألك ، قال : افعلا ، فطلبا منه مالا كثيرا ، فتعاظم ذلك داود [1] ، فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى داودَ : إنْ كنت إنما تعطيهما من مالك فأنت أعلم ، و إن كنت إنما تعطيهما من رزقنا فأعْطهما حتى يرضَيا فإن أغنى البيوت عن مظلمةٍ بيتى ، وقد حرمت عليك بناءه ، فقال داود : يارب فأعطه سليمان ، فقضى به أُبَىٌّ للعباس . فقال العباس : أما إذ قضيتَ لى به فهو صدقة على المسلمين ، فذهب عمر فهدَم الميزابَ فأسف العباسُ لما وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وقال : والله لقد وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم و إن رجليه لعلى عاتِقَىَّ ، فقال عمر للعباس : والله لتردَّنه ورجلاك على عاتِقَىَّ ، فرده ، ثم قال عمر للعباس : اُهدم الآن بيدك .

وقد روى أن نزع الميزاب كان قبل ذلك لأجل أنه كان يسكب الماء داخل المسجد المزوقه به [2] ، انتهى لفظ رواية رزين .

وروى يحيى بسند جيد عن سفيان ابن عُيَينة عن موسى بن أبى عيسى قال: كان فى دار العباس ميزابٌ يصب فى المسجد ، فجاء عمر فقلعه ، فقال العباس : إن النبى صلى الله عليه وسلم الذى وضعه بيده ، فقال عمر للعباس : لا يكن لك سُلَّم إلا ظهرى حتى ترده مكانه .

وروى ابن إسحاق عن أسباط بن محمد عن هشام بن سعد عن عبد الله بن عباس قال : كان للعباس ميزاب على طريق عمر ، فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة وقد كان ذُبِحَ للعباس فرخان ، فلما وافى الميزاب صب فيه ماء من دم الفرخين ،

---

(١) تعاظم ذلك : رآه عظيما ، يريد أنه استكثر المقدار الذى طلبا .

(٢) المزوقه به : يعنى أنه واقع فى لصق المسجد ، والزاى والسين والصاد حروف يقع بعضها موقع بعض .

فأصاب عمر ، فأمر عمر بقلعـه ، ثم رجع فطرح ثيابه ، ثم لبس غيرها ، ثم جاء فصلى بالناس ، فأتاه العباس فقال : والله إنه الموضع الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر للعباس : فأنا أعزم عليك[١] لمـا صَعَدْتَ على ظهرى حتى تضعه فى الموضع الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم [فيه[٢]] ، ففعل ذلك العباس .

ورواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث هشام بن سعد عن عبيد الله بن عباس أخى عبد الله فذكره ، وكذا رواه ابن سعد ، وقال ابن أبى حاتم : إنه سأل أباه عنه ، وقال : هو خطأ ، وأخرجه ابن سعد من طريق موسى بن عبيدة عن يعقوب أن عمر خرج فى يوم جمعة ، فذكره بنحوه .

وروى يحيىٰ عن أبى مصعب الزهرى الفقيه قال: حدثنا يوسف بن الماجشون عن الثقة أنه كان فى دار مروان ميزابٌ يصبُّ على الناس إذا خرجوا من المسجد فى المطر ، وكانت دار مروان للعباس بن عبد المطلب ، فأمر عمر بن الخطاب بذلك الميزاب فنُزِع ، فجاءه العباس بن عبدالمطلب فقال : أما والله لوضَعَه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيده ، قال : فأعاده عمر حيث كان ، وقال : والله لا تعيده إلا وأنت على رقبتى ، فأعاده العباسُ يومئذ على رقبة عمر .

قلت : وهذه الدار بقية من التى وقع النزاع المتقدم فيها ، ونسبتها إلى مروان لما سيأتى أنها دخلت فى داره ، وروى أنها مِرْبَدُها، فكأن هذا الميزاب كان فى تلك البقية ، فيجمع بين الروايات بأنه كان للدار المذكورة ميزابان : ميزاب يصب فى المسجد ، وميزاب يصب فى الطريق ، واتفق فى كل منهما قصة ، ويؤيد ذلك مارواه يحيى فى زيادة عثمان رضى الله عنه عن الأعمش قال : بنى عباس بن عبدالمطلب داره التى إلى جنب المسجد ، فجعل يرتجز يقول :

---

(١) أعزم عليك : أشدد عليك وأوجب وأؤكد

(٢) كلمة « فيه» ساقطة من المطبوعات كلها .

بنيتهـا باللبن والحجـاره * والخشـبات فوقها مطاره
* يا ربنا بارك لأهل الداره [١] *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم بارك فى هذه الداره ، قال : وجعل العباس ميزابها لاصقاً بباب المسجد يصب عليه ، فطرحه عمر بن الخطاب ، فقال عباس : أما والله ما شدّه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنه لَعَلَى [٢] منكبىّ ، فقال له عمر : لا جَرَمَ والله لا تشده إلا وأنت على منكبىّ [٢] ، فشده عمر ، وابتاع عثمان بن عفان تلك الدار فزادها فى المسجد إلا ثلاثة عشر ذراعاً أو أربعة عشر ذراعاً ، فقال : لا أدرى كان ابتاع البقية أم لا ؟ .

قلت : فالذى يظهر أن العباس أبقى لنفسه بقية الدار بعد أخذ ما احتيج إلى زيادته منها ، وأنه كان فى تلك البقية ميزاب ، فلما أحدث عمر الباب الذى عند دار مروان كما سيأتى صار الميزاب يصب على الباب فى طريق المسجد ، ثم اشترى عثمان من تلك البقية ما احتاج إلى إدخاله فى زيادته .

وروى ابن أبى الدنيا قصةَ دار العباس هذه مطولة ، وقال : إن العباس قال لعمر : أما والله ما شدّه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا معه ، حَمَلنى والله على عاتقه حين شده ، قال : وبعضُ الناس يقول : بل العباسُ حمل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال محمد بن عقبة — يعنى راويه — : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع قدميه على رقبة أبيه أو عمه ، ولكنه حمل العباس على عاتقه ، وقولُ يحيى فى رواية ابن عمر المتقدمة « وكانت — يعنى دار العباس — فيما بين الأسطوان المربعة التى تلى دار مروان بن الحكم » أى والباب الذى يلى دار مروان لدخول بعضها فى دار مروان . قال الزين المراغى : وسيأتى بيان المربعة ، أى فى زيادة عثمان رضى الله

---

(١) الدارة ، والدار : بمعنى واحد .
(٢) المنكب — بفتح الميم وكسر الكاف — وهو ما بين الكتف والعنق .

عنه ، وقد ذكر هناك تبعاً للمطرى أنها الأسطوانة التى فى صف الأساطين التى تلى القبلة ، وقد رفع أسفلها مربعا قدر الجلسة .

قلت : والتى تليها مربعة أيضا ، وهى التى تلى دار مروان ؛ فهى المراد هنا كما قدمنا الإشارة إليه فى تحديد المسجد النبوى ، وهى الخامسة من المنبر فى جهة المغرب ، فيكون ابتداء زيادة عمر رضى الله عنه من جهة المغرب من الأسطوانة المذكورة ، خلاف قول المطرى والمراغى إن المربعة التى ذكراها قبل هذه منتهى زيادة عمر رضى الله عنه ، وكيف يكون منتهى زيادته مع كونها مبتدأ دار العباس التى هى أول الزيادة ؟ وأيضا فذَرْعُ ما بين الأسطوان التى ذكراها والحجرة الشريفة نحو تسعين ذراعا ، وقد قال يحيى فى رواية ابن عمر أيضا « إن المسجد كان طوله أى من القبلة إلى الشام على عهد عمر رضى الله عنه أربعين ومائة ذراع وعرضه عشرون ومائة، وطول السقف أى ما بينه و بين الأرض أحد عشر ذراع » انتهى . وكيف يصح أن يكون الأسطوان المذكور نهاية زيادته ؟ بل ابتداء زيادته من الأسطوان التى تليها ، فيكون زيادته بعد الأسطوان المذكورة فى جهة المغرب عشرين ذراعا ، لما قدمناه من رواية أن المسجد كان عرضُهُ مائة ذراع فزيادته عشرون ، وذلك نحو أسطوانين ، فيكون نهاية المسجد فى زمنه من تلك الجهة الأسطوانة السابعة من غربى المنبر ، ومن المشرق الحجرة الشريفة ، لأنه لم يزد فى تلك الجهة شيئا ، ومن القبله صف الأساطين التى تلى القبلة ،وكانت إليها المقصورة الآتى ذكرها ، وقد احترقت ، ومن بقاياها خشبة فى سفل الأسطوان التى فى هذا الصف عن يسار مستقبل المحراب العثمانى ، مثبتة تلك الخشبة فى الأسطوان المذكور مما يلى الأرض ، وقد زالت فى الحريق الثانى ؛ فزيادة عمر رضى الله عنه من جهة القبلة الرواق المتوسط بين الروضة ورواق القبلة ، وذلك نحو عشرة أذرع ، وأما الشام فيستفاد من كون المسجد كان طوله فى زمنه أربعين

ومائة ذراع ، وأن منها فى جهة القبلة نحو عشرة أذرع أنه يمتد فى زمنــه بعد الحجرين المتقدم ذكرهما فى حدود المسجد الأصلى اللذين فى صحنه نحو ستين ذراعا ؛ لأنا قدمنا أن من مقدم المسجد الأصلى إليهما نحو السبعين فقط .

وبقى أمر آخر لم أر من نبه عليه ، وهو أن حُجَر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم كان بعضها فى جهة الشام كما تقدم ، ومقتضى ما قدمناه من رواية ابن سعد — وهو ظاهر ما سيأتى فى زيادة الوليد — أن عمر رضى الله عنه لم يُدْخِل منها شيئا فى المسجد ، وإنما أدخلها الوليد ، فكأن عمر ترك ما كان منها فى جهة الشام قائما على حاله ، وصار المسجد حواليها .

وقال السيد القرافى فى ذيله : واشترى عمر أيضا نصفَ موضع كان خطه النبى صلى الله عليه وسلم لجعفر بن أبى طالب وهو بالحبشة دارا بمائة ألف فزاده فى المسجد .

قلت : سيأتى من رواية يحيى أن الذى شَرَى ذلك عثمان رضى الله عنــه ، كذا فى النسخة التى رواها ابن ابنه الحسن بن محمــد عنه ، ثم رأيت فى النسخة التى رواها ابنه طاهر عنه ما ذكره القرافى ، ولم يذكر ابن زبالة ويحيى وغيرهما إدخال عمر دار أبى بكر رضى الله عنه فى المسجد ، ويتعين أن يكون عمر هو الذى أدخلها ؛ لمـا سبق فى الفصل قبله من أن باب خَوْخَتها كان غربىَّ المسجد ، وأن الخوخة المجعولة فى محاذاتها عند إدخال الدار هى الخوخة الموجودة اليوم غربى المسجد ، وهذا لا خلاف فيه عند المؤرخين ، ولهذا قال ابن النجار نقلا عن أهل السير : كانت خَوْخَة أبى بكر فى غربى المسجد ، فعلمنا بذلك أن دار أبى بكر كانت فى غربى المسجد ، وأن عمر رضى الله عنه أدخلها ، لـكن قال الحافظ ابن حجر : إن ابن شبة ذكر فى أخبار المدينة أن دار أبى بكر التى أذِنَ له فى إبقــاء الخوْخَة منها إلى المسجد كانت مُلاَصقة للمسجد ، ولم تزل بيد أبى بكر حتى احتــاج

إلى شيء يُعْطيه لبعض مَنْ وفد عليه ، فباعها ، فاشترتها منه حفصة أم المؤمنين بأربعة آلاف درهم ، فلم تزل بيدها إلى أن أرادوا توسيعَ المسجد فى خلافة عثمان ، فطلبوها منها ليوسعوا بها المسجد ، فامتنعت وقالت : كيف بطريقى إلى المسجد ؟ فقيل لهـا : نعطيك دارا أوسَعَ منها ونجعل لك طريقا مثلها ، فسلّمت ورضيت .

قلت : هذه القصة إنما ذكرها ابن شبة فى دار حَفْصَة التى فى قبلة المسجد(١) ، وذكر معها شراءها لدار أبى بكر المذكورة بصيغة تقتضى التضعيف ، واقتضى ذلك أن دار أبى بكر كانت فى قبلة المسجد على تلك الرواية الضعيفة ، وأن طريق آل عمر اليوم منها ، فنسب إليه الحافظ ابن حجر الجزمَ به(٢) ، وليس الأمر كذلك كما سنوضحه إن شاء الله تعالى فى الفصل الرابع عشر .

وقال يحيى فى روايته المتقدمة : وجعل أساطينه من جُذُوع نخل وسقفه بالجريد ذراعين فوق المسجد سترة حائطه ثلاثة أذرع ، وعبر ابن النجار عن ذلك بقوله : وسقفه جريد ذراعان ، و بنى فوق ظهره سترة ثلاثة أذرع ، انتهى . والذى يظهر أن فى عبارة يحيى خللا ، وتبعه عليه ابن النجار ، وأن المراد ما ذكره رزين فى هذه الرواية بعينها ، فإنه قال فيها : وجعل عمر سترة المسجد فوقه ذراعين أو ثلاثة ، فكأن لفظ « أو » سقط قبل قوله ثلاثة أذرع .

وقال يحيى ورزين عقب ذلك : وكان بَنَى أساسَه بالحجارة إلى أن بلغ قامة ، زاد يحيى : وكان لبنه ضَرّبه بالبقيع ، وجعل له ستة أبواب : بابين عن يمين القبلة ، و بابين عن يسارها ، و بابين خلف القبلة ، ولم يغير باب عاتكة ـ أى المعروف بباب الرحمة ـ ولا البابَ الذى كان يدخل منه النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو فتَح الباب الذى عند القبر ، فهذان البابان من الشق الأيسر : أى

(١) يريد فى جهة القبلة منه .
(٢) الجزم به : أى القطع به وعدم التردد فيه .

المشرق ، وفتح الباب الذى عند دار مروان بن الحكم ، وفتح بابين من مؤخر المسجد ، انتهى .

وقوله : « إنه لم يغير باب عاتكة ، ولا الباب الذى كان يدخل منه النبى صلى الله عليه وسلم » مُسَلم فى الباب الذى كان يدخل منه النبى صلى الله عليه وسلم . قال المراغى تبعاً للمطرى : وهو باب جبريل ؛ لأنه لم يزد فى جهة المشرق شيئاً ، وأما باب عاتكة ففيه نظر ؛ لأنه زاد من جهة المغرب كما تقدم ، فالمراد بكونه لم يغير أنه أخره فى محاذاة الباب الأول ، وهذه الرواية تقتضى أن الباب المعروف اليوم بباب النساء لم يكن موجودا فى زمن عمر رضى الله عنه ؛ لأن المستفاد مما ذكره أن الباب الذى زاده فى جهة المشرق جعله عند القبر ، ولعله تصحيف ؛ لأنه إذا لم يزد من جهة المشرق شيئا كيف يحدث بابا عند القبر ويترك الجهة التى زادها من جهة الشام بغير باب ؟ والمنقول كما سيأتى أن إحداث الباب الذى عند القبر إنما هو فى زيادة الوليد ، وسيأتى فى سبب تسميته باب النساء أن عمر رضى الله عنه قال حين بنى المسجد : هذا باب النساء ، كما رواه يحيى ؛ فتبين أن باب النساء هو الباب الباقى فى جهة المشرق على عهد عمر رضى الله عنه ، وأنه الذى أحدثه ، وسيأتى فى زيادة عثمان عند ذكر اقتصاره على الأبواب التى جعلها عمر ما هو كالصريح فى ذلك ، والله أعلم .

وفى البخارى تعليقا عن أبى سعيد قال : أمر عمر ببناء المسجد ، وقال : أَكِنَّ الناس من المطر ، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس(١) .

وروى ابن شبة ويحيى من طريق عبد العزيز بن عمران عن مايح بن سليمان عن ابن أبى عمرة قال : زاد عمر بن الخطاب فى المسجد من شاميه ، ثم قال : لو زدنا فيه حتى نبلغ به الجَبَّانة كان مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زاد

---

(١) أكن الناس فيه : أى أسترهم فيه ، و« إياك أن تحمر أو تصفر » يريد لا تجعل فيه ألواناً من الطلاء ، فتشغل الناس بالنظر إليه عن الخشوع الواجب للصلاة .

يحيى : وجاء ألله بعامر، وعبد العزيز هو أبن أبى ثابت ، تركوه ، كانت كتبه قد قد أحترقت فحدّث من حفظه فاشتد غلطه .

وروى يحيى من طريق أبن زبالة وهو ضعيف : حدثنى محمد بن إسماعيل عن إبن أبى ذئب قال : قال عمر بن الخطاب : لومُدَّ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ذى الحليفة لكان منه ، ورواه ابن شبة من طريق أبى غسان المدنى بدل ابن زبالة ، وعلى كل حال هو مُعْضَل (١) .

وروى ابن شبة ويحيى والديلمى فى مسند الفردوس بسندٍ فيه متروكٌ عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لو بنى هذا المسجد إلى صَنْعاء كان مسجدى ، وكان أبو هريرة يقول : لو مد هذا المسجد إلى باب دارى ما عَدَوْت أن أصلى فيه ، ثم قال يحيى : وحدثنا هرون بن موسى نبأ عمر بن أبى بكر الموصلى عن ثقاتٍ من علمائه قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا مسجدى ، وما زيد فيه فهو منه ، ولو بلغ بمسجدى صنعاء كان مسجدى .

قلت : وهو منقطع ، لكن اجتماع هذه الروايات تقوى ماقدمناه فى آخر الفصل الثانى عن مالك رحمه الله من أن المضاعفة الواردةَ فى المسجد النبوى تعم مازيد فيه ، والله أعلم .

الفصل الثالث عشر

فى البطيحاء التى بناها عمر رضى الله عنه بناحية المسجد ، وَمَنْعه من إنشاد الشعر ورفع الصوت فيه ، وماجاء فى ذلك .

روى ابن شبة ويحيى بسندٍ جيد عن سالم بن عبد الله أن عمر — يعنى ابن الخطاب — اتخذ مكانا إلى جانب المسجد يقال له « البطيحاء » وقال : مَنْ أراد

(١) المعضل من الحديث : نوع من المنقطع ، وهو — فى الأشهر — الذى سقط من رواته اثنان على الولاء فأ كثر ، وذلك بأن يروى تابع التابعى حديثا يقفه على التابعى ، فيسقط منه الصحابى والرسول صلى الله عليه وسلم ، مثلا .

أن يلغط[1] أو يرفع صوتا أو ينشد شعرا فليخرج إليه، ولَفْظُ يحيى : أن عمر بن الخطاب بَنَى فى ناحية المسجد رحبة تدعى البطيحاء ، ثم قال: مَنْ أراد أن يلغط[1] أو ينشد شعرا أو يرفع صوتا فليخرج إلى هذه الرحبة ، زاد ابن شبة عقيب روايته من طريق محمد بن يحيى : قال محمد : وقد دخَلَتْ تلك البطيحاء فى المسجد فيما زيد فيه بعد عمر رضى الله عنه .

وذكر ابن شبة فى موضع آخر مايبين أن البطيحاء كانت فى جهة شرقى المسجد مما يلى مؤخره زمَنَ عمر رضى الله عنه ، فإنه قال : اتخذ خالد بن الوليد داره التى كانت بالبطيحاء ، إلى آخر ما سيأتى عنه ، مع بيان أنها الرِّبَاط المعروف اليوم برباط السبيل فى شرقى المسجد

وروى ابن شبة أيضا بسند جيد عن ابن عمر أن عمر رضى الله عنه كان إذا خرج من الصلاة نادى فى المسجد : إياكم واللغَطَ[1]، ويقول : ارتفعوا فى أعلى المسجد

ورواه يحيى بلفظ : كان إذا خرج إلى الصلاة

و وى ابن شبة بسند جيد إلا أن فيه عنعنة ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة أن عمر رضى الله عنه سمع ناسا من التجار يذكرون تجارتهم والدنيا فى المسجد ، فقال: إنما بنيت هذه المساجد لذكر الله ، فإذا ذكرتم تجاراتكم ودنياكم فاخرجوا إلى البقيع

وروى أيضا عن شيخه سليمان بن داود قال : حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع صوتَ رجلٍ فى المسجد ، فقال : أتدرى أين أنت ؟ كأنه كره الصوت

وعن عبد الرحمن بن حاطب قال : كان بين عثمان وطلحة تَلَاحٍ فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ عمر رضى الله عنه ، فأتاهم وقد ذهب عثمان

---

(١) لغط يلغط لغطا — بوزن فرح يفرح فرحا — ضج وصوت صوتا لا يفهم معناه

وبقى طلحة ، فقال : أفى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تقولان الهُجْرَ ومالا يصلح من القول ؟ قال: فجثا طلحة على ركبتيه وقال : إنى والله لأنا المظلوم المشتوم ، فقال : أفى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تقولان الهُجْرَ ومالا يصلح من القول ؟ ما أنت منى بِنَاجٍ ، فقال : اللهَ اللهَ يا أمير المؤمنين ، فوالله إنى أنا المظلومُ المشتوم ، فقالت أم سلمة من حُجْرتها : والله إن طلحة لهو المظلوم المشتوم ، قال : فـكفَّ عمرُ رضى الله عنه

وعن السائب بن يزيد قال : كنت مضطجعا فى المسجد ، فحَصَبنى رجل (١) ، فرفعتُ رأسى ، فإذا عمر رضى الله عنه فقال : اذْهَبْ فأتنى بهذين الرجلين ، فجئت بهما ، فقال : مَنْ أنتما ؟ أو من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف ، قال : لو كنتما من أهل البلد ما فارقتمانى حتى أوجعكما جَلْدا ، ترفعان أصواتكما فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟!

وعن طارق بن شهاب أن عمر رضى الله عنه أتى برجل فى المسجد وقد أخذ فى شىء ، فقال : أَخْرِجاه من المسجد فاضرباه ، أو اضربوه

وروى يحيى عن نافع أن عمر بينما هو فى المسجد عِشاء إذ سمع ضحك رجل ، فأرسل إليه فقال : من أنت ؟ فقال : أنا رجل من ثقيف ، فقال : أمن أهل البلد أنت ؟ فقال : بل من أهل الطائف ، فتوعَّده فقال : لو كنتَ من أهل البلد لنـكَّلْت بك ، إن مسجدنا هذا لا تُرْفع فيه الأصوات

وعن ابن سيرين أن ابن مسعود سمع رجلا يرفع صوته فى المسجد ، فسَبَّه ، فقيل له : ما كنت فَحَّاشا ، فقال : أُمِرْنا بهذا

وروى ابن زبالة ويحيى عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب مَرَّ بحسَّان ابن ثابت وهو ينشد فى المسجد ، فلحظ إليه ، فقال حسان : قد كنتُ أنشد وفيه من هو خير منك ، ثم التفت إلى أبى هريرة فقال : أَنْشُدُكَ اللهَ هل سمعت

---

(١) حصبنى : رمانى بالحصباء ، وهى صغار الحصى .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أجِبْ عنى ، اللهم أيده بروح القدس » قال : اللهم نعم ، وقد رواه البخارى فى الصحيح بنحوه ، وفى رواية ليحيى عقب قوله « قد كنت أنشد فيه من هو خير منك » فانصَرَفَ عمر وقد عرف أنه يريد النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى رواية ذكرها الحافظ ابنُ حجر فقال : كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك ، وفى الترمذى من طريق أبى الزناد عن عروة عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَنْصِبُ لحسان منبرا فى المسجد ، فيقوم عليه يهجو الكفار

وأما ما رواه ابن خزيمة فى صحيحه والترمذى وحسنهُ من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن تناشد الأشعار فى المساجد ، قال الحافظ ابنُ حجر : صحيح إلى عمرو ، فمن يصحح نسخته يصححه ، وفى هذا المعنى عدة أحاديث ، لكن فى أسانيدها مَقَال ، والجمع بينها و بين ماتقدم أن يُحْمَل النهى على تناشد أشعار الجاهلية والمُبْطِلين ، وهو مراد عُمَرَ بقوله : من أراد أن ينشد شعرا فليخرج إلى هذه ، يعنى البطيحاء ، والمأذون فيه ما سَلِمَ من ذلك ، وقيل : المنهى عنه ما إذا كان غالبا على المسجد حتى يتشاغل به مَنْ فيه ، وأبعد بعضُهم فأعمَلَ أحاديث النهى ، وادعى نسخَ الإذن ، ولم يوافَقْ على ذلك . وروى ابن زبالة عن على بن زيد بن جدعان قال : أنشد كعبُ بن زُهَيْر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد أبياتا

* بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِى اليومَ مَتْبُول[1] * والله أعلم

الفصل الرابع عشر

فى زيادة عثمان بن عفان رضى الله عنه

روينا فى صحيح البخارى وسنن أبى داود عن نافع أن عبد الله — يعنى ابنَ عمر — أخبره أن المسجد كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) هذا صدر مطلع قصيدة كعب ، وعجزه * متيم إثرها لم يفد مكبول * .

مَبْنِيًّا باللبِنِ ، وسقفه الجريد ، وعمده خشب النخل ، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً ، وزاد فيه عمر و بناه على بنائه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم باللبن والجريد ، وأعاد عمده خشباً ، ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كبيرة ، و بنى جداره بالحجارة المنقوشة والقَصَّةِ (١) ، وجعل عمده من حجارة منقوشة ، وسقفه بالساج

وروى أبو داود أيضا ــ وسكت عليه ــ عن عطية عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : إن مسجد النبى صلى الله عليه وسلم كانت سَوَارِيه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من جُذُوع النخل ، أعلاه مُظَلَّل بجريد النخل ، ثم إنها نَخِرَتْ فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه فبناها بجُذُوع النخل و بجريد النخل ، ثم إنها نَخِرَتْ فى خلافة عثمان رضى الله عنه فبناها بالآجُرِّ ، فلم تزل ثابتة حتى الآن ، هكذا رأيته فى أصول متعددة معتمدة من السنن ، وأورده المجد بلفظ : ثم إنها نخرت فى خلافة عمر ــ بدل أبى بكر ــ ولم أره فى شىء من النسخ .

وفى هذا الخبر ما يقتضى أن السبب فى بناء عثمان للمسجد كون الجذوع التى هى السوارى نَخِرَت ، وأن عثمان بناها بالآجر لا الحجر ، فلعل البعض كان فى زمنه مبنيا بالآجر وهو بعيد ، وماتقدم من رواية الصحيح أصح .

وفى صحيح مسلم عن محمود بن لبيد أن عثمان بن عفان أراد بناء المسجد ، فكره الناسُ ذلك ، وأحبوا أن يَدَعَه على هيئته ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مَنْ بنى « مسجداً لله » بنى الله له فى الجنة مثله

وفيه وفى البخارى عن عبيد الله الخَوْلاَنِى أنه سمع عثمان عند قول الناس فيه حين بنى مسجد الرسول : إنكم قد أكثرتم ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مَنْ بنى مسجدا لله عز وجل ، الحديثَ

وقوله فى الرواية الأولى إن عثمان أراد بناء المسجد يبين أن المراد من قوله حين بناء المسجد حين أراد بناءه ، إلا أن يكون ذلك قد تكرر من عثمان

(١) القصة ــ بفتح القاف وتشديد الصاد مفتوحة ــ الجص ، وسمى موضع قرب المدينة بذى القصة لأنه قد كان به قصة : أى جص .

لتكرر كلامهم قبل البناء و بعده ، وهو الأقرب ، وقوله « وأحبوا أن يَدَعه على هيئته » أى بجذوع النخل واللبِنِ كما فعل عمر رضى الله عنه لموافقته لفعله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال البغوى فى شرح السنة : لعل الذى كره الصحابة من عثمان بناؤه بالحجارة المنقوشة ، لا مجرد توسيعه ، اهـ . و يؤيده ما سيأتى من أن الناس شَكَوْا إليه ضيقَ المسجدِ ؛ فقوله « لما أراد عثمان بناء المسجد » أى على الهيئة التى بناه عليها ، و يؤخذ من هذا إطلاق البناء المرغَّب فيه فى حق من جَدَّد ووسَّع ؛ لأن عثمان لم يبن المسجد كله إنشاء ، وقوله « إنكم أكثرتم » أى الكلامَ بالإنكار ونحوه

وروى يحيى عن المطلب بن عبد الله بن حنطب قال : لما ولى عثمان بن عفان سنة أربع وعشرين كلَّمه الناسُ أن يزيد فى مسجدهم ، وشكوا إليه ضِيقَه يوم الجمعة ، حتى إنهم لَيُصَلّون فى الرحاب ، فشاور فيه عثمان أهل الرأى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجمعوا على أن يهدمه و يزيد فيه ، فصلى الظهر بالناس ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إنى قد أردت أن أهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزيد فيه ، وأشهد لَسَمِعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا فى الجنة ، وقد كان لى فيه سَلَف و إمام سبقنى وتقدمنى عمر بن الخطاب ، كان قد زاد فيه و بَنَاه ، وقد شاورتُ أهل الرأى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجمعوا على هدمه و بنائه وتوسيعه ، فحسَّنَ الناسُ يومئذ ذلك ودعوا له ، فأصبح فدعا العمال و باشَرَ ذلك بنفسه ، وكان رجلا يصوم الدهر و يصلى الليل ، وكان لايخرج من المسجد ، وأمر بالقَصَّة المنخولة تعمل ببطن نخل ، وكان أول عمله فى شهر ربيع الأول من سنة تسع وعشرين ، وفرغ منه حين دخلت السنة لهلال المحرم سنة ثلاثين ، فكان عمله عشرة أشهر .

قلت : قوله أولا «لما ولى عثمان سنة أربع وعشرين » إلى قوله «فأصبح ودع العمال » يفهم أنه فى تلك السنة ، وقوله أخيراً «وكان أول عمله إلى آخره » يأباه ، وما ذكره أخيراً هو الصواب المذكور فى كلام غيره ؛ فيحمل ما ذكره أولا على أنه لم يَشْرَع فى المشاورة والعمارة عقب كلام الناس له ، بل استمر تلك السنين ، وربما تكرر الكلام فخطبهم فى السنة التى وقعت فيها العمارة .

وقد روى رزين الخبر المذكور عن المطلب المذكور بلفظ : لما ولى عثمان وكان سنة أربع من خلافته كلمهُ الناس أن يزيد فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكوا إليه ضيقه ، فشاور عثمان أهل الرأى ، فأشاروا عليه بذلك ، وذكر نحو ما تقدم ، وينبغى حمله أيضاً على أن الكلام وقع من الناس سنة أربع من خلافته وتأخرت العمارة إلى سنة تسع وعشرين — بتقديم المثناة الفوقية على السين — وإلا فهو مخالف لما تقدم ؛ لأن عثمان رضى الله عنه ولى غرة المحرم افتتاح سنة أربع وعشرين ، فسنة أربع من خلافته هى سنة سبع وعشرين — بتقديم السين على الموحدة — والأول هو الأصح ؛ فقد روى يحيى وابن زبالة أن عثمان زاد فى المسجد قبل أن يقتل بأربع سنين ، وعثمان قتل فى ذى الحجه سنة خمس وثلاثين .

وقال الحافظ ابن حجر : كان بناء عثمان للمسجد سنة ثلاثين على المشهور ، وقيل : فى آخر سنة من خلافته ؛ ففى كتاب السير عن الحارث بن مسلم عن ابن وهب : أخبرنى مالك أن كعب الأحبار كان يقول عند بنيان عثمان المسجدَ : لوددت أن هذا المسجد لا ينجز[1] ؛ فإنه إذا فرغ من بنيانه قتل عثمان ، قال مالك : فكان كذلك .

قال الحافظ ابن حجر : ويمكن الجمع بأن الأول كان تاريخ ابتدائه ، والثانى تاريخ انتهائه .

---

(١) لا ينجز : لا يتم بناؤه ولا يكمل ، مخافة ما يقع بعد تمامه .

قلت : قد تقدم ما يردُّ هذا الجمع ، وأن الفراغ منه كان فى سنة ثلاثين ، لكن يمكن أن عثمان رضى الله عنه أحدث فيه عمارة أخرى آخر سنة من خلافته وقد وصَل ابن شبة ما نقله مالك عن كعب ؛ فروى بسنده من طريق الأعمش عن أبى صالح قال : قال كعب ومسجد النبى صلى الله عليه وسلم يُبْنَى : والله لوددت أنه لا يفرغ من برج إلا سقط برج ، فقيل له : يا أبا إسحاق أما كنت تحدثنا أن صلاةً فيه أفضل من ألف صلاة فى غيره إلا المسجد الحرام ، قال : بلى ، وأنا أقول ذلك الآن ، ولكن فتنةً نزلت من السماء ليس بينها و بين أن تقع إلا شبر ، ولو فرغ من بناء هذا المسجد وقمت ، وذلك عند قتل هذا الشيخ عثمان بن عفان ، فقال رجل : وهل قاتله إلا كقاتل عمر ، قال : بل مائة ألف أو يزيدون ، ثم يحل القتل ما بين عدن أبين إلى دروب الروم (١) .

وروى يحيى عن أفلح بن حميد عن أبيه قال : لما أراد عثمان أن يكلم الناس على المنبر و يشاورهم قال له مروان بن الحكم : فِدَاك أبى وأمى ، هذا أمر خير لو فعلته ولم تذكر لهم ، فقال : و يحك ! إنى أكره أن يَرَوْا أنى أستبدُّ عليهم بالأمور ، قال مروان : فهل رأيت عمر حيث بناه وزادفيه ذكر ذلك لهم ؟ قال : اسكت ، إن عمر اشتدَّ عليهم فخافوه ، حتى لو أدخلهم فى جُحْر ضب دخلوا ، و إنى لِنْتُ لهم حتى أصبحت أخشاهم ، قال مروان بن الحكم : فِدَاك أبى وأمى لا يسمع هذا منك فيجترأ عليك .

وعن عبد الرحمن بن سفينة قال : رأيت القَصَّةَ تحمل إلى عثمان وهو يبنى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من بطن نَخْلٍ ، رأيته يقوم على رجليه

(١) عدن أبين — بفتح الهمزة والياء وسكون الباء بينهما — مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند ، لا ماء بها ولا مرعى ، وشربهم من عين بينها و بين عدن مسيرة نحو يوم ، قاله ياقوت ، والدروب : جمع درب ، وهوالطريق الموصل إلى بلادالروم.

والعمالُ يعملون فيه حتى تأتى الصلاة فيصلى بهم ، وربما نام ثم رجع ، وربما نام فى المسجد .

وعن خارجة بن زيد قال : هدم عثمان بن عفان المسجد وزاد فى قبلته ، ولم يزد فى شرقيه ، وزاد فى غربيه قدر أسطوان ، وبناه بالحجارة المنقوشة والقَصَّة وعُمُب النخل والجريد ، وبيضه بالقَصَّة ، وقدر زيد بن ثابت أساطينه فجعلها على قدر النخل ، وجعل فيه طيقان مما يلى المشرق والمغرب ، وذلك قبل أن يقتل بأربع سنين ، وزاد فيه إلى الشام خمسين ذراعا .

وعن محمد بن إبراهيم بن الحارث التَّيْمى عن أبيه قال : زاد عثمان فى المسجد قبل أن يقتل بأربع سنين فزاد من القبلة ، فوضع جداره على حد المقصورة اليوم ، وزاد فيه من المغرب أسطوانا بعد المربعة ، وزاد فيه من الشام خمسين ذراعاً ، ولم يزد من المشرق شيئاً ، وزعم المطرى وتبعه المراغى أن المراد بهذه المربعة المربعة المتقدم وصفها فى تحديد المسجد النبوى فى زيادة عمر رضى الله عنه ، وهى الأولى من المربعتين اللتين يليان القبلة فى صف الأسطوان الرابع من المنبر فى جهة المغرب ، وجعلا نهاية زيادة عثمان إلى الأسطوانة التى تليها فى المغرب المقابلة للطراز المتقدم وصفه ، فقالا : أراد بالمربعة الأسطوانة التى تليها فى المغرب التى فى القبلة التى رفع أسفلها مربعاً قدر الجلسة ، وهى منتهى زيادة عثمان من المغرب ، وقبالة الأسطوانة التى زادها عثمان فى الحائط القبلى طرازاً آخر من العصابة السفلى إلى سقف المسجد ، وهو حد زيادة عثمان ، انتهى .

ومحصله أن زيادة عثمان هى الرواق الكائن بين الأسطوانتين المذكورتين ، ولم أر من سبقهما لذلك ، وقد قدمنا فى تحديد المسجد النبوى ما يقتضى أن الطراز المذكور فى مُوَازاة حد المسجد النبوى على الراجح ، وأن زيادة عمر وعثمان رضى الله عنهما من بعد ذلك فى جهة المغرب ، وأن عمر رضى الله عنه جعل المشرق

إلى المغرب مائة وعشرين ذراعاً ، وأن من المربعة التى ذكرا أنها نهاية زيادته إلى الحجرة الشريفة ينقص عن تسعين ذراعاً ، وإلى محاذاة الطراز نحو المائة ؛ فيبقى لعمر فى جهة المغرب بعد الطراز رواقان آخران ؛ فيكون نهاية المسجد فى زمنه الأسطوانة السابعة من المنبر ، وفى صف السابعة من المنبر أسطوان أسفله مربع لكنه ليس مرتفعاً عن الأرض بقدر الجلسة ، بل تربيعه على وجه الأرض ، وقد زال تربيعه فى العمارة الحادثة بعد الحريق الثانى ، وليس هو فى صف الأساطين التى تلى القبلة ، بل فى صف الأساطين التى خلف محراب الحنفية ؛ فالظاهر أن هذه المربعة هى المرادة هنا ؛ فيكون لعثمان رضى الله عنه فى جهة المغرب الرواق الذى بعدها ؛ فيكون نهاية المسجد فى زمنه الأسطوانة الثامنة من المنبر فى جهة المغرب ، ويدل على صحة ذلك ما سيأتى أن الوليد زاد بعد عثمان رضى الله عنه فى جهة المغرب أسطوانين ، ولم يزد أحد بعد الوليد فى جهة المغرب شيئاً ، والباقى من الأسطوانة الثامنة من المنبر أسطوانتان فقط فى جهة المغرب ، فهما زيادة الوليد ، وهناك أسطوان مربعة مرتفعة قدر الجلسة أيضاً أمام الأسطوانة بوجاه الداخل من باب السلام ، الظاهرُ أنها جعلت علامة لنهاية زيادة عثمان رضى الله عنه ، وابتداء زيادة الوليد ، وإن قلنا بأن نهاية المسجد النبوى المربعة الأولى التى تلى القبلة كما سبقت الإشارة إليه فحينئذ يكون لعمر رضى الله عنه منها إلى جهة المغرب أسطوانتان فيكون نهاية زيادة الأسطوانة السادسة من المنبر ، وفى صفها أسطوان مربع قدر الجلسة أيضاً أمام الأسطوانة المثمنة اليوم ، وتكون زيادة عثمان رضى الله عنه إلى الأسطوانة التى بعدها فى جهة المغرب وهى السابعة ، وتبقى للوليد منها إلى جدار المسجد ثلاثة أساطين ، وسيأتى فى عمارته رواية تقتضى ذلك ، على أن الذى أفهمه من كلام متقدمى المؤرخين كما قدمناه فى حدود المسجد أن المربعة حيث أطلقت فى جهة المغرب فالمراد بها الأسطوانة المقابلة لمربعة القبر فى جهة المغرب

عند ركن صحن المسجد قبل زيادة الرواقين الآتى بيانهما ، وهى المثمنة اليوم ، وفى ركنى الصحن الشاميين أسطوانتان على هيأتها أيضاً ، وتثمينها حادث كما تقدم بيانه ، ويعبرون عنها بالمربعة الغربية ، وهى السادسة من المنبر ؛ فيترجح بذلك أنها نهاية زيادة عمر وابتداء زيادة عثمان رضى الله عنه ، ولو كان كما زعم المطرى ومن تبعه لكان بعد نهاية زيادة عثمان رضى الله عنه فى المغرب خمس أساطين ، فيكون كلها للوليد ، ولا قائل بذلك ، وفيما قدمناه فى تحديد المسجد النبوى كفاية فى رد ما قالاه .

وروى يحيى عن عبد الله بن عطية بن عبد الله بن أنيس قال : بنى عثمان المسجدبالحجارة المنقوشة والقَصَّة ، وجعل عُمُدَه حجارة منقوشة ، وبها عمدالحديد فيها الرصاص ، وسقفه ساجا ، وجعل طوله ستين ومائة ذراع ، وعرضه خمسين ومائة ذراع ، وجعل أبوابه ست أبواب على ما كان على عهد عمر رضى الله عنه : باب عاتكة ، أى المعروف بباب الرحمة ، والباب الذى يليه أى يقرب من محاذاته فى المشرق ، وهو باب النساء ، وباب مروان : أى المعروف بباب السلام ، والباب الذى يقال له باب النبى صلى الله عليه وسلم : أى المعروف بباب جبريل، وبابين فى مؤخر المسجد .

قلت قوله « وجعل طوله ستين ومائة ذراع » مخالف لما تقدم من كونه زاد فيه من جهة الشام خمسين ذراعاً ؛ لأنه قد تقدم أن عمر رضى الله عنه جعل طول المسجد أربعين ومائة ذراع ، فلو زاد فيه عثمان خمسين ذراعاً لكان طوله فى زمنه تسعين ومائة ذراع، على أن الأقرب أن طوله فى زمن عثمان كان ستين ومائة ذراع ، لما سيأتى فى الزيادة بعده . وقوله « وعرضه خمسين ومائة ذراع » مخالف لما تقدم من كونه لم يزد من جهة المغرب سوى أسطوانة واحدة ، ولم يزد فى جهة المشرق شيئاً ، بل هذه الرواية خطأ ؛ للاتفاق على أن عثمان رضى الله عنه لم يزد من جهة المشرق شيئاً ؛ فيكون نهايته فى زمنه الحجرة الشريفة ، وذَرْعُ المسجد اليوم من جداره الغربى إلى جدار الحجرة الشريفة لايبلغ خمسين ومائة ذراع ، بل ينقص عن ذلك أكثر من سبعة أذرع ، ثم تبقى زيادة الوليد من جهة المغرب ،

وهى متفق عليها أيضا ؛ فالصواب أنه لم يزد من المغرب سوى أسطوانة ، وأن عرض المسجد فى زمنه نحو مائة وثلاثين ذراعا ، والله أعلم .

وروى يحيى كما فى النسخة التى رواها ابنُه عن أبى الحسن المدائنى أنه قال فى حديث ساقه : إن النبى صلى الله عليه وسلم خط لجعفر بن أبى طالب دارا وهو بأرض الحبشة ، فاشترى عثمان نصفها بمائة ألف ، فزادها فى المسجد .

قلت : تقدم فى زيادة عمـــر رضى الله عنه نقل مثل ذلك عن فعـــل عمر رضى الله عنه ؛ فيحتمل أن كلا منهما شَرَى نصف ذلك وأدخله مرتبا ، والله أعلم .

وروى ابن زبالة عن عبد الله بن عمر بن حفص قال : مَدَّ عمر بن الخطاب جدار القبلة إلى الأساطين التى إليها المقصورة اليوم ، ثم زاد عثمان بن عفان حتى بلغ جداره اليوم ، قال : فسمعت أبى يقول : لمـا احتيج إلى بيت حفصة قالت : فــكيف بطريقى إلى المسجد ؟ فقال لها : نعطيك أوسع من بيتك ، ونجعل لك طريقا مثل طريقك ، فأعطاها دار عبيد الله بن عمر ، وكانت مِرْبَدا[1] .

قلت : وهذه العبارة محتملةٌ لأن القائل « نعطيك إلى آخره » عمر أو عثمان رضى الله عنهما ، ويرجح الثانى أنه أورده فى سياق زيادة عثمان رضى الله عنه ، وأنه روى عقبة عن عبد الرحمن بن سعد عن أشياخه أن عمر قدم جدار القبلة إلى المقصورة ، ثم قدمه عثمان إلى موضعه اليوم ، وأدخل بقية دار العباس بن عبد المطلب مما يلى القبلة والشام والمغرب ، وأدخل بعض بيوت حفصة بنت عمر مما يلى القبلة ، فقام المسجد على تلك الحال حتى زاد فيه الوليد .

قلت : تقدم فى زيادة عمر رضى الله عنــه أن الحافظ ابن حجر نقل عن

---

(١) المربد ــ بزنة منبر ــ الموضع الذى تحبس فيه الإبل والغنم ، واشتقاقه من « ربد بالمــكان » إذا أقام فيه . و « ربده يربده » إذا احبسه .

ابن شبة أن دار أبى بكر التى أذن له فى إبقاء الخَوْخَة منها إلى المسجد اشترتها حفصة أم المؤمنين ، فلم تزل فى يدها إلى أن أرادوا توسيع المسجد فى خلافة عثمان ، فطلبوها منها ليوسّعَ بها فى المسجد ، فامتنعت وقالت : كيف بطريقى إلى المسجد ؟ فقيل لها : نعطيك دارا أوسع منها ونجعل لك طريقا مثلها ، فسلمت ورضيت ، والذى ذكره ابن شبة فى علم دور أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سنذكره عنه فى الدور التى كانت حول المسجد من أن حفصة اتخذت دارها التى فى قبلة المسجد لها خَوْخَة فى المسجد ، فورثها عبدُ الله بن عمر ، وذكر ما سيأتى فى أصل هـذه الدار من كونها كانت مِرْبَداً كما سيأتى ، ثم ذكر لحفصة دارا أخرى ، ثم قال : وأخبرنى مخبر قال : كان بيت أبى بكر الذى أذن له النبى صلى الله عليه وسلم فى إبقـاء خَوْخَته بيد عبد الله بن عمر ، وهو البيت الذى على يمينك إذا دخلتَ دار عبد الله من الخوخة التى فى المسجد ، فتلقاك هناك خوخة فى جوف الخوخـة التى هى الطـريق المبوب ، فتلك الخوخة خوخة أبى بكر ، قال : وكانت حفصة ابتاعت ذلك المسكن من أبى بكر ، والدار الذى ذكرت فوق هذه الشارعة على باب دار عبـد الله إلى جنب دار هشام ، فباع أبو بكر رضى الله عنه ذلك المسكن وتلك الدار من حفصة بأربعة آلاف درهم ، ونقدها عنها عثمان بن عفان ، وإنما باع ذلك أبو بكر لناس قدموا عليه من بنى تميم فسألوه .

ثم قال ابن شبة : حدثنا محمد بن يحيى عن عبد الله بن عمر بن حفص قال : سمعت أبى يقول : لمـا احتيج إلى بيت حفصة قالت : وكيف طريقى فى المسجد ؟ فقيل لها : نعطيك أوسَعَ من بيتك ونجعل لك طريقا مثل طريقك ، فأعطاها دار عبد الله بن عمر ، وكانت مربدا ، انتهى . والذى يقتضيه قوله « وأخبرنى مخبر » تضعيف هذه الرواية .

وقد روى فى ذكر دور بنى تَـيْم كما قدمناه أن دار أبى بكر المذكورة كانت شارعة فى دار القضاء فى غربى المسجد ، وقد صَدَّر كلامه بأن أصل دار حفصة إنمـا هو المِرْبَدُ ، وختم كلامه بذلك . وقوله « لمـا احتيج إلى بيت حفصة » المراد به سكنها ، هو الذى كان شارعا فى المسجد فى زمنه صلى الله عليه وسـلم كما سيأتى بيانه ، والله أعلم .

وتقدم فى زيادة عمر رضى الله عنه ما رواه يحيى من أن عثمان رضى الله عنه شَرَى دار العباس فزادها فى المسجد إلا ثلاثة عشر ذراعا أو أربعة عشر ذراعا ، فقال الراوى : لا أدرى أكان ابتاع البقية أم لا ، وحملناه على أن المراد بدار العباس ما بقى منها بعد ما زاده عثمان رضى الله عنه ، والظاهر أن تلك البقية هى التى دخلت فى دار مروان . وقد ذكر ابن زبالة ويحيى وابن النجار اتخاذ مروان لداره عقب ذكر زيادة عثمان رضى الله عنه ؛ فيحتمل أنه اتخذها فى حال زيادة عثمان رضى الله عنه أو بعده ، وهو الظاهر ؛ لأنهم ذكروا أنه اتخذ لها خَوْخَة فى المسجد من جهة القبلة ، ثم قال : أخشى أن أمنعها ، فجعل لها بابا عن يمينك حين تدخل ، ثم جعل الباب الثالث الذى على باب المسجد ، كما سيأتى ، والله أعلم .

الفصل الخامس عشر
فى المقصورة التى اتخذها عثمان رضى الله عنـه فى المسجد
وما كان من أمرها بعده

روى ابن زبالة وابن شبة عن عبد الرحمن بن سعد عن أشياخه أن أول من عمل المقصورة بلَـبِن عثمان بن عفان ، وأنه كانت فيه كُوًى ينظر الناسُ منها إلى الإمام ، وأن عمر بن عبد العزيز هو الذى جعلها من ساج حين بنى المسجد .

وروى الأول أيضا عن عيسى بن محمد بن السائب ومحمد بن عمرو بن مسلم بن السائب بن خباب وعمر بن عثمان بن عبد الرحمن أن عثمان بن عفان أول من وضع المقصورة من لبن ، واستعمل عليها السائب بن خباب ، وكان رزقه دينارين فى كل شهر ، فتوفى عن ثلاثة رجال : مسلم ، و بكير ، وعبد الرحمن ، فتواسَوْا فى الدينارين ، فجريا فى الديوان على ثلاثة منهم إلى اليوم ، قال ابن زبالة : وقال مالك بن أنس : لما استخلف عثمان بعد مقتل عمر بن الخطاب عمل عثمان مقصورةً من لبن ، فقام يصلى فيها للناس خوفا من الذى أصاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكانت صغيرة

وروى يحيى هذا كله فى زيادة عثمان رضى الله عنه ، ثم روى فى زيادة الوليد عن عبد الحكيم بن عبد الله بن حنطب قال : أول من أحدث المقصورة فى المسجد مروان بن الحكم ، بناها بالحجارة المنقوشة ، وجعل لها كُوًى ، وكان بعث ساعيا(١) إلى تهامة ، فظلم رجلا يقال له دب ، فجاء دب إلى مروان ، فقام حيث يريد أن يقوم مروان،حتى[إذا] أراد أن يكبر ضربه بسكين فلم يصنع شيئا ، فأخذه مروان فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : بعثت عاملا فأخذ ذودى بمرة(٢) ، وتركنى وعيالى لانجد شيئا ، فقلت : أذهب إلى الذى بعثك فاقتله ؛فهو أصل هذا ، فجاء ما ترى ، فحبسه مروان حينا فى السجن ، ثم أمر به فاغتيل سرا ، فكانت المقصورة .

ورواه ابن شبة بنحوه ، إلا أنه سمى الرجل فى موضع دبا ، وفى آخر ذبابا ، وقال : بعثتَ عاملاً ، فأخذ منى بقرة ، فتركنى وعيالى لا نجد شيئا ، وأنا امرؤ خبيث النفس ، فقلت : أذهب إلى الذى بعثه فأقتله فهو أصل هذا ، فجاء ما ترى ، فحبسه مروان فى الحبس حينا ، ثم أمر به فاغتيل سرا ، وعمل المقصورة .

---

(١) الساعى : الذى يجبى الزكاة .

(٢) الذود — بفتح الذال وسكون الواو — الجماعة من الإبل من ثلاثة إلى عشرة ويقال : من اثنين إلى تسعة ، ومعنى « أخذها بمرة » أنه أخذها كلها .

قلت : وجزم بذلك فى العتبية فيما حكاه ابن رشد فى بيانه ، فقال فى كتاب الصلاة : مسألة قال مالك : أول من جعل المقصورة مروان بن الحكم حين طعنه اليمانى ، قال : فجعل مقصورة من طين ، وجعل فيها تشبيكا ، انتهى . قال ابن رشد فى شرح ذلك : وَجْهُ قوله هذا الإعلامُ بأن المقصورة مُحْدَثة لم تكن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا على عهد الخلفاء بعده ، وإنما أحدثها الأمراء للخوف على أنفسهم ، فاتخاذها فى الجوامع مكروه[1] ، انتهى .

وفى شرح مسلم للنووى أن أول من اتخذ المقصورة فى المسجد معاوية رضى الله عنه حين ضربه الخارجى ، انتهى .

وأفهم كلام ابن زبالة أنها كانت فى زمن عمر بن عبد العزيز مرتفعة عن أرض المسجد ؛ لأنه ذكر فى زيادة المهدى أنه أمر بالمقصورة فهدمت وخفضت إلى مستوى المسجد ، وكانت مرتفعة ذراعين عن وجه المسجد ، فأوطأها مع المسجد ، وكأن المراغى فهم أن المراد بذلك سقف المقصورة لا أرضها ، فإنه قال فى زيادة المهدى : وخفض سقف المقصورة ، وكانت مرتفعة ذراعين عن وجه المسجد فأوطأوها مع المسجد ، انتهى .

ورأيت لفظة « سقف » مُلْحَقة بخطه ، والظاهر أن ذلك هو المراد ، وذكر المطرى ما يقتضى أن المهدى جعلها من خشب على الرواق القبلى بأجمعه ، وهو مراد ابن جُبَيْر بقوله فى رحلته — بعد أن ذكر أن فى الجهة القبلية من المسجد خمس بلاطات — يعنى أروقة ، قال : والبلاط المتصل بالقبلة من الخمس المذكورة تحويه مقصورة تَكْتَنِفُهُ طولا[2] من غرب إلى شرق ، والمحراب فيها ، انتهى .

وقد احترقت هذه المقصورة فى حريق المسجد الأول ، والله أعلم .

---

(١) وجه الكراهة أنها شىء لم يكن فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كما هو ظاهر .
(٢) تكتنفه : تحيط به .

الفصل السادس عشر

فى زيادة الوليد بن عبد الملك على يد عمر بن عبد العزيز

نقل رزين أن المسجد بعد أن زاد فيه عثمان رضى الله عنه لم يزد فيه على ولا معاوية رضى الله عنهما ، ولا يزيد ولا مروان ، ولا ابنه عبد الملك شيئاً ، حتى كان الوليد بن عبد الملك — وكان عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة ومكة — بعث الوليدُ إلى عمر بن عبد العزيز بمال وقال له : مَنْ باعك فأعطه ثمنه ، ومن أبى فاهدم عليه وأعطه المال ، فإن أبى أن يأخذه فاصرفه إلى الفقراء ، انتهى

وقال ابن زبالة : حدثنى عبد العزيز بن محمد عن بعض أهل العلم قال : قدم الوليد بن عبد الملك حاجا ، فبينا هو يخطب الناسَ على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ حانت منه التفاتة فإذا بحسن بن حسن بن على بن أبى طالب فى بيت فاطمة فى يده مرآة ينظر فيها ، فلما نزل أرسل إلى عمر بن عبد العزيز فقال : لا أرى هذا قد بقى بعدُ ، أشتر هذه المواضع ، وأدخل بيتَ النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، وأسدده .

وروى يحيى من طريق ابن زبالة وغيره عن عبد العزيز بن محمد بنحوه .

وروى أيضاً عن موسى بن جعفر بن أبى كثير قال : بينما الوليد يخطب على المنبر إذ انكشفت الكلة[1] عن بيت فاطمة عليها السلام ، وإذا حسن بن حسن يُسَرِّح لحيته ، وهو يخطب على المنبر ، فلما نزل أمر بهدم بيت فاطمة رضى الله عنها

قال يحيى : وحدثنى عبد الله بن محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على رضى الله عنهما مثله ، وزاد فيه أن حسن بن حسن وفاطمة بنت الحسين أبَوْا أن يخرجوا منه ، فأرسل إليهم الوليد بن عبد الملك : إن لم تخرجوا منه هدمته عليكم ، فأبوا أن يخرجوا ، فأمر بهدمه عليهم وهما فيه وولدهما ، فنزع أساس البيت وهم فيه ،

(١) الكلة — بكسر الكاف وتشديد اللام — ستر مربع يخاط كالبيت يتوقى فيه من البعوض ونحوه .

فلما نزع أساس البيت قالوا لهم : إن لم تخرجوا قوّضناه[1] عليكم ، فخرجوا منه حتى أتوا دار على نهارا .

وروى ابن زبالة عن منصور مولى الحسن بن على قال : كان الوليد بن عبد الملك يبعث كل عام رجلا إلى المدينة يأتيه بأخبار الناس وما يحدث بها ، قال : فأتاه فى عام من ذلك ، فسأله ، فقال : لقد رأيت أمرا لا والله ما لك معه سلطان ولا رأيت مثله قط ، قال : وما هو ؟ قال : كنت فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا منزل عليه كلّة ؛ فلما أقيمت الصلاة رفعت الكلة وصلى صاحبه فيه بصلاة الإمام هو ومن معه ، ثم أرخيت الكلة ، وأتىَ بالغداء فتغدى هو وأصحابه ، فلما أقيمت الصلاة فَعَلَ مثل ذلك ، وإذا هو يأخذ المرآة والكحل وأنا أنظر ، فسألت ، فقيل : إن هذا حسن بن حسن ، قال : ويحك ! فما أصنع هو بيته وبيت أمه ، فما الحيلة فى ذلك ؟ قال : تزيد فى المسجد وتدخل هذا البيت فيه ، قال : فكتب إلى عمر بن عبد العزيز يأمره بالزيادة فى المسجد ويشترى هذا المنزل ، قال : فعرض عليهم أن يبتاع منهم فأبوا ، وقال حسن : والله لا نأكل له ثمنا أبدا ، قال : وأعطاهم به سبعة آلاف دينار أو ثمانية ، فأبوا ، فكتب إلى الوليد بن عبد الملك فى ذلك ، فأمره بهدمه وإدخاله ، وطرح الثمن فى بيت المال ، ففعل ، وانتقلت منه فاطمة بنت حسين بن علىّ إلى موضع دارها بالحرّة فابتنتها .

قلت : وسيأتى بقية هذا الخبر فى ذكر بئرها ، إن شاء الله تعالى .

قال ابن زَبالة : وحدثنى غير واحد من أهل العلم منهم : إبراهيم بن محمد الزهرى عن أبيه عن عبد الرحمن بن حميد ،ومحمد بن إسماعيل عن محمد بن عمار عن جده ،ومحمد بن عبد الله عن عبيد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمر بن حفص وعبد العزيز بن محمد عن عبيد الله بن عمر بن حفص ،وسليمان بن محمد بن أبى سبرة

---

(١) قوضناه : هدمناه ، وأصله تقويض الخيام ، وهو نقضها وإزالتها عن مكانها إلى مكان آخر .

ومحمد بن طلحة عن عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان ، و بعضهم يزيد على بعض ، أن عمر بن عبد العزيز لما جاءه كتاب الوليد بهدم المسجد والزيادة فيه بعث إلى رجال من آل عمر ، فقال : إن أمير المؤمنين كتب إلى أن أبتاع بيت حفصة ، وكان عن يمين الخوخة : أى خوخة آل عمر ، وكان بينه و بين منزل عائشة الذى فيه قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم طريق ، وكانتا يتهاديان[1] الكلام وهما فى منزليهما من قرب ما بينهما ، فلما دعاهم قال : إن أمير المؤمنين قد أمرنى أن أبتاع هذا المنزل وأدخله فى المسجد ، قالوا : ما نبيعه بشىء ، قال : إذاً أدخله فى المسجد ، قالوا : أنت وذاك ، فأما طريقنا فإنا لا نقطعها ، فهدم البيت وأعطاهم الطريق ووسّعها لهم حتى انتهى بها إلى الأسطوان ، وكانت قبل ذلك ضيقة قدر ما يمر الرجل منحرفا .

قال عبد العزيز بن محمد : فكنت أسمع عبيد الله بن عمر يقول : لا أخرجنى الله من الدنيا حتى أراها قد سدت ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يلقى الصور الصور .

قلت : وسنورد بقية هذا الخبر .

وروى يحيى فى قصة هذه الدار عن مالك بن أنس فى جملة خبر أن الحجاج قال لعبيد الله بن عبد الله بن عمر : يعنى منزلَ حفصة ، قال : لا والله ما كنت لآخذ لبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمنا أبدا ، قال : إذا والله أهدمه ، قال : والله لا تهدمه إلا على ظهرى ، فأمر الحجاج صائحا صاح فى الناس بالعتل والمساحى والفوس[2] ، فقام عبد الله فدخل بيت حفصة ، وجاء الغوغاء بالعتل والفوس ، فأمرهم الحجاج بهدمه ، فصعدوا ليهدموه وعبيدُ الله فيه ، فجاءت بنو عدى إلى عبيد الله فقالوا له : ما أضعفك! هو يتأسف على قتل أبيك و يَرَعُ عن قتلك[3] ، فأخرجوه ، فهدمه الحجاج ، وكتب إلى الوليد يعلمه ما صنع ، وامتناع عبيد الله

(١) انظر هذه العبارة فى ص ٥٤٣ .

(٢) العتل : جمع عتلة — بالتحريك — وهو عمود من حديد تهدم به الأبنية ، والمساحى : جمع مسحاة ، والفوس : جمع فأس ، وأصله فؤوس ، فلما سهل الهمزة اجتمع واوان فحذف إحداهما . (٣) فى الخلاصة « ويرع عن قتلك »

من الثمن ، فكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز يأمره يعرض على عبيد الله الثمَن ، فإن أبى جعل له مكرمة بدالّه فى المسجد ، فجعل له عمر الخَوْخة التى فى قبلة المسجد التى إلى دار حفصة اليوم ، وهو يقتضى أن الذى هدم دار حفصة هو الحجاج .

وعن جعفر بن وردان عن أبيه قال : لما استعمل الوليد عمر بن عبد العزيز على المدينة أمره بالزيادة فى المسجد و بنيانه واشتراء ما حوله من المشرق والمغرب والشام ، فلما خلص إلى القبلة قال له عبيد الله بن عبد الله بن عمر : لست أبيع هذا ، هو من حق حفصة ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يسكنها ، فقال له عمر : ما أنا بتارككم أو أدخلها المسجد ، فلما كثر الكلام بينهما قال له عمر : أجعل لكم فى المسجد باباً تدخلون منه، وأعطيكم دار الدقيق(١) مكان هذا الطريق، وما بقى من الدار فهو لكم ، ففعلوا ، وأخرج بابهم فى المسجد وهو الخَوْخة التى فى المسجد تخرج فى دار حفصة بنت عمر، وأعطاهم دار الدقيق(١)، وقدّم الجدار فى موضعه اليوم ، وزاد فى المشرق ما بين الأسطوان المربعة إلى جدار المسجد اليوم ، ومعه عشرة أساطين من مربعة القبر إلى الرحبة إلى الشام ، ومده فى المغرب أسطوانين ، وأدخل فيه حُجُرات أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، وأدخل فيه دور عبد الرحمن بن عوف الثلاث التى كان يقال لها القرائن اللاتى يقول فيهن أبو قطيفة بن الوليد بن عُقْبة بن أبى مُعَيْط :

ألا ليت شعرى هل تغير بعدنا بَقيعُ المصلّى أو كعهدى القرائنُ

وقد سمعنا من يقول: القرائن كانت جنابذ(٢) ثلاثا لعبد الرحمن بن عوف، انتهى

قلت : وأخبار المؤرخين متطابقة على أن حُجَر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم أدخلت فى المسجد بأمر الوليد ، وقد قدمنا فى الفصل التاسع قول عطاء الخراسانى : أدركت حُجُرات أزواج النبى صلى الله عليه وسلم من جريد على أبوابها المُسُوح من شعر أسود ، فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ يأمر بإدخال حُجَر

(١) فى المطبوعات « دار الرقيق » بالراء .

(٢) جنابذ : جمع جنبذة — بضم كل من الجيم والباء وبينهما نون ساكنة — وهى القبة ، وفى الحديث فى صفة الجنة « فيها جنابذ من لؤلؤ » .

أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فما رأيت يوما كان أكثر باكيا من ذلك اليوم ، قال عطاء : فسمعت سعيد بن المسيب يقول : والله لوددت أنهم تركوها على حالها ، لكن نقل الزين المراغي عن السهيلي أنه نقل أن الحجر والبيوت خلطت بالمسجد في زمن عبد الملك بن مروان ، قال : ويرده تصريح رزين وغيره بضد ذلك .

قلت : ولعل مراد مَنْ نسب ذلك إلى عبد الملك أنه جعلها للمسلمين يصلون فيها لضيق المسجد من غير هدم لها ، وقد كان الناس يصلون فيها قبل إدخالها في المسجد في يوم الجمعة ، فقد نقل مالك رحمه الله عن الثقة عنده أن الناس كانوا يدخلون حُجَرَ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يصلون فيها يوم الجمعة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان المسجد يضيق عن أهله ، قال : وحُجَر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليست من المسجد ، ولكن أبوابها شارعة في المسجد ، انتهى .

وأما بقية خبر ابن زبالة المتقدم فقد قال عقب ذلك : ثم سام[1] عمر بن عبد العزيز بني عبد الرحمن بن عوف بدارهم ، فأبوا ، فهدمها عليهم وأدخلها في المسجد ، قال عبد الرحمن بن حميد : فذهب لنا متاع في هدمهم ، وأدخَلَ حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مما يلي المشرق ومن الشام ، وأدخل القرائن دور عبد الرحمن بن عوف ، وأدخل دار عبد الله بن مسعود التي يقال لها دار القراء ، وأبيات هاشم بن عُتْبة بن أبي وَقَّاص ، وأدخل فيه من المغرب دارا كانت لطلحة بن عبيد الله ، ودارا كانت لأبي سبرة بن أبي رُهم كانت في موضع المربعة التي في غربي المسجد ، ودارا لعمار بن ياسر كانت إلى جنب دار أبي سبرة ، وبعض دار العباس بن عبد المطلب ، فأعلم ما دخل منها في المسجد ، فجعل منابر سَوَاريها التي تلي السقف أعظم من غيرها من سواري المسجد ، وأدخل دارا كانت لمخارق مولى العباس ابن عبد المطلب .

---

(١) سام : أصل المساومة المجاذبة على السلعة بين البائع والمشتري ، وتقول : سامه يسومه ، وساومه ، واستام السلعة .

قلت:قوله «وأدخل إلى آخره» و إن كان مبنيا لما لم يسم فاعله ، لـكن إيراده هنا يقتضى أن ذلك كله فى زيادة الوليد المذكورة ، وفيه نظر ؛ لما تقدم من أن عثمان رضى الله عنه زاد فى المسجد أسطوانا بعد المربعة ، فيكون زيادة الوليد بعد ذلك فى جهة المغرب ، فلا يصح إدخاله لدار أبى سبرة ؛ لقوله إنها كانت فى موضع المربعة ، إلا أن يريد بالمربعة هنا الأسطوانة التى عن يمينك إذا دخلت من الباب الذى يلى دار مروان ، وهو باب السلام ، وهى الثانية من الباب المذكور ، فإنها أول زيادة الوليد ؛ لقوله فى رواية يحيى المتقدمة « ومدّه فى المغرب أسطوانين » لـكن قال ابن شبة نقلا عن ابن أبى يحيى : إنه كانت لأبى سبرة بن أبى رُهم دار موضعها عند الأسطوان المربعة التى فى المسجد اليمانية الغربية ، وكانت جديدة ، وكانت هنالك دار لعمار بن ياسر ، فأدخلتا فى المسجد ، انتهى . وهو ظاهر فى أن المراد بالمربعة الأسطوان المثمّنَة اليوم التى قدمنا وصفها فى زيادة عثمان رضى الله عنه ، وقوله « و بعض دار العباس بن عبد المطلب » ظاهر أيضاً فى أن الوليد أدخل من دار العباس شيئاً ، ولعله مما كان بقى منها وأدخله مروان فى داره ، فيستفاد منه أن الوليد أدخل بعض دار مروان وهو ظاهر ؛ لما قدمناه من أن دار مروان كانت ملاصقة للمسجد فى جهة المغرب ولها خَوْخَة فيه ، ولا شك أنه اتخذها قبل زيادة الوليد ، فإن وفاة مروان كانت فى سنة خمس وستين بعد أن أقام فى الخلافة عشرة أشهر .

ولنرجع إلى تكميل خبر ابن زبالة المتقدم ، قال : قالوا : وكتب الوليد بن عبد الملك إلى ملك الروم « إنا نريد أن نعمر مسجد نبينا الأعظم ، فأعنّا فيه بعمال وفُسَيْفساء[1] » ، قالوا : فبعث إليه بأحمال من فسيفساء و بضعة وعشرين عاملا ، وقال بعضهم : بعشرة عمال ، وقال : قد بعثت إليك بعشرة يعدلون مائة ، و بثمانين ألف دينار عَوْناً له .

(١) الفسيفاء : قطع صغيرة ملونة من الرخام وغيره يؤلف بعضها إلى بعض ثم تركب فى حيطان البيوت من داخل ، ويقال : هذه الكلمة رومية وليست بعربية

قلت : روى ذلك يحيى أيضاً ، وذكر فى رواية أخرى عن قدامة بن موسى أن ملك الروم بعث إليه بأربعين ، يعنى عاملا من الروم ، وبأربعين من القبط ، وبأربعين ألف مثقال ذهب . وفى رواية لرزين : فبعث إليه ثلاثين عاملا ، وأربعين من الروم ، ومثلهم من القبط ، وبثمانين ألف مثقال ، وبأحمال من الفُسَيْفساء ، وبأحمال من سلاسل القناديل ، انتهى .

ولنرجع إلى تكميل خبر ابن زبالة له أيضاً ، قال عقب ما تقدم : وبعث بهذه السلاسل التى فيها القناديل ، قالوا : وهدمه عمر بن عبد العزيز سنة إحدى وتسعين — أى بتقديم التاء الفوقية على السين — وبناه بالحجارة المنقوشة المطابقة وقَصّة[1] بطن نخل ، وعمله بالفسيفساء والمرمر ، وعمل سقفه بالساج وماء الذهب ، وهدم حجر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فأدخلها فى المسجد ، ونقل لَبِنَ المسجد ولبن الحجرات فبنى به داره التى بالحرة فهو فيها اليوم له بياض على اللبن ، قال : فبينما أولئك العمال يعملون فى المسجد إذ خلا لهم المسجد فقال بعض أولئك العمال من الروم : ألا أبول على قبر نبيهم ، فتهيأ لذلك فنهاه أصحابه ، فلما هَمَّ أن يفعل اقتلع فألقى على رأسه ، فانتثر دماغه ، فأسلم بعض أولئك النصارى ، وعمل أحد أولئك الروم على رأس خمس طاقات فى جدار القبلة فى صحن المسجد صورة خنزير ، فظهر عليه عمر بن عبد العزيز فأمر به فضربت عنقه ، وقال بعض أولئك العمال الذين عملوا الفسيفساء : إنا عملناه على ما وجدنا من صور شجر الجنة وقصورها ، انتهى خبر ابن زبالة .

وفى خبر يحيى المتقدم عن قدامة بن موسى أن عمر بن عبد العزيز أخمر النورة التى تعمل بها الفسيفساء سنة ، وحملوا القَصّة[1] من بطن نخل منخولة ، وعمل الأساس بالحجارة والجدار بالحجارة المطابقة والقَصّة[1] ، وجعل عمد المسجد من حجارة حشوها عمد الحديد والرصاص ، وكان طوله مائتى ذراع وعرضه فى مقدمته مائتين وفى

---

(١) القصة — بفتح القاف وتشديد الصاد — الجص .

مؤخره ثمانين ومائة ، وهو من قبل كان مقدمه أعرض ، انتهى .

وما ذكره فى ذَرْع عرض المسجد غيرُ صحيح ؛ لما سيأتى عن ابن زبالة فى الفصل الحادى والثلاثين أنه ذكر فى موضع آخر أن عرض المسجد من مقدمه فى زمنه مائة وخمسة وستون ذراعا ، وعرضه من مؤخره مائة وثلاثون ذراعا ، وسيأتى أيضاً أن الذى حررناه أن عرضه اليوم من مقدمه فى جهة القبلة مائة ذراع وسبعة وستون ذراعا ونصف ، وأن عرضه من مؤخره فى جهة الشام مائة وخمسة وثلاثون ذراعا ، ولا شك أن المسجد لم ينقص من عرضه شىء ، فهذا الذَّرْع المذكور فى هـذه الرواية غير صحيح ، وقد نقله ابن النجار عن أهل السير ، وتعقبه المطرى بنحو ما ذكرناه .

وروى ابن زبالة عن محمد بن عمار عن جده قال : لما صار عمر بن عبد العزيز إلى جدار القبلة دعا مشيخة من أهل المدينة من قريش والأنصار والعرب والموالى فقال لهم : تعالوا احضروا بنيان قبلتكم ، لا تقولوا غير عمر قبلتنا ، فجعل لا ينزع حجراً إلا وضع مكانه حجراً ، فكانت زيادة الوليد بن عبد الملك من المشرق إلى المغرب ستة أساطين ، وزاد إلى الشام من الأسطوان المربعة التى فى القبر أربع عشر أسطواناً منها عشر فى الرحبة وأربع فى السقايف الأولى التى كانت قبل، وزاد من الأسطوان التى دون المربعة إلى المشرق أربع أساطين فى السقايف ، فدخل بيتُ النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، و بقى ثلاث أساطين فى السقايف .

قلت : فاستفدنا من ذلك أن الستة أساطين(١) التى زادها فى المشرق والمغرب ليس منها فى جهة المغرب سوى اثنتين ، وأن أربعة منها فى جهة المشرق ؛ فيكون ابتداء زيادته فى المشرق من الأسطوان اللاصق اليوم بالشباك الدائر حول

(١) الستة أساطين : هذا التعبير خطأ فى العربية ، لا يقول بصحته بصرى ولا كوفى ، والبصريون يوجبون أن يقال «ست الأساطين» والكوفيون يجيزون هذا الذى أوجبه البصريون ، ويجيزون وجها آخر وهو «الست الأساطين» بإدخال لام التعريف على العدد وعلى المعدود جميعا ، والعدد يقع فى هذا الكتاب مضطربا .

الحجرة الشريفة على ما قدمناه فى تحديد المسجد النبوى ، وذلك هو المراد بقوله « من الأسطوان التى دون المربعة إلى المشرق » وقوله « وبقى ثلاث أساطين » أى من الأربعة المذكورة « فى السقايف » أى المسقف الشرقى كما هو اليوم ، لكن فى رواية يحيى المتقدمة أنه زاد فى المشرق ما بين الأسطوان المربعة أى مربعة القبر إلى جدار المسجد يعنى الشرقى ؛ فعلى هذا يكون له فى المشرق ثلاثة أساطين فقط ؛ فيحتمل أن يكون له فى المغرب ثلاث أيضاً ، وقوله «وزاد إلى الشام من الأسطوان المربعة التى فى القبر — إلى آخره» معناه أنه لما أحدث المسقف الشرقى جعل ابتداءه مما يلى رحبة المسجد مربعة القبر ، وجعل فى صفها إلى جهة الشام أربع عشر أسطواناً منها عشر فى الرحبة وأربع فى السقايف التى كانت قبل : أى فى المسقف الشامى ، فيكون قد صيَّرَ المسقف الشامى رحبة ، وجعل المسقف الشامى بعد أربع عشر أسطوانا ، فهذا معنى زيادته لهذا العدد .

ويستفاد منه أن جدار المسجد من جهة الشام فى زمنه كان بعد ثمان عشرة أسطوانة ، من مربعة القبر؛ لأنك إذا ضممت أربع أساطين للسقايف التى أحدثها بدل الأولى إلى الأربع عشرة المذكورة بلغ ذلك ، فيكون محل الجدار المذكور قريباً مما يوازى الأسطوان التى قبل المسقف الشامى بأسطوان فيما يليه من الرحبة ، وذلك موافق لما تقدم من أنه جعل طوله — يعنى من القبلة إلى الشام — مائتى ذراع ، فيتحرر من ذلك أن زيادته من جهة الشام على ما ذكر من الذرْع فى زمن عثمان رضى الله عنه أربعون ذراعا ، ويحتمل أن يكون معنى قوله « وزاد إلى الشام من الأسطوان المربعة التى فى القبر أربع عشرة أسطوانة » أن المسجد ينتهى فى جهة الشام فى زمنه بعد أربع عشرة أسطوانا من المربعة إلى جهة الشام ؛ فيكون الجدار الشامى فى موازاة الأسطوانة الخامسة من طرف الدكاك التى هى المسقف الشامى ، وهناك أسطوان فى الصف الأوسط من المسقف الشرقى مربع أسفله قدر الجلسة ؛ فعلى هذا يكون علامة لذلك ، لكنه مخالف لما تقدم من أنه جعل طوله مائتى ذراع ، بل يكون طوله على هذا التقدير نحو مائة وستين ذراعا ، وذلك هو

ما تقدم فى طوله زمن عثمان رضى الله عنه ، فيكون هذا الاحتمال مردوداً ، ولـكن سيأتى فى زيادة المهدى ما يقتضيه ، والله أعلم .

وروى يحيى عن محمد بن إسماعيل بن أبى فديك عمن يثق به من مشايخ البلد أن عمر بن عبد العزيز أمر حين بنى المسجد بأسفل الأساطين فجعل قدر سترة اثنين يصليان إليها وقدر مجلس اثنين يتساندان إليها .

وعن صالح بن كيسان قال : لماجاء كتاب الوليد من دمشق لهدم المسجد سار خمس عشرة ، فجرد فى ذلك عمر بن عبد العزيز ، قال صالح : واستعملنى على هدمه و بنائه ، فهدمناه بعمال المدينة ، فبدأنا بهدم بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى قدم علينا الفَعَلة الذين بعث بهم الوليد ، وقال ابن زبالة فيما رواه عن محمد ابن عمار عن جده : وكان فى موضع الجنائز ـ أى شرقى المسجد فى زمان الوليد ابن عبد الملك ـ نخلتان إذا أتى بالموتى وضعوا عندهما فيصلى عليهم ، فأراد عمر بن عبد العزيز قطعهما حين ولى عمل المسجد للوليد بن عبد الملك ، وذلك فى سنة ثمان وثمانين ، فاقتتلت فيهما بنو النجار من الأنصار ، فابتاعهما عمر بن عبد العزيز فقطعهما .

قلت : ولا ينافى ذلك ما تقدم من أن عمر هدم المسجد فى سنة إحدى وتسعين ؛ لجواز أن يكون ولايته لذلك سنة ثمان وثمانين ، واستمر فى تحصيل الأهبة وشراء الأماكن وتخمير النورة[1] إلى سنة إحدى وتسعين .

وفيما رواه يحيى عن حفص بن مروان عن أبيه أن عمر مكث فى بنائه ثلاث سنين .

قلت : فعلى هذا يكون قد فَرَغَ منه فى آخر سنة ثلاث وتسعين ، وهى السنة التى عُزل فيها عمر عن المدينة ، وفيه رد لقول من زعم أن هدمه كان فى سنة ثلاث

(١) النورة : من الحجر الذى يحرق ويسوى منه الـكلس ، وقيل : إن هذه الـكلمة ليست عربية فى الأصل ، واشتقاقها يشبه اشتقاق العربى ، يقال : انتور الرجل ، وانتار ، إذا تطلى بالنورة .

وتسعين ، لكن فى رواية لابن زبالة مايقتضى أن البداءة فى هدم المسجد وعمارته كانت فى سنة ثمان وثمانين ؛ فإنه قال فيها : وابتدأ عمر بن عبد العزيز بناء المسجد سنة ثمان وثمانين ، وفرغ سنة إحدى وتسعين ، وفيها حج الوليد .

قال : ولما فرغ عمر بن عبد العزيز من بنيان المسجد أرسل إلى أبان بن عثمان، فحمل فى كساء خز حتى انتهى به إليه ، فقال: أين هذا البناء من بنيانكم ؟ فقال : بنيناه بناء المساجد و بنيتموه بناء الكنائس ، قال : وقال الوليد حين رأى خَوْخَة آل عمر : صانعتهم لمكان الخوخة ، هكذا فى النسخة التى وقعت لنا ، ولعلها لمكان الخؤلة ؛ لأن المطرى قال : إن الوليد قال له : صانعت أخوالك ، وقد كانت أم عمر بن عبد العزيز منهم .

وروى يحيى عن جعفر بن وردان عن أبيه ما يقتضى أن المخاطِبَ لأبَانَ بن عثمان هو الوليد ؛ فإنه قال : فلما قدم الوليد حاجا جعل يطوف فى المسجد و ينظر إليه و يصيح بعمر : ها هنا ، ومعه أبان بن عثمان ، فلما استنفد الوليدُ النظرَ إلى المسجد التفت إلى أبان وقال : أين بناؤنا من بنائكم ؟ قال أبان : إنا بنيناه بناء المساجد و بنيتموه بناء الكنائس .

قلت:وكان قد اعتنى عمر بتحسينه ؛فقد روى يحيى عن النضر بن أنس قال: كان عمر بن عبدالعزيز إذا عمل العاملُ الشجرة الكبيرة من الفُسَيْفِساء فأحسن عملها نَفَّله[1] عمر ثلاثين درهما ، وذكر هو وابن زبالة ما كان فيه من الكتابات داخله وخارجه وعلى أبوابه فتركناه لزواله .

وروى ابن زبالة عن إبراهيم بن محمد الزهرى عن أبيه قال : ولما قدم الوليد ابن عبد الملك المدينة حاجا بعد فراغ عمر بن عبد العزيز من المسجد جعل يطوف فى المسجد و ينظر إلى بنيانه ، فقال لعمر بن عبد العزيز حين رأى سقف المقصورة :

---

(١) نفله : أراد أعطاه زيادة عن أجره ، وأصله النفل ـ بالتحريك ـ وهو العطاء ، واستعمل فى الشرع لما يعطيه الإمام للمقاتلين من الغنائم .

ألا عملت السقف كله مثل هذا ، قال : إذاً يا أمير المؤمنين تعظم النفقة جداً ، قال : وإن ، قال : وكان نفقته في ذلك أربعين ألف دينار .

وروى ابن النجار هذا الخبر عن أهل السير بهذا اللفظ ، إلا أنه قال: فقال: يا أمير المؤمنين إذاً تعظم النفقة جداً ، قال : وإنْ ، قال : أتدرى كم أنفقت على عمل جدار القبلة وما بين السقفين ؟ قال : وكم ، قال : خمسة وأربعون ألف دينار ، وقال بعضهم : أربعون ألف دينار ، قال : والله لكأنك أنفقتها من مالك ، وقيل : كانت النفقة فى ذلك أربعين ألف مثقال ، انتهى .

وذكر يحيى رواية ابن زبالة المتقدمة من غير طريقه ، وقال عقب قوله : « وكانت النفقة فى ذلك أربعين ألف دينار » قال : ثم انتهى إلى القبر فقال ابنُ الوليد لعمر بن عبد العزيز : من هذا فى القبر ؟ قال : رسول الله وأبو بكر وعمر ، قال : فأين أمير المؤمنين عثمان ؟ قال : فأعرض عنه ، فألح عليه ، فقال : دفن فى حال تشاغل من الناس وقد أسيء أدبك(١) .

وروى ذلك ابن زبالة أيضاً ، وزاد فقال : وسمعت بعض أهل العلم يقول : السائلُ بكار بن عبد الملك ، وكان ضعيفاً .

وقال ابن شبة : حدثنا أيوب بن عمر بن أبى عمرو ، قال : أخبرنى موسى ابن عبد العزيز قال : قال عمر بن عبد العزيز لى : أتكأ الوليدُ على يدى حين قدم المدينة ، فجعل يطوف المسجد ينظر إلى بنائه ، ثم أتى بيت النبى صلى الله عليه وسلم فوقف عليه ، ثم أقبل علىّ فقال : أمعه أبو بكر وعمر ؟ قلت : نعم ، قال : فأين أمير المؤمنين عثمان ؟ قال : فالله أعلم إنى لظننت أنه لا يبرح حتى يخرجهما ، فقلت : يا أمير المؤمنين إن الناس كانوا حين قُتل عثمان فى فتنة وشغل فذاك الذى منعهم من أن يدفنوه معهم ، فسكت .

وروى يحيى أنه جعل المقصورة من ساج ، قال : وكانت قبلُ من حجارة ، وأن الواقدى قال : حدثنى عبدالله بن يزيد قال : كان عمل القبط مقدم المسجد،

---

(١) كذا ، والعبارة ليست على ما ينبغى.

وكانت الروم تعمل ما خرج من السقف جوانبه ومؤخره ، فسمعت سعيد بن المسيب يقول : عمل هؤلاء أحكم ، يعنى القبط .

الفصل السابع عشر

فيما اتخذه عمر فى المسجد فى زيادة الوليد من المحراب والشُّرُفات والمنائر ، واتخاذ الحرس ، ومنعهم من الصلاة على الجنائز فيه

أول من أحدث المحراب والشرفات

أسند يحيى عن عبد المهيمن بن عباس عن أبيه قال : مات عثمان وليس فى المسجد شرُفات ولا محراب ، فأول مَنْ أحدث المحراب والشرفات عمر بن عبد العزيز ، وعن القاسم وسالم أنهما نَظَرا إلى شرفات المسجد فقالا : إنها من زينة المسجد ، وأسند أيضاً من طريق ابن زبالة ورأيته فيه أن عمر بن عبدالعزيز هو الذى عمل الرصاص على طنف[1] المسجد والميازيب التى من الرصاص ، فلم يبق من الميازيب التى عمل عمر بن عبدالعزيز غير ميزابين : أحدهما فى موضع الجنائز ، والآخر على الباب الذى يدخل منه أهل السوق الذى يقال له باب عاتكة ، ولم يكن للمسجد شُرُفات حتى عملها عبد الواحد بن عبد الله النصرى ، وهو والٍ على المدينة ، سنة أربع ومائة ، انتهى .

فهذا يقتضى أن عمر بن عبد العزيز لم يحدث الشرفات فى زيادة الوليد ، بل ولا فى زمن خلافته بعده ؛ لأن وفاته كانت فى رجب سنة إحدى ومائة .

وفى سنن البيهقى عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ابنوا المساجد واتخذوها جماء » وعن ابن عمر : نهانا ـ أو نُهِينَا ـ أن نصلى فى مسجد مشرف .

قال أبو عبيد : الجم التى لا شرف لها ، حكاه فى شرح المهذب .

قال الزين المراغى : وليس للمسجد شرفات منذ حريقه ، وقد جددت له

---

(١) طنف ـ بوزن قفل أو عنق أو جبل أو فلس ـ ماتأ من الجبل ، وإفريز الحائط ، وما أشرف خارجا عن البناء ، والسقيفة تشرع فوق باب الدار .

شرفات سنة سبع وستين وسبعمائة فى أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد صاحب مصر ، انتهى .

والمراد بالشرفات المذكورة ما على ما أحاط بجدرات صحن[1] المسجد من جوانبه الأربعة ، و بينها فرج شبه طاقات الشباك ، وهى المرادة فيما حكاه البدر بن فرحون عن القاضى فخر الدين بن مسكين الفقيه الشافعى أنه كان يجلس فى مُصَلاه حتى تطلع الشمس فيصلى الضحى ، وأنه رأى الناس يرتقبون بصلاتهم الشيخَ أبا عبد الله بن فرحون ولد البدر ، قال : وكان يقوم إذا وصلت الشمس فى الحائط الغربى إلى تحت الشبابيك الصغار ، قال : فاجتمعت به ، وكنت به جاهلا ، فقلت له : رأيتك تقوم للضحى قبل وقتها ، وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عنها حتى ترتفع الشمس وتبيضّ ، فالتفت إلى وقال: بعد اليوم نؤخر كما قلت، وسكت عنى.

قلت : و إنما ذكرت ذلك لأن كثيرا من الناس اليوم يشرعون فى الصلاة عند وقوع الشمس على رؤس الشراريف ، وذلك قبل ارتفاع الشمس كرمح ، والله أعلم

المنارات التى عملها عمر بن عبد العزيز

وروى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن محمد بن عمار عن جده ، قال : جعل عمر بن عبد العزيز لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بناه أربعَ منارات فى كل زاوية منه منارة .

قال كثير بن حفص : وكانت المنارة الرابعة مُطِلة على دار مروان ، فلما حج سليمان بن عبد الملك أذن المؤذن ، فأطلّ عليه ، فأمر سليمان بتلك المنارة فهدمت إلى ظهر المسجد ، و بابها على باب المسجد ، وفى نسخة يحيى « و بابها على المسجد مما يلى دار مروان من قبل المسجد »

قلت : فكان المسجد بعد ذلك له ثلاث منارات فقط ، وهو المراد من قول

---

(١) كذا ، ولعل أصله « بجدران صحن المسجد » فإن ثبتت الكلمة على ما فى الأصل فهى جمع جدر الذى هو جمع جدار .

ابن زبالة فى موضع آخر : ولمسجد النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث منارات طول كل منارة ستون ذراعا ، وقال فى موضع آخر : وطول المنارة الشرقية اليمانية فى السماء خمس وخمسون ذراعا ، والمنارة الشرقية الشامية خمس وخمسون ، والمنارة الغربية الشامية ثلاث وخمسون ، وعرض المنارات ثمانُ أذرع فى ثمانِ أذرع ، اهـ .

وذكر ابن جبير فى رحلته ما يقتضى أن المنارتين الشاميتين كانتا صغيرتين ، بخلاف الشرقية اليمانية ، فإنه قال : وللمسجد المبارك ثلاث صوامع إحداها فى الركن الشرقى المتصل بالقبلة ، والاثنتان فى ركنى الجهة الجوفية صغيرتان كأنهما على هيئة بُرْجَين ، والصومعة الأولى المذكورة على هيئة الصوامع

قلت : فكأن الشاميتين غيرتا بعد ابن جبير ؛ فإنهما اليوم على هيئة الشرقية اليمانية المعروفة اليوم بالرئيسيّة؛ لاختصاص الرئيس بها ، وكان طول المنارة الرئيسيّة فى زماننا أولا من رأس هلالها إلى أسفلها خارج المسجد بالبلاط سبعة وسبعين ذراعا ، بتقديم السين ، ثم سقط منها نحو ثلثها بسبب الصاعقة التى نشأ عنها حريق المسجد الثانى كما سيأتى ، فاقتضى الحالُ هدمَ جميعها ، ثم أعيدت فكان طولها اليوم أزيد من مائة ذراع ، فصارت أطول المنارات ، ثم ظهر منها خلل بعدُ، فبعث السلطان الأشرف الشجاعى شاهينَ الجمالىَّ وأمره بهدمها، فهدمها غير محكم، لحفر أساسها إلى الماء، وأعادها متقنة جدا فى عرض جدارها الشرقى من موضع الجنائز شرقى المسجد ، وزاد فى ارتفاعها أيضا حتى بلغ زيادة عن مائة وعشرين ذراعا ، وطول المنارة الشرقية الشامية وهى المعروفة بالسنجارية تسعة — بتقديم التاء على السين — وسبعون ذراعا ، وطول الشامية الغربية المعروفة بالخشبية اثنان وسبعون ذراعا — بتقديم السين فيهما — كل ذلك من أعلى الهلال إلى الأرض الخارجة عن المسجد ، وبه يعلم أن المنارات التى كانت فى زمن ابن زبالة ليست هى الموجودة اليوم .

قال المطرى : ولم يزل المسجد على ثلاث منارات إلى أن جددت المنارة

الرابعة ، وذكر فى موضع آخر تجديدها ، فقال بعد ذكر خَوْخة مروان المتقدم ذكرها فى ركن المسجد الغربى : إنه شاهد الخوخة المذكورة عند بناء المنارة الكبيرة المتجددة في سنه ست وسبعمائة ، أمر بإنشائها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون

قال المطرى : وكان باب الخَوْخة عليها ، وهو من ساج ، فلم يَبْلَ إلى هذ التاريخ ، كان مروان يدخل من داره إلى المسجد منها ، وقد انسدت — يعنى الخَوْخة — بحائط المنارة الغربى ، اه

قلت : وقد ذكر البدر بن فرحون بناء هذه المنارة فإنه أدرك ذلك ، وذكر أنه لم يوجد عند الحفر أثر لما ذكر من وجود منارة قبلها ، فقال ما ملخصه : إنه لما حج سِلاّر وبيبرس كلمهما شيخ الخدام شبل الدولة كافور المظفرى المعروف بالحريرى فى بناء المنارة التى بباب السلام اليوم ، فأنعما[1] ، ثم خشى أنهما يشتغلان عن ذلك و يستثقلان النفقة ، فقال : أنا لا أطلب منكم مالا ، عندى من قناديل الذهب والفضة مايقوم بها وزيادة ، فأنعما[1] له بإرسال الصناع ، وأمر بالحفر لها فى مكانها اليوم ، فلم ينزلوا إلا قليلا إذ وجدوا باب مروان بن الحكم أسفل من أرض المسجد بقدر قامة ، ثم وجدوا تحصيب المسجد فى أيام مروان بالرمل الأسود يشبه أن يكون من جبل سَلْع ، ثم نزلوا فى الأساس حتى بلغوا الماء ، ثم أمر الحريرى مَنْ كان بالمدينة يتعانى البناية كالشيخ إبراهيم البنا والشيخ على الفراش الحجار وغيرهما ممن ليس له فى البناية كبير قدم ، فدكوا الأساس ، فلما حضر الصناع فى الموسم قال مقدمهم للشيخ : لاتبنى حتى تنقض ذلك ، فإنا لا نأمن عاقبته ، فامتنع الشيخ ، فرجع إلى مصر من حينه ، فقال الشيخ لمن كان معه من المعلمين : اعملوا أنتم ، فعملوها على ما هى عليه اليوم ، وعَمَّ نفعها ؛ لأنها متوسطة المدينة حتى إن رئيس المؤذنين محمد بن إبراهيم قال لى : لو تركت لى هذه المأذنة لكفيت

(١) أنعما : المراد أنهما استجابا له ، يقال : « أحسنت إلى وأنعمت » أى زدت على الإحسان ، ويقال : معنى أنعم دخل فى النعيم ، كما يقال : « أشمل » أى دخل فى الشمال .

المدينة ، وهو حق ؛ فإن امتداد المدينة وقوة عمارتهـا من جهة المغرب ، يعنى فى محاذاة المنارة المذكورة .

قال : وكان بعض المؤرخين يذكر أنه كان هناك مأذنة مُشْرِفة(١) على دار مروان ، فهدمها غَيْرة على أهله من مؤذنيها ، فلم يوجد لذلك صحة ولا أثر البتة ، انتهى ما ذكره ابن فرحون .

قلت : وجواب ما ذكره أخيراً أن تلك المنارة تحتمل أن تكون على باب المسجد وسطحه مما يلى دار مروان ، وليس لها فى الأرض أساس ، ويدل على ذلك قوله فى الرواية المتقدمة : وبابها على المسجد ، أو على باب المسجد ؛ فلا يلزم من عدم وجود أثرها عند الحفر عدم وجودها أصلا ورأساً فى تلك الجهة ، ولم يتعرضوا لذَرْع هذه المنارة ، وكانت أطول منارات المسجد . وقد ذَرَعْتُها من أعلى هلالها إلى الأرض ، فكان ذلك خمسة وتسعين ذراعا ـ بتقديم التاء على السين ـ لكن صارت المنارة الرئيسية المجددة بعـــد الحريق أطول منها كما سبق ، والله أعلم .

ويظهر من سياق ماتقدم أن أول جعل المنارات فى المسجد كان فى زيادة الوليد ، ويشهد لذلك مارواه ابن إسحاق وأبو داود والبيهقى أن امرأة من بنى النجار قالت : كان بيتى من أطول بيت حول المسجد ، وكان بلال يؤذن عليـه الفجر كل غداة ، فيأتى بسحر ، فيجلس على البيت لينظر إلى الفجر ، فإذا رآه تمطى ، ثم قال : اللهم إنى أحمـدك وأستعينك على قريش أن يقيموا دينك ، قالت : ثم يؤذن .

وروى خالد بن عمرو عن أبى بَرْزَة الأسلمى قال : من السنة الأذان فى المنارة والإقامة فى المسجد .

---

(١) مشرفة : أى مطلة ؛ لأنها فى جهتها .

وروى غيره أن الأذان فى زمنه صلى الله عليه وسلم كان على أسطوانة فى دار عبد الله بن عمر التى فى قبلة المسجد .

قال ابن زبالة : حدثنى محمد بن إسماعيل وغيره قال : كان فى دار عبد الله بن عمر أسطوان فى قبلة المسجد يؤذن عليها بلال يَرْقَى إليها بأقتاب[١]، والأسطوان مربعة قائمة إلى اليوم يقال لها المطار ، وهى فى منزل عبيد الله بن عبد الله بن عمر .

قلت : والظاهر أنها المرادة بقوله فى الرواية المتقدمة فى قصة الْخَوْخَة التى جعلت بدل طريق بيت حفصة: ووسعها لهم حتى انتهى بها إلى الأسطوان .

وقال الأقشهرى ، ومن خطه نقلت : عن عبد العزيز بن عمران قال : كان فى دار عبد الله بن عمر أسطوان فى قبلة المسجد يؤذن عليها، وهى مربعة قائمة إلى اليوم. قال الأقشهرى : وهى باقية إلى يومنا هذا ، قال ، يعنى عبد العزيز : وكان يقال لها المطار .

وأسند يحيى من طريق عبد العزيز بن عمران عن قدامة العمرى عن نافع عن ابن عمر ، قال : كان بلال يؤذن على منارة فى دارة حفصة بنة عمر التى تلى المسجد ، قال : وكان يرقى على أقتاب[١] فيها ، والأسطوان فى البيت الذى كان بيد عبيد الله بن عمر الذى يقال له بيت عبد الله بن عمر ، وقد كانت خارجة من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن فيه ، وليست فيه اليوم ، والظاهر أنه تجوّز فى تسمية الأسطوان منارة، وعبد العزيز بن عمران كان كثير الغلط ؛ لأن كتبه احترقت ؛ فكان يروى من حفظه، فتركوه، ثم الظاهر أن عمر وعثمان رضى الله عنهما لم يتخذا فى المسجد منارة ، و إلا لنقل .

عثمان أول من خلق المسجد ورزق المؤذنين

وروى يحيى عن جابر بن عبد الله قال : كان أول من خلّق المسجد ، ورَزَقَ المؤذنين[٢] ، وجلس على الدرجة الثالثة من المنبر بعد النبى صلى الله عليه وسلم عثمان رضى الله عنه .

---

(١) الأقتاب : جمع قتب ، وأصله إكاف صغير على قدر سنام البعير يوضع عليه

(٢) رزق المؤذنين : جعل لهم رزقا على الأذان .

اتخاذ حرس للمسجد

وروى ابن زبالة عن موسى بن عبيدة أن عمر بن عبد العزيز استأجر حَرَساً للمسجد لايحترف فيه أحد .

وعن كثير بن زيد قال : نظرت إلى حرس عمر بن عبد العزيز يطردون الناس من المسجد أن يُصَلَّى على الجنائز فيه .

وعن عثمان بن أبي الوليد عن عروة بن الزبير أنه قال له: تضربون الناس فى الصلاة فى المسجد على الجنائز ؟ قال : قلت : نعم ، قال : أما إن أبا بكر قد صُلى عليه فى المسجد .

قلت : وذكر يحيى ما يقتضى أن الحرس كانوا قبل زمن عمر بن عبد العزيز يمنعون الناس من الصلاة على الجنائز فى المسجد ؛ فإنه روى عن ابن أبى ذئب عن المقبرى أنه رأى حَرَسَ مروان بن الحكم يخرجون الناس من المسجد يمنعونهم أن يصلوا فيه على الجنائز .

قلت : وأما ما كان من ذلك فى زمنه صلى الله عليه وسلم فقد روى ابن شبة عن صحابى سقط اسمه من النسخة التى وقفتُ عليها حديثا محصله أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كان إذا اُحتضر الميت آذَنُوه فحضره واستغفر له،حتى إذا قبض انصرف النبى صلى الله عليه وسلم ومَنْ معه ، وربما قَعَد ومن معه فربما طال حَبْسُ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،قال : فلما خشينا مشقة ذلك عليه قال بعض القوم لبعض : لو كنا لا نُؤْذِنُ النبى صلى الله عليه وسلم بأحدٍ حتى يُقْبَضَ ، فإذا قبض آذنّاه(١) ، فلم يكن عليه فى ذلك مشقة ولاحبس، ففعلنا ذلك ، وكنا نؤذنه بالميت بعد أن يموت فيأتيه فيصلى عليه ، فربما انصرف ، وربما مكث حتى يدفن ، فكنا على ذلك حينا ، فقلنا : لو لم نُشْخِصْ(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم وحملنا جنائزنا إليه حتى يصلى عليها عند بيته كان ذلك أرفق به ، ففعلنا ، فكان ذلك الأمر إلى اليوم .

---

(١) آذناه : أعلمناه وأخبرناه . (٢) أشخصه يشخصه : أزعجه

الصلاة على الجنائز فى المساجد

وعن ابن شهاب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا هلك الهالكُ شهده يصلى عليه حيث يدفن، فلما ثَقُلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم و بَدَّنَ(١) نقل إليه المؤمنون موتاهم فصلى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجنائز عند بيته فى موضع الجنائز اليوم، ولم يزل ذلك جاريا .

قال ابن شبة : وحدثنى محمد بن يحيى قال : حدثنى من أثق به أنه كان فى موضع الجنائز نخلتان إذا أتى بالموتى وُضعوا عندهما فصلى عليهم ، فأراد عمر ابن عبد العزيز حين بنى المسجد قَطْعهما ، فاقتتلت فيهما بنو النجار ، فابتاعهما عمر فقطهما .

وفى صحيح البخارى من حديث ابن عمر فى قصة اليهوديين « فَرُجِما قريباً من موضع الجنائز عند المسجد » فدل ذلك على أن الموضع المذكور كان معروفاً بذلك .

وفى صحيح مسلم من حديث عائشة أنها أمرت أن يمر بجنازة ابن أبى وقَّاص فى المسجد فتصلى عليه ، فأنكر الناس ذلك عليها ، فقالت : ما أسْرَعَ مانسىَ الناسُ ! ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سُهَيل بن البيضاء إلا فى المسجد ، وفى رواية لها : والله لقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابْنَىْ بيضاء فى المسجد سُهَيْلٍ وأخيه .

قلت : و يفهم منه أن ذلك نادر ، وأن الكثير من فعله صلى الله عليه وسلم ما تقدمت الإشارة إليه .

وروى يحيى بسند جيد عن عبد الله بن عمر أنه صلّى على عمر بن الخطاب فى المسجد ، وفى رواية أخرى له عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب أن عمر بن الخطاب صلى على أبى بكر فى المسجد ، وأن صُهَيْباً صلى على عمر بن الخطاب فى المسجد ، و بيّن فى رواية أخرى أن ذلك كان عند المنبر ، وقد روى ذلك ابن أبى شيبة ، وقال فى رواية : وضعت الجنازة فى المسجد تُجَاه المنبر .

---

(١) بدن : سمن

قال الحافظ ابن حجر : وهذا يقتضى الإجماع على جواز ذلك ، وقد تقررت المذاهب فى ذلك .

وقال ابن النجار عقب ذكر ماتقدم عن عمر بن عبد العزيز فى ذلك : والسنةُ فى الجنائز باقية إلى يومنا هذا ، إلا فى حق العلويين ومن أراد الأمراء من الأعيان وغيرهم ، والباقون يصلِّى عليهم خَلْفَ الحائط الشرقى من المسجد ، إذا وقف الإمام على الجنائز هناك كان النبى صلى الله عليه وسلم عن يمينه . انتهى .

قلت : وقد انتسخ ما ذكره ابن النجار ، وصار يصلّى على الجنائز كلها فى المسجد ، و يخص الأعيان بالصلاة عليهم بالروضة الشريفة بين القبر والمنبر ، وغيرهم يصلى عليه أمام الروضة بعد أن يوقف بالجنازة بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم أمام الوجه الشريف إلى عام اثنين وأربعين وثمانمائة فى دولة السلطان الظاهر جَقْمق ، فوردت مراسيمُه على شيخ الحرم فارس بالأمر بمنع جنائز الشيعة من المسجد ، فمنع المنسوبون للشيعة من إدخال جنائزهم إلى المسجد إلا الأشراف العلويين ، وجرى الأمر على ذلك إلى يومنا هذا ، لا يدخل المسجد إلا جنائز الأشراف وأهل السنة ، وحاول بعضُ أهل المدينة إدخال بعض الشيعة غير الأشراف فقام فى ذلك بعض أمراء الترك ومنع منه ، وكان صاحبنا العلامة أحد شيوخ المالكية الشيخ شهاب الدين أحمد بن يونس القسنطينى يُنْكِر الصلاة على الموتى بالروضة الشريفة ومقدم المسجد ؛ لكون رجلى الميت تصيران إلى جهة الرأس الشريف ، حتى إنه أوصى أن يصلَّى عليه خارج المسجد فى موضع الجنائز ، وأكثر قبل وفاته من الاستفتاء فى ذلك ، وأرانى خطوط جماعة من علماء الشام وغيرها من الشافعية وغيرهم يتضمن موافقته على ذلك ، وفى كلام بعض الشافعية : ينبغى أن تكون الصلاة بالمسجد خلف الحجرة الشريفة أو شرقيها ، والتمس منى الكتابة فى ذلك ، فكتبت بما حاصله أن الله تعالى قد أوجب على هذه الأمة

الشيعة غير الأشراف

تعظيمَ نبيها صلى الله عليه وسلم وتوقيره وسلوكَ الأدب التام معه ، ولا شك أن الميت إذا وُضِع فى مقدم الروضة أو المسجد كما يوضع اليوم و إن لم تكن رجلاه فى محاذاة الرأس الشريف حقيقة ؛ لأن الرأس الشريف فى محاذاة صف أسطوان التوبة والمخلقة : أى حذاء الأسطوانات التى تكون خلف المصلى على الميت ، لكن تكون رجلاه فى محاذاة الجهة المذكورة ، وقد تصدق المحاذاة مع البعد ، ولو رأينا شخصا اضطجع بذلك المحل من الروضة وجعل رجليه لتلك الجهة الشريفة لأنكرنا ذلك عليه ، وما ننكره على الأحياء لا ينبغى أن نفعله بالأموات ، وقد تأملت كتب المذاهب الأربعة فلم أر فيها تعرضا لذكر السنة فى جهة رجلى الميت ، بل ذَكَر الشافعية فيما إذا حضرت جنائز وصلى عليها الإمام دفعة وجهين : أصحهما وضع الجميع صفا بين يدى الإمام فى جهة القبلة ، زاد أبو زُرْعة العراقى فى شرح البهجة : والأولى جعلها عن يمينه ، والثانى يوضع الجميع صفا واحدا رأسُ كل إنسان عند رجل الآخر ، ويجعل الإمام جميعهم عن يمينه ، و يقف فى محاذاة الأخير ، هذا إذا اتحد النوع ، فإن اختلف النوع تعين الوجه الأول ، ذكره فى أصل الروضة ، و يؤخذ منه استحباب جعل رجلى كل ميت عن يمين الإمام على الوجه الثانى ، و إلا فلا يكون الجميع صفا عن يمينه ، وأما على الوجه الأول فيؤخذ ذلك أيضاً مما تقدم عن أبى زرعة ، ولعل مأخذه فيه ما ذكر فى الثانى ، و إذا ثبت ذلك فى الجماعة فالواحد كذلك ؛ فيكون الأولى جعل رجليه عن يمين الإمام ، ولكن الذى عليه الناسُ جعلهما على يساره .

ورأيت فى كتب المالكية ما يقتضى أن ذلك هو الأولى ، وأن الناس مَضَوْا على ذلك .

وقد ظهر لى أن السر فى ذلك أن السلف — كما يؤخذ مما قدمناه — إنما كانوا يصلون على الجنائز خارج المسجد فى شرقيه فى الموضع المعروف بذلك ، والواقف

هناك يكون القبر الشريف عن يمينه ، فرأوا ـ والله أعلم ـ أن الأدب جعل الرجلين عن يسار الإمام صَرْفاً لهما عن تلك الجهة الشريفة ، ثم توارثوا ذلك ، واستمر العمل عليه ، فلما ترك ذلك وصلوا على الجنائز فى المسجد مَشَوْا على ما اعتادوه من جعل رجلى الميت عن يسار الإمام مع الغفلة عن ذلك ، وإذا لم تثبت سنة فى جعل رجلى الميت عن يسار الإمام فينبغى جعلهما عن يمينه فى هذا المحل الشريف ، استعمالا لكمال الأدب .

وقد قال لى الشيخ فتح الدين بن تقى الدين الكازرونى ـ وكان يُعَد من فضلاء الشافعية ـ وقد ذاكرته بذلك : إذا أنامُتّ فليجعل رجلاى عن يمين الإمام، ففعل به ذلك رحمه الله ، على أن الموضع الذى يلى الأرجل الشريفة من المسجد هو من موضع الجنائز فى زمنه صلى الله عليه وسلم فيما يظهر ، ويدل عليه ما اُتفق لبنى النجار لما أراد عمر بن عبد العزيز قَطْع النخلتين عند عمارته المسجد ؛ فلو صلى فيه اليوم على مَنْ يدخل به المسجد من الجنائز لكان أولى ؛ فإنه يتأتى فيه كون الرجلين عن يسار الإمام والرأس فى جهة الأرجل الشريفة ، ويكون أفضل لما جرت به العادة من الخروج بالميت من باب جبريل ، وأوفق لفعل السلف فى الصلاة على موتاهم هناك ، ولم يوافق على شىء من ذلك المتمسكون بالعادات ، وقد ذكرت نص ما أجبت به فى ذلك مبسوطا استطرادا فى كتابى «دفع التعرض والإنكار ، لبسط روضة المختار» والله أعلم .

الفصل الثامن عشر
فى زيادة المهدى

نقل ابن زَبَالة ويحيى أن المسجد لم يزل على حالة ما زاد فيه الوليد إلى أن هم أبو جعفر المنصور بالزيادة فيه ، ثم توفى ولم يزد فيه ، حتى زاد فيه المهدى ،

لكن ذكر يحيى في حكاية ما كان مكتوبا في جدار القبلة مالفظه : ثم إلى جنب هذا الكتاب — أي ما كتب في زمن المهدي — كتاب كتب في ولاية أبي العباس ، يعني السفّاح ، وصل هذا الكتاب أي كتاب المهدي إليه ، وهو : أمَرَ عبدُ الله عبد الله أميرُ المؤمنين بزينة هذا المسجد وتزيينه وتوسعته مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، ابتغاء رضوان الله وثواب الله ، وإن الله عنده ثواب الدنيا والآخرة ، وكان الله سميعاً بصيرا ، انتهى .

وهو يقتضي أن أبا العباس السفاح — وهو أول خلفاء بني العباس — زاد في المسجد أول ولايته ، وولايته سنة اثنتين وثلاثين ، ووفاته سنة ست وثلاثين ومائة ، وسنشير إلى محمل ذلك آخر الفصل .

ولفظ ما نقله ابن زبالة عن غير واحد من أهل العلم — منهم عبد العزيز بن محمد ومحمد بن إسماعيل — قالوا : لم يزل المسجد على حال ما زاد فيه الوليد بن عبد الملك حتى ولي أبو جعفر عبدُ الله — يعني المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس — فهمّ بالزيادة ، وأراده ، وشاور فيه ، وكتب إليه الحسنُ بن زيد يصف له ناحية موضع الجنائز ، ويقول : إن زيد في المسجد من ناحيته الشرقية توسَّطَ قبرُ النبي صلى الله عليه وسلم المسجد ، فكتب إليه أبو جعفر : إني قد عرفت الذي أردت ، فاكفف عن ذكر دار الشيخ عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فتوفي أبو جعفر ولم يزد فيه شيئاً ، ثم حج المهدي — يعني ابن أبي جعفر — سنة ستين ومائة ، فقدم المدينة مُنْصَرَفَه عن الحج ، فاستعمل عليها جعفر بن سليمان سنة إحدى وستين ومائة ، وأمر بالزيادة فيه ، وولّى بناءه عبد الله بن عاصم بن عمر بن عبد العزيز وعبد الملك بن شبيب الغساني ، فمات ابنُ عاصم ، فولى مكانه عبد الله بن موسى الحمصي ، وزاد فيه مائة ذراع من ناحية الشام ، ولم يزد في القبلة ولا في المشرق والمغرب شيئاً ، وذلك عشر أساطين في صحن المسجد إلى سقائف النساء ، وخمسا سقائف النساء الشامية .

وروى يحيى ذلك من طريق ابن زبالة وغيره ، وقال فى رواية له عقب قوله واستعمل عليها جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس : وأمره بالزيادة فى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وولاه بناءه هو وعبد الله بن عاصم بن عمر بن عبد العزيز بن مروان وعبد الملك بن شبيب الغسانى من أهل الشام ، فزيد فى المسجد من جهة الشام إلى منتهاه اليوم ، وكانت زيادته مائة ذراع ، ولم يزد فيه من المشرق ولا المغرب ولا القبلة شيئاً .

قلت : ما روياه من أنه زاد فى مؤخر المسجد مائة ذراع يخالفه ما تقدم فى زيادة الوليد أنه جعل طوله مائتى ذراع ؛ لأنه يقتضى أن يكون طولُ المسجد بعد زيادة المهدى ثلاثمائة ذراع ، وطول المسجد اليوم على ما صرح به ابن زبالة مائتا ذراع وأربعون ذراعاً ، وقد اختبرته فزاد على ذلك ثلاثة عشر ذراعاً كما سيأتى ، ومع ذلك فهو مؤيد لما قدمناه من الاحتمال المتبادر إلى الفهم فى الرواية المتقدمة فى زيادة الوليد المقتضى لأن نهاية المسجد من جهة الشام فى زمنه كانت بعد أربع عشر أسطوانة من مربعة القبر ، ومنها إلى آخر المسجد أربع وعشرون أسطوانة فإذا أسقطنا من ذلك أربع عشرة للوليد بقى عشرة أساطين وقدرها نحو مائة ذراع ، وهذا معنى قوله فى الرواية المتقدمة « وذلك عشر أساطين فى صحن المسجد إلى سقائف النساء » أى إلى آخر سقائف النساء ، وهى المسقف الشامى ، وقوله « وخمس فى السقائف » أى من العشرة المذكورة ، مع أنه يقتضى أن المهدى جَعَلَ المسقف المذكور خمس أساطين ، وهذا كان فى ذلك الزمان كما سنوضحه، وهو اليوم أربع فقط ، وقد قدمنا ترجيحَ أن المراد مما ذكر فى زيادة الوليد أنه جعل أربع عشرة أسطوانة فى الرحبة بما فيها من أربع أساطين فى السقائف التى كانت أولا ، وأنه جعل السقائف الشامية فى زمنه بعد الأربع عشرة المذكورة ؛ لموافقة ما ذكره فى ذَرْع المسجد فى زمنه ولما ذكر فى زيادة عثمان

رضى الله عنهمن أنه جعل المسجد مائة وستين ذراعاً ، فإن ذلك يقتضى أن يكون نهايته فى جهة الشام يقرب من أربعة عشر أسطوانة من المربعة المذكورة ، فيتحصل من ذلك أن زيادة الوليد على ما ذكر فى زيادة عثمان رضى الله عنه أربعون ذراعاً ، وأن زيادة المهدى نحو خمسة وخمسين ذراعاً فقط ؛ فيكون للمهدى نحو ستة أساطين فى مؤخر المسجد ، لكن سيأتى فى ذكر أبواب المسجد ما يقتضى أن الباب الذى كان يواجه دارَ خالدِ بن الوليد كان مكتوباً عليه: زيادة المهدى ، وكذا الباب الذى بعده فى الشام عليه ما يقتضى ذلك ، وكذا البابان المقابلان لهما فى جهة المغرب ، دون ما قبل ذلك من الأبواب ، وذلك يقتضى ترجيح رواية أنه زاد فى المسجد مائة ذراع ، وقد رأيت فى المسقف الشرقى أسطوانة هى التاسعة من جدار المسجد الشامى مربع أسفلها مرتفع عن الأرض بقدر الجلسة ، وهى محاذية لما وَصفوه من الباب المقابل لدار خالد بن الوليد ، فإن صحت هذه الرواية فهى علامة على ابتداء زيادة المهدى ، والله أعلم .

وقال ابن زبالة ويحيى فى روايتهما المتقدمة أيضاً : وكان – يعنى المهدى – قبل بنيانه قد أمر به ، فقدَّروا ما حوله، فابتيع ، وكان مما أدخل فى المسجد من الدور دار مليكة .

قال ابن زبالة : وأخبرنى إبراهيم بن محمد الزهرى عن أبيه قال : كانت دار مليكة لعبدالرحمن بن عوف ، وإنما سميت دار مليكة لأن عبدالرحمن أنزلها مليكة ابنة خارجة بن سنان ، فغلب عليها اسمُها ، ثم باعها بنو عبد الرحمن بن عوف من عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، فباعها عبدُ الله حين بناء المسجد ، فأدخل بعضها فى المسجد ، وبعضها فى رحبة المسارب ، وبعضها فى الطريق ، قالوا : وأدخل دار شرحبيل بن حَسَنة ، وكانت صدقة ، فابتاعوا دوراً ومنازل فأوقفوها صدقة وبقيت منها بقية ، فابتاعها منهم يحيى بن خالد بن بَرْمَك فدخلت فى الحش حش طلحة.

قلت : وقد ذكر ابن شبة دار مليكة وقال : فباعها عبد الله من معاوية رضى الله عنه ؛ فصارت فى الصوافى ؛ فأدخلها المهدى فى المسجد ، وذكر دار شرحبيل هذه فى ترجمة علم دور أزواج النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة: أى غير الحُجَر ، فقال : قال أبو غسان : اتخذت أم حَبيبة بنتُ أبى سفيان رضى الله عنها الدار التى يقال لها دار آل شرحبيل ، فوهبتها لشرحبيل بن حَسَنة ، فلم تزل ابنيه حتى باعوا صدرها من المهدى فزادها فى مؤخر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة إحدى وستين ومائة ، ثم ذكر ما سنورده فى ذكر الدور المطيفة بالمسجد .

وقال ابن زبالة عقب ما تقدم : وأدخل بقية دار عبد الله بن مسعود التى يقال لها دار القُرّاء ، ودارَ المِسْوَر بن مَخْرَمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف ابن زُهْرة .

قلت : ذكر ابنُ شبة هذه الدار فى دور بنى زُهْرة ، فقال : واتخذ مخرمة ابن أهيب بن نوفل داراً ، وهى فى زاوية المسجد عند المنارة الشرقية اليمانية ، فاشترى المهدى بعضها فأدخله فى رحبة المسجد القُصْيا وفى الطريق ، و بيعت بقيتها فصارت لرجل من آل مطرف ثم صارت لبعض بنى بَرْمَك ثم صارت صافية اليو ، انتهى .

وقوله « المنارة الشرقية اليمانية » تحريفٌ والصواب الشامية .

قال ابن زبالة و يحيى عقب ما تقدم : وفرغ من بنيان المسجد سنة خمس وستين ومائة ، وقد كان هم بسد خَوْخَة آل عمر ، وأمر بالمقصورة فهدمت وخفضت إلى مستوى المسجد ، وكانت مرتفعة ذراعين عن وجه المسجد ، فأوطأها مع المسجد ، فكلمه آلُ عمر فى خَوْخَتهم حتى كثر الكلام بينهم ، فأذن لهم ففتحوها وخَفَضوها فى الأرض شبه السِّرْب ؛ فصارت فى المسجد : أى خارج المقصورة عليها شباك حديد ، وزاد فى المسجد لتلك الخوخة ثلاث درجات ؛ فهى على ذلك إلى اليوم .

ويؤخذ مما ذكره ابن زبالة من الكتابة على أبواب المسجد فى زمن المهدى أنه زَخْرَفه بالفُسَيْفِسَاء(١) كما فعل الوليد، ويشهد لذلك بقية من الفسيفساء كانت فيما زاده فى مؤخر المسجد عند المنارة الغربية الشامية ، وفيما يقرب منها من الحائط الغربى ، ولم أر فى كلام أحد من مؤرخى المدينة أن المسجد الشريف زِيدَ فيه بعد المهدى ، لكن قال الزين المراغى ما لفظه : وقيل : إن المأمون زاد فيه ، وأتقن بنيانه أيضاً فى سنة اثنتين ومائتين .

قال السهيلى : وهو على حاله ، ورزين ينكر ذلك ، ويمكن الجمع بأنه جدده ولم يزد ، انتهى .

قلت : ولم أر فى كلام رزين تعرضاً لحكاية ذلك حتى ينكره ، وهذا بعيد جداً ؛ لأن مَنْ أدرك زمن المأمون من مؤرخى المدينة لم يتعرض لشىء من ذلك، نعم رأيت فى المعارف لابن قتيبة بعد ذكر زيادة المهدى مالفظه : وزاد فيه المأمون زيادةً كثيرةً ووسعه ، وقرأت على موضع زيادة المأمون : أَمَرَ عبد الله بعمارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة اثنتين ومائتين ، وذكر أشياء من الأمر بالعدل وتقوى الله ، وهذا لا دلالة فيه على زيادة المأمون فى المسجد ؛ لاحتمال أنه وقع فى زمنه عمارة من غير أن يزيد فيه ، على أن فى كلام يحيى وغيره فى حكاية ما كان مكتوباً فى المسجد ما يدل على كتابة مثل ذلك لمن تجددت ولايته من الخلفاء فقط ، والله أعلم .

الفصل التاسع عشر

فيما كانت عليه الحجرة الشريفة الحاوية للقبور المنيفة فى مبدأ الأمر

قد قدمنا أن النبى صلى الله عليه وسلم لما بنى المسجد بنى بيتين لزوجتيه عائشة وَسَوْدَةَ رضى الله عنهما على نعت بناء المسجد من لبِنٍ وجريد النخل ،قال ابن النجار: وكان لبيت عائشة رضى الله عنها مصراع واحد من عَرْعَرٍ أوساج، وتقدم أيضاً

---

(١) الفسيفساء : انظر ص ٥١٨ من هذا الجزء .

فى الفصل التاسع عن جماعة ممن أدرك بيوت النبى صلى الله عليه وسلم لما أدخلت فى المسجد أنها كانت من جريد مستورة بمُسُوح الشعر ، وأن عمران بن أبى أنس قال : كان فيها أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد ، الخبَر المتقدم

أول من بنى جدارا على بيت عائشة

قلت: وكان بيت عائشة رضى الله عنها أحد الأربعة المذكورة، لكن سيأتى من رواية ابن سعد أنه لم يكن عليه حائط زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن أول مَنْ بنى عليه جداراً عمرُ بن الخطاب ، وليحمل على أن حجرة الجريد التى كانت مضافة له ، أبدلها عمر بجدار ، جمعا بين الروايات ، وتقدم أيضا قول عبد الله بن يزيد الهذلى : ورأيتُ حُجَر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم حين هدمها عمر بن عبد العزيز مبنية باللبن حولها حجر من جريد ممدودة ، إلا حجرة أم سلمة ، وقول الحسن البصرى : كنت أدخل بيوتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا غلام مُرَاهق ، وأنالُ السقف بيدى ، وكان لكل بيت حجرة ، وكانت حُجَرهُ من أكسية من شَعَر مربوطة فى خشب عَرْعَر

قلت : والظاهر أن ما يستر به الحجر المذكورة هو المراد فى حديث كشفه صلى الله عليه وسلم لسَجْفِ[1] حجرته ، كما فى الصحيح ، والسجف لغة : الستر

وفى التحفة لابن عساكر عن داود بن قيس أنه قال : أظن عرض البيت من الحجرة إلى باب البيت نحو من ست أو سبع أذرع ، وأظن سمكه بين الثمان والتسع نحو ذلك ، ووقفت عند باب عائشة فإذا هو مستقبل المغرب ، وهو صريح فى أن الباب كان فى جهة المغرب ، وسيأتى ما يؤيده .

وكذا ما روى فى الصحيح من كَشْفه صلى الله عليه وسلم سجْفَ الباب[1] فى مرضه وأبو بكر رضى الله عنه يؤم الناس ، وترجيل عائشة رضى الله عنها شَعْره وهو فى معتكفه وهى فى بيتها كما تقدم فى حديث : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا اعتكف يُدْنِى إلىّ رأسه فأرجّله[2] ، وفى رواية النسائى : يأتينى وهو

(١) السجف — بكسر السين وفتحه — ومثله السجاف — بزنة الكتاب — الستر
(٢) أرجله : أسرح شعره

معتكف فى المسجد ، فيتكئ على عتبة باب حجرتى ، فأغسل رأسه وأنا فى حجرتى وسائره فى المسجد ، لكن سبق أيضا ما يقتضى أن الباب كان مستقبل الشام ، وهو ضعيف أو مُؤول ، أما ضعفه فلما تقدم من أن بيت فاطمة رضى الله عنها كان ملاصقا له من جهة الشام وأن مربعة القبر كانت بابَ على ، و يحتمل أن بعضه من جهة الشام كان ملاصقا بيت فاطمة دون بعضه ، فيتأتى ذلك ، ويدل له ما قدمناه فى بيت فاطمة رضى الله عنها من أن الموضع المزور فى بناء عمر ابن عبد العزيز كان مخرجا للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأما تأويله فبأحد أمرين كما أشار إليه الزينُ المراغى : أحدهما حَمْلُه على أنه باب شَرَّعَتْه عائشة رضى الله عنها لما ضربت حائطا بينها و بين القبور المقدسة بعد دفن عمر رضى الله عنه ، لا أنه الباب الذى كان فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، وفيه بعد ؛ لأنه سيأتى ما يؤخذ منه أن الحائط الذى ضربته كان فى جهة المشرق ، ثانيهما لأنه كان له بابان ؛ إذ لامانع من ذلك، وهذا محمل مارواه ابن عساكر عن محمدبن أبى فديك عن محمد بن هلال أنه رأى حُجَر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم من جريد مستورة بمُسُوح الشَّعَر، فسألته عن بيت عائشة ، فقال : كان بابه من جهة الشام ، قلت : مصراعا كان أو مصراعين ؟ قال : كان باب واحد ، قلت : من أى شىء كان ؟ قال : من عرعر أوساج ، وهذا مستند ابن عساكر فى قوله : وباب البيت شامى، ولم يكن على الباب غَلَق مدة حياة عائشة ، اه

ثم ظفرت فى طبقات ابن سعد بما يصرح بأن الحجرة الشريفة كان لها بابان ؛ فإنه روى من طرق أنهم صلوا على النبى صلى الله عليه وسلم بحجرته ، وروى فى أثناء ذلك عن أبى عسيم قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : كيف نصلى عليه؟قالوا : ادخلوا من دا الباب أَرْسَالاً أرسالا(١) فصلوا عليه ، واخرجوا من الباب الآخر ، والله أعلم

(١) أرسالا : جمع رسل — بفتح كل من الراء والسين — وهى الجماعة

وكان بيتُ حفصة بنت عمر رضى الله عنها ملاصقا لبيت عائشة رضى الله عنها من جهة القبلة

ونقل ابن زبالة فيما رواه عن عبد الرحمن بن حميد وعبيد الله بن عمر بن حفص وأبى سَبْرة وغيرهم أنه كان بين بيت حفصة و بين منزل عائشة الذى فيه قبر النبى صلى الله عليه وسلم طريق،وكانتا يتهادَيانِ الـكلام وهما فى منزليهما(١) ، من قُرْبِ ما بينهما ، وكان بيت حفصة عن يمين الخَوْخَة

قلت : فهو موقف الزائرين اليوم داخل المقصورة وخارجها ، كما ذكره المطرى ، وتقدم فى حدود المسجد النبوى أن جدار الحجرة مما يلى المسجد كان فى حد القناديل التى بين الأساطين اللاصقة بجدار القبر ، و بين الأساطين المقابلة لها ، وهى التى إليها المقصورة الدائرة على الحجرة من جهة المغرب ، وأن المسجد زيد فيه من تلك الجهة شىء من الحجرة ، وأن الظاهر أن ما ترك فى المسجد من الحجرة كان من مرافقها كالدهليز للبـاب ، وأن ما بنى عليه من ذلك هو صفة بيت عائشة رضى الله عنها التى وقع الدفن بها

هـذا ما تحصل لى من كلام متقدمى المؤرخين ، خلاف ما اقتضاه كلام متأخريهم،من أن جدار الحجرة الذى[فى]جوف الحائز الدائر عليها اليوم هو جدارها الأول ، و إليه ينتهى حد المسجد ، وأن جدار الحائز الذى جعله عمر بن عبد العزيز إنمـا جعله فيما يلى الحجرة من المسجد ، وقد قدمنا من كلام ابن زبالة والمحاسبى نقلا عن مالك ما يرد ذلك ، والله أعلم

الفصل العشرون

فيما حَدَثَ من عمارة الحجرة بعد ذلك ، والحائز الذى أدير عليها

روى ابن زبالة عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت:ما زِلْتُ أضَعُ خمارى(٢)

(١) انظر هذه العبارة فى ص ٥١٥ من هذا الجزء

(٢) الخمار ـ بكسر الخاء ـ غطاء الوجه ، ومعنى وضعه أنها تتركه ولا تلبسه

وأتفضّل فى ثيابى[1] حتى دفن عمر؛ فلم أزل متحفظة فى ثيابى حتى بنيت بينى و بين القبور جدارا

وعن المطلب قال : كانوا يأخذون من تراب القبر ، فأمرت عائشة بجدار فضرب عليهم ، وكانت فى الجدار كوة فكانوا يأخذون منها ، فأمرت بالكوة فسدّت

وقال ابن سعد فى طبقاته : أخبرنى موسى بن داود قال : سمعت مالك بن أنس يقول : قسم بيت عائشة باثنين : قسم كان فيه القبر ، وقسم كان تكون فيه عائشة و بينهما حائط ؛ فكانت عائشة ربما دخلت حيث القبر فُضُلا[1] ، فلما دفن عمر لم تدخله إلا وهى جامعة عليها ثيابها

وقال ابن سعد أيضا : أخبرنا يحيى بن عباد قال : حدثنا حماد بن زيد قال : سمعت عمرو بن دينار وعبيد الله بن أبى يزيد قالا : لم يكن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم على بيت النبى صلى الله عليه وسلم حائط ، وكان أول من بنى عليه جدارا عمر بن الخطاب رضى الله عنه

قال عبيد الله بن أبى يزيد : كان جداره قصيرا ، ثم بناه عبد الله بن الزبير

وقال الأقشهرى : قال أبو زيد بن شبة : قال أبو غسان بن يحيى بن على ابن عبد الحميد — وكان عالما بأخبار المدينة ومن بيت كتابة وعلم — : لم يزل بيت النبى صلى الله عليه وسلم الذى دفن فيه هو وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما ظاهرا حتى بنى عمر بن عبد العزيز عليه الحِظَار[2] المزور الذى هو عليه اليوم حين بنى المسجد فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، و إنما جعله مزورا كراهة أن يشبه تربيعه تربيع الكعبة، وأن يتخذ قبلة فيصلى إليه

قال أبو زيد : قال أبو غسان : وقد سمعت غير واحد من أهل العلم يزعم

---

(١) فضلا — بضم كل من الفاء والضاد — أى مقتصرة على ثياب المهنة ، وتفضلت : اقتصرت فى لباسها على ذلك

(٢) الحظار — بكسر الحاء ، بزنة الكتاب — الحائط وكل ما حال بينك وبين شىء .

أن عمر بنى البيت غير بنائه الذى كان عليه ، وسمعت من يقول : بنى علىّ بيت النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة أجْدُر ، فدور القبر ثلاثة أجدر : جدار بناء بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وجدار البيت الذى يزعم أنه بنى عليه يعنى عمر بن عبد العزيز ، وجدار الحظار الظاهر ، انتهى ما نقله الأقشهرى .

قلت : ولم يوجد على الحجرة الشريفة عند انكشافها فى العمارة التى أدركناها غير جدار واحد جوف الحظار الظاهر .

وقال ابن سعد : أخبرنا أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقى المكى قال : حدثنا مسلم بن خالد قال : حدثنى إبراهيم بن نوفل بن سعيد بن المغيرة الهاشمى عن أبيه قال : انهـــدم الجدار الذى على قبر النبى صلى الله عليه وسلم فى زمان عمـر بن عبد العزيز ، فأمر بعمارته ، قال : فإنه لجالس وهو يبنى إذ قال لعلى بن حسين : قم يا على فَقُمَّ البيتَ[1] ، يعنى بيتَ النبى صلى الله عليه وسلم ، فقام إليه القاسم بن محمد قال : وأنا أصلحك الله ، قال : نعم وأنت فَقُم ؛ ثم قال له سالم بن عبدالله : وأنا أصلحك الله ، قال: اجلسوا جميعا ، وقُمْ يا مزاحم ، فقُمَّه ، فقام مزاحم فقمه، قال مسلم: وقد أثبت لى بالمدينة أن البيت الذى فيـه قبر النبى صلى الله عليه وسلم بيت عائشة ، وأن بابه و باب حجرته تُجاه الشام . وأن البيت كما هو سقفه على حاله، وأن فى البيت جرة وخلق رخالة ، انتهى .

وروى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن غير واحد منهم إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز الزهرى عن أبيه قال : جاف[2] بيت النبى صلى الله عليه وسلم من شرقيه ، فجاء عمر بن عبد العزيز ومعه عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر ، فأمر ابن وردان أن يكشف عن الأساس ، فبينا هو يكشفه إلى أن رفع يده وتَنَحَّى[3] واجما ، فقام عمر بن عبد العزيز فَزِعا ، فقال عبد الله بن عبيد الله : أيها الأمير لا يَرُوعَنَّك فتانك قَدَمَا جدك عمر ابن الخطاب ضاق البيت عنه فحفر له فى الأساس ، فقال : يابن وردان[4] غَطِّ ما رأيت ، ففعل .

(١) قم البيت يقمه ــ مثل شده يشده ــ أى كنسه ، والقمامة كالكناسة وزنا ومعنى
(٢) جاف : أى ظهرت له رائحة ، وقد جاء فى بعض الروايات أن هرة ماتت داخله
(٣) تنحوا : ابتعدوا
(٤) لعل ابن وردان كان يعمل مع أبيه فتارة يسند العمل إليه وتارة يسنده إلى أبيه

وروى أيضاً عن المطلب أنه لما سقط الجدار من شق موضع الجنائز أمر عمر بقَبَاطِيٍّ مخيطات(١)، ثم ستر بها ، وأمر أبا حفصة مولى عائشة وناساً معه فبنوا الجدار، فجعلوا فيه كُوَّة ، فلما فرغوا منه ورفعوه دخل مزاحم مولى عمر فَقَمَّ ماسقط على القبر من التراب والطين ، ونزع القباطى ، وكان عمر يقول : لأنْ أكونَ وليت ما ولى مُزَاحم من قَمِّ القبور أحَبُّ إلى من أن يكون لى من الدنيا كذا وكذا ، وذكر مرغوباً من الدنيا .

وروى يحيى من طريقه أيضاً عن عبد الله بن محمد بن عقيل قال : كنت أخرج كل ليلة من آخر الليل حتى آتى المسجد ، فأبدأ بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فأسلم عليه ، ثم آتى مُصَلَّاىَ فأجلس به حتى أصلى الصبح ، فخرجت فى ليلة مَطِيرة حتى إذا كنتُ عند دار المُغِيرة بن شُعْبة لقيتنى رائحة لا واللهِ ما وجدْت مثلها قط ، فجئت المسجد فبدأت بقبر النبى صلى الله عليه وسلم فإذا جِدَاره قد انْهَدَم ، فدخلت فسلمت على النبى صلى الله عليه وسلم ، ومكثت فيه مَلِيًّا ، وذكر صفة القبور كما سيأتى عنه ، قال : فلم ألْبَثْ أن سمعتُ الحِسّ ، فإذا عمر ابن عبد العزيز قد أخبر فجاء ، فأمر به فسُتر بالقَبَاطِى(١)، فلما أصبح دعا وردان البنّاء فقال له : أُدخل فدخل فكشف فقال : لا بد لى من رجل يناولنى ، فكشف عمر بن عبد العزيز سَاقَيْه يريد يدخل ، فكشف القاسم بن محمد ، فكشف سالم بن عبد الله ، فقال عمر : مالكم ؟ فقالوا : ندخل والله معك ، قال : فلبث عمر هنيهة ثم قال : والله لا نؤذيهم بكثرتنا اليوم ، أُدخل يا مُزَاحم فناوله ، فقال عمر : يا مزاحم كيف ترى قبر النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قال : متطاطيا، قال :فكيف ترى قبر الرجلين؟قال :مرتفعين.قال: أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورواه رزين عن عبد الله المذكور باختصار، وخالف سياق يحيى فى وصف القبور كما سيأتى التنبيه عليه، وقال فيه: فأخبرت بذلك عمر ،فجاء فأمر به فستر بالقباطى(١) ، وذكره بنحوه .

---

(١) القباطى : ثياب كانت تصنع فى مصر

وفى العتبية: قال مالك : انهدم حائط بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى فيـــه قبره ، فخرج عمر بن عبد العزيز واجتمعت رجالات قريش ، فأمر عمر ابن عبد العزيز فستر بثوب ، فلما رأى ذلك عمر بن عبد العزيز من اجتماعهم أمر مُزَاحما أن يدخل ليخرج ما كان فيه ، فدخـل فقَمَّ ما كان فيه من لَبِنٍ أو طين ، وأصلح فى القبر شيئاً كان أصابه حين انهدم الحائط ، ثم خرج وستر القبر ثم بنى ، انتهى .

وروى البخارى فى الصحيح من حديث هشام بن عُرْوَة عن أبيه ، قال : لما سقط عنهم الحائط زمان الوليد بن عبد الملك أخذوا فى بنائه ، فبَدَتْ لهم قَدَم ، ففزعوا وظنوا أنها قدم النبى صلى الله عليه وسلم ، فما وجدوا أحداً يعلم ذلك ، حتى قال لهم عروة : لا والله ماهى قدم النبى صلى الله عليه وسلم ، ما هى إلا قدم عمر .

ويستفاد مما تقدم أن السبب فى هـذا البناء سقوطُ الجدار المذكور بنفسه ، ولعله بسبب المطر المشار إليه فى الرواية المتقدمة .

ويخالفه ما رواه أبو بكر الآجرى من طريق شعيب بن إسحاق عن هشام ابن عُرْوة قال : أخبرنى أبى قال : كان الناس يَصِلُونَ إلى القبر ، فأمر به عمر ابن عبد العزيز فرفع حتى لا يصل إليه أحد ، فلما هدم بَدَتْ قدمٌ بساق وركبة ، ففزع عمر بن عبد العزيز ، فأتاه عروة فقال : هذا ساق عمر وركبته ؛ فسُرِّى(١) عن عمر بن عبد العزيز .

ومن طريق مالك بن مغول عن رجاء بن حَيْوة قال : كتب الوليـد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز ، وكان قد اشترى حُجَر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، أن اهْدِمْهَا ووسِّع بها المسجد ، فقعد عمر فى ناحية ، ثم أمر بهدمها ، فما رأيت باكيا أكثر من يومه ، ثم بناها كما أراد ، فلما أنْ بَنَى البيت على القبر وهدم البيت الأول ظهرت القبور الثلاثة ، وكان الرمل الذى عليها قد انهار ،

(١) سرى عن عمر : ذهب عنه ما كان أصابه من الفزع

ففزع عمر بن عبد العزيز ، وأراد أن يقوم فيسويها بنفسه ، فقلت له : أصلحك الله ! إنك إن قمتَ قام الناس معك ، فلو أمرت رجلا أن يصلحها ، ورجوتُ أن يأمرني بذلك ، فقال : يامزاحم — يعني مولاه — قم فأصلحها .

ونقل الأقشهري عن الرشيد أبي المظفر الكازروني شارح المصابيح أنه قال : سألت جمعا من العلماء عن سبب ستر القبور عن أعين الناس : أي باتخاذ جدار لا بابَ له ، فذكر بعضهم أنه لما مات الحسن بن علي أوصى أن تحمل جنازته ويحضر بها قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يرفع ويقبر في البقيع ، فلما أراد الحسين أن يجيز وصيته ظن طائفة أنه يدفن في الحضرة ، فمنعوه وقاتلوه ، فلما كان عبد الملك أو غيره سَدّوا وستروا .

وقال أبو غسان فيما حكاه الأقشهري : أخبرني الثقة عن عبدالرحمن بن مهدي عن منصور بن ربيعة عن عثمان بن عروة قال : قال عروة : نازلت[1] عمر بن عبد العزيز في قبر النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يجعل في المسجد أشَدّ المنازلة ، فأبىٰ ، وقال : كتاب أمير المؤمنين لابد من إنفاذه ، قال : فقلت : فإنْ كان لابدّ فاجعل له حوجوا (أي وهو الموضع المزور خلف الحجرة) .

وروى ابن زبالة عن محمد بن هلال وعن غير واحد من أهل العلم أن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي فيه قبره صلى الله عليه وسلم ، وهو بيت عائشة الذي كانت تسكن ، وأنه مُرَبَّع مبني بحجارة سود وقَصَّة الذي يلي القبلة منه أطوله ، والشرقي والغربي سواء ، والشامي أنقصها ، وباب البيت مما يلي الشام ، وهو مسدود بحجارة سود وقَصَّة ، ثم بنى عمر بن عبد العزيز على ذلك البيت هذا البناء الظاهر ، وعمر بن عبد العزيز زوّاه لأن يتخذه الناس قبلة تخص فيه الصلاة من بين مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « قاتل الله اليهودَ اتَّخَذُوا قبور أنبيائهم مساجد » وقال « اللهم لاتجعل قبري وَثَناً يعبد — الحديث » قالوا : والبناء الذي حول البيت بيتِ رسول الله صلى

(١) نازلت عمر أشد المنازلة : غالبته في النزول ، كل منازل يده راغبا في ذلك أشد الرغبة

الله عليه وسلم بينه و بين البناء الظاهر اليوم مما يلي المشرق ذراعان، ومما يلي المغرب ذراع، ومما يلي القبلة شبر، ومما يلي الشام فضاء كله، وفي الفضاء الذي يلي الشام مركن مكسور[1] ومكيل خشب ، قال عبد العزيز بن محمد: يقال إن البنّائين نسوه هناك ، انتهى .

وروى يحيى عن أبي غسان محمد بن يحيى قال : سمعت من يقول في الحظار الذي على قبر النبي صلى الله عليه وسلم مركن وخشبة وحديدة مسندة ، قال محمد بن يحيى : وقال عبد الرحمن بن أبي الزناد : هو مركن تركه العمال هناك ، وقال محمد بن يحيى – يعني أبا غسان – فأما أنا فإني أطلعْتُ في الحظار فلم أرى شيئاً ، فزعم لي زاعم أنه قد رأى ثَمّ المركن وشيئاً موضوعاً مع المركن ، وأما أنا فلم أرَهُ ، ولم أعلم أحـداً يدرى من أخذه ، ولم أر للبيت الذي في الحظار باباً ولا موضع بابه ، وقد أخبرني ابن أبي فديك أنه رأى باب بيت النبي صلى الله عليه وسلم مما يلي الشام ، انتهى . وقد حكى الأقشهري عن أبي غسان أيضاً نحو ذلك .

قلت : ولم نر للبيت عند انكشافه في العمارة التي أدركناها باباً ولا موضع باب ، ولم يوجد في الفضاء الذي يلي الشام من الحظار المذكور مركن[1] ولا غيره مما ذكر ، وسيأتي في الفصل الثالث والعشرين أن ابن عاث ذكر أنهم وجدوا عند عمارة حائط سقط بالحجرة قَعْباً انكسر عند سقوط الحائط ، وأنه حمل إلى بغداد، فإن صح فلعله المراد ، وفيما قدمناه إشعار بأن موضع القبور الشريفة كان مسقفاً تحت سقف المسجد كما سيأتي التصريح به ، ولهذا لمـا انكشف سقف المسجد رأوا ما بين الحظار الظاهر والحجرة ؛ ولم يروا جَوْفَ الحجرة ، ويدل له ما سيأتي عن أبي الجوزاء قال : قُحِطَ أهلُ المدينة قحطاً شديداً ، فشكوا إلى عائشة، فقالت: فانظروا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فاجعلوا منه كوة إلى السماء حتى لا يكون بينه و بين السماء سقف ، ففعلوا ، فمُطِروا ، الخبرَ الآتي ، لـكن سيأتي في الفصل الرابع والعشرين عن ابن رشد أنه قال في بيانه : إن الثقة أخبره أنه لا سقف له في زمنه تحت سقف المسجد ، وكنت أظن أن ذلك بعد حريق المسجد ، فإن

---

(١) المركن – بوزن المنبر – الإجانة التي تغسل فيها الثياب ، ويجمع على مراكن

كلام المؤرخين الاتى متطابق على أنه لا سقف للحجرة بعد الحريق إلا سقف المسجد ، ثم تبين أن زمن ابن رشد كان قبل الحريق بمدة مديدة[١] ؛ لأن وفاته سنة عشرين وخمسمائة ، ثم أطلعنا فى العمارة التى أدركناها على وجود سقف جعل بعد الحريق وعلى آثار السقف الذى كان قبله كما سيأتى بيانه ، والله أعلم .

الفصـــل الحادى والعشرون

فيما روى من الاختلاف فى صفة القبور الشريفة ، بالحجرة المنيفة

وما جاء من أنه بقى بها موضع قبر ، وأن عيسى بن مريم عليه السلام يدفن بها ، وما جاء فى تنزل الملائكة حافّين بالقبر الشريف ، وتعظيمه ، والاستسقاء به .

اعلم أن ابن عَسَاكر ذكر فى تحفته الاختلافَ فى صفة القبور الشريفة ، فذكر فى ذلك سبعَ رواياتٍ ، وسبقه إلى ذلك شيخُه ابن النجار ، لكنه ذكر ستاً فقط .

رواية نافع فى وضع القبور

الأولى : ما رواه عن نافع بن أبى نعيم أن صفة قبر النبى صلى الله عليه وسلم وقبر أبى بكر وقبر عمر ، قبرُ النبى صلى الله عليه وسلم أمامها إلى القبلة مقدماً ، ثم قبر أبى بكر حِذاء مَنْكِبَى[٢] رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقبر عمر حذاء منكبى أبى بكر ، وهذه صفته :

النبى صلى الله عليه وسلم

أبو بكر رضى الله عنه

عمـــر رضى الله عنه

---

(١) مدة مديدة : أى طويلة ممتدة

(٢) المنكب — بوزن المسجد — الموضع الذى يجتمع فيه رأس الكتف والعضد

قلت : وهذه الرواية هى التى عليها الأكثر وتقل الزين المراغى أن رزينا ويحيي جزَما بها ، وهو كذلك فى كلام رزين ، ورواها عن عبد الله بن محمد بن عقيل فقال عقب خبره المتقدم فى قصة سقوط جدار الحجرة : ورأيت القبور ، فإذا قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمام ، وقبر أبى بكر خلفه ، وقبر عمر خلف قبر أبى بكر ، ورأس أبى بكر عند منكبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر عند منكبى أبى بكر ، وأما يحيي فلم أر فى كلامه الجزمَ بذلك ، بل رأيته حكى اختلاف الروايات كغيره ، ولفظه فى حكاية هذه الرواية : حدثنا هرون بن موسى قال : سمعت أبى يذكر عن نافع بن أبى نعيم وغيره من المشايخ ممن له سنّ وثقة أن صفة قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، وذكر ما تقدم ، ورأيت فى نسخة من كتاب يحيي تصويرَ القبور الشريفة على هذه الصفة ، وقال : إنها صفة القبور الشريفة فيما وصَف بعضُ أهل الحديث عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها ، ثم ذكر ما سيأتى فى الصفة السادسة .

وروى ابن سعد فى طبقاته فى ذكر أبى بكر رضى الله عنه من طريق الواقدى عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى سَبْرة عن عمر بن عبد الله بن عروة أنه سمع عروة والقاسم بن محمد يقولان : أوصى أبو بكر عائشةَ أن يُدْفَنَ إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما توفى حُفِر له ، وجعل رأسه عند كَتِفَيْ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألصق اللحد بقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبر هناك .

ثم روى من طريق الواقدى أيضاً عن ربيعة بن عثمان عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : رأس أبى بكر عند كتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر عند حَقْوَيْ أبى بكر .

قلت : وفى هذه مخالفة يسيرة لما تقدم بالنسبة إلى عمر رضى الله عنه .

رواية القاسم بن محمد

الثانية : روى أبو داود والحاكم من طريق القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق قال : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت لها : يا أُمَّهْ اكشفى لى عن قبر النبى

صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، فكشفت لى عن ثلاثة قبور لا مُشْرِفة ولا لاطية، مبطوحة ببطحاء العَرْصَة الحمراء . زاد الحاكم: فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدماً ، وأبا بكر رأسُه بين كتفى النبى صلى الله عليه وسلم ، وعمر رأسُه عندرجلى النبى صلى الله عليه وسلم . قال ابن عساكر : وهذه صفته .

عمـــــر رضى الله عنه	النبى صلى الله عليه وسلم

أبو بكر رضى الله عنه

قلت : وقد صحح الحاكم إسناد هذه الرواية ، والله أعلم .

رواية عثمان ابن نسطاس

الثالثة : ما رواه الزبير بن بكار عن ابن زَبَالة قال : حدثنى إسحاق بن عيسى عن عثمان بن نسطاس قال : رأيت قبر النبى صلى الله عليه وسلم لما هدم عمر بن عبد العزيز عنه البيت مرتفعاً نحواً من أربع أصابع عليه حَصْباء إلى الحمرة ماهى ، ورأيت قبر أبى بكر وراء قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، ورأيت قبر عمر أسْفَلَ منه ، وصَوَّره لنا كما صوره له عثمان .

قلت : ولم يكن فى النسخة التى وقفتُ عليها من ابن زبالة تصويرٌ ، وصَوَّر ذلك ابنُ عساكر هكذا :

النبى صلى الله عليه وسلم
أبو بكر رضى الله عنه
عمـــــر رضى الله عنه

قلت : وابن زبالة ضعيف ، و إسحاق بن عيسى هو ابن بنت داود بن أبى هند، صدوق يخطىء، وعثمان بن نسطاس هو عُثَيْم مصغر بن نسطاس بكسر النون المدنى أخو عبيد مولى آل كثير بن الصلت، مقبول حيث يتابع، و إلا فَلَيِّنُ الحديث. وقد ذكر الحافظ

ابن حجر أن أبا بكر الآجرى روى هـذا الخبر فى كتاب صفة قبر النبى صلى الله عليه وسلم من طريق إسحاق بن عيسى المذكور عن ابن نسطاس ، وليس فيه ذكر تصوير ، ولم يذكر الحافظ ابن حجر الواسطة بين الآجرى وإسحاق بن عيسى ، وهذه الرواية مع ما فيها من الضعف قابلة للتأويل بردها إلى الرواية التى قبلها ، وإن كان التصوير يأباه ؛ لجواز حمله على التقريب ، والله أعلم

رواية المنكدر بن محمد

الرابعة : روى ابن زبالة عن المنكدر بن محمد عن أبيه قال : قبر النبى صلى الله عليه وسلم هكذا ، وقبر أبى بكر خلفه ، وقبر عمر خلفه عند رجلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وصوره ابن عساكر هكذا :

النبى صلى الله عليه وسلم	عمر رضى الله عنه
أبو بكر رضى الله عنه	

قلت : ويمكن رد هذه الرواية مع ضعفها إلى الثانية ؛ لأن قوله « وأبو بكر خلفه » صادق بأن يكون رأسه عند منكبى النبى صلى الله عليه وسلم

رواية عمرة عن عائشة

الخامسة : روى يحيى بإسناد فيه إسماعيل بن عبد الله بن أبى أويس عن أبيه — وإسماعيل صدوق، لكن أخطأ فى أحاديث من قبل حفظه ، وأبوه صدوق يَهِمُ ، وبقية رجاله ثقات — عن عَمْرة عن عائشة رضى الله عنها وصفت لنا قبر النبى صلى الله عليه وسلم وقبر أبى بكر وقبر عمر ، وهذه القبور فى سَهْوَةٍ فى بيت عائشة ، رأسُ النبى صلى الله عليه وسلم مما يلى المغرب ، وقبر أبى بكر رأسه عند رجلى النبى صلى الله عليـه وسلم ، وقبر عمر خلف النبى صلى الله عليه وسلم ، وبقى موضع قبر ، وهذه صفة قبورهم على ماوصف ابن أبى أويس عن يحيى بن سعيد وعبد الله بن أبى بكر عن عمرة عن عائشة ، ولم يصور يحيى لذلك شيئا

وروى ابن زبالة نحو ذلك وقد ذكره من طريق ابن عساكر ، ثم قال : وهذه صفته

النبى صلى الله عليه وسلم	أبو بكر رضى الله عنه
عمر رضى الله عنه	

قلت : ويردها ما روى من أن رجلى عمر رضى الله عنه ضاق عنها الحائط فحفر لهما فى الأساس

وفى الصحيح كما سبق قول عروة « ما هى إلا قدم عمر »

رواية أخرى عن القاسم بن محمد

السادسة : روى ابن زبالة عن القاسم بن محمد قال : دخلت على عائشة فقلت : يا أمهْ أرِينِي قبرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، فكشفت لى عن قبورهم ، فإذا هى لا مرتفعة ولا لاطية ، مبطوحة ببطحاء حمراء من بطحاء العرصة ، فإذا قبر النبى صلى الله عليه وسلم أمامهما ، ورجلا أبى بكر عند رأس النبى صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر عند رجليه

قال ابن عساكر : وهذه صفتها :

	النبى صلى الله عليه وسلم
عمـــر رضى الله عنه	أبو بكر رضى الله عنه

قلت : وهذه الرواية مع ضعفها معارضة بما تقدم فى الرواية الثانية عن القاسم ابن محمد المذكور ، وتلك أصح ، وما سيأتى فى صفة الحجرة الشريفة يأبى ذلك أيضا ، وقد رأيتها فى نسخة من كتاب يحيى رواه ابنُه طاهر عنه على هذه الصورة:

	النبى صلى الله عليه وسلم
عمـــر رضى الله عنه	أبو بكر رضى الله عنه

وقال : إنها عن القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها ، ثم قال ابن فراس أحد رواة النسخة المذكورة عن طاهر بن يحيى : سألتُ طاهر بن يحيى أن يصور لى بخطه صفة قبر النبى صلى الله عليه وسلم وقبر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فصور لى بيده هذه الصورة ، انتهى

رواية عبد الله ابن محمد ابن عقيل

السابعة : ما روى يحيى من طريق ابن زبالة فى الخبر المتقدم فى الفصل قَبْله فى قصة سقوط جدار الحجرة الشريفة فى تلك الليلة المَطِيرة عن عبد الله بن محمد ابن عقيل ، قال عقب قوله فيما تقدم « فدخلت فسلمت على النبى صلى الله عليه وسلم ومكثت فيه مَلِيّا ، ورأيت القبور فإذا قبر النبى صلى الله عليه وسلم، وقبر أبى بكر عند رجليه ، وقبر عمر عند رجلى أبى بكر ، وعليهما حَصًى من حصباء العرصة » قال ابن عساكر : وهذه صفته :

النبى صلى الله عليه وسلم

أبو بكر رضى الله عنه

عمر رضى الله عنه

قلت : وهذه الرواية نقلها رزين عن عبدالله بن عقيل ، وساقها باللفظ السابق ، إلا أنه قال : ورأيت القبور ، فإذا قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمام ، وذكر ما قدمنا عنه فى الرواية الأولى ، وهو مخالف لما فى هذه الرواية ، وهو أولى بالاعتماد ؛ لأن هذه الرواية ضعيفة مع بُعْدها مما سيأتى فى وصف الحجرة الشريفة ، سيما على ما سبق من قسم عائشة رضى الله عنها الحجرة باثنين ، ولها شاهد لكنه ضعيف أيضا ، وهو ما فى طبقات ابن سعد عن مالك بن إسماعيل ــ أظنه مولى لآل الزبير ــ قال : دخلت مع مُصْعَب بن الزبير البيتَ الذى فيه يعنى قبر رسول

الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فرأيت قبورهم مستطيلة . انتهى

وفى رواية للآجرى ما يوهم صفة ثامنة ؛ فإنه ذكر عقب الخبر المتقدم عن رجاء ابن حَيْوة فى إدخال الحجرة فى المسجد ما لفظه : قال رجاء : فكان قبر أبى بكر وسطه ، ولم يذكر فيه عمر رضى الله عنه ، فإن الضمير فى قوله « وسطه » إن كان للبيت فواضح ، وإن كان للنبى صلى الله عليه وسلم فهذه صفة أخرى ، لكن ينبغى تأويلها أيضا على التجوز فى لفظ الوسط ليوافق رواية غيره

وأما ما أخرجه أبو يَعْلَى عن عائشة : أبو بكر عن يمينه ، وعمر عن يساره ؛ فسَنَدُه ضعيف أيضا ، ويمكن تأويله كما قاله الحافظ ابن حجر

وحينئذ فلم يبق إلا الروايتان الأولَيَان فهما اللتان يتردد بينهما فى الترجيح ، والأولى هى المشهورة ، ومقتضى تصحيح الحاكم لإسناد الثانية ترجيحها ، وهى أصح الروايات ، وقد اشتملت على أن القبور لم تكن مُسَنَّمة(١) وقد قال يحيى : حدثنى هرون بن موسى — قلت : ولا بأس به — قال : حدثنى غير واحد من مشايخ أهل المدينة أن صفات القبور الشريفة مَسْطُوحة عليها بطحاء من بطحاء العرصة حمراء

وروى ابن زبالة من طريق عمرة عن عائشة قالت : ربّع قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل رأسه مما يلى المغرب

وأما ما فى صحيح البخارى عن سفيان التمار أنه رأى قبر النبى صلى الله عليه وسلم مُسَنَّما(١) ، زاد أبو نعيم فى المستخرج : وقبر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما كذلك ، ورواه ابن سعد عنه بلفظ : رأيت قبرَ النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر مُسَنَّمة(١) ، فلا يعارض ما قدمناه ؛ لأن سفيان وُلد فى زمان معاوية فلم ير القبر الشريف إلا فى آخر الأمر ، فيحتمل — كما قال البيهقى — أن القبر لم يكن فى الأول

---

(١) سنم البناء : جعله على هيئة سنام البعير ، والتسنيم يقابل التسطيح

مسنما ، ثم سنم لما سقط عن الجدار ؛ فقد روى يحيى عن عبد الله بن الحسين قال : رأيت قبر النبى صلى الله عليه وسلم مسنما فى زمن الوليد بن هشام . وفى رواية أخرى عنه أن القبر جثوة[1] مرتفعة مُسَنَّمة غير شديدة الارتفاع ، عليها قزع من حَصًى وتربة طيبها الله عز وجل . وروى ابن سعد من طريق جعفر بن محمد عن أبيه قال : كان نبيث[2] قبر النبى صلى الله عليه وسلم شِبرا .

ويؤيد التسطيح مارواه مسلم من حديث فَضَالة بن عبيد أنه أمر بقبر فسوى ثم قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يأمر بتسويتها .

بقى بعدها موضع قبر

وقد تقدم فى الرواية الرابعة أنه بقى بعد القبور الشريفة موضع قبر ، ويؤيده ما روى أن عائشة رضى الله عنها أرسلت إلى عبد الرحمن بن عَوْف حين نزل به الموت: أن هَلُمَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أخويك، فقال : ما كنت مضيقا عليك بيتك ، الخبرَ الآتى فى ذكر قبره ، وكذلك ما سيأتى فى إذنها للحَسَن أن يدفن عندها ، ومَنْع بنى أمية له . وكذلك ما فى صحيح البخارى عن هشام بن عروة أن عائشة أوْصَتْ عبدَ الله بن الزبير : لا تَدْفِنِّى معهم : أى النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، وادفنى مع صواحبى بالبقيع لا أزكى به أبدا . وقد أخرجه الإسماعيلى وزاد فيه : وكان فى بيتها موضع قبر ، ولكن فى الصحيح أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما أرسل إلى عائشة فسألها أن يدفن مع صاحبيه قالت : كنت أريده لنفسى فلأوثرنَّه اليوم على نفسى .

قال الحافظ ابن حجر : فكأن اجتهادها فى ذلك تَغَيَّر ، أو لما قالت ذلك لعمر كان قبل أن يقع لها قصة الجمل ، فاسْتَحْيَتْ بعد ذلك وإن كانت زوجته صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة كما قاله عمار أحد من حارَبَها ، انتهى .

وقال ابن التين : كلامُها فى قصة عمر يدل على أنه لم يبق ما يسع إلا موضع قبر واحد ، فهو يغاير قولها « لا تدفنِّى عندهم » فإنه يشعر بموضع للدفن ، والجمع

(١) الجثوة ـ بتثليث الجيم ـ الحجارة المجموع بعضها إلى بعض

(٢) النبيثة : أراد أن ماحوله من التراب كان بهذا القدر

بينهما أنها كانت تظن أولا أنه لا يسع إلا قبرا واحدا ، فلما دفن [عمر] ظهر لها أن هناك وسعا لقبر آخر ، أو أن الذى آثرته به المكان الذى دفن فيه من وراء قبر أبيها بقرب النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك لا ينفى وجود مكان آخر فى الحجرة .

وروى يحيى بسنده إلى عثمان بن الضحاك عن محمد بن يوسف بن عبد الله ابن سلام عن أبيه عن جده قال : يدفن عيسى بن مريم مع النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، ويكون قبره الرابع .

وفى سنن الترمذى من طريق أبى مودود عن عثمان بن الضحاك عن محمد ابن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده قال : مكتوب فى التوراة صفة محمد وعيسى بن مريم يدفن معه ، قال : فقال أبو مودود : وقد بقى فى البيت موضع قبر ، قال الترمذى : هذا حديث غريب ، وفى بعض النسخ : حسن غريب ، هكذا قال عثمان بن الضحاك ، والمعروف الضحاك بن عثمان المدنى ، انتهى كلام الترمذى .

وفى رواية للطبرانى عن عبد الله بن سلام قال : يدفن عيسى بن مريم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ؛ فيكون قبرا رابعا ، وهو من رواية عثمان بن الضحاك ، وقد وَثَّقه ابن حِبَّان وضعفه أبو داود .

وذكر الزين المراغى أن ابن الجوزى روى فى المنتظم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ينزل عيسى بن مريم إلى الأرض ، فيتزوج ويولد له ، فيمكث خمسا وأربعين سنة ، ثم يموت فيدفن معى فى قبرى ، فأقوم أنا وعيسى بن مريم من قبر واحد بين أبى بكر وعمر .

وقال ابن النجار : قال أهل السير : وفى البيت موضع قبر فى السهوة الشرقية ، قال سعيد بن المسيب : فيه يدفن عيسى بن مريم .

والسهوة : بيت صغير منحدر فى الأرض قليلا شبيه بالمخدع والخزانة ، وقيل :

هو كالصفة يكون بين يدى البيت ، وقيل : هو شبيه بالرف والطاق يوضع فيه الشىء ، ولعل المراد بذلك الموضع الذى ضربت عليه عائشة جدارا وسكنت به كما سبق .

وسنذكر فيما استقر عليه بناء الحجرة أنه عقد على نحو ثلثها الشرقى عقد ، فصار ذلك المحل مميزا عن بقية البيت ، وكان قبله فى البناء ما يشهد لجدار آخر من الشام إلى القبلة فى تلك الجهة ، فلعله الموضع المذكور .

الملائكة يحفون بالقبر

وروى يحيى وابن النجار عن كعب الأحبار قال : ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر ، يضربون بأجنحتهم ، ويصلون على النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا أمسَوْا عَرَجُوا ، وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك ، حتى إذا انشقت الأرض خرج فى سبعين ألفا من الملائكة ، صلى الله عليه وسلم .

وفى صحيح الدارمى نحوه من رواية عائشة رضى الله عنها ، وقال فيه : سبعون ألفا بالليل وسبعون ألفاً بالنهار ، ذكره فى باب ما أكرم الله به نبيه صلى الله عليه وسلم بعد موته ، رواه البيهقى فى شُعَبه .

لا ينبغى رفع الصوت فى المسجد

وقد تقدم قولُ عمر رضى الله عنه «إن مسجدنا هذا لا ترتفع فيه الأصوات» وقال أبو بكر رضى الله عنه : لا ينبغى رفع الصوت على نبى حياً ولا ميتاً .

وروى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن غير واحد منهم عبد العزيز بن أبى حازم ونوفل بن عمارة قالوا : إنْ كانت عائشة تسمَعُ صوت الوتد يُوتَد والمسمار يضرب فى بعض الدور المطيفة بمسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، فترسل إليهم لا يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : وما عمل على مصراعى داره إلا بالمناصع ، توقّيا لذلك .

وفى الوفاء لابن الجوزى من طريق أبى محمد الدارمى بسنده عن أبى الجوزاء

قال : قُحِطَ أهلُ المدينة قحطا شديدا ، فشكوا إلى عائشة رضى الله عنها فقالت : فانظروا قبرَ النبى صلى الله عليه وسلم ، فاجعلوا منه كُوَّةً إلى السماء حتى لا يكون بينه و بين السماء سَقْف ، ففعلوا ، فمُطِروا حتى نَبَتَ العُشْبُ وسمنت الإبلُ حتى تفتقت من الشحم ، فسمى عام الفتق .

سنة أهل المدينة فى أعوام الجدب

قال الزين المراغى : واعلم أن فتح الكُوَّة عند الجَدْب سُنَّةُ أهل المدينة حتى الآن ، يفتحون كوة فى سفل قبة الحجرة : أى القبة الزرقاء المقدسة من جهة القبلة ، و إن كان السقف حائلا بين القبر الشريف و بين السماء .

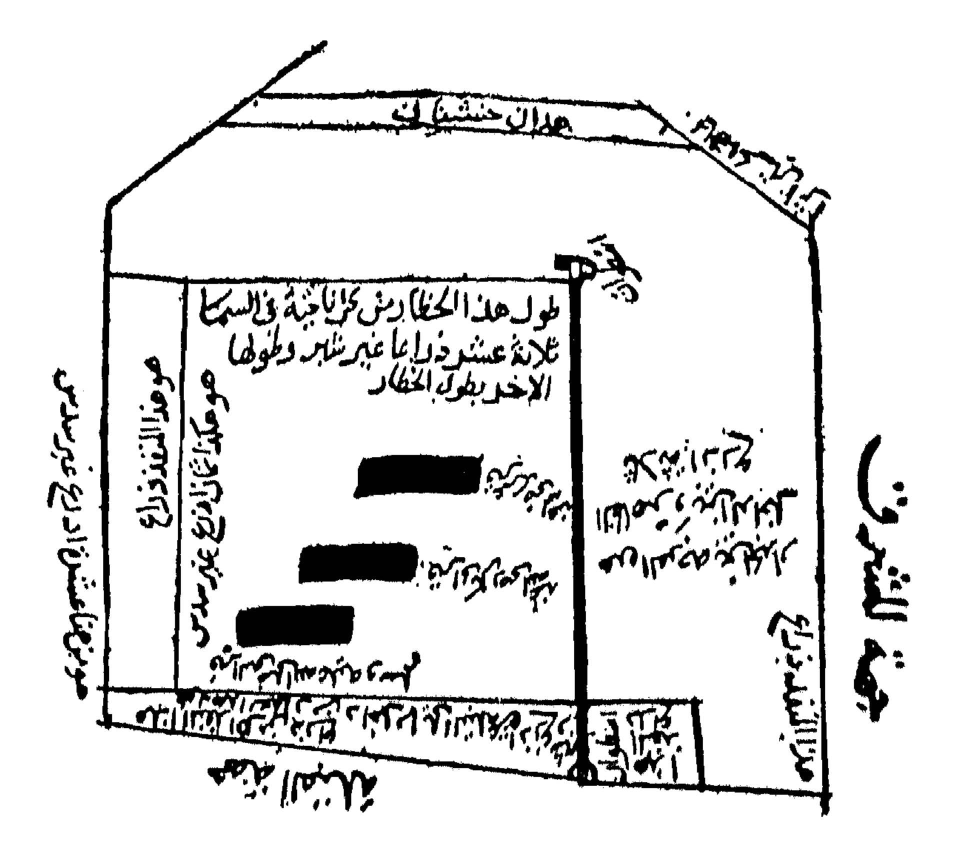
قلت : وسنتُهم اليوم فتحُ البابِ المُوَاجِه للوجه الشريف من المقصورة المحيطة بالحجرة ، والاجتماعُ هناك ، والله أعلم .

الفصل الثانى والعشرون

فيما ذكروه من صفة الحجرة الشريفة ، والحائز المخمس الدائر عليها ، و بيان ما شاهدناه مما يخالف ذلك .

قال الأقشهرى ، فيما رواه من طريق ابن شَبَّة : قال أبوغسان — يعنى محمد ابن يحيى — : وأما الحِظار الظاهر والبيت الذى فيه فإنى اطلعْتُ فيه من بين سقفى المسجد حتى عاينت ذلك الحِظار الذى على البيت وما فيه ، وصورته وما فيه ، وذرَعْتُه على مافيه من الذَّرْع ، وذلك حين انكسر خشب سقف المسجد فكشف السقف من تلك الناحية لعمارته ، وأبو البحترى بن وهب بن رشد يومئذ على المدينة ، وذلك فى جمادى الأولى من سنة ثلاث وتسعين ومائة .

وقال أبو زيد — يعنى ابن شبة — فهذه صورته ، ثم صورها الأقشهرى فى كتابه المسمى « بمنسك القاصد الزائر » بهذه الصورة :



وفى هذا التصوير وما ذكر فيه من الذَّرْع مخالفة لما تقدم عن نقل ابن زبالة حيث قال . والبناء الذى حول البيت بينه و بين البناء الظاهر اليوم مما يلى المشرق ذراعان ، والتصوير المذكور قد اشتمل على أن الفرجة المذكورة ثلاثة أذرع ، و يستفاد من التصوير أيضاً أن الفرجة بينهما فى جهة القبلة مختلفة ، فبعضها دون الذراع وهو الشبر المشار إليه فى كلام ابن زبالة ، و بعضها ذراع

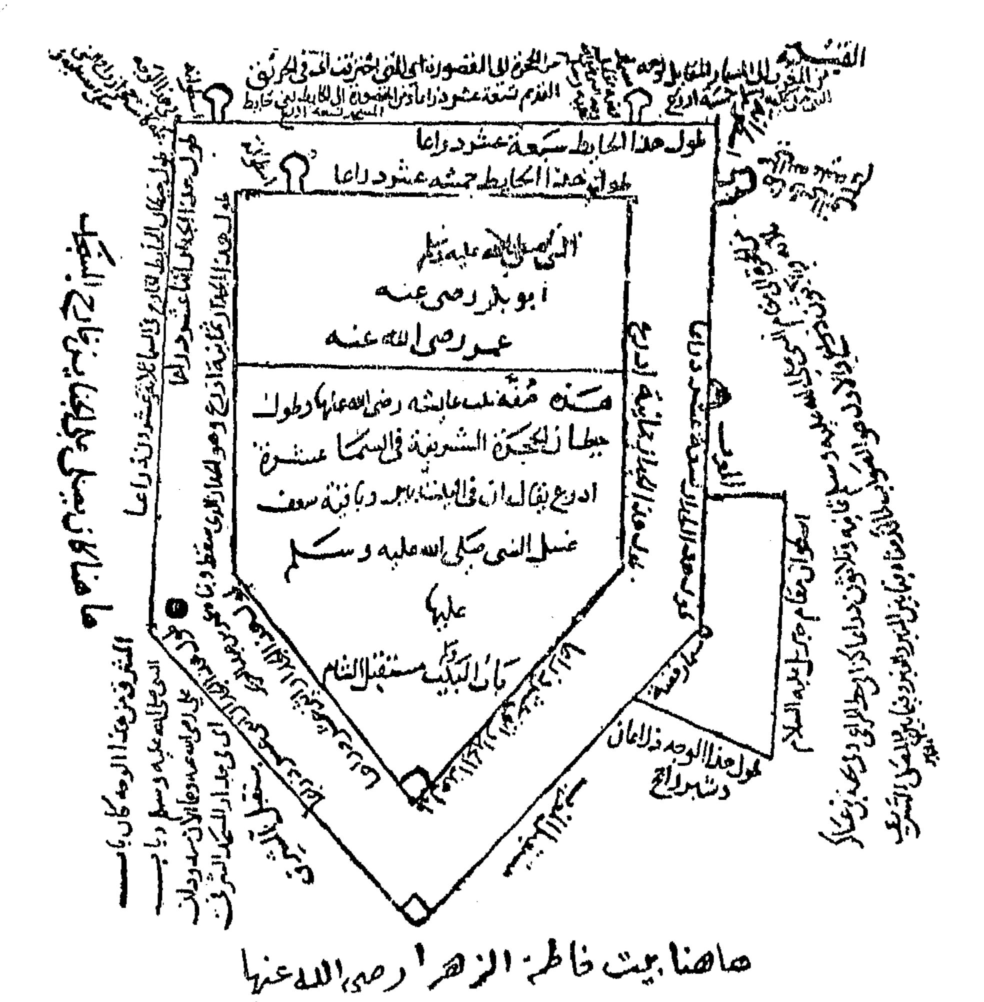
وسنذكر أنّ ما شاهدناه فى صورة الحجرة الشريفة عند انكشافها أقرب إلى التصوير المذكور مما ذكره ابن زبالة ، وأن الحال شاهد بأنه وقع فى بنائها الداخل تغيير ؛ فلم يبق على الصورة المذكورة

وقد أدرك ابن زبالة عمارة أبى البحترى التى كشف فيها سَقْفُ المسجد مما يلى الحجرة الشريفة ، وذكرها فى كتابه فقال : وكان أبو البحترى — إذ كان والياً على المدينة لهارون أمير المؤمنين — كشف سقف المسجد فى سنة ثلاث وتسعين

ومائة ، فوجد فيه سبعين خشبة مكسورة ، فأدخل مكانها خشبا صحاحا ، اه

وكأنه لم يشاهد ذلك كما شاهده أبو غسان ، وعبارة يحيى فى ذكر هذه العمارة : وقد كان خشب من خشب المسجد فوق القبر مما يليه انكسر فى ولاية أبى البحترى ، فأمر بكشف السقف ، وذكر ما تقدم عن ابن زبالة ، على أن ابن زبالة ويحيى أشارا فى كتابيهما إلى تصوير الحجرة والحائز الدائر عليها ، لكن الصورة ساقطة من النسخة التى وقعت لنا

وقد صور ذلك ابن النجار فى كتابه ، وأظنه أخذه من نسخة وقعت له من ابن زبالة مشتملة على تلك الصورة ، وتبعه عليها ابن عساكر فى « تحفة الزائر » والمراغى فى تاريخه ، وهى بعيدة مما وجدنا عليه صورة الحجرة الشريفة ؛ فلنبدأ بتصويره ، ثم تصوير الصورة التى شاهدناها ، ثم الصورة التى استَقَرَّ بناء الحجرة الشريفة عليها ، وقد تبعتُ فى حكاية تصوير ابن النجار ما صنعه المراغى ؛ فإنى نقلته من خطه ، فقال : وجعل عمر بنيان الحجرة الشريفة على خمس زوايا لئلا يستقيم لأحد استقبالها بالصلاة ؛ لتحذيره صلى الله عليه وسلم من ذلك ، وهذه صورتها وصورة الحائز حولها كما ضبطه ابن النجار ، والله أعلم .



هاهنا بيت فاطمة الزهراء رضي الله عنها

وهذا التصوير ينافى ما تقدم من رواية ابن زبالة وغيره أن البيت مربع مبنى بحجارة سود وقَصَّة

ثم بنى عليه عمر بن عبد العزيز هذا البناء الظاهر المخمس ؛ لأنه صَوَّرَ فيه البيت مخمسا أيضا كما ترى ، وهو خلاف الذى شاهدناه عند انكشافه فى العمارة التى أدركناها ، فرأيناه مربعا مبنيا بالأحجار السود المنحوتة لونُها يقرب من لون أحجار الكعبة الشريفة ، ولها من الهيبة والأنس مالا يدرك إلا بالذوق ، ولم نجد بين الجدار الخارج والداخل من جهة المغرب فضاء أصلا ، ولا مغرز إبرة ، ولم نجد للبيت الداخل بابا أصلا، ولا موضع باب،لا فى الجهة الشامية ولا فى غيرها ، ووجدنا الفضاء الذى خلف البيت الشريف من جهة الشام ، بينه وبين البناء الظاهر ، شكله مثلث ، ومساحته نحو ثمانية أذرع بذراع اليد المتقدم تحريره ،

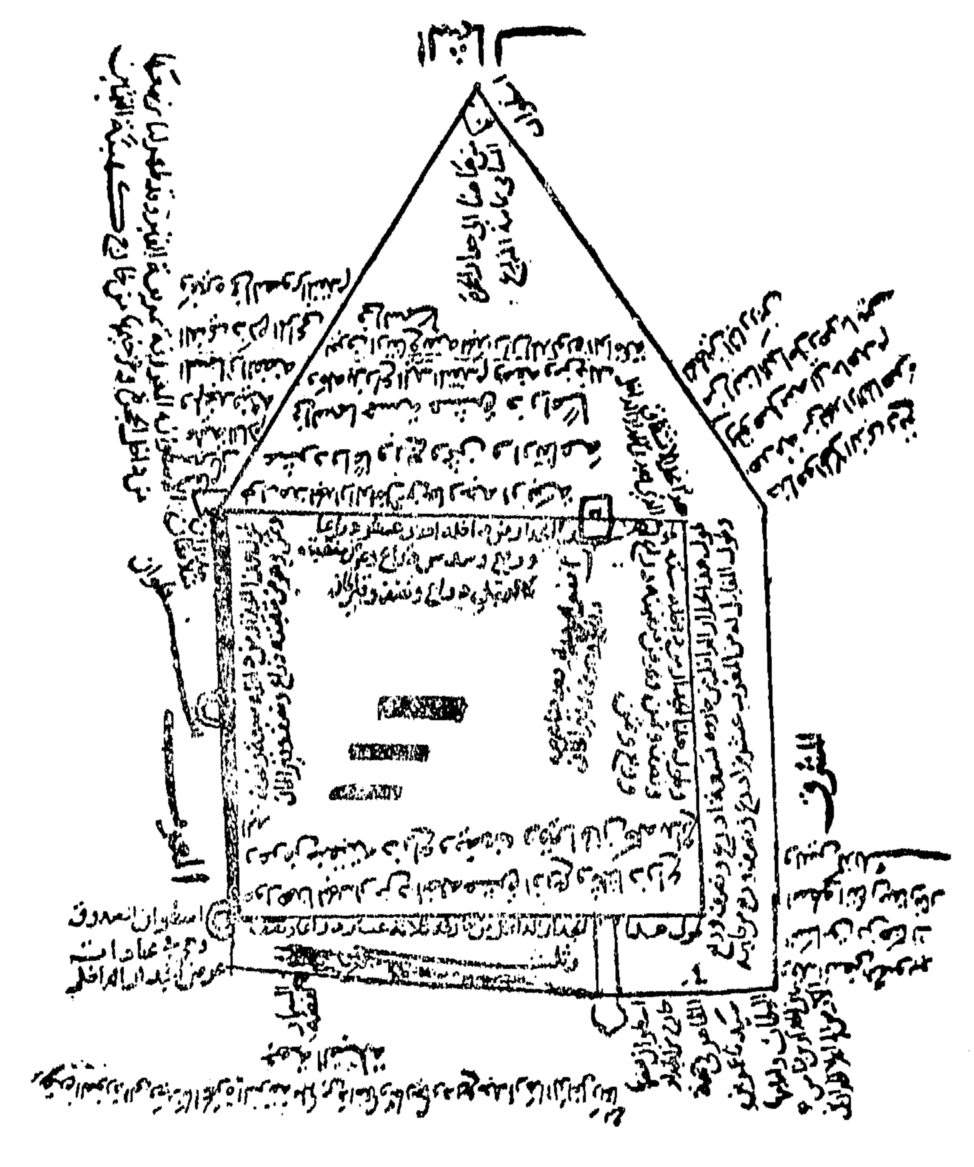
وذلك من جدار البيت الشامى إلى زاوية البناء الظاهر المقابلة له ، وهى الزاوية الشمالية التى ينحرف عنها صفحتا الشكل المثلث المذكور ، وهناك أسطوانة ملاصقة لجدار البيت الشامى فى صف" أسطوانة مربعة القبر وأسطوانة الوفود ، و بعض الأسطوانة المذكورة داخل فى الجدار المذكور ، وقد طوق على أعاليها بأطواق من الحديد ، وأدعمت بجذع من جذوع النخل رأسُه فى أعاليها ورأسُه الآخر فى زاوية البناء الظاهر الشمالية المتقدم ذكرها ، والظاهر أن ذلك جعل بعد الحريق لتشقّق الأسطوانة المذكورة وتأثير النار فيها ، وهى الأسطوانة التى تقدم ذكرها فى التصوير الأول المأخوذ من كلام ابن شبة عند نهاية جدار البيت الشامى مما يلى المشرق ، لـكنا لم نجدها كذلك ، بل قريبة من وسط الجدار الشامى ، غير أن متولّى العمارة ومَنْ كان معه أخبرونى أنهم وجدوا عند نَقْضِ جدار البيت الشامى من داخـله رأس جدار فى محاذاة الأسطوانة المذكورة يشهد الحالُ أنه كان آخذا من الشام إلى ما يحاذيه من القبلى ، فـكأنه كان نهاية الحجرة الشريفة من جهة المشرق ، وكأنه لما انهدم زِيدَ فيها ذلك القدر ، قالوا : ولا يخفى على الناظر أن بقية الجدار الشامى مما يلى المشرق لم يُبْنَ مع الجانب الآخر منه ، بل هى مُلْصَقة إلى رأس الجدار المذكور بحيث لم يدخل أحجار أحدها فى الآخر ، ولا هى مرتبطة كما هو عادة البناء الواحد ، ورأيت أنا ما يقابل هذا الجانب من الجدار القبلى مما يلى المشرق ؛ فرأيت ما يشهد بإحداث بنائه بحيث إنه مبنى بالحجارة غـير الوجوه كنسبة الجدار الشرقى ، بخلاف بقية جدارات الحجرة الشريفة فإنها كلها من داخلها وخارجها مبنية بالحجارة الوجوه المنحوتة ، وإنما لم أشاهد ما قدمته مما حكى لى فى أمر الجدار الشامى لأنى اجتنبت حضور الهَدْم احتياطا لنفسى ، وظهر بذلك أن البيت الشريف كان من جهة المشرق على ما صوره ابن شبة ، ثم حدث ذلك بعده ، ولم ينبه عليـه أحد من المؤرخين ، و يحتمل أن ذلك الجدار هو الذى أحدثته عائشة رضى الله عنها بينها و بين القبور الشريفة ؛ فقد تقـدم عن ابن سعد روايته عن مالك بن أنس قال : قسم بيت

عائشة باثنين ، قسم كان فيه القبر ، وقسم كان تكون فيه عائشة و بينهما حائط .
قلت : فهذا الاحتمال هو الذى يترجح عندى ، والله أعلم .

ووجد بين جدار البيت الشرقى و بين الجدار الظاهر الشرقى فضاء مختلف كالزقاق الرقيق ، فعند ابتدائه من جهة الشام نحو ذراع اليد يمر فيه الرجل منحرفا ، فإذا قرب من جهة القبلة تضاعف بحيث لا يمر فيه إلا الصغير منحرفا ، وسعته هناك نحو ثلث الذراع .

وقد نقل ابن شبة أنه كان ثلاثة أذرع ؛ فهذا مؤيد لما قدمناه من حدوث التغيير فى الجدار الشرقى الداخل ، ورؤيته تقضى بذلك دون بقية الجدران .

ووجدنا بين جدار البيت القبلى والجدار الظاهر القبلى فضاء مختلفا أيضاً كالزقاق الرقيق ؛ فأوله من جهة الشرق نحو ذراع اليد ، فإذا قرب من الوجه الشريف تضايق بحيث يصير نحو شبر ثم أقل من ذلك إلى ملتقى الحائطين فى جهة المغرب ، وهذا الفضاء لا يمكن المرور فيه ؛ لأن الأسطوانة التى فى البناء الظاهر عند مواجهة مواقف الزائر لسيدنا عمر رضى الله عنه بعضها بارز فى الفضاء المذكور ، وفى محاذاتها بناء بنحو عرضها قد سُدَّ ما بين الجدارين من الفضاء ، وكأنه جعل لإدعام الجدار من أجل الانشقاق الآتى ذكره ، أو لمنع المرور هناك ، جزى الله فاعله خيرا !



وأما طول جدران الحائز الظاهر من كل زاوية إلى الأخرى من خارجه فطول الجدار القبلى من زاويته التى تلى القبلة من المغرب إلى زاويته التى تلى المشرق سبعة عشر ذراعا ، بتقديم السين ، ينقص يسيرا ، وذلك موافق لما تقدم فى تصوير ابن النجار . وطول الجدار الغربى من القبلة إلى طرف مقام جبريل ستة عشر ذراعا ونحو نصف ذراع ، ومنعطف مقام جبريل هناك الشام ، وذَرْعُ منعطفه ذراعان ونصف ذراع ، وجملة ذلك تسعة عشر ذراعا ؛ فهو المراد مما تقدم فى تصوير ابن النجار ، لكنه يوهم أن وجه مقام جبريل غير داخل فى التسعة عشر ذراعا

التى ذكرها للجدار الغربى ، وليس كذلك . وطول الجدار المنعطف من مقام جبريل إلى الزاوية الشمالية اثنا عشر ذراعا ونصف ذراع راجح . وطول الجدار الشرقى من القبلة إلى الزاوية التى ينحرف منه إلى جهة الشمال اثنا عشر ذراعا ونصف ذراع راجح . وطول الجدار المنعطف من الجدار المذكور عند الزاوية المذكورة إلى الزاوية الشمالية نحو أربعة عشر ذراعا ، وفيما ذكرناه من الذَّرْع فى الثلاثة الجدر الأخيرة مخالفة لما تقدم فى تصوير ابن النجار ومن تبعه .

وأما طول الحائز الظاهر فى السماء فثلاثة عشر ذراعا وثلث ذراع ، ويرجح من بعض الجوانب يسيرا ، وعرض منقبته ذراع وربع ثمن .

ونقل الأقشهرى أن ابن شبة نقل عن أبى غسان أن طول الحظار الذى على البيت — يعنى الحائز المذكور — من جهة ارتفاعه ثلاثة عشر ذراعا غير سدس .

قلت : وقد رأيت بأعلاه سترة من آجُرّ قدر نصف ذراع يشهد الحالُ أنها محدَثة لإحداث السقف الآتى ذكره للحجرة الشريفة بعد حريق المسجد الأول ؛ فلا مخالفة بين ما وجدناه وبين ما ذكره أبو غسان .

وأما ارتفاع الجدار الداخل فى السماء فقِسْتُه من خارجه من جهة الشام فكان خمسة عشر ذراعا ، وارتفاع تلك الأرض التى فى شامىّ الحجرة بين الجدارين على أرض الحجرة ذراع ونحو ربع ذراع ، ومع ذلك فالحائز الخارج أرجَحُ من الداخل بيسير أو مُساوله ، وسبب ذلك علو الأرض الخارجة عن هذا الحائز على الأرض الداخلة بين الحائزين بأرجح من ذراع ونصف ، مع أن الأرض الداخلة بين الحائزين من جهة الشام التى هى كهيئة المثلث وجدت مجدولة بالحجارة والقَصَّة بحيث لم يتأتّ لهم حفر أساس فيها ، ولله الحمد على ذلك .

وأما ما تقدم فيما نقلناه من خط المراغى — وهو موجود فى كلام ابن النجار وابن عساكر — من أن طول حيطان الحائز الخارج فى السماء ثلاثة وعشرون ذراعا ، فهذا مخالف لما شاهدناه ولما قدمناه عن أبى غسان ، وكأنهم أرادوا بهذا ذَرْعَ

ما بين الأرض المحيطة بالحجرة و بين سقف المسجد ، وهذا البناء لم يبلغ به عمر ابن عبد العزيز سقف المسجد اتفاقا ، بل فوقه شباك من خشب متصل ذلك الشباك بسقف المسجد كما يظهر عند رفع الكسوة ، وكأن ابن النجار توهّم أن الحائط المذكور متصل بالسقف ؛ لأنه قال : و بنى عمر بن عبد العزيز على حجرة النبي صلى الله عليه وسلم حائزا من سقف المسجد إلى الأرض ، وصارت الحجرة فى وسطه وهو على دورانها .

و ينبغى حمل كلامه على أن المراد أنه بناه من سقف المسجد إلى الأرض بما جعل عليه من الشباك ، وكذلك يحمل ما ذكره فى ذَرْعه ؛ لأن الشباك المذكور له ذكر فى كلامه ، فإنه ذكر ما سيأتى من أن الجمال الأصفهانى جدّد تأزير الحجرة بالرخام ، ثم قال : وعمل لها مشبكا من خشب الصندل والآبنوس ، وأداره حولها مما يلى السقف : أى على رأس الجدار المذكور .

قلت : ولعله أول من أحدث هذا الشباك ؛ لأنه ذكر له[1] فى كلام متقدمى المؤرخين ، والله أعلم .

وقال ابن النجار : واعلم أن على حجرة النبى صلى الله عليه وسلم أى على سقفها ثوباً مشمعاً مثل الخيمة ، وفوقه سقف المسجد ، وفيه — أى فيما تحت المشمع المذكور — خَوْخَة عليها ممرق أى طابق مقفول ، وفوق الخوخة فى سقف السطح خوخة أخرى فوق تلك الخوخة ، وعليها ممرق مقفول أيضاً ، و بين سقف المسجد و بين سقف السطح أى السقف الثانى لسطح المسجد فراغ نحو الذراعين .

قلت : أما الممرق الذى ذكره فى سقف المسجد الذى يلى الحجرة الشريفة فقد أدركناه موجوداً عليه قُفْل من حديد ومشمع جدده متولى العمارة التى أدركناها إلى أن احترق المسجد فى زماننا ، وعملت القبة التى جعلت بدلا عن القبة الزرقاء .

(١) كذا ، ولعل أصل الكلام « لأن له ذكرا فى كلام — إلخ »

وأما الممرق الذى ذكره فى سقف الحجرة تحت المشمع الذى أشار إليه فهذا كان قبل حريق المسجد الأول ، ولم يوجد فى السقف الذى عمل بدله بعد الحريق ممرق ، نعم وجد عليه ستارة من المحابس اليمنية مُبَطّنة ، وسنذكر وَصْفه إن شاء الله تعالى عند ذكر العمارة المتجددة فى زماننا ، على أن الذى يقتضيه كلام المطرى ومَنْ بعده أنه ليس ثَمّ غير طابق واحد فى سقف المسجد ، فإنه قال : وعلى سقف الحجرة بين السقفين ـ أى سقفى المسجد ـ ألواح ، وقد سُمِّر بعضها على بعض ، وسمر عليها ثوب مشمع ، وفيها طابق مقفل إذا فتح كان النزول منه إلى ما بين حائط بيت النبى صلى الله عليه وسلم و بين الحائط الذى بناه عمر ابن عبد العزيز .

قلت : وليس ما ذكره فى وصف هـذا الطابق بصحيح ؛ لأن النزول منه يكون على وسط الحجرة سواء كما شاهدناه ، مع أن المطرى ومَنْ تبعه اتفق كلامُهم كما سيأتى على أن سقف الحجرة بعد الحريق إنما هو سقف المسجد ، وهو خلاف ما وجدنا الأمر عليه أيضاً ، والله أعلم .

الفصل الثالث والعشرون

فى عمارة اتفقت بالحجرة الشريفة على ما نقله الأقشهرى عن ابن عاث ، وما وقع من الدخول إليها عند الحاجة له وتأزيرها بالرخام .

قال الأقشهرى ، ومن خطه نقلت مالفظه : أخبرنا الشيخ الراوية أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى الشاطبى قال : حدثنا أبو بكر محمد بن عبد الله القضاعى الحافظ قال : حدثنا صاحبنا الرحال أبو عمر أحمد بن أبى محمـد هارون بن عاث النفرى قال : حدثت بالمدينة الشريفة ، أو قال بمدينة السلام ، بأنهم سمعوا منذ سنين قريباً من الأربعين هَدَّة فى الروضة الشريفة أى الحجرة فإنه يعبر عنهـا بذلك ، فـكتب فى ذلك إلى الخليفة ، فاستشار الفقهاء ، فأفتوا أن يدخلها رجل فاضل من القَوَمة على المسجد ، فاختاروا لذلك بدرا الضعيف ، وهو شيخ فاضل

يقوم بالليل ويصوم النهار ، وهو من فتيان بنى العباس ، فدلى حتى دخل الروضة أى الحجرة ، فوجد الحائط الغربى قد سقط ، وهو حائط دون الحائط الظاهر ، فصنع له لَبِن من تراب المسجد ، فبناه وأعاده على هيئته كما كان ، ووجد هناك قَعْباً من خشب قد أصابه وقوع الحائط فكسره ، فحمل إلى بغداد مع شىء من تراب الحائط ، وكان يوم وصول ذلك بغداد يوماً مشهوداً تجمَّع لاستقباله الناسُ ، وازدحموا على رؤيته ، وعطلت الصناعات والبيع ، وكانت رحلة ابن عاث سنة ثلاث عشرة وستمائة ، وقد قال «قريباً من أربعين سنة» فيكون ذلك سنة سبعين وخمسمائة أو ما دون ذلك ، وهكذا ذكره فى رحلته ومنها نقلته ، ويكون ذلك فى دولة المستضىء بالله بن المستنجد بالله ، انتهى كلام الأقشهرى .

ولعل هذا الحائط المنهدم فى هذه العبارة إنما هو الشرقى من الجدار الداخل ، وأطلق عليه اسم الغربى بالنظر إلى الجدار الخارج الذى يليه ، فتكون هذه الواقعة هى التى اتفق فيها بناء الجدار المتقدم وصفه ، ووقع فيها تقديمه عن محله الأول ، وأبقوا رأسه كما تقدمت الإشارة إليه ، وهو إنما بنى بالحجر ، ولا يتأتى هناك بناء باللبن إلا فى السترة التى جعلت على رأس الجدار ، فلعله أراد باللبن المتخذ من تراب المسجد هذا ، لكن فى كلام ابن النجار ونقله مَنْ بعده وأقره ، ما يقتضى أنه لم يقع دخول إلى الحجرة الشريفة من سنة أربع وخمسين وخمسمائة إلى زمانه ، وقد توفى سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، فإنه قال فى كتابه « الدرة الثمينة » ما لفظه: واعلم أن فى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة سمعوا صوتَ هدَّة فى الحجرة ، وكان الأمير قاسم بن مهنى الحسينى ، فأخبروه بالحال ، فقال : ينبغى أن ينزل شخص إلى هناك ليبصر ما هذه الهدة ، فافتكروا فى شخص يصلح لذلك ، فلم يجدوا لذلك إلا عمر النسائى شيخ شيوخ الصوفية بالموصل ، وكان مجاوراً بالمدينة ، فذكروا ذلك له ، فذكر أن به فتقا والريح والبول يحوجه إلى دخول الغائط مراراً ، فألزموه ، فقال : أمهلونى حتى أروض نفسى ، وقيل : إنه امتنع من الأكل

والشرب وسأل النبى صلى الله عليه وسلم إمساك المرض عنه بقدر مايبصر ويخرج، ثم إنهم أنزلوه فى الحبال من الخَوْخَة إلى الحظير الذى بناه عمر ، ودخل منه إلى الحجرة ومعه شمعة يستضىء بها فرأى شيئاً من طين السقف قد وقع على القبور ، فأزاله وكَنَس التراب بلحيته ، وقيل : إنه كان مليح الشيبة ، وأمسك الله تعالى ذلك الداء قدر ماخرج من الموضع وعاد إليه ، وهذا ما سمعته من أفواه جماعة ، والله أعلم بحقيقة الحال فى ذلك .

وعبارة المراغى تبعاً للمطرى فى النقل عن ابن النجار : فأنزلوه بالحبال من بين السقفين من الطابق المذكور ، ونزل بين حائط النبى صلى الله عليه وسلم و بين الحائز ومعه شمعة يستضىء بها ، ومشى إلى باب البيت ، ودخل من الباب إلى القبور المقدسة ، فرأى شيئاً من الردم ، إما من السقف أو من الحيطان إلى آخره .

قلت : وهذا لايطابق ما ذكره ابن النجار وعليه رتب المراغى إشكاله الآتى بيانه .

ثم قال ابن النجار : وفى شهر ربيع الآخر من سنة أربع وخمسين وخمسمائة فى أيام قاسم أيضاً وجدوا من الحجرة رائحة منكرة ، وكثر ذلك حتى ذكروه للأمير ، فأمرهم بالنزول إلى هناك ، فنزل بيان الأسود الخصىُّ أحد خدام الحجرة ، ومعه الصفى الموصلى متولى عمارة المسجد ، ونزل معهما هارون الشادى الصوفى بعد أن سأل الأمير فى ذلك ، و بذل له جملة من المال ، فلما نزلوا وجدوا هراً قد هَبَطَ ومات وجَيَّفَ ، فأخرجوه ، وكان فى الحائز بين الحجرة والمسجد .

وقال المراغى وغيره فى النقل عن ابن النجار : فوجدوا هرا قد سقط من الشباك الذى فى أعلى الحائز ، ووقع بين الحائز و بيت النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن النجار : وكان نزولهم يوم السبت الحادى عشر من ربيع الآخر ، ومن ذلك التاريخ إلى يومنا هذا لم ينزل أحد إلى هناك ، فاعلم ذلك ، انتهى .

فهذا يخالف مانقله الأقشهرى عن ابن عاث ؛ لاقتضائه أن تلك الواقعة فى سنة سبعين وخمسمائة أو ما قاربها ، والظاهر أن القضية واحدة ، ولم نجد من دونها فنقل كل منهما بحسب ما بلغه .

وقال الزين المراغى عقب ذكره للواقعة الأولى التى حكاها ابن النجار المتضمنة للدخول إلى القبور الشريفة مالفظه : وينبغى تأمل هذا النقل ؛ لأن الوصول إلى القبور الشريفة متعذر، إن كان الجدار الذى أحدثته عائشة المتقـدم ذكره باقياً ، فإن جاء نَقْل بإزالته و بإمكان الاستطراق معه من باب أو نحوه فهو واضح ، وإلا ففيه نظر .

قلت : نظره إنما يتوجه على ماقدمه من أن النزول كان إلى ما بين الحائطين وأنه مشى إلى باب البيت ، وليس فى كلام ابن النجار تعرّض لشىء من ذلك ، بل مقتضى ماقدمناه عنه ــ من أن الحجرة الشريفة بها ممرق ، و بسقف المسجد مثله ــ أن النزول إنما هو من العلو إلى سقف الحجرة ، ثم منه إليها ؛ فلا نظر ، على أن الجدار الذى أشار إليه وأن عائشة بنته ولم نجد له أثراً إلا ما تقدمت الإشارة إليه من رأس جدار الحائط الشامى مقتضٍ لأنه كان هناك جدار من الشام إلى القبلة ، وكذلك الباب لم نجد له أثراً كما قدمناه .

وأما تأزير الحجرة بالرخام فليس له ذكر فى كلام ابن زبالة ، وله ذكر فى كلام يحيى ؛ فإنه روى ما حاصله أن بيت فاطمة الزهراء لما أخرجوا منه فاطمة بنت حسين وزوجَها حسن بن حسن وهدموا البيت بعث حسن بن حسن ابنه جعفراً ، وكان أسَنّ ولده ، فقال له : اذهب ولا تبرحن حتى يبنوا فتنظر الحجر الذى من صفته كذا وكذا هل يدخلونه فى بنيانهم ، فلم يزل يرصُدُهم حتى رفعوا الأساس وأخرجوا الحجر ، فجاء جعفر إلى أبيه فأخبره ، فخر ساجداً وقال : ذلك حجر كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى إليه إذا دَخَلَ إلى فاطمة ، أو كانت فاطمة تصلى إليه ، الشك من يحيى .

وقال على بن موسى الرضى : ولَدَتْ فاطمة عليها السلام الحسن والحسين على ذلك الحجر .

قال يحيى : ورأيت الحسين بن عبد الله بن عبد الله بن الحسين ولم أر فينا رجلا أفضل منه إذا اشتكى شيئاً من جسده كشف الحصى عن الحجر فيمسح به ذلك الموضع ، ولم يزل ذلك الحجر نراه حتى عَمَّرَ الصانعُ المسجدَ ففقدناه عندما أزر القبر بالرخام ، وكان الحجر لاصقا بجدار القبر قريبا من المربعة .

قال بعضُ رواة كتاب يحيى : الصانع هذا هو إسحاق بن سلمة ، كان المتوكل وجه به على عمارة المدينة ومكة .

قلت : وكانت خلافة المتوكل سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، وتوفى فى شوال سنة سبع وأربعين ، وكان هذا مأخذ بن النجار فى قوله إن المتوكل فى خلافته أمر إسحاق بن سلمة وكأن على عمارة الحرمين من قِبَله أن يؤزّر الحجرة بالرخام ففعل .

ثم فى خلافة المقتفى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة جدده جمال الدين وزير بنى زنكى ، وجعل الرخام حولها قامةً وبَسْطةً .

قلت : ولم يذكر أحد من المؤرخين تجديداً لهذا الرخام بعد ذلك ، وقد جدده فى زماننا متولى العمارة الآتى ذكرها الجناب الشمسى المحسنى الخواجكى بن الزمن بأمر المقام الشريف السلطانى قايتباى عز نصره ، ووجد فى الصفحة القبلية عند ابتدائها من جهة المغرب فى اللوح السماقى اللون الثانى فى تلك الجهة من الألواح الملونة التى يحيط بها الرخام الأبيض البارز قطعةً أوسع من الدينار ملصقة فى ظاهر اللوح المذكور بالجص ، فأشيع أنها جوهرة نفيسة ذات أثمان ، ثم إن متولى العمارة أرانيها فإذا هى حَجَر عسلى اللون يميل حمرته إلى الصفرة ، قال : وأظنه حجر اليرَقان ، وقد خشى عليه متولى العمارة إن أعيد لصقاً كهيئته الأولى ، فأمر بنقر الرخامة المذكورة وتنزيله فيها ، ففعلوا ذلك ، وأعادوا تلك الرخامة إلى محلها .

ولم أر من نبه على ابتداء حدوث الرخام الذى حول الحجرة الشريفة بالأرض والظاهر أنه حدث عند حدوث تأزيرها بالرخام ؛ لما تقدم من كلام يحيى فى أمر

الحجر الذى كان يتبرك به من أن الحسين بن عبد الله كان يكشف عنه الحصى ، وأنه لم يدخل فى البناء ، وأنه فقده عند تأزير الحجرة بالرخام ، فدل ذلك على أنه رخم الأرض أيضاً ، وإلا لما استتر الحجر المذكور .

وأما ترخيم المصلَّى الشريف فلا أدرى متى زمنُ حدوثه ، وله ذكر فى رحلة ابن جبير .

وأما الرخام الذى بالمحراب العثمانى وما حوله فالقديم منه ــ أعنى بعد الحريق الأول ــ ترخيم المحراب وشىء يسير عن جنبتيه ، وفى دولة السلطان الملك الظاهر جَقْمَق فى أول عشر الستين وثمانمائة أمر بعمل الوزَرَة التى فى الجدار القبلى ، فاتصل ذلك بترخيم المحراب المذكور ، وقد جدد غالب ذلك فى العمارة التى أدركناها أيضا ، وأبدل الطراز الأول الذى كان بأعلى الوزَرَة وكان محمّراً بماء الذهب بالطراز الموجود اليوم ، ثم زال ذلك كله فى حريق المسجد الثانى ، ثم أُعيد مع زيادة فيه مما يلى المنارة الرئيسية ، ومع ترخيم ما حول الحجرة الشريفة وتأزيرها بالرخام ، ومع ما سبق من عمل محراب المصلى الشريف وترخيمه ، ورخموا أيضاً الدعائم المواجهة للوجه الشريف التى أحدثوها عند عمارة القبة الثانية من داخل المقصورة وخارجها ، وجميعُ ما يوجد من الرخام بالمسجد اليوم من عمل سلطان زماننا الأشرف قايتباى ، أعز الله أنصاره ، وضاعف اقتداره ! والله أعلم .

الفصل الرابع والعشرون

فى الصندوق الذى فى جهة الرأس الشريف ، والمسمار الفضة المواجه للوجه الشريف ، ومقام جبريل من الحجرة الشريفة ، وكسوتها ، وتخليقها

أما الصندوق فلم أعلم ابتداء حدوثه ، وكذلك القائم المحلّى فوقه ، إلا أنه قد ظهر لنا فى هذه العمارة التى أدركناها أنه كان موجوداً قبل حريق المسجد الأول ؛ لأن متولى العمارة كان قد قلعه لاقتضاء رأيه قَلْعَ حلية الفضة التى كانت على القائم الخشب الذى فوق الصندوق ليُحْكِم صَوْغها ، وزاد ذلك فضة وتمويهها

بالذهب، وأصلح حلية الصندوق أيضا ، وكان ذلك سببا لإصلاح أصل الأسطوانة التى كان بها ، فلما قلعوا الصندوق المذكور ظهر فيه قوائم صندوق عتيق ، وفى تلك القوائم أثر الحريق ، وكأنهم جدّدوا عليه صندوقا ، وجعلوا ذلك المحترق فى جوفه ، وقد أعيد كذلك

وقد ذكر المجد الشيرازى هذا الصندوق والقائم فقال : وفى الصفحة الغربية من الحجرة الشريفة صندوق آبنوس مختم بالصَّنْدَل مصفَّح بالفضة مكوكب بها ، هو قبالة رأس النبى صلى الله عليه وسلم ، وفيه أسطوان ، وفوق الصندوق قائم من خشب مجـــدد ، وأما الصندوق فطوله خمسة أشبار وعرضه ثلاثة أشبار وارتفاعه فى الهواء أربعة أشبار

قلت : وقد ظفرت بذلك كله فى كلام ابن جبير فى رحلته ، غير ما يتعلق بالقائم المذكور ، ومن ذلك أخذ المجد وصف القائم بكونه مجددا ، وكانت رحلة ابن جبير عام ثمانين وخمسمائة ، فاستفدنا بذلك وجود ذلك الصندوق قبل الحريق فى ذلك الزمان ، وما ذكره من أن الصندوق المذكور قبالة الرأس الشريف فيه تجوّز ؛ لأنه قد ظهر لنا فى هذه العمارة أنه فى محاذاة الجدار الداخل القبلى، وسيأتى أن الوجه الشريف إلى الجـــدار ؛ فالرأس الشريف متأخر عن الصندوق المذكور يسيرا

ومستند المجد وغيره فى هذا الإطلاق ما روى جعفر بن محمد بن على بن الحسين رضى الله عنه عن أبيه عن جده أنه كان إذا جاء يُسَلم على النبى صلى الله عليه وسلم وقف عند الأسطوانة التى تلى الروضة ، ثم يسلم ، ثم يقول : ها هنا رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد به ما قدمناه ، والله أعلم

وذرع الصندوق المذكور فى الارتفاع ذراع ونصف وربع بذراع اليد ، وأعلى القائم فوقه محاذٍ لرأس الوزَرَة الرخام ، وطول القائم المذكور ثلاثة أذرع ، وهو خمس صفحات ألصق بعضُها على بعض وجعلت محيطة بما ظهر من الأسطوانة التى

الصندوقُ بأصلها فوقه ؛ فإن بعض الأسطوانة فى البناء الملاصق لها من الحائز المذكور ولو أحاطت الصفحات بجميع الأسطوانة لكانت أكثر من خمس ، ولكانت شكلها مثمنا ، وهو مختم بالخشب الأسود الهندى ، معصّب بصفائح الفضة المموّهة طولا وعرضا بأحسن صناعة ، وصفائحُهُ الطولية من الفضة أربع ، والمقاطعة لها من جهة العرض خمس ، وفي رأسه من أعلاه حلية رقيقة كالزيق ، وزنة ما عليه من الفضة زيادة على ألفَيْ قفلة ، وأخذوا لأجل تمويهه من حاصل المسجد أربعين مثقالا من الذهب كما أخبرنى به متولى العمارة

وأما الصندوق فلم يغير ، وكله مُغَشًّى بالفضة ، وقد احترق فى حريق المسجد الثانى ، ووجدوا حليته من الفضة ، فجددوا صندوقا فى محله ، وجعلوا موضع القائم الذى كان فوقه رخاما مكتوبا فيه البسملة والصلاة والتسليم على النبى صلى الله عليه وسلم والترضّى عن أصحابه وغير ذلك

وأما المسمار المواجه للوجه الشريف فقد تقدم أن بينه و بين أول الصفحة الغربية من المغرب خمسة أذرع ، وقد اعتبرتُ ذلك فنقص يسيرا نحو سدس ذراع ، وكأنه لاختلاف الأذرعة ، ولم أعلم ابتداء حدوث التعليم بهذا المسمار أيضا ، والمذكور فى كلام المتقدمين إنما هو التعريفُ بأن يجعل القنديل على رأسه ، لكن قال المطرى : إن ما ذكر من القيام تحت القنديل تجاه الحجرة الشريفة للسلام كان قبل احتراق المسجد الشريف ؛ فإنه لم يكن يقابل وجه النبى صلى الله عليه وسلم إلا قنديل واحد ؛ ولما جدد جُعِل هناك عدة قناديل ، و إنما علامة الوقوف تجاه الوجه الكريم اليوم مسمار فضة فى رخامة حمراء ، انتهى . وهو يوهم حدوث التعليم به بعد الحريق ، وليس كذلك ؛ لأن ابن النجار ذكر التعليم به كما سيأتى ، ولم يدرك الحريق ، ولأن ابن جُبَير ذكره فى رحلته وهو أقدم من ابن النجار فقال عند وصف الحجرة الشريفة : وفى الصفحة القبلية أمام وجه النبى صلى الله عليه وسلم مسمار فضة هو أمام الوجه الكريم ، فتقف الناس أمامه للسلام ، انتهى . وأيضاً فقد روى ابن الجوزى فى « مثير الغرام الساكن » أن ابن أبى مُلَيكة كان يقول : مَنْ أحب أن يقوم وُجَاه النبى صلى الله عليه وسلم

فليجعل القنديل الذى فى القبلة عند القبر على رأسه ، ثم قال ابن الجوزى : وثم ما هو أوضح علما من القنديل ، وهو مسمار من صُفْر فى حائط الحجرة ، إذا حاذاه القائم كان القنديل فوق رأسه ، انتهى .

وقال يحيى فى كتابه : كان ابن أبى مليكة يقول : إذا جعلت القنديل على رأسك والمرمرة المدخولة فى جدار القبر قبالة وجهك استقبلت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : وكأن هذا المسمار فى موضع تلك المرمرة ، ولهذا قال ابن النجار : إن اليوم هناك علامة واضحة ، وهى مسمار من فضة فى حائط حجرة النبى صلى الله عليه وسلم ، إذا قابله الإنسان كان القنديل على رأسه ، فيقابل وجه النبى صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

ولم أر لهذا المسمار ذكرا فى كلام مَنْ صنَّف فى المناسك قبل ابن جماعة ، والذى فى مناسك ابن الصلاح أخذا من الإحياء ذكر القنديل ، وجعله حذاء رأس الزائر ، ونقله عن ابن أبى مليكة ، واقتضى كلامه أن الواقف هناك يكون بينه و بين السارية التى عند رأس القبر عند زاويته الغربية وهى أسطوان الصندوق نحو أربعة أذرع ؛ فهو قريب مما تقدم فى التعليم بالمسمار المذكور ، وإن لم يصرح به ، لكن قال الأقشهرى ومن خطه نقلت : أخبرنا الإمام العالم رضى الدين أبو أحمد إبراهيم بن محمد بن أبى بكر إمام مقام إبراهيم الخليل بمكة توفي فى تاسع شهر ربيع الأول من عام اثنين وعشرين وسبعمائة والشيخُ الوزير أبو عبد الله محمد بن أبى بكر محمد بن عيسى المومنانى قالا : أخبرنا الإمام أبو عمرو عثمان ابن عبد الرحمن بن الصلاح السهروردى قال : ثم يأتى الزائر الضريحَ المقدس فيستدبر القبلة و يستقبل جداره نحو ثلاثة أذرع أو أربعة أذرع من الجدار وُجَاه المسمار الذى فى الجدار القبلى من الحجرة المشرفة ، هذا ما نقلته من خط الأقشهرى بحروفه ، ولم أره فى كلام ابن الصلاح ، والذى نقله ابن عساكر فى تحفته عن

ابن الصلاح وهو من تلامذته إنما هو ما قدمناه ، وروايته عن إبراهيم الطبرى عن ابن الصلاح تخليط ؛ فإن وفاة ابن الصلاح فى سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، والذى أدركه إنما هو والد إبراهيم المذكور ، وهو المعروف بالرضى الطبرى ، فإن مولد الوالد المذكور سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، فإنما أدرك من زمن ابن الصلاح عشر سنين ، فكيف يكون ولده راويا عن ابن الصلاح بلا واسطة؟ .

وقال الأقشهرى عقب ما تقدم عنه : وقد سقط هـذا المسمار سنة عشرين وسبعمائة ، ولم يردّ إلى موضعه إلا فى رجب عام أربع وعشرين وسبعمائة .

قلت : وقد أخرج فى هذه العمارة من موضعه عنـد ترخيم جدار الحجرة الشريفة ، ثم أعيد فى محله الأول بعينه فى الرخامة الحمراء التى كان بها ، ثم سقط من محله فى الحريق الثانى ، وجدد مسمار آخر فى محله ، ولا يختلف أحد ممن أدركناه بالمدينة الشريفة فى أن ذلك الموضع تجاه الوجه الشريف ، وهو الذى يقتضيه الحالُ عند مشاهدة الحجرة الشريفة من داخلها ، غير أنى رأيت فى كلام يحيى ما يوهم خلاف ذلك ، فإنه ذكر أن الموضع الذى يواجه الوجه الشريف هو ما بين الأسطوانة المتوسطة فى قبلة جدار قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، بين هذا الموضع و بين الأسطوان شبران وثلاث أصابع متفرجة من الحفيرة إلى الوسطى ، و إن كل مَنْ أدركه من أهل بيته كانوا إذا وقفوا للسلام على النبى صـلى الله عليه وسلم وقفوا قريبا من هـذا الموضع ، وكانت ثَمَّ علامة قد تعلموا بها حُفيرة ولم تزل ثَمَّ منذ عملت إلى أن عمر الصانعُ المسجدَ فى ولاية أمير المؤمنين المتوكل فإنه أزَّرَ القبر بالرخام فذهبت العلامة منذ ذلك . وقال: إن موسى بن جعفر قال : مَنْ وقف فى هذا الموضع منحرفا واضعا شق وجهه الأيمن استقبل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان على بن الحسين يقف ثَمَّ ، انتهى .

قلت : الأسطوانة الوسطى التى يشير إليها هى البارزة فى الصفحة القبلية من جدار القبر ، يقف قربها المسلّم على عمر رضى الله عنه ، و بينها و بين المسمار المذكور

نحو ثلاث أذرع أو أزيد ، وقد قال : إن الموضع الذى ذكره بينه و بين الأسطوانة المذكورة شبران وثلاثة أصابع ، فيكون بعيداً من المسمار المذكور بنحو الذراعين وقد شاهدنا الأسطوانة المذكورة من داخل الحجرة فرأيناها قريبة من نهايتها ، بحيث إن من دفن هناك ووجهه فى محاذاة الموضع الذى ذكره يحيى كانت رجلاه فى جدار الحجرة الشرقى كما نقل ذلك فى دفن عمر رضى الله عنه ، فيبعد كل البعد كون الوجه الشريف فى محاذاة ذلك الموضع ، على أن ما نقله عن موسى ابن جعفر يقتضى أن استقبال الوجه الشريف للواقف فى الموضع الذى ذكره إنما يكون مع الانحراف ووضع شق الوجه الأيمن يعنى على جدار القبر ، وعلى هذا فيستقبل الزائر جهة المغرب حتى يحصل ذلك ، وذلك لأن الحائط القبلى منحرف كما أشرنا إليه فى التصوير المتقدم ، فلا يقتضى ذلك أن المستقبل للمحل الذى عَيَّنه من غير وضع وجهه يكون مقابلا للوجه الشريف ، وإنما يُسَامِتُ الواقفُ الوجه الشريف إذا حاذى المسمار المتقدم وصفه ، وكأن يحيى يرى أن الزائر يلصق خده بجدار القبر على الهيئة السابقة ، فيصير محل المسمار المذكور أمامه ، ولذلك أورد عقب ما تقدم عنه قصة أبى أيوب الأنصارى الآتى ذكرها فى التزامه القبر .

واعلم أن تشبيك باب المقصورة التى حدثت إدارتها على ما حول الحجرة الشريفة قد يمنع من مشاهدة المسمار المذكور إلا لمن يتأمل ذلك من تشبيكه ، وذلك يشغل قلب الزائر ، وقد تحرر لنا أن ما يقابله من ذلك هو الصرعة الثانية من باب المقصورة القبلى الذى على يمين مستقبل القبر الشريف ، فمن حاذى هذه الصرعة كان محاذيا لذلك ، وهذا المسمار مموّه بالذهب رأسه مستدير ، وقد أحدث متولى العمارة مسماراً آخر رأسه فضة ، لكنه فى أول هذه الصفحة القبلية مما يلى المغرب قريباً من جهة الصندوق المتقدم وصفه ، ورأس هذا المسمار مُكَوْكَب كالقبة ، فلا يشتبه بالمسمار المتقدم ، وأحدث أيضاً مسمارين آخرين فى ابتداء الصفحة الغربية مما يلى القبلة قريباً من مسماره المتقدم ، وما علمت السببَ فى

إحداث ذلك ، وقد زالت هذه المسامير الثلاثة المحدثة بالحريق الثانى .

وأما الموضع المعروف بمقام جبريل عند مربعة القبر فقد تقدم أنه كان هناك مسمار فى منحرف المربعة إلى الزاوية الشمالية من الحجرة علامة عليه ، فلم نجده هناك ، وسألت عنه الخدام والمرخمين فقالوا : إنهم لم يجدوا هناك شيئاً ، وتسمية ذلك الموضع بمقام جبريل تقدم مستنده فى الكلام على أسطوان مربعة القبر ، ولم أدر لم سمى بذلك، إلا أن ابن جُبَيْر ذكر هذا المحل من الحجرة الشريفة ، وقال : وعليه سِتْر مُسْبَل يقال : إنه كان مهبط جبريل عليه السلام ، انتهى . لكن ترجم ابن شبة فى كتابه لمقام جبريل ثم قال : قال أبو غسان : علامة مقام جبريل عليه السلام التى يُعْرَف بها اليوم أنك تخرج من الباب الذى يقال له باب آل عثمان ، فترى على يمينك إذا خرجتَ من ذلك الباب على ثلاثة أذرع وشبر وهو من الأرض على نحو من ذراع وشبر حَجَراً أكبر من الحجارة التى بها جدار المسجد ، قال : فكان مالك بن أنس يقول ، وسقط ما بعد ذلك من كتاب ابن شبة فلم أدْرِ ما هو ، لكن يستفاد من ذلك حكاية خلاف فى مقام جبريل : هل هو داخل المسجد عند المربعة المذكورة أو خارجه عند باب آل عثمان وهو المعروف اليوم بباب جبريل ؟ ولعل ذلك سبب تسمية الباب المذكور بذلك ، كما ستأتى الإشارة إليه .

وقال ابن زبالة : أخاف المسجدَ من شرقيه فى سلطان محمد بن عبد الله عبد الله بن سليمان الربعى من ولد ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب من ناحية موضع الجنائز ، فأمر به فبنى ، وتعلم مقام جبريل عليه السلام بحجر ونقش فيه خاتم سليمان ومُشق لأن يعرف به مقام جبريل ، ومقام جبريل يعناه داخل فى المسجد ، فبلغ ذلك مالك بن أنس ، فتكلم فيه وأنكره وعابه ، فغير وجُعل مكانه حجر طويل مُصْمَت لاعَلَمَ فيه مخالف لحجارة المسجد ، انتهى ؛ فيحتمل أن يريد بقوله «ومقام جبريل يعناه داخل فى المسجد» الموضعَ المقدم ذكره من

الحجرة الشريفة ، ويحتمل أن يريد أن الباب قد قدم عن محله الأول فى محاذاته، فصار مقام جبريل داخل المسجد فى محاذاة ذلك ، ويرجح هذا أن الظاهر أن الأصل فى مقام جبريل ماقدمناه فى غزوة بنى قُرَيْظَة من رواية صاحب الاكتفاء أن جبريل عليه السلام أتى فى ذلك اليوم على فَرَسٍ عليه اللأمة حتى وقَفَ بباب المسجد عند موضع الجنائز ، وإن على وجه جبريل لأثَرَ الغبار ،اهـ؛ فلذلك سمى الباب المذكور بباب جبريل ؛ إذ لم يكن حينئذ المسجد باب فى ناحية الجنائز غيره .

وفى رواية البيهقى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم عندنا ، فسلم علينا رجل ونحن فى البيت، فقام رسول الله صلى الله عليه فَزِعًا، فقمتُ فى أثره ، فإذا بدِحْيَة الكلبى ، فقال : هذا جبريل عليه السلام يأمرنى أن أذهب إلى بنى قُرَيظة ، والله أعلم .

كسوة الحجرة النبوية

وأما كسوة الحجرة الشريفة فقد ذكر ابن النجار ماقدمناه فى تأزيرِ الحجرة الشريفة بالرخام وعمل الجواد الأصبهانى فى الشباك المتخذ من خشب الصندل المتقدم وصفه على جدارها ، ثم قال : ولم تزل الحجرة الشريفة على ذلك حتى عمل لها الحسين بن أبى الهيجاء صهرُ الصالحِ وزير الملوك المصريين ستارةً من الدبيقى الأبيض ، وعليها الطروز والجامات المرقومة بالإبريسم الأصفر والأحمر ، ونيطها وأدار عليها زنارا من الحرير الأحمر ، والزنار مكتوب عليه سورة (يٰس) بأسرها ، وقيل : إنه غرم على هذه الستارة مبلغاً عظيما من المال ، وأراد تعليقها على الحجرة ، فمنعه قاسم بن مهنى أمير المدينة وقال : حتى تستأذن الإمام المستضىء بأمر الله .

فبعث إلى العراق يستأذن فى تعليقها ، فجاءه الإذن فى ذلك ، فعلقها نحو العامين ، ثم جاءت من الخليفة ستارةٌ من الإبريسم البنفسجى عليها الطرز والجامات البيض المرقومة وعلى دَوَرَان جاماتها مكتوبٌ بالرقم : أبو بكر ، وعمر ،

وعثمان، وعلىّ، وعلى طرازها اسم الإمام المستضىء بأمر الله ، فشيلت تلك ونفذت إلى مشهد على بن أبى طالب بالكوفة ، وعلقت هذه عوضها ، فلما ولى الإمام الناصر لدين الله نفذ ستارة أخرى من الإبريسم الأسود ، وطرزها وجاماتها من الإبريسم الأبيض ، فعلقت فوق تلك ، فلما حجت الجهة أم الخليفة وعادت إلى العراق عَمِلت ستارة من الإبريسم الأسود أيضاً على شكل المذكورة ونفذتها فعلقت على هـــذه ، ففى يومنا هذا على الحجرة ثلاث ستائر بعضُهن على بعض ، انتهى .

وهو يقتضى أن ابن أبى الهيجاء أول من كسا الحجرة فى خلافة المستضىء بأمر الله ، وكانت خلافته فى سنة ست وستين وخمسمائة ، ومات سنة خمس وسبعين وخمسمائة، وفى كلام رزين مايقتضى مخالفته ؛ فإنه قال فى ضمن كلام نقله عن محمد ابن إسماعيل مالفظه : فلما كانت ولاية هرون أميرالمؤمنين وقدمت معه الخيزُرَان أمرت بتخليق مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخليق القبر وكسته الزنانير وشبائك الحرير ، انتهى .

وقد رأيت فى العُتْبية ما يصلح أن يكون مستنداً فى أصل الكسوة ، فإنه قال فى أوائلها : قيل لمالك : قلتَ إنه ينبغى أن ينظر فى قبر النبى صلى الله عليــه وسلم كيف يكسون سقفه ، فقيل : يجعل عليه خيش، فقال : وما يعجبنى الخيش ، وإنه ينبغى أن ينظر فيه ، انتهى .

قال ابن رشد فى بيانه : كرِهَ مالك كَشْفُ سقف قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأى من صونه أن يكون مغطًّى ، ولم ير أن يكتفى من ذلك بالخيش ، وكأنه ذهب إلى أن يغطى بتغطية البيوت المسكونة . ولقد أخبرنى من أثق به أنه لاسقف له اليوم تحت سقف المسجد ، انتهى .

وقد يضم إلى ذلك أنه إنما جاز كسوة الكعبة لما فيه من التعظيم ، ونحن مأمورون بتعظيم النبى صلى الله عليه وسلم ، وتعظيمُ قبره من تعظيمه ، وهذا أولى

بالجواز مما سيأتى عن السبكى فى مسألة القناديل من الذهب حيث سلك بها هذا المسلك ، وليس فى كلام ابن زَبَالة ويحيى تعرض لأمر كسوة الحجرة ، ولعله لأنها إنما حدثت بعدهما ، مع أن ابن زبالة ذكر ما قدمناه فى كسوة المنبر الشريف وجعل الستور على الأبواب ، ونقل أن كسوة الكعبة كان يؤتى بها المدينة قبل أن تصل إلى مكة ، فتنشر فى مؤخر المسجد ، ثم يخرج بها إلى مكة ، ولم يذكر للحجرة كسوة .

ثم ذكر تخليق الحجرة والمسجد فقال : وقدمت الخيزُران أم موسى أمير المؤمنين المدينة فى سنة سبعين ومائة ، فأمرت بمسجد النبى صلى الله عليه وسلم فخلّق ، وولى ذلك من تخليقه مؤنسة جاريتها ، فقام إليها إبراهيم بن الفضل ابن عبيد الله بن سليمان مولى هشام بن إسماعيل فقال : هل لكم أن تسبقوا مَنْ بعدكم وأن تفعلوا ما لم يفعل مَنْ كان قبلكم ؟ قالت له مؤنسة : وما ذلك ؟ قال : تُخَلِّقون القبر كله ، ففعلوا ، وإنما كان يخلق منه ثلثاه أو أقل ، وأشار عليهم فزادوا فى خَلُوق أسطوان التوبة والأسطوان التى هى عَلَمٌ عند مصلّى النبى صلى الله عليه وسلم فخلقوهما حتى بلغوا بهما أسفلهما ، وزادوا فى الخلوق فى أعلاهما ، انتهى ولو كان لكسوة الحجرة وجود فى زمانه لتعرض له .

واعلم أن فى عشر الستين وسبعمائة فى دولة السلطان الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاون اشترى قريةً من بيت مال المسلمين بمصر ، ووقَفَها على كسوة الكعبة المشرفة فى كل سنة ، وعلى كسوة الحجرة المقدسة والمنبر الشريف فى كل خمس سنين مرة ، هكذا ذكره التقىُّ الفاسى فى شفاء الغرام .

وذكره الزين المراغى إلا أنه قال فى الوقف على كسوة الحجرة : فى كل ست سنين مرة ، تعمل من الديباج الأسود المرقوم بالحرير الأبيض ، ولها طراز منسوج بالفضة المذهبة دائر عليها ، إلا كسوة المنبر فإنها بتقصيص أبيض .

قلت : وما ذكراه من المدة المذكورة بالنسبة إلى الحجرة كأنه كان معمولا به

فى زمانهما ، وأما فى زماننا فيمضى عشرُ سنين ونحوُها ولا تعمل ، نعم كلما ولى ملك بمصر فإنه يعتنى بإرسال كسوة .

وذكر الحافظ ابن حجر فى الكلام على كسوة الكعبة أن الصالح هذا اشترى حصة من بلد يقال لها سنديس ، اشترى الثلثين منها من وكيل بيت المال ، ووقفها على هذه الجهة ، ولم يتعرض لكسوة الحجرة ، فلعل الثلث الثالث الذى لم يذكره يتعلق بكسوة الحجرة لما قدمناه ، ويحتمل أن ما يرد من الكسوة من جهة الملوك ، لا من وقف ، وعادتهم إذا وردت كسوة جديدة قَسَم شيخُ الخدام الكسوة العتيقة على الخدام ومن يراه من غيرهم ، ويحمل إلى السلطان بمصر منها جانبا ، وحكم بيع كسوة الحجرة كحكم بيع كسوة الكعبة ، وقد اختلف العلماء فى ذلك قديما ، وفى المسألة عندنا وجهان .

وقال الحافظ صلاح الدين خليل العلائى : إنه لا يتردد فى جواز ذلك الآن ؛ لأن وقف الإمام للضيعة المتقدمة على الكسوة كان بعد استقرار هذه العادة والعلم بها ، فينزل لفظ الواقف عليها ، انتهى، والله أعلم .

الفصل الخامس والعشرون

فى قناديل الذهب والفضة التى تعلق حول الحجرة الشريفة ، وغيرها من معاليقها .

القناديل — اعلم أنى لم أر فى كلام أحد ذكر ابتداء حدوث ذلك ، إلا أن ابن النجار قال ما لفظه : وفى سقف المسجد الذى بين القبلة والحجرة على رأس الزُّوّار إذا وقفوا مُعَلَّقٌ نيفٌ وأربعون قنديلا كبارا وصغارا من الفضة المنقوشة والساذجة ، وفيها اثنان بللور ، وواحد ذهب ، وفيها قمر من فضة مغموس فى الذهب ، وهذه تنفذ من البلدان من الملوك وأرباب الحشمة والأموال ، انتهى .

قلت : واستمر عمل الملوك وأرباب الحشمة إلى زماننا هذا على الإهداء إلى الحجرة الشريفة قناديل الذهب والفضة

ورأيت بخط شيخنا العلامة ناصر الدين العثمانى أشياء نقلها من خط قاضى طيبة الزين عبد الرحمن بن صالح يتضمن ما كان يَرِدُ فى كل سنة من ذلك ؛ فذكر فى سنةٍ خمسة عشر قنديلا ، وفى أخرى ثلاثة عشر ، وفى أخرى عشرة ، وفى أخرى إحدى وعشرين .

قلت : وفى زماننا هذا يَرِدُ فى غالب السنين ما يزيد على العشرين ، ولا ضابط لذلك ؛ فإنه يرد من نذور من ناسٍ مختلفين ، وكأن هذه القناديل كانت إذا كَثُرت رفعُوا بعضها ووضعوه بالحاصل الذى فى وسط المسجد ، فاجتمع فيه شىء كثير فاتفق على ما ذكره الحافظ ابن حجر فى سنة إحدى عشرة وثمانمائة أن فوض السلطان الناصر فرج لحسن بن عجلان سلطنة الحجاز ، فاتفق موت ثابت ابن نعير ، وقرر حسن مكانه أخاه عجلان بن نعير المنصورى ، فثار عليهم جماز ابن هبة بن جماز الجمازى الذى كان أمير المدينة ، وأرسل إلى الخدَّام بالمدينة يستدعيهم ، فامتنعوا من الحضور إليه ، فدخل المسجد الشريف ، وأخذ ستارتى باب الحجرة ، وطلب من الخدام تسعة آلاف درهم على أن لا يتعرض لحاصل الحرم ، فامتنعوا ، فضرب شيخهم ، وكسر قفل الحاصل ، هكذا رأيته فى « أنباء الغمر » للحافظ ابن حجر .

والذى رأيته فى مَحْضَرٍ عليه خطوطُ غالب أعيان المدينة الشريفة ما حاصله : أن جماز بن هبة المذكور كان أمير المدينة ، فبرزت المراسيم الشريفة بتولية ثابت ابن نعير إمرة المدينة وأن يكون النظر فى جميع الحجاز لحسن بن عجلان ، ولم يصل الخبر بذلك إلا بعد وفاة ثابت بن نعير ، فأظهر جماز بن هبة الخلاف والعصيان وجمع جموعا من المفسدين وأباح نَهْبَ بعض بيوت المدينة ، ثم حضر مع جماعة إلى المسجد الشريف ، وأهان مَنْ حضر معه من القضاة والمشايخ وشيخ الخدام باليد واللسان ، وشهَرَ سيفه عليهم ، وكسر باب القبة حاصل الحرم الشريف ، وأخذ جميع ما فيها من قناديل الذهب والفضة التى تُحْمَل على تعاقب السنين من سائر

الآفاق تقرباً إلى الله ورسوله وأشياء نفيسة وختمات شريفةً وزيْتَ المصابيح وشموعَ التراويح وأكفان ودراهم يوارى بها الطرحاء ، وقطع مكاتيب الأوقاف وغَسَلها ، وقصد الحجرة الشريفة ، وأحضر السلم لإنزال كسوة الضريح الشريف والقناديل المعلقة حوله ، فلم يُقدَّرْ له ذلك ومنعه الله منه ، وأخذ ستر أبواب الحجرة الشريفة من خزانة الخدام ، وتعطل فى ذلك اليوم وليلته والذى يليها المسجدُ الشريفُ من الأذان والإقامة والجماعة ، وأخذ جماعته وأقاربه فى نهب بيوت الناس ومصادرتهم ، وأخذ جمال السوانى ، وارتحل هارباً عقب ذلك ، ولما اتصل بحسن ابن عجلان ما فوض إليه من أمر الحجاز استدعى بعجلان بن نعير وأقامه فى إمرة المدينة ، وعرفه ما برزت به المراسيم أولا فى ولاية أخيه ، انتهى .

وذكر الحافظ ابن حجر أنه أخذ من الحاصل المذكور إحدى عشر خوشخاناً وصندوقين كبيرين وصندوقاً صغيراً بما فى ذلك من المال وخمسة آلاف شقة من البطاين ، وصادر بعض الخدام ، ونزح عنها ؛ فدخل عجلان بن نعير ومعه آل منصور فنُودِىَ بالأمان ، ثم قدم عقبهُ أحمد بن حسن بن عجلان ومعه عسكر ، يعنى من مكة .

قلت : ورأيت بخط شيخنا العلامة ناصر الدين المراغى قائمة ذكر أنه نقلها من خط قاضى طيبة الزين عبد الرحمن بن صالح صورتها : الذى كان فى القبة ، وأخذه جماز بن هبة ، هو من القناديل الفضة ثلاثة وعشرون قنطاراً وثلث قنطار ، غير الذى فى الرفوف ، والصندوقين الذهب ، ثم ذكر تفصيل ذلك فى ثمان عشرة وزنة ، ثم كتب ما صورته : خوشخانة مختومة لم تفتح ، والظاهر أنها ذهب ، وزنة القناديل التى فى الرفوف أربع قناطير إلا ثلث ، وتسع قناديل ذهب بالعدد فى صندوق ، وصندوق صغير مقفول ، انتهى .

و بلغنا أنه دفن غالب ذلك ، ثم أخذه الله أخذاً وَبيلا فقتل هو ومن اطلع معه على دفن ذلك ، فلم يعلم مكانه إلى اليوم .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر قَتْلَه فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة فقال : وفيها قتل جماز بن هبة بن جماز بن منصور الحسينى أمير المدينة ، وقد كان أخذ حاصل المدينة ونزح عنها ، فلم يُمْهَل وقتل فى حرب جرت بينه و بين أعدائه ، انتهى .

قلت : إنما بيتته بعض عرب مَطِير فاغتاله وهو نائم .

ورأيت فى القائمة المتقدم ذكرها التى نقلها شيخنا المتقدم ذكره ما صورته : وزن ما فى الحجرة من قناديل الذهب تسع قناطير ، وورد بعد ذلك من أم السلطان قنديل زنته ألف مثقال ، وورد من أخت السلطان قنديل زنته ألف وخمسمائة ، وأربع قناديل كبار فى الواحد منهم أربعة صغار ، وفى الثانى اثنان صغار ، وفى الثالث عدة قناديل معفوسة ، وفى الرابع قنديل ، زنة الجميع ثلاثة آلاف وسبعمائة وعشرون مثقالا ، وعلى يد الطواشى صندل قنديلين صغار ، ومعلق بعد ذلك عدة قناديل لم تكتب ، انتهى .

والظاهر أنه سقط بعد قوله « من قناديل الذهب » لفظُ « والفضة » وفى هذه القائمة أيضاً أن بالقبة ـ يعنى بعد قصة جماز المتقدمة ـ من قناديل الفضة مائة رطل وسبعة عشر رطلا وضعها بيسق بيده ، انتهى .

ثم إن الأمير غُرير بن هيازع بن هبة الحسينى الجمازى أخذ جانباً من الحاصل المذكور فى سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، زاعماً أنه على سبيل القرض ، وامتحن بعض قضاة المدينة لسبب ذلك ، ثم حُمل غرير المذكور إلى القاهرة محتفظاً به ، ومات بها مسجوناً .

ولم تزل هذه القناديل فى زيادة حتى عدا عليها فى ليلة السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ستين وثمانمائة برغوث بن بتير بن جُريس الحسينى ؛ فدخل الدارَ المعروفة بدار الشباك بجانب باب الرحمة ليلا ، ولم يكن بها ساكن ، وتَسَوَّر جدار المسجد ، ودخل بين سقفى المسجد الشريف من شباك هناك ، ومشى حتى بلغ ما يحاذى سقف الحجرة الشريفة ، فأخذ من تلك القناديل شيئا كثيراً ، وكأنه تَرَدَّدَ لذلك المرة بعد الأخرى ، ولم يشعر أهل المسجد ونظاره بشىء من ذلك ،

غير أن أمَةً لبعض جيران الدار المذكورة رأتْ من سطح دارهم شخصين فى أعلى دار الشباك يتعاطيان شيئاً له حجم كبير وصوت صَليل ، فلما أصبحت أخبرت بَوّابَ المسجد فلم يعبأ بذلك لخلو تلك الدار ، و بَعُدَ ذلك الأمر عن الأفـكار ، ولـكن الله أراد هتك المذكور وحلول النقمة به ، فأنهى بعضُ الناس إلى أمير المدينة أن المذكور معه شيء كثير من المال غير معهود ، فأمسكه الأمير وضَيّقَ عليه بالسجن ، فانخلس ليلا ، ثم شاع بالمدينة بيع شبابيك من الفضة والذهب ، فـكثر القال والقيل ، ثم فى شهر ربيع الأول من سنة إحدى وستين استفاض أن برغوثاً بالينبع ومعه قطع من ذهب القناديل ، فافتقد النظار الحجرة الشريفة ، فرأوا أكثر القناديل مأخوذاً ، فعلموا الحال ، لـكن لم يعلموا الـكيفية ، واتهمت ابنة السراج النفطى بممالأة برغوث على ذلك وأنه إنما تسور من بيت أبيها لـكونه متصلا بالمسجد فى قبلته ، وأظهر الله براءتها بعد ذلك ، وكان بالمدينة إذ ذاك زين الدين استدار الصحبة ، فعقد مجلساً لذلك ، واجتمع أعيان أهل المدينة ، وكتبوا إلى أمير الينبع بالقبض على برغوث و إرساله ، فقبض عليه ، فاعترف أنه فعلَ ذلك هو ودبوس بن سعد الحسينى الطفيلى ، وجعل أن دخوله من بيت المرأة المتقدم ذكرها ، وأن بعض الخدام واطأه على ذلك ، ثم أظهر الله الحق ، وأن دخـوله إنما كان من دار الشباك ، وأن شريكه المُعينَ له على ذلك دبوس المذكور ، ولم يَرَ أميرُ ينبع إرساله إلى المدينة ، بل تركه عنده منتظراً الأوامر السلطانية ، ثم إن أمير المدينة أمســك دبوساً و بعض أقار به ، فأنكر هو ، وأقر عليه بعض جماعته وأحضروا جانباً من الذهب والفضة ، ثم هرب برغوث من الحبس بالينبع ، ثم ساقه الله إلى المدينة ، فلما وصـل دُلّ عليه أميرها ، فأمسكه وحبسه مع دبوس وذَويه ، فهربوا ، ثم أظفر الله بهم ، ولم يغب منهم إلا دبوس ، و برزت المراسيم بقتل مَنْ تجرأ على هذه العظيمة ، فقتل أمير المدينة برغوثا وآخر معه من أقار به يسمى ركاباً ، وصلبهما ، ثم ظفر بدبوس وقتله أيضا .

وأخبرت عن برغوث أنه قال : كنت كلما توجَّهت فى حال هَرَبى لغير جهة المدينة كأنى أجد من يصدُّنى عن ذلك ، و إذا قصدت جهةَ المدينة تيسرت لى وكأن شخصاً يَقُودنى إليها حتى دخلتها .

وأما عدة القناديل الموجودة فى زماننا هذا بالحجرة الشريفة فقد ضبطت فى أول سنة إحدى وثمانين وثمانمائة بأمر السلطان الأشرف لشيخ الحرم الأمير انيال والقضاى الزكوى ؛ فكان عدة معاليق الذهب ثمانية عشر قنديلا و بعض قنديل ، وأربع مشنات ، ومغرافان ، وسواران ، وزنة ذلك سبعة آلاف قفلة وستمائة وخمسة وثلاثون ، من ذلك قنديل كبير فى جهة الوجه الشريف زِنَتُه أربعة آلاف وستمائة قفلة ، أهداه سلطان الكلرجه شهاب الدين أحمد ، وعدة معاليق الفضة ثلاثمائة قنديل وأربعة وأربعون قنديلا ، وثُرَيّة كبيرة ، زنة ذلك ستة وأربعون ألف قفلة وأربعمائة وخمسة وثلاثون قفلة ، وكانت ضبطت قبل ذلك فى سنة اثنتين وستين وثمانمائة على يد الأمير برد بك التاجى فتحرَّر من النظر بين المقدارين أن الزائد على ما ضبط فى التاريخ المتقدم من الذهب ألف قفلة ومائة وخمسة وخمسون ، ومن الفضة ثلاثة عشر ألف قفلة وسبعمائة وخمسة وثمانون قفلة ، فذلك القدر هو الوارد من عام ثلاث وستين إلى آخر عام تسع وسبعين ، وهنالك من المعاليق أيضاً غير ما تقدم قنديل من بلور بتابوت من فضة ، وقناديل نحاس أربعة ، وفولاذ واحد مُكَفَّت بالذهب مشبك مكتوب عليه أن الناصر محمد ابن قلاوون علقه من يده إلى عام حجه ، ثم ورد فى سنة ثمانين فى مشيخة الشيخ انيال ولم يدخل فى الجملة المتقدمة قنديلان من الذهب زنتهما مائة وخمسة وعشرون قفلة ، ومن الفضة اثنان وثلاثون قنديلا زنتها ألف ومائتان وخمسة وسبعون قفلة ، وفى سنة إحدى وثمانين قنديل ذهب زنته مائة واثنان وأربعون قفلة ، وأربعة وعشرون قنديلا من الفضة زنتها تسعمائة وخمسون قفلة ، وفى سنة اثنين وثمانين من الفضة أحد وثلاثون قنديلا زنتها ألف وخمسمائة وخمسون قفلة ، ولم يرد شىء

من الذهب ، وفى سنة ثلاث وثمانين من الذهب قنديل واحد زنته عشرون قفلة ، ومن الفضة خمسة وعشرون قنديلا زنتها ألف ومائة وخمسة وثلاثون قفلة ، وفى سنة أربع وثمانين من الفضة تسعة عشر قنديلا زنتها سبعمائة وخمسة وأربعون قفلة ، ولم يرد شيء من الذهب؛ فجملة ما ورد فى ولاية الأمير اينال فى المدة المذكورة من الذهب أربعة قناديل جملة زنتها مائتان وسبعة وثمانون قفلة ، ومن الفضة مائة قنديل وتسعة وعشرون قنديلا جملة زنتها خمسة آلاف وستمائة وخمسة وخمسون قفلة ، ولما شرعوا فى عمارة الحجرة الشريفة الآتى ذكرها فى سنة إحدى وثمانين وثمانمائة رفعوا جمع المعاليق التى كانت حولها ، ووضعت بالقبة التى بصحن المسجد بأمر متولى العمارة الجناب الشمسى ، ولم يزل بها إلى تاريخه ، ولم يكن اليوم حول الحجرة الشريفة من المعاليق إلا ما تجدد فى آخر سنة إحدى وثمانين إلى آخر سنة أربع وثمانين ، ثم حسّن متولى العمارة للسلطان صرف ذلك فى مصالح المسجد والمدينة الشريفة ، فحمل بعضُه من الحاصل المذكور إلى مصر قبيل الحريق الثانى ، ثم وجدوا ما سقط لسبب الحريق من القناديل التى كانت معلقة بحالها ، ثم صرف متولى العمارة بعضَ ذلك فى تذهيب السّقف المُعَادَة بعد الحريق ، ثم وضع بهذه القبة ما تجمد من مصاريف حب السماط المجدد ، فاجتمع بها نحو ثلاثة عشر ألف دينار ، فاتفق أن أمير المدينة حسن بن زبيرى المنصورى حضر بجماعة مع الاستعداد بالأسلحة والسيوف المسلولة ؛ فدخل المسجد الشريف على تلك الحالة وقت الظهر من سادس ربيع الأول عام أحد وتسعمائة ، وأمر خازندار الحرم الشريف بإحضار مفاتيح الحاصل المذكور ، فامتنع من ذلك ، فضربه ضربا مُبَرِّحا ، ثم عَمَدَ إلى باب الحاصل المذكور وأحضر فأساً وكسره وأخذ جميع ما فيه من النقد والقناديل والسبايك ، فحمل منـه ثلاثة أحمال على فرسين وبغل وغراير تسع على ظهور الحمالين ، ثم ذهب إلى حِصْنه وأحضر الصُّياغ وسَبَكَ تلك القناديل ، وذكر أنه صنع ذلك رغبة عن إمرة المدينة ؛ لأن ولايته كانت بطريق النيابة عن السيد

الشريف محمد بن بركات لتفويض السلطان الأشرف إليه أمر الحجاز وأن المشار إليه صار يأخذ حصته مما يحمل له من الإقطاع ومن الصدقات ، وعطل عليه أهل مصر بعض إقطاعه ، فحمله ذلك على ما سبق .

حكم معاليق المسجد النبوى

أما حكم هذه المعاليق ونحوها من تحلية الصندوق المتقدم ذكره والقائم الذى بأعلاه فحكم معاليق الكعبة الشريفة وتحليتها ، وقد تكلم السبكى فى حكم قناديل الكعبة وحليتها والقناديل التى حول الحجرة الشريفة ، وألَّفَ فى ذلك كتابا سماه « تنزل السكينة ، على قناديل المدينة » فأورد حديث البخارى وغيره فى كنز الكعبة وما تضمنه من إقرار النبى صلى الله عليه وسلم له بمحله ، ثم أبى بكر بعده ، ورجوع عمر رضى الله عنه لذلك لما ذكره به ابن شيبة ، وقال : هما المرآن يقتدى بهما ، قال : فهذا الحديث عمدة فى مال الكعبة ، وهو مايُهْدَى إليها أو ما يُنْذَر لها وما يوجد فيها من الأموال .

قال ابن بطال : أراد عمر إنفاقه فى منافع المسلمين ، ثم لما ذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتعرض له أمسك ، وإنما ترك ذلك والله أعلم لأن ما جعل فى الكعبة وسُبِّلَ لها يجرى مجرى الأوقاف ؛ فلا يجوز تغييره عن وجهه ، وفى ذلك تعظيم للاسلام وترهيب للعدو .

قلت : قد تعقَّبَ ذلك الحافظُ ابنُ حجر باحتمال أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم إنما تركه رعايةً لقلوب قريش ، كما ترك بناء الكعبة على قواعد إبراهيم ، ويؤيده ما وقع عند مسلم فى بعض طرق حديث عائشة رضى الله عنها ولفظه « لولا أن قومك حَدِيثُو عهدٍ بكفر لأنفقْتُ كنز الكعبة فى سبيل الله ، ولجعلت بابها بالأرض » الحديثَ ، فهذا التعليل هو المعتمد

قلت : لكن قد يقال : حيث تركه النبى صلى الله عليه وسلم لهذه العلة ثم تركه أبو بكر ثم عمر بعد الهمّ به ورجوعه عن ذلك ثم مَنْ بعده فهو إجماع على تركه ؛ فلا نتعرض له ؛ لما يترتب عليه من الشناعة والله أعلم

قال السبكى : ولا يغلط فى أن ذلك يصرف إلى فقراء الحرم ، فإنما يكون ذلك إذا كان الإهداء إلى الحرم أو إلى مكة ، أما إذا كان للكعبة نفسها فلا يصرف إلا إليها ، كأن تعرض لها عمارة فحينئذ ينظر : فإن كانت تلك الأموال قد أرصدت لذلك صرفت فيه ، وإلا فيختص بها الوجه ألذى أرْصد له ، فالمرصد للبخور مثلا لا يصرف للسترة

قال : وأما القناديل التى فيها والصفائح التى عليها فلا يصرَّف منها شىء ، بل تبقى على حالها ، وقول عمر « لقد هممت أن لا أدَعَ فيها صُفْرا ولا بيضا » محتمل للنوعين ، ولم ينقل إلينا صفتها التى كانت ذلك الوقت ، ومن قال أول من ذهّب البيت فى الإسلام الوليدُ لا ينفى أن يكون البيت ذُهِّب فى الجاهلية وبقى إلى عهد عمر

قلت : قد نقل التقى الفاسى عن خط الحافظ رشيد الدين بن المنذرى فى اختصاره لتاريخ المسبحى ما لفظه : وفيها — أى سنة خمس وستين — استتم ابن الزبير بناء الكعبة ، ويقال : إنه بَنَاها بالرصاص المذوب المخلوط بالورس ، وجعل على الكعبة وأساطينها صفائح الذهب ومفاتحها ذهبا ، اه . فإن صح فهو أولى ما يحتج به

ثم نقل السبكى عن الرافعى أنه قال : لا يجوز تحلية الكعبة بالذهب والفضة وتعليق قناديلها . ثم نقل أن فى تحلية الكعبة والمساجد بالذهب والفضة وتعليق قناديلها وجهين مرويين فى الحاوى وغيره : أحدهما : الجواز ، تعظيما كما فى المصحف ، وكما يجوز ستر الكعبة بالديباج ، وأظهرهما المنع ؛ إذ لم ينقل ذلك عن فعل السلف، ثم استشكل كلام الرافعى فقال : وأما التسوية بين الكعبة والمساجد فلا ينبغى ؛ لأن للكعبة من التعظيم ما ليس للمساجد ، بدليل جواز سَتْرها بالحرير إجماعا ، وفى ستر المساجد به خلاف ، فحكاية الخلاف فيها مشكل ، وترجيح المنع أشكل ، وكيف وقد فعل ذلك فى صَدْر هذه الأمة ، وقد تولى عمر بن عبد العزيز

عمارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوليد وذَهَّبَ سقفه بأمره من غير مراجعة ، بل لما ولى الخلافة بعد ذلك أراد أن يزيل ما فى جامع بنى أمية من الذهب فقيل له : إنه لا يتحصل منه شىء يقوم بأجرة حَكّه ، فتركه . والصفائح التى على الكعبة يتحصَّل منها شىء كثير ، فلو كان فعلُها حراما لأزالها فى خلافته ، فلما تركها ومعه جميع من يحجّ كل عام وجب القطع بجوازها ، وهذا فى تحلية الكعبة بالصفائح ، ولا منع من جريان الخلاف فى التمويه لإزالة المالية ، ولا من إجراء الخلاف فى سائر المساجد تمويها وتحلية ، على أن القاضى حسين جَزَم بحلّ تحلية المسجد بالقناديل من الذهب ونحوها ، وأن حكمها حكم الحلى المباح ، وهذا أرجح مما قال الرافعى ؛ لأنه ليس على تحريمهما دليل ، والحرام من الذهب إنما هو استعمال الذكور له ، والأكل والشرب ونحوها ، وليس فى تحلية المسجد بالقناديل ونحوها شىء من ذلك ، لكن لا أقول إنه ينتهى إلى حدّ القُرْبة فى سائر المساجد ، وتعليل الرافعى لما قاله بأن ذلك لم ينقل عن فعل السلف عجيب ؛ إذ لا يقتضى ذلك التحريم ، ومن حرم اتخاذ الآنية وهو الأصح فإنما حرمه لأن النفس تدعو إلى الاستعمال المحرم ، وذلك إذا كانت له ، وأما إذا جعلها للمسجد فلا تدعو النفس لذلك ، فكيف يحرم وهى لا تسمى أوانى ؟

قال : ورأيت الحنابلة قالوا بتحريمها للمسجد ، وجعلوها من الأوانى أو مَقِيسة عليها ، وليس بصحيح ، ومن يقول بجواز التحلية والقناديل فى سائر المساجد فلا شك أنه يقول بها فى المساجد الثلاثة بطريق الأولى ، ومن منع فلم يصرح فى المساجد الثلاثة بشىء ، لكن عموم كلامهم يشملها ، وينبغى ترتيبُ الخلاف : ففى المساجد غير الثلاثة وجهان أصحهما الجواز ، ومسجد بيت المقدس أولى بالجواز ، والمسجدان مسجد مكة ومسجد المدينة أولى منه ، ثم المسجدان على الخلاف فى تفضيلهما ، وقد يقال إن مسجد المدينة أولى لمجاورة النبى صلى الله عليه وسلم وقصد تعظيمه بما فى مسجده من ذلك ، هذا كله بحث ، والمنقول ما تقدم .

وهذا فى الاتخاذ من غير وَقْف ، فإن وَقَفَ المتخذ من ذلك فقد قطع القاضى حسين والرافعى بأنه لا زكاة فيه ، وقد رجح الرافعى فيها التحريم ، فكيف يرجح ذلك ؟ إذ مقتضاه صحة وقفها ، فلعل مراد الرافعى إذا وقفت على قصد صحيح وإذا فرعنا على صحة وقفها . قال : وهذا حكم المساجد فى ذلك ، وأما الحجرة الشريفة فتعليق القناديل فيها أمر معتاد من زمان ، ولا شك أنها أولىٰ بذلك من غيرها ، والذين ذكروا الخلاف فى المساجد لم يذكروها ، وكم من عالم وصالح قد أتى للزيارة ولم يحصل من أحد إنكار لذلك .

فهذا وحده كافٍ فى جواز ذلك مع ما تقدم ، واستقراء الأدلة فلم يوجد فيها ما يدل على المنع . قال : فنحن نقطع بالجواز ، والحجرة الشريفة هى بيت عائشة وما حوله ، وأشار إلى بيان أن ما حوله إما منه أو من بقية الحجر المُدْخَلة فى المسجد .

قال : والمدفن الشريف بالحجرة له شرف على جميع المساجد وعلى الكعبة ؛ فلا يلزم من المنع فى المساجد والكعبة المنع هنا .

قال : ولم نر أحدا قال بالمنع هنا ، فما وقف من ذلك إكراما لذلك المكان صح وقفه ، وإن اقتصر على إهدائه صح أيضاً كالهدَى للكعبة ، وكذلك المنذور له ، وقد يزاد هنا فيقال : إنه مستحق للنبى صلى الله عليه وسلم والنبى صلى الله عليه وسلم حى ، وإنما يحكم بانقطاع ملكه بموته عما كان فى ملكه وجعله صدقة بعده .

وأما هذا النوع فلا يمتنع ملكه له ، وهو الذى فى أذهان كثير من الناس حيث يقولون : هذا للنبى صلى الله عليه وسلم .

ثم أورد ما رواه يحيى بن الحسين بسنده من الخبر الآتى فى إجمار المسجد عن عبد الله بن محمد بن عمار عن أبيه عن جده قال : أتى عمر بن الخطاب بِمِجْمَرَة من فضة فيها تماثيل ، فدفعها إلى سعدٍ أحدِ المؤذنين ، وقال : أجمر بها فى الجمعة وفى

شهر رمضان ، فكان سعد يجمر بها بين يدى عمر بن الخطاب ، الخبرَ الآتى .

ثم قال : عبد الله بن محمد بن عمار بن سعد القرظ ضعفه ابن معين ، وكذا الراوى عنه ، ومحمد بن عمار حسن له الترمذى ، فلو سلم ممن دونه كان جيداً ، ومقتضى اشتراط الفقهاء الاحتواء فى المجمرة عدم تحريم هـذا الصنيع ، لكن العرف دالّ على عد ذلك استعمالا ، فإما أن يكون الحديث ضعيفا ، وإما أن يكون احتمل ذلك لأجل المسجد تعظيما له ، فتكون القناديل بطريق الأولى ؛ إذ لا استعمال فيها .

قال : ولا يجوز صرف شىء من قناديل الحجرة فى عمارتها ، ولا فى عمارة المسجد ؛ لأنها إنما أعدت للبقاء ، وليس قصد بها جهات إلا ذلك ، سواء وقفها أو اقتصر على إهدائها .

قال : وقد سئلت عن جواز بيعها لعمارة المسجد النبوى ، فأنكرته واستقبحته ، وكيف يبلغ ملوك الأرض أنا بعنا قناديل نبينا لعمارة حرمه ونحن نفديه بأنفسنا فضلا عن أموالنا ؟ وما برحت الملوكُ يفتخرون بعمارته .

قلت : وقد تعقبه جماعة ، والمحل قابل للمناقشة ، وليس ذلك من غرضنا ، غير أنا نقول : ستر الكعبة بالديباج قام عليـه الإجماع ، وأما التحلية بما ذكر فلم يثبت عن من يحتج بفعله ، وترك عمر بن عبد العزيز يحتمل أعذارا ليس هذا محل بيانها .

وقد نقل الشيخ الموفق الإجماع على تحريم استعمال أوانى الذهب ، والقناديل من الأوانى بلا شك ، واستعمال كل شىء بحسبه ؛ فاستعمال ما ذكر بتعليقه للزينة ، وقد علم تحريم اتخاذ الأبنية منها أيضاً .

وقد ذكر الجمال الكازرونى المدنى أشياء أيّدَ بها كلام السبكى : منها أن الله تعالى قال « فى بيوت أَذِنَ الله أن تُرفع » قال : وهى بيوت النبى صلى الله

عليه وسلم ، قاله مجاهد ، ومعنى ترفع تعظم ويرفع شأنها وتزين ، وتزيينها تعليق قناديل الذهب فيها ، وتطهر من الأنجاس والأقذار وتطيب .

قلت : قوله «ومن تعظيمها تعليق ذلك فيها» هو محل النزاع ؛ لأن من حرم ذلك لا يسلمه ، والله أعلم .

ومنها : أنه روى عن عثمان تعليق قناديل الذهب بالمسجد النبوى .

قلت : ولعله من اختلاف أعدائه عليه ، ولم أرَهُ مسطورا فى تأليف ، ولو كان له أصل لذكره مؤرخو المدينة

ومنها : أن عمر بن عبد العزيز فَعَله فى بنيانه للوليد ولم ينكر عليه .

قلت : ولم أره فى تأليف أيضاً .

ومنها : أنه روى أن سليمان بن داود عليه السلام بنى مسجد بيت المقدس ، وبالغ فى زينته وتعليق القناديل فيه ، وشَرْعُ من قبلنا شرع لنا مالم يرد ناسخ .

قلت : لم ينقل تعليق داود عليه السلام لقناديل الذهب به ، ولو صح ذلك فالناسخ فى شرعنا تحريمُ الآنية ، وهذا آنية ، وما تقدم عن السبكى فى كونه ليس بآنية ممنوع .

ومنها : ما رواه الثعلبى فى حديث إتيان المساجد يوم القيامة ، وفيه « وأئمتها يسوقونها ، وعمارها ومزينوها ومحلوها متعلقون بها » الحديث .

قلت : أخذ ذلك من رواية القرطبى عن الثعلبى ، كما رأيته فى بعض النسخ ، وقد راجعت القرطبى أيضاً فى ذلك فرأيته روى الحديث المذكور من طريق الثعلبى ، وليس فيه « ومزينوها ومحلوها » بل لفظه « وعمارها متعلقون بها » .

ومنها : ما رواه سعيد بن رَبّان ـ بالموحدة المشددة ـ قال : حدثنى أبى عن أبيه عن جده عن أبى هند قال : حَمَلَ تميم يعنى الدارىّ من الشام إلى المدينة قناديل وزيتا ومقطا وقنديلا أو قنديلين من الذهب ، فلما انتهى إلى المدينة وافق ذلك ليلة الجمعة ، فأمر غلاما يقال له أبو البراد ، فقام فبسط المقط وعلق القناديل ،

وصب فيها الماء والزيت ، وجعل فيها الفُتُلَ ، فلما غربت الشمس أمر البراد فأسرجها ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ، فإذا هو بها تَزْهَرُ ، فقال : من فعَلَ هذا ؟ قالوا : تميم الدارى يا رسول الله ، فقال : نورت الإسلام ، وحليت مسجده ، نور الله عليك فى الدنيا والآخرة ! ـ الحديث .

قلت : قد أخـذ ذلك من تفسير القرطبى ، كما رأيته فى بعض النسخ ، وفى بعضها إسقاط عزوه للقرطبى ، وقد راجعت تفسير القرطبى فرأيته أورد الحديث المذكور بحروفه ، وليس فيه قوله « وقنديلا أو قنديلين من الذهب » ولا قوله « وحليت مسجده » .

ومنها : ما روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما دخل الشام تَلَقَّاه معاوية بعساكر وجنود كثيرة وخيول مسومة وأسلحة مُخَوَّصة بالذهب والفضة ولبوس الحرير والديباج وزينة حسنة كزينة فارس والروم ، فقال عمر : ما هذا يا معاوية ؟ وما هذه الزينة والفخار ؟ لقد أتيت أمْرًا إمْرًا وارتقيت مُرْتَقًى صعبا ، فقال : يا أمير المؤمنين هذا غَيْظ كفارنا ، ومقهرة لأعدائنا ، وإن فرائصهم لترتعد ، وإن قوائمهم لتَخُور من ذلك ، وإنا لنجد بذلك المظهر عليهم والذلة والصَّغار فيهم ، وأشربوا فى قلوبهم الرُّعْبَ حين يرون مساجدنا مُحَلَّاة بالذهب وسقوفها مُنَقَّطه بقناديل الذهب ـ الخبرَ ، وفيه أن عمر سكت عنه .

قلت : الخبر ذكره المؤرخون ، ومثله لا تقوم الحجة به ، ولم أر فيه الزيادة المتعلقه بتحلية المساجد ، وقد رأيت فى بعض النسخ نسبة ذلك للذهبى فى تاريخ الإسلام ، وأسقط العَزْوَ فى نسخة أخرى ، فليراجع ذلك من تاريخ الإسلام ، فإن لم يكن فيه هذه الزيادة فالذى يظهر لى أن بعض المتعصبين ألحق هذه الأشياء فى الروايات المتقدمة ليتم بها الاستدلال ، فإن المسألة وقع فيها تعصبات ، وكأن الجمال الكازرونى إنما أراد إفادة أصل وضع القناديل ، وذكر ما يشعر بهذا الأمر ، فلما رأى ذلك المتعصب أن الاستدلال لا يتم إلا بذلك ألحقه ، ولم يشعر أنه

لو كان ذلك موجودا لم يكن فيه حجة لعدم اتصال السند الصحيح فى ذلك.

ومن تأمل سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وأحواله لم يَخْفَ عليه أن كل ذلك لم يكن يعجبه فى حياته ، هذا الذى أعتقده ، والله أعلم .

الفصل السادس والعشرون

فى الحريق الأول القديم المستولى على تلك الزخارف المحدثة بالحجرة الشريفة والمسجد وسقفهما ، وما أعيد من ذلك ، وما تجدد من توسعة المسقف القبلى بزيادة الرواقين فيه ، وغير ذلك .

سبب الحريق وتاريخه

قال المؤرخون : احترق المسجد النبوى لَيلَة الجمعة أولَ شهر رمضان من سنة أربع وخمسين وستمائة فى أول الليل ، ونقل أبو شامة أن ابتداء حَرْقه كان من زاويته الغربية من الشمال ، وسبب ذلك ــ كما ذكره أكثرهم ــ أن أبا بكر ابن أوحد الفرّاش أحَدَ القُوّام بالمسجد الشريف دخل إلى حاصل المسجد هناك ومعه نار ، فغفل عنها إلى أن عَلِقَتّ فى بعض الآلات التى كانت فى الحاصل ، وأعجزه طفيها ، ثم احترق الفرّاش المذكور والحاصل وجميع ما فيه .

وقد صَنَّف القُطْبُ القسْطلانى فى ذلك وفى النار المتقدم ذكرها فى الفصل الثالث من الباب الثانى وهى نار الحجاز التى ظهرت بالمدينة الشريفة فى ذلك العام كتابا سماه «عروة التوثيق ، فى النار والحريق» ذكر فيه بدائع من حكم الله تعالى فى حدوث ذلك ، وقد كان القطب بمكة حين وقع ذلك ، وقد نبه فيه على ما يوافق ما قدمناه عن المؤرخين .

فقال : كتب إلى الصادق فى الخبر ، وشافهنى مَنْ شَاهَدَ الأثر ، أن السبب فى حريق المسجد الشريف دخول أحد قَوَمَة المسجد فى المخزن الذى فى الجانب الغربى من آخر باب المسجد لاستخراج قناديل لمنائر المسجد ، فاستخرج منها ما احتاج إليه ، ثم ترك الضوء الذى كان فى يده على قَفَص من أقفاص القناديل

وفيه مشاق ، فاشتعل فيه ، وبادر لأن يطفئه فغلبه وعَلِقَ بحُصُر و بسُط وأقفاص وقصب كان فى المخزن ، ثم تزايد الالتهاب وتضاعف إلى أن علا إلى سقف المسجد ، انتهى .

وفى العبر للذهبى أن حرقه كان من مسرجة القَوّام .

قال المؤرخون : ثم دبت النار فى السقف بسرعة آخذة قبله ، وأعجلت الناس عن إطفائها بعد أن نزل أمير المدينة فاجتمع معه غالب أهل المدينة فلم يقدروا على قطعها ، وما كان إلا أقل من القليل حتى استولى الحريقُ على جميع سقف المسجد الشريف واحترق جميعه حتى لم تَبْقَ خشبة واحدة .

قلت : لعل مرادهم لم تبق خشبة كاملة ؛ لما قدمناه من مشاهدة بقايا خشب كثير عند إخراج الهَدْم الذى كان بالحجرة .

قال القطب القسطلانى : وتَلِفَ جميعُ ما احتوى عليه المسجد الشريف من المنبر النبوى والأبواب والخزائن والشبابيك والمقاصير والصناديق وما اشتملت عليه من كتب وكسوة الحجرة وكان عليها إحدى عشرة ستارة .

حكمة الله فى الحريق

ثم ذكر القطب حِكَماً لذلك وأسراراً ، لكون تلك الزخارف لم تُرْضِهِ صلى الله عليه وسلم ، وكون القلوب لما لاحظت المساجد الثلاثة بعين التعظيم ولا يجوز فى ذلك أن تنزل فوق قدرها ، بل لابد أن يعتقد أن صفة قهره تعالى وعظمته مستولية على الجميع ؛ فهو الواحد القهار ، فوقع الحريق فى الكعبة و بيت المقدس قديماً ، ثم وقع بهذا المسجد فى هذا الزمان عقب ظهور المعجزة العظيمة فى ظهور نار الحجاز التى أخبر بها النبى صلى الله عليه وسلم وحماية جيرانه منها لما التجؤا إليه وانطفائها عند الوصول إلى حرمه كما سبق ، وربما خطر ببال العوام أن حبس النار عنهم ببركة الجوار مُوجِب لحبسها عنهم فى الآخرة ، فاقتضى الحال التبيين بذلك .

ونظم الأقشهرى أبياتاً مضمونها أن تسليط النار كان على تلك الزخارف

المنهى عنها ، وأن ما كان حقا فيبقى ، وما كان زوراً فبالنار يحرق ، قال : وأنشدنى الحافظ الصالح الشيخ إبراهيم بن محمد الكنانى رئيس المؤذنين هو وأبوه قال : وجد بعد الحريق فى بعض جدران المسجد بيتان وهما :

لم يحترقْ حَرَمُ النبيِّ لريبـــةٍ يخشى عليـــه وما به من عارِ
لـكنه أيْدِى الروافضِ لامَسَتْ تلك الرســـوم فَطُهِّرَتْ بالنارِ

قلت : وأوردها المجد بلفظ :

لم يحترق حرم النبى لحادثٍ يُخْشَى عَلَيْــه ولا دَهَاه العارُ
لـكنما أيدى الروافض لامَسَتْ ذاك الجناب فطهـــرته النارُ

وأورد بعدها بيتين آخرين هما :

قل للروافض بالمدينة ما بكم لقيادكم للذم كل ســـفيه
ما أصبح الحرم الشريفُ محرّقا إلا لسبكم الصحابَةَ فيـــه

قلت : وهذا لأن الاستيلاء على المسجد والمدينة كان فى ذلك الزمان للشيعة وكان القاضى والخطيب منهم ، حتى ذكر ابن فرحون أن أهل السنّة لم يكن أحد منهم يتظاهر بقراءة كتب أهل السنة

قال المؤرخون : ولم يسلم سوى القبة التى أحدثها الناصر لدين الله لحفظ ذخائر الحرم مثل المصحف الكريم العثمانى وعدة صناديق كبار متقدمة التاريخ صنعت — يعنى تلك الصناديق — بعد الثلاثمائة ، وهى باقية إلى اليوم ، يعنى فى زمانهم ، وذلك لكون القبة المذكورة بوَسَط صحن المسجد و ببركة المصحف الشريف العثمانى

وكانت عمارة القبة المذكورة — على ما ذكره ابن فرحون — سنة ست وسبعين وخمسمائة

قالوا : و بقيت سَوَارى المسجد قائمة كأنها جُذُوع النخل إذا هبت الرياح تمايل ، وذاب الرصاص من بعض الأساطين فسقطت ، ووقع السقف الذى كان على أعلى الحجرة على سقف بيت النبى صلى الله عليه وسلم فوقعا جميعا فى الحجرة

الشريفة وعلى القبور المقدسة . وعبارةُ الذهبي وتبعه التقي السبكي : فوقع بعضُ سقف الحجرة ، وكل ذلك قبل أن ينام الناس ، وأصبحوا يوم الجمعة فعزلوا موضعا للصلاة ، وكتب بذلك للخليفة المستعصم بالله أبي أحمد عبد الله بن المستنصر بالله في شهر رمضان ، فوصلت الآلات صحبة الصناع مع رَكْب العراق في الموسم ، وابتدئ بالعمارة أول سنة خمس وخمسين وستمائة .

الشروع في العمارة بعد الحريق

قال المطري : ولما شرعوا في العمارة قصدوا إزالة ما وقع من السقوف على القبور الشريفة فلم يجسروا على ذلك ، واتفق رأى صاحب المدينة يومئذ ـ وهو الأمير منيف بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنى الحسيني ـ ورأى أكابر أهل الحرم الشريف من المجاورين والخُدَّام أن يطالع الإمام المستعصم بذلك ليفعل ما يصل به أمره ، فأرسلوا بذلك ، وانتظروا الجواب ، فلم يصل إليهم جواب لاشتغال الخليفة وأهل دولته بإزعاج التتار لهم ، واستيلائهم على أعمال بغداد في تلك السنة ، فتركوا الرَّدْمَ على ما كان عليه ، ولم ينزل أحد هناك ، ولم يتعرضوا له ولا حركوه .

وعبارة المجد الشيرازي : فتركوا الردم على ما كان عليه ، ولم يجسر أحد على التعرض لهذه العظيمة التي دون مرامها تزلُّ الأقدام ، ولا يتأتى من كل أحد بادئ بدئه الدخول فيه والإقدام .

قلت : وقد كنت في تعجُّب عظيم من أهل ذلك الزمان في تركهم لذلك ، وألفت كتابا سميته « الوفا ، بما يجب لحضرة المصطفى » بينت فيه أن الواجب في سلوك الأدب مع هذا النبي العظيم والقيام بما وجب على الأمة من تعظيمه وتعظيم قبره الشريف هو إزالة ذلك عنه وقَمُّه من حجرته الشريفة ، حتى اتفقت العمارة الآتي بيانها ، ولم يكن تأليفي السابق سببا في شيء من ذلك كما سيأتي بيانه ، حتى إني لم أطلع عليه متولي العمارة إلا بعـد هَدْمه لشيء من جدار الحجرة ، فلما نقبوا الجدار الظاهر شاهدتُ بين الجدارين في الفضاء الذي خلف الحجرة

أمراً مَهُولاً من الهَدْم الذى خصّ ذلك الموضع ، فإنه كما سيأتى كان فيه نحو القامة ، فعلمت أن أهــل ذلك الزمان لم يتركوه إلا لعلمهم بأن إزالته لا تتأتى إلا بانتهاك الحرمة ، فتوقفوا فى ذلك ، فجزاهم الله تعالى خيرا ، وما كنت أعتقد إلا أنه أمر خفيف يتأتى قَمُّه مع رعاية الأدب ، فوجدته أمرا مَهُولا معظَمُه رَدْم سقف المسجد الأعلى وما بين السقفين من البناء الذى على رؤوس السوارى وغير ذلك ، ولذلك استخرتُ الله تعالى فى عدم حضور ذلك عند إخراجه ، ووقفتُ بين يَدَى النبى صلى الله عليه وسلم وسألت منه المَدَدَ فى أن يوفقنى الله تعالى لما يرضيه فى ذلك ، فحفظنى الله من حضور ذلك .

وقال المطرى عقب قوله ولم يتعرضوا له ولا حركوه : إنهم أعادوا سقفا فوقه على رؤوس السوارى التى حول الحجرة الشريفة ؛ فإن الحائط الذى بناه عمر ابن عبد العزيز حول بيت النبى صلى الله عليه وسلم بين هذه السوارى التى حول بيت النبى صلى الله عليه وسلم لم يبلغ به السقف .

قلت : تبع المطرىّ على ذلك مَنْ جاء بعده ، فتوافقوا على أنهم لم يجعلوا للحجرة بعد الحريق سقفا ؛ لأن السقف الذى على رؤوس السَّوَارى هو سقف المسجد ، فاقتضى ذلك أنهم جعلوا سقف المسجد سقف الحجرة ، وذكروا أنهم أداروا الشباك على رأس جدار عمر بن عبد العزيز حتى بلغوا به سَقْفَ المسجد ؛ وأول شىء ابتدأوا به من سقف المسجد ما حاذى الحجرة الشريفة منه ، وفيه مخالفة لما شاهدناه فى العمارة الآتى بيانها ، فإنهم وجدوا عليها سقفا مربعا على جدارها الداخل ، ويتصل بالخارج من المشرق والمغرب ، وهو دوين رأس الجدار الخارج بنحو شبر ، ثم تبين عند كَشْفه آثار السقف المنهدم وأن أخشابه كانت فى الجدار الداخل ، ولم يعيدوا هذا السقف المجدد موضع الأول ؛ لأنه لا يتأتى إلا بهدم سترته وإصلاح أماكن لرؤوس الخشب ، فتركوا ذلك تأدباً واحتراما ، ووضعوا ذلك السقف على أعلى سترة الجدار ، وبنوا فوقه سترة لطيفة ، وجعلوا

على ذلك السقف ستارة من المحابس اليمنية المبطنة بقماش أزرق مربوطة بمقطّ فى الشباك الذى بأعلى الحائز الظاهر، وليس ذلك السقف مطينا ، وهو سقف محكم من ألواح ثخينة جداً من الساج الهندى ، وسمروا بعضها إلى بعض على قوائم من خشب ، وجعلوه أربع قطع كل قطعة كالباب العظيم ، وجعلوا عند ملتقى كل قطعتين من تلك القطع مقصاة من حديد ، وكلّبوا بعضها إلى بعض تكليبا محكما ، وجعلوا تحته ثلاث جزم من الساج الهندى تحمله ، وأوصلوا أطراف تلك الألواح بالجدار الظاهر كما تقدم ، ولم يجعلوا فى تلك الألواح دهانا ولا نقوشا ولا كتابة ، غير أن النجار الذى صنع السقف المذكور كتب اسمه على طرفه نقرا ، وكذلك سقف المسجد المحاذى للحجرة الشريفة مما يلى هذا السقف جميعُه من الساج النقى ليس عليه دهان ولا نقوش وفى وسطه طابق عليه قفل فوقه أنطاع ومشمع ، ولم يزل موجودا إلى أن عملت القبة الثانية بعد الحريق الثانى ، وجعلوا على جدار الحجرة الداخل من جهة الشام ألواحا من رأس الجدار إلى سقف المسجد .

والعجب أنهم عند رفع هذا السقف وجدوا جزمتين من الأخشاب التى تحته قد تأكّلتا ولم يبق إلا جزمة واحدة ، ومع ذلك كانت كافية فى حمله ، فجزى الله تعالى أهلَ ذلك الزمان خيرا ، والظاهر أن ذلك فعل عند إعادة سقف المسجد الذى ذكره المطرى .

ولنرجع إلى ما ذكره عقب ما تقدم عنه ، قال : وسقفوا فى هذه السنة ــ وهى سنة خمس وخمسين ــ الحجرة الشريفة وما حولها إلى الحائط القبلى و إلى الحائط الشرقى إلى باب جبريل عليه السلام المعروف قديما بباب عثمان ، ومن جهة المغرب الروضة الشريفة جميعها إلى المنبر الشريف .

ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة فكان فى المحرم منها واقعة بغداد واستيلاء التتار عليها وقتْلهم الخليفةَ المذكورَ مع أهلها .

قلت : وهى من أعظم الوقائع ، وقد ذكرتها فى كتابى « الوفا » وأشرت

إليها فى الفصل الثالث من الباب الثانى عند ذكر نار الحجاز ، وذكرت ما أفاده الذهبى من استيلاء الحريق على بغداد أيضاً حتى تر بة الخلفاء ، وكانوا فى العام قبله قد أشرفوا على الغرق ، فسبحان الملك العظيم .

قال المطرى عقب ما تقدم : فوصلت الآلات من مصر ، وكان المتولى عليها حينئذ الملك المنصور نور الدين على بن الملك المعز عز الدين أيبك الصالحى ، ووصل أيضاً آلات وأخشاب من صاحب اليمن يومئذ وهو الملك المظفر شمس الدين يوسف بن منصور عمر بن على بن رسول ، فعملوا إلى باب السلام المعروف قديماً بباب مروان ، ثم عزل صاحب مصر المذكور — يعنى فى آخر سنة سبع وخمسين فى ذى القعدة منها — وتولى مكانه مملوك أبيه الملك المظفر سيف الدين قطز المعزى ، واسمه الحقيقى محمود بن ممدود ، وأمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه ، وأبوه ابن عمه أسر عند غلبة التتار ، فبيع بدمشق ، ثم انتقل بالبيع إلى مصر ، وتملك فى سنة ثمان وخمسين .

قلت : إنما ولى فى يوم السبت ثامن عشر ذى القعدة من سنة سبع ، وفى شهر رمضان من سنة ثمان كانت وقعت عين جالوت التى أعز الله فيها الإسلام وأهله على يديه ، ولم يستكمل فى ملكه السنة بكمالها ، بل قتل بعد الوقعة بشهر وهو داخل إلى مصر ، فكان العمل بالمسجد الشريف تلك السنة من باب السلام إلى باب الرحمة المعروف قديماً بباب عاتكة ، ومن باب جبريل إلى باب النساء المعروف قديماً بباب رَيْطَة بنة أبى العباس السفاح ، وتولى مصر آخر تلك السنة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحى ، ويعرف بالبندقدارى ، فعمل فى أيامه باقى سقف المسجد الشريف من باب الرحمة إلى شمالى المسجد ، ثم إلى باب النساء ، وكمل سقف المسجد كما كان قبل الحريق سقفا فوق سقف .

قلت : وذكر المؤرخون أن الظاهر ركن الدين المذكور لما ولى حصل منه الاهتمام بذلك ؛ فجهز الأخشاب والحديد والرصاص ، ومن الصناع ثلاثة وخمسين

صانعا وما يمونهم ، وأنفق عليهم قبل سفرهم ، وأرسل معهم الأمير جمال الدين محسن الصالحى وغيره ، ثم صار يمدهم بما يحتاجون إليه من الآلات والنفقات ، ثم لم يزل المسجد على ذلك حتى جَدَّدوا السقف الشرقى والسقف الغربى ــ أى الذى عن يمين صحن المسجد وشماله ــ فى سنتى خمس وست وسبعمائة فى أوائل دولة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى ، فجعلا سقفا واحداً نسبة السقف الشمالى أى سقف الدكاك فإنه جعل فى عمارة الملك الظاهر كذلك .

ثم فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة أمر السلطان الملك الناصر محمد المذكور بزيادة رواقين فى المسقف القبلى متصلين بمؤخره ، فاتسع مسقفه بهما وعم نفعهما .

قلت : ثم حصل فيهما خَلَل فجدّدهما الملك الأشرف برسْبَاى فى ذى القعدة سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة على يد مقبل القديدى من مال جوالى قبرص ، على ما أخبرنى به بعض مشايخ الحرم ، ورأيته مكتوباً كذلك باللوح التى كانت بظاهر العقود من المسقف القبلى مما يلى رحبة المسجد ، وهو سقف واحد فى مُوَازاة سقف المسجد الأسفل ، ولذلك صار سقف مقدم المسجد القديم مرتفعا من أعلاه على هذين الرواقين وغيرهما من بقية المسجد ، وله باب يدخل إليه من بين السقفين شارع فى مبدأ الرواقين المذكورين مما يلى المشرق ، وجدد الأشرف المذكور أيضاً شيئاً من السقف الشامى مما يلى المنارة السنجارية ، ثم حصل خلل فى سقف الروضة الشريفة وغيرها من سقف المسجد فى دولة الظاهر جَقْمَق فجدد ذلك فى سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة وما قبلها على يد الأمير بردبك الناصر المعمار وغيره .

ثم فى دولة مولانا السلطان الملك الأشرف قايتباى أدام الله تعالى تأييده ونصره أنهى إليه احتياجُ سقوف المسجد الشريف للعمارة فبَرَز أمرُه الشريف بذلك كما ستأتى الإشارة إليه للجناب الخواجكى الشمسى شمس الدين بن الزمن أعزه الله بعز طاعته ، فحضر لذلك فى أثناء سنة تسع وسبعين صُحْبة أمير جدة ورتّب أمر العمارة وسافر صحبته أيضاً ، فهدموا عقود المسجد التى تلى رحبته من

جهة المشرق وسقف الرواق الذى كان عليها ؛ لاقتضاء نظرهم ذلك ، ونقضوا بعض أساطينه فوجد بعضها لا رصاص فيه ، و بعضها فيه رصاص ، ثم أعادوا ذلك فى سَنَتهم ، وهدموا أيضاً جانبا من سور المسجد الشريف مما يلى المشرق من جهة المنارة الشرقية المعروفة بالسنجارية من باب شامها ، وهو الباب الثانى جوف بابها الظاهر ، إلى ما يوازى حرف الدكاك من القبلة ، وذلك آخر المسقف الشامى، ومقدار ذلك سبعة وعشرون ذراعا بذراع اليد المتقدم وصفه ، هدموا ذلك من أعلاه إلى أسفله ، و بلغوا به دك الأس القديم ، وظهر فى أصل جدار المنارة المذكورة انشقاق وكانت تضطرب عند الهدم بحيث خشى سقوطها ، فسكبوا فى ذلك الشق كثيراً من الجص المُذاب حتى امتلأ ، وكان ما هدَموه من سور المسجد وعقوده مبنيا بالجص السكب ، فذكر مهندس العمارة أن الجدار إنما اختل لأن السباخ له تأثير فى إذابة الجص ، واقتضى رأيه أن يؤسسه بالطين والنورة المخلوطة بناعم الحصباء ، ففعلوا ذلك فى الجدار المذكور كله وفى العقود المذكورة أيضاً ، وكحلوا أطراف وجوه الأحجار بالجص من داخل المسجد وخارجه ، ورفعوا السقف الكائن أمام المنارة المذكورة إلى جنب ما هدموه من الجدار المذكور ، وأعادوا ذلك من سنتهم أيضاً . ثم اتفقت أمور اقتضت تأخير العمارة ، فتعطلت فى سنة ثمانين . ثم ورد الخواجا الشمسى ابن الزمن إلى المدينة الشريفة صحبة أمير جدة فى جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وأقام لمباشرة العمارة بنفسه ، فرفعوا سقف الروضة الأعلى وما اتصل به مما حول القبة الزرقاء الآتى ذكر عملها بأعلى الحجرة الشريفة فى سقف المسجد الأعلى ، ورفعوا أيضاً شيئاً مما يلى ذلك من جهة ما يوازى غربى المنبر الشريف لتكسر كثير من أخشابه ، وكان ذلك السقف مع بقية سقف مقدم المسجد على عبّارات من خشب موضوعة على أبنية فوق رؤوس السوارى بعرض تلك السوارى ، كما أن السقف الأسفل المشاهد مما يلى المسجد موضوع على عبارات كذلك فوق رؤوس السوارى ، فاقتضى رأى متولى العمارة

إبدال تلك الأخشاب بعقود من آجر كهيئة القناطر التى حول رحبة المسجد ، ورأى أن ذلك أبقى وأحكم من الأخشاب ، مع أن عبارات السقف الأسفل كما قدمناه على رؤوس السوارى بأصل تلك العقود ، ولكنه رأى الإحكام فى ذلك ، ففعله فى القطعة التى رفعها من السقف المذكور فقط ، ووضع أخشاب ذلك السقف على تلك القناطر ، فارتفع بسببه ذلك المكان من السقف الأعلى على بقية ما حوله منه ، وصار الماشى بين السقفين فى تلك الجهة يمشى منتصبا أو منحنيا قليلا ، وكان لا يتأتى قبل ذلك المشى هناك إلا مع انحناء كثير ، وتلك القناطر موضوعة على ما يحاذى صف الأساطين التى هى قبلة الروضة والمصلى الشريف من أولها من جهة المشرق إلى الأسطوانة التى تلى المنبر من جهة المغرب وعلى ما يحاذى الصف الثانى وهو صف أسطوان عائشه رضى الله عنها فى موازاة الصف المتقدم ذكره من المشرق إلى المغرب ، وعلى ما يوازى الصف الثالث وهو صف أسطوان المحرس من المشرق إلى المغرب أيضاً ، وأما ما يوازى صف أسطوان الوفود فقد كان عليه بناء حائط حاجز لما بين السقف الأسفل والأعلى فيه باب يدخل منه إلى ما بين السقفين ، فهدموا ذلك الحائط ، وأحكموا بناءه ، وجعلوا أطراف الخشب عليه أيضاً ، فهذه الثلاثة الأروقة هى التى ارتفع سقفها الأعلى على ما حوله من الأساطين اللاصقة بالمقصورة إلى الأساطين التى تلى المنبر وصار سقف الرواقين اللذين بين الروضة والجدار القبلى مع سقف ما يحاذى الحجرة الشريفة إلى الجدار الشرقى وسقف ما كان غربى المنبر من مقدم المسجد كله منخفض عن ذلك .

ووجدوا أخشابا كثيرة متفرقة نحو الأربعين من السقف الأعلى أيضاً قد تكسرت ، فزرقوا بدلها ، ووضعوا إلى جانب بعضها أخشاباً مزرقة ، وسمروها من غير كشف للسقف ، وقلعوا السقف الأسفل الذى بالرواق الشرقى مما يلى الأرجل الشريفة ، وجانبا من سقف رواق باب جبريل إلى باب النساء ، وسقف

الرواق الأوسط الذى يلى الرواق الذى سبقت عمارتهم إياه فى العام الماضى ، وأعادوا ذلك ، وقلعوا السقف الأسفل المحاذى لموقف الزائرين تجاه الوجه الشريف وكان من أقدم السقف ، ومع ذلك تعبوا فى قلعه أكثر من غيره لإتقانه وإحكامه فإنه من عمل الأقدمين ، وأظنهم وجدوا اسم الظاهر بيبرس عليه ، ثم أعادوه وأصلحوا شيئاً فى المسقف الشامى وغيره ، وجددوا أيضاً دِهَانَ بعض السقف التى حول الحجرة داخل المقصورة التى تعرف اليوم بالحجرة من غير قلع لتلك السقف . ثم احترق ذلك كله فى جملة حريق المسجد الثانى الآتى ذكره فى الفصل التاسع والعشرين ، وجعلوا سقف المسجد عند إعادته سقفا واحدا جميعه كما سيأتى .

الفصل السابع والعشرون

فى اتخاذ القبة الزرقاء التى جعلت على ما يحاذى سقف الحجرة الشريفة بأعلى سقف المسجد ، تمييزاً لها ، وإبدالها بالقبة الخضراء والمقصورة الدائرة بالحجر الشريفة .

القبة الزرقاء

أما القبة المذكورة فاعلم أنه لم يكن قبل حريق المسجد الشريف الأول وما بعده على الحجرة الشريفة قبة ، بل كان حول ما يوازى حجرة النبى صلى الله عليه وسلم فى سطح المسجد حَظِير مقدار نصف قامة مبنيا بالآجر تمييزا للحجرة الشريفة عن بقية سطح المسجد ، كما ذكره ابن النجار وغيره ، واستمر ذلك إلى سنة ثمان وسبعين وستمائة فى أيام الملك المنصور قلاوون الصالحى ، فعملت تلك القبـة ، وهى مربعة من أسفلها مثمنة من أعلاها بأخشاب أقيمت على رؤوس السوارى ، وسمر عليها ألواح من خشب ، ومن فوقها ألواح الرصاص ، وفيها طاقة إذا أبصر الشخص منها رأى سقف المسجد الأسفل الذى فيه الطابق ، وعليه المشمع المتقدم ذكره ، وحول هـذه القبة على سقف المسجد ألواح رصاص مفروشة فيما قَرُب منها ، ويحيط به و بالقبة درابزين من الخشب جعل مكان الحظير

الآجر ، وتحته أيضاً بين السقفين شباك خشب يحكيه محيط بالسقف الذى فيه الطابق ، وعليه المشمع المتقدم ذكره ، ولم أر فى كلام مؤرخى المدينة تعرض لمن تولى عمل هذه القبة .

ورأيت فى « الطالع السعيد الجامع أسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد » فى ترجمة الكمال أحمد بن البرهان عبد القوى الربعى ناظر قوص أنه بنى على الضريح النبوى هذه القبة المذكورة ، قال : وقصد خيرا وتحصيل ثواب ، وقال بعضهم : أساء الأدب بعلو النجارين ودق الحطب ، قال : وفى تلك السنة وقع بينه و بين بعض الولاة كلام ، فوصل مرسوم بضرب الكمال ، فضرب ، فكان من يقول إنه أساء الأدب [يقول :] إن هذا مجازاة له ، وصادره الأمير علم الدين الشجاعى ، وخرب داره ، وأخذ رخامها وخزائنها ، و يقال : إنهم بالمدرسة المنصورية اهـ .

ويؤيد ما نقله عن بعضهم ما رواه أبو داود فى سننه عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « خَرَجَ فرأى قبة مُشْرِفة ، فقال : ما هذه ؟ قال له أصحابه : هذه لفلانٍ ، رجلٍ من الأنصار ، قال : فسكت وحملها فى نفسه ، حتى إذا جاء صاحبُها رسول الله صلى الله عليه وسلم سلم عليه فى الناس فأعرض عنه ، صنع ذلك مرارا ، حتى عرف الرجل الغضب فيه والإعراض عنه ، فشكا ذلك إلى أصحابه ، فقال : والله إنى لأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : خرج فرأى قبتك ، قال : فرجع الرجل إلى قبته فهدمها حتى سوَّاها بالأرض ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاتَ يوم ، فلم يرَها ، قال : ما فعلت القبة ؟ قالوا : شكا إلينا صاحبُها إعراضَك عنه فأخبرناه فهدمها ، فقال : أما إنَّ كلَّ بناء وَبَالٌ على صاحبه إلا مالا إلا مالا » أى إلا مالا بد منه

وقد جُدِّدَتْ هذه القبة فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، فاختلَّت الألواح الرصاص عن وضعها ، فخَشُوا من كثرة الأمطار ، فجددت

وأحكمت فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد فى سنة خمس وستين وسبعمائة ، قاله الزين المراغى

وقد ظهر فى بعض أخشابها خلل فى سـنة إحدى وثمانين وثمانمائة فعضّدها متولى العمارة الشمس بن الزمن بأخشاب سمرت معها ، وقلع ما حولها من ألواح الرصاص التى على أعلى السطح بينها و بين الدرابزين المتقدم ذكره ، فوجدوا تحت ذلك أخشابا قد تأكلت من طول الزمان وتَدَاوة مياه الأمطار فأصلحوا ذلك وأعادوه بعد أن أضافوا إليه كثيرا من الرصاص من حاصل المسجد ومما أحضر من مصر ، وجددوا الدرابزين المحيط بها أيضا ، وقد كانت مياه الأمطار تتسرَّبُ من بين تلك الألواح وتصل إلى سقف الحجرة الشريفة ، فإن آثار المياه قد وجدت هناك ، وأثَّرتْ فى الشباك الذى بأعلى حائز عمر بن عبد العزيز بحيث تأكلَ بعضُه ، فأصلحه متولى العمارة أيضا ، وأثَّرت الأمطار أيضا فى الستارة التى على سقف الحجرة الشريفة بحيث تأكل بعضها ، ثم احترق ذلك كله فى حريق المسجد الثـانى ، فاقتضى رأيهم تأسيس القبة البيضاء الموجودة اليوم على دعائمَ بأرض المسجد وعقود من الآجر ، وجعلوا تلك الدعائم فى موازاة الأساطين التى كان بينها درابزين المقصورة الآتى وصفها ، وزادوا من جهة الشام دعائمَ بعضُها عند المثلث الذى بالحجرة الشريفة من بناء عمر بن عبـد العزيز ، وزادوا هناك أسطوانا ، وعند التأسيس لذلك وجدوا عند صفحة المثلث الشرقية قبرا بَدَا لحدُه و بعضُ عظامه ، و إن صح القول بدفن فاطمة رضى الله عنها فى بيتها كما ستأتى الإشارة إليه فهو قبرها ، وأبدلوا بعض الأساطين بدعائم ، وأضافوا إلى بعضها أسطوانة أخرى ، وقرنوا بينهما ليتأتى لهم العَقْد عليها ، وحصل فيما بين جدار المسجد الشرقى و بين تلك الدعائم ضيق لاتحاد بعض تلك الدعائم هناك ، فخرجوا بجدار المسجد الشرقى فى البلاط الذى يلى الجدار المذكور نحو ذراع ونصف ، فإنهم هَدَموا ذلك الجدار ، وأعادوه إلى باب جبريل عليه السلام ، ولم ينقلوا باب جبريل عن محله

ثم إن القبة المذكورة تشققت من أعاليها ولم ينفع الترميم فيها ، ففوّض السلطان للشجاعى شاهين الجمالى النَّظَر فى أمرها وأمْرِ المنارة الرئيسية أيضا عند توليته شيخ الحرم الشريف ، فاقتضى رأيه بعد مراجعة أهل الخبرة هـدْمَ أعالى المنارة المذكورة واختصار قليل منها ، فاتخذ أخشابا فى طاقاتها وجعل عليها سقفا يمنع ما يسقط عند الهدم للحجرة الشريفة ، ثم هدم أعاليها وأعاد بناءها أحكم من البناء الأول ، بحيث حمل لهـا الجبس الأبيض من مصر وجعله فى بنائها ، فجاءت محسنة محكمة ، وأزيل ذلك السقف عند تمامها ، وذلك فى عام اثنتين وتسعين وثمانمائة

المقصورة الدائرة على الحجرة

وأما المقصورة الدائرة على الحجرة الشريفة بين الأساطين حول جدار الحجرة الظاهر وحول بيت فاطمة رضى الله عنها فقد أحدثها السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، وذلك أنه لمـا حج سنة سبع وستين وستمائة أراد أن يجعل على الحجرة الشريفة درابزينا من خشب ــ وهو المقصورة المذكورة ــ فقاس ما حول الحجرة الشريفة بيده وقدره بحبال وحملها معه ، وعمل الدرابزين ، وأرسله فى سنة ثمان وستين ، وأداره عليها ، وعمل له ثلاثة أبواب قبليا وشرقيا وغربيا ، ونصّبه بين الأساطين التى تلى الحجرة إلا من ناحية الشام فإنه زاد فيه إلى مُتَهَجَّدِ النبى صلى الله عليه وسلم

ثم زيد لهذه المقصورة باب رابع أحدث عند زيادة الرواقين المتقدم ذكرها فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، وهو من جهة الشمال فى رحبة المسجد ، وكان عليه قبل الحريق الأول سقف مرتفع يحيط به رفرف ، ثم أحدث هذا الباب ، وأمامه من جهة رحبة المسجد سقف لطيف أيضا نحو ســتة أذرع دُوَيْنَ السقف المتقدم وجعل له رفرف أيضا يمنع الشمس ، و بسط تحته الرخام الملون شبه الرخام الذى تقدم ذكره حول حائز عمر بن عبد العزيز بالأرض داخل هذه المقصورة ، وذلك فى دولة الظاهر جَقْمَق سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة

قال الزين المراغى : وأعلم أن الذى عمله الملك الظاهر ــ أى ركن الدين ــ من الدرابزين نحو القامتين ، فلما كان فى سنة أربع وتسعين وستمائة زاد عليه الملك العادل زين الدين كتبغا شباكا دائرا عليه ، ورفعه حتى وصله سقف المسجد ، انتهى .

وقد جددمتولى العمارة المتقدم ذكره بعضَ هذه المقصورة أيضا مما يلى الروضة الشريفة فى العمارة الأولى ، ثم احترقت فى الحريق الثانى ، فجعلوا بدلها شبابيك من النحاس فى جهة القبلة ، وعلى أعلاها شَبَكة من شريط النحاس كالزرد ، بين أخشاب متصلة بالعقود المحيطة بالحجرة الشريفة ، وجعلوا لبقيتها من جهة الشام وما اتصل بها من المشرق والمغرب مشبكا من الحديد المشاجر ، و بأعلاه شريط النحاس أيضا ، وأحدثوا مشبكا من الحديد المشاجر أيضا لم يكن قبل ذلك ، جعلوه فاصلا بين الرحبة التى خلف مثلث الحجرة الشريفة و بينها ، و بها بعض المثلث المذكور ، و به بابان أحدهما عن يمين المثلث ، والآخر عن يساره ، وصار هذا المشبك متوسطا بين مشبك الحجرة الشامى وما يقابله . وقد صارت هذه المقصورة تعرف بالحجرة الشريفة ، وأبوابها بأبواب الحجرة ، وما يعلق بسقفها بقناديل الحجرة كما تقدم فى عبارة السبكى .

وفى كلام البدر ابن فرحون ما يقتضى أنه كان ثَمّ مقصورة متصلة بهذه المقصورة من جهة المغرب ، ثم أزيلت ، ولفظه : وقد تساهل مَنْ كان قبلنا فزادوا على الحجرة الشريفة مقصورة كبيرة عملت وقاية من الشمس إذا غربت ، وكانت بدْعَة وضلالة تصلى فيها الشيعة ؛ لأنها قطعت الصفوف ، واتَّسَمَتْ بمن ذكر من الصنوف ، وندم على ذلك واضعها ، ولقد كنت أسمع بعضم يقف على بابها و يؤذن بأعلى صوته « حى على خير العمل » وكانت مواطن تدريسهم ، وخلوة علمائهم حتى قَيَّضَ الله لها مَنْ سعى فيها فأصبحت ليلة منخلعة أبوابها ، مقوسة أخشابها ، متصلة صفوفها، وأدخل بعضها فى الحجرة الشريفة ــ يعنى ما اشتمل عليه الدرابزين

المذكور – وجعل فيها الباب الشامى ، وكان ذلك مع زيادة الرواقين اللذين زادهما الملك الناصر ، انتهى .

وذكر لى بعضُ مشايخ المدينة نقلا عمنْ أدركه من المشايخ أن هذه المقصورة كانت فى شامى أسطوان الوفود إلى جهة باب الحجرة الشامى ، والشيعة اليوم يصلون فى ذلك الموضع ، ومقتضى ماقدمناه عن ابن النجار فى بيت فاطمة رضى الله عنها – حيث قال : و بيتها اليوم حوله مقصورة ، وفيه محراب ، وهو خلف حجرة النبى صلى الله عليه وسلم – وجود مقصورة هناك قبل حريق المسجد ، فلعل ذلك مستند الظاهر ركن الدين فى إحداث ذلك .

وقد ذكر المطرى ما صنعه الظاهر من هذه المقصورة ، ثم قال : وظن الملك الظاهر أن ما فعله تعظيما للحجرة الشريفة ، فحجر طائفة من الروضة المقدسة مما يلى بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، ومنع الصلاة فيها ، مع ما ثبت من فضلها وفضل الصلاة فيها ، فلو عكس ما حجره وجعله خلف بيت النبى صلى الله عليه وسلم من الناحية الشرقية وألصق الدرابزين بالحجرة مما يلى الروضة لكان أخَفَّ ؛ إذ الناحية الشرقية ليست من الروضة ولا من المسجد المشار إليه ، بل مما زيد فى المسجد أيام الوليد ، قال : ولم يبلغنى أن أحداً من أهل العلم والصلاح ممن حضر ولا ممن رآه بعد تحجيره أنكر ذلك ، أو تفطن له وألقى له بالا ، وهذا من أهم ما ينظر فيه .

قال الزين المراغى عقبه : ينبغى أن يعلم أن للظاهر سلفاً فى ذلك ، وهو ما حجره عمر بن عبد العزيز على الحجرة الشريفة من جهة الروضة أيضاً ، لكنه قليل ، انتهى .

قلت : وهذا بناء على ما تقرر عنده من أن جدار الحجرة الذى داخل الحائز هو نهاية المسجد فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، وقد قدمنا فى حدود المسجد ما يرد

ذلك ، ولو سلم أن ذلك نهاية المسجد وأن عمر بن عبد العزيز اتخذ الجدار المذكور فيه فذلك لمصلحة حفظ القبر الشريف ، وجعل بنائه على هيئة لا يتأتى معها استقبال القبر الشريف كما قدمناه ، وهذه المقصورة بضد ذلك ، والله أعلم .

وقال البدر بن فَرْحُون فى ترجمة ولى الله سيدى الشيخ على الم‍ ‍طى مالفظه : حكى لى جمال الدين ـ يعنى المطرى ـ أن الشيخ بعث إلى الملك الناصر يقول له: أنا أضمن لك على الله تعالى قضاء ثلاث حوائج إن قَضَيْتَ لى حاجة واحــدة ، وهى إزالة هذا الشباك الذى على الحجرة الشريفة ، يعنى هذه المقصورة ، فبلغه ذلك ، فتوقف ولم يفعل .

قال البدر بن فرحون : وليته فعل ؛ فإن الشباك الذى يدور على الحجرة قطع جانباً من المسجد ، وحجر كثيراً من الروضة ، وفى كل زمان يجدد ويعمر بما يتقوى به ويتأيد ، وأدخل فيه قطعة كبيرة لمـا أزيلت المقصورة ، يعنى المتقدم ذكر إزالتها .

وقال المجد الشيرازى ، عَقِبَ ذكره لمـا تقدم عن المطرى : والذى ذكره مُوَجَّه ، غير أن أحد الأبواب مفتوح دائماً لمن قصد الدخول والزيارة ، فيمكن من أراد الصلاة الدخول والوقوف مع الصف الأول فى الروضة ، ولا يخفى أن فى تقريب الدرابزين من الحجرة إخراجاً للبناء عن وضعه اللائق ، وأيضاً فيه تضييق عظيم على الزائرين ، لاسيما عند زحام الواسم ؛ فإنه مع هــذا الاتساع ينخنق المكان بالخلق ، فـكيف لو ضيق بحيث يتصل الدرابزين بجدار الحجرة؟ لا يقال: إنه كان يتسع من جهه المشرق للزائرين ؛ لأن الناس إنما يقصدون هذه الجهة لـكون الرأس الشريف هنالك ، وليـكون الابتداء بالتسليم على النبى صلى الله عليه وسلم دون أن يتخطوا الشيخين رضى الله عنهما ، فتأمل ذلك فإنه صحيح . قال: وهذه الـكيفية لا مزيد عليها فى الحسن ، ولم يتعطل شىء من الروضة بسبب

ذلك ، بل بسبب كسل المصلين ، وقد رأيت جماعة من الخدام يصلون داخل الدرابزين أيام الجمعة ، انتهى .

قلت: وما ذكره صحيح بالنسبة إلى زمنه ؛ فإن الباب المذكور كان مفتوحاً فى سائر الأوقات . وقد نبه على ذلك ابن جماعة فى منسكه ، محاولا غلقه فى المواسم فقط ، فقال : إن هذا الدرابزين حجر طائفة من الروضة الشريفة مما يلى بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وصار ما بين الحجرة والدرابزين مأوى للنساء بأولادهن الصغار فى أيام المواسم ، وربما قذر الصغار فيه ، وقد تحدَّثْتُ مع الملك الناصر رحمه الله لما حج وزار سنه اثنتين وثلاثين وسبعمائه فى غلق الدرابزين أيام الموسم، فسكت لما ذكرته ، ولم يجبنى بشىء ، وهذا من أهم ما ينظر فيه ، انتهى . فحدث بعد ذلك غلق الأبواب كلها دائماً ، ولا يفتح منها شىء إلا فى وقت إسراج القناديل ونحوه ، ولا يدخل لذلك إلا بعض الخدام والفراشين أو بعض من له وجاهة بإذن شيخ الخدام ، فيدخل للزيارة ليلا ، وتحقق بسبب ذلك تعطيل تلك البقعة ، وحرم الناس التبرك بأسطوان السرير ؛ فإن محله فى شرقى أسطوانه كما تقدم ، وكذلك الوقوف للزيارة فى موقف السلف بينها و بين الحجرة الشريفة أو على نحو أربع أذرع من جدار القبر على ما يأتى بيانه ، وكذلك التبرك بمُرَبَّعة القبر ومقام جبريل كما قدمناه ، و بيت فاطمة رضى الله عنها ، فإن ذلك كله فى جَوْف المقصورة ، بل كانت هذه المقصورة سبباً لما هو أعظم من ذلك وأطم ، وهو ابتناء دعائم القبة المتقدم ذكرها بأرضها ، فإنها صارت عند العوام بل وعند من لا إحاطة له بأحوال المسجد أنها ليست من المسجد ، بل من الحجرة ، فعاملوها معاملة غير المسجد ، ولما وقعت المفاوضةُ فى عملها صَرَّحْتُ بتحريم ذلك ، فأشار بعضهم بعمل القبة المذكورة على رؤوس الأساطين من غير بناء ، ثم رجعوا عن ذلك وأنا غائب بمصر .

وسبب غلق الأبواب المذكورة أن النجم بن حجى قاضى الشام لما حج فى

الموسم الشامى رأى ازدحام الناس بذلك المحل وما أشــار إليه ابن جماعة فيما تقدم عنه ، فأفتى بغَلْقها ، وخالفه الولى العراقى عند قدومه مع الحاج المصرى فأفتى بفتحها. وأخبرنى بعضُ مشايخ الحرم أن ذلك كان فى سنة اثنين وعشرين وثمانمائة وأن الحال استمر على ما أفتى به الولى العراقى ، فلما ولى النجم بن حجى ديوان الإنشاء تسبب فى بروز المراسيم السلطانية بالأمر بالغَلْق سنة ثمان وعشرين، واستمر ذلك إلى اليوم ، كذا أخبرنى به بعض مشايخ الحرم . ورأيت حاشيةً على كلام المجد بخط الحافظ جمال الدين بن الخياط اليمنى ، ولفظها : ومما أحدث فى دولة الملك الأشرف برسْبَاى صاحبِ مصر والشــام بعد الثلاثين وثمانمائة سُمِّرَت أبواب الدرابزين المذكور ، وصار الناس يزورون من وراء الدرابزين من غير دخــول أحدٍ إلى الحجرة الشريفة ، قصدوا بذلك زيادة الحرمة ، وتنزيه المشهد الشريف عن كثرة اللامسين بالأيدى وغيره ؛ فإن كثيراً من جُهّال العرب وغيرهم يلصقون ظهورهم بصندوق القبر الشريف وجداره ، قاصدين بذلك التبرك ، والخيرُ كله فى استعمال الأدب ، انتهى .

قلت : والصوابُ المتعين وجوب فتح بعض تلك الأبواب ، خصوصاً فى غير أيام الموسم ، وليس الطريق فى إزالة المفسدة المذكورة غلق تلك الأبواب وتعطيل تلك البقعة ، بل وقوف الخدام عند ذلك المحل ، ومَنْع مَنْ يتعاطى فيه مالا يليق بالأدب ، على أن ذلك لم يَحْسِم المادة ؛ لأن تلك الأمور – أعنى لمس الجهال ووضعهم الظهور – يفعل اليوم بهذا الدرابزين ، ولا شك أن الجدار الذى كان يفعل به ذلك ليس هو نفس القبر ، بل ولا جدار الحجرة كما قدمناه، بل جدار آخر دائر به، كما أن هذه المقصورة دائرة به ؛ فإن كان ذلك يقتضى تعطيل ذلك المحــل ، فليعطل من أجله المسجد بأجمعه ، وتعطيل المسجد أو شئ منه حرام فلا يرتكب لدفع مكروه مع إمكان دفعه بغيره ، وما يقال من أنه ربما وجد فى بعض المواسم هناك قذر ؛ فقد كان شيخنا شيخ الإسلام فقيه العصر شرف الدين المناوى يقول

فى جوابه : لاشك أن ذلك المحل من المسجد ، فإن كان وجود القذر فيه مقتضيا لتعطيله وصيانته بالغَلْق فليغلق المسجد بأجمعه ، فإن حكم الكل واحد من حيث وجوب صَوْنه واختصاص ما تقرب من المحل الشريف بمزيد التعظيم حاصل بالجدار الكائن عليه ، وطريقُ التعظيم المنعُ من ذلك كما قدمناه ، على أن لَمْسَ جدار القبر وتقبيله ليس مما أجمع على كراهته كما سنوضحه إن شاء الله تعالى فى باب الزيارة .

ولما قدم مولانا السلطان الملك الأشرف قايتباى أعز الله أنصاره المدينة الشريفة للزيارة سنة أربع وثمانين وثمانمائة واجتمعتُ به بالروضة الشريفة أردت أن أتكلم معه فى فتح بعض تلك الأبواب فى غير أيام الموسم ، فرأيته قد تعاظَمَ دخولَ هذه المقصورة لما عرض عليه ذلك . وقال : لو أمكننى الوقوف للزيارة فى أبعد من هذا الموضع فعلت ، ورأى أن ذلك هو التعظيم ، فعلمت أنه لا يوافق على ما أريده ، والله أعلم .

الفصل الثامن والعشرون

فيما تجدد من عمارة الحجرة الشريفة فى زماننا على وجه لم يخطر قط بأذهاننا ، وما حصل بسببه من إزالة هدم الحريق الأول من ذلك المحل الشريف، ومشاهدة وضعه المنيف ، وتصوير ما استقر عليه أمر الحجرة فى هذه العمارة .

اعلم أن بعض سُقف المسجد التى تقدم تجديدها كان قد ظهر تكسُّر بعض أخشابه فى هذه الدولة الأشرفية — أعز الله أنصارها ، وأعلى فى سلوك العدل منارها — فورد المدينة المقر الأشرف السيفى شاهين الجمالى مُنْصَرَفه من جدة المعمورة ، فأروه ذلك ، وأروه الحائز المخمس الدائر على الحجرة الشريفة لانشقاق فيه قديم يظهر إذا رفعت الكسوة عند منتهى الصفحة الشرقية وانعطافها إلى الزاوية الشمالية ، فرفعوا عنه الكسوة ، وأحضروا بعض أرباب الخبرة بسبب ذلك ، فاختلف

النقل عمن حضر ذلك فى كونه ضروريا أو غير ضرورى ، فاجتمعت بالمشار إليه بسبب ذلك ، فذكر لى أن الذى تحرر أنه ليس بضرورى ؛ لأنه شق فى طول الحائط لافى عرضه ، وهو قديم مملوء بالجص ، والحائط ليس عليه سقف يثقله فنخشى عليه ، فأعجبنى كلامه .

ثم أنهى فى سنة ثمان وسبعين لمولانا السلطان الأشرف احتياج المسجد الشريف للعمارة ، وسقوطُ منارة مسجد قباء ، وكان الجناب الخواجكى الشمسى ابن الزمن مغرما بمثل ذلك ، وسبق له بالمدينة الشريفة عمارة لمدرسته المعروفة بالزمنية على يد بعض جماعته ، ففوض إليه السلطان أمرَ عمارة المسجد النبوى ، فكان ماتقدم من مجيئه إلى المدينة الشريفة فى أثناء سنة تسع وسبعين ، وتقريره أمر العمارة ، ثم توجه إلى مصر المحروسة ، فكان من أمر العمارة ما قدمناه .

ثم رغب فى أمر العمارة المقر الشرفى شرف الدين الأنصارى تغمده الله برحمته ففوض له ذلك ، وحضر صحبة الحاج إلى مكة المشرفة ، وأقام بها مدة حتى يتكامل حصول آلات العمارة ، فتوفى بها ليلة سابع عشر صفر عام أحد وثمانين وثمانمائة بعد شكوى خفيفة .

ثم وردت المراسيم الشريفة بتفويض أمر العمارة للجناب الشمسى بن الزمن وكان بجدة المعمورة فورد المدينة الشريفة صحبة شاد جدة فى جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين ، وأحضر معه جماعة من أرباب الصنائع ، وأقام لينظر فى أمر العمارة بنفسه ، فكان ماتقدم من إصلاح السقف الأعلى وعمارة غيره من الشُّقف المتقدم ذكرها ، وإحكام القبة الزرقاء المحاذية للحجرة الشريفة بسقف المسجد ، وإصلاح حِلْية الصندوق الكائن بأصل الأسطوان التى فى جهة الرأس الشريف والقائم المجدد فوقه .

ولما نزعوا القائم العتيق وما تحته من الصندوق وجدوا ماتحت ذلك من أحجار الأسطوانة المذكورة متشطبا ، وأحجارها قطع مجوفة كالخرز ، وكذا كل أساطين المسجد

العتيقة ، وفى جوفها الرصاص وعمد الحديد ، وأهل المدينة يسمون كل قطعة منه خرزة ، ويسمونها أيضا فلكة ، فاقتضى رأيهم تعميق ما على رأس الأسطوان المذكور من أخشاب السقف ، فجعلوا مرمة من الأخشاب حول الأسطوان المذكور ليكسروا الخرز المشقق من ذلك الأسطوان ، وهن ست ، ثم يعلقون ما صح من الأسطوان إلى أن يدخلوا مكان ذلك بدله ، ثم شرعوا فى كسر تلك الخرز ونزعها ، فتعسر ذلك عليهم ، وحصل بسببه دق عنيف ، حتى كانت جدران الحجرة تهتز له لاتصالها بالأسطوان المذكور ، فحصل بسبب ذلك كلام من الناس ، ولكن بعد كسر بعض الخرز وإخراجه ، وكانوا يعالجون فى إخراج الرصاص أيضا علاجا أعظم من العلاج فى الحجر ، فعقدوا مجلسا ، وطلبنى متولى العمارة للحضور فيه ، فترددت لأنه بلغنى أن بعض الناس أوْغَرَ صدرَه منى وقرر عنده أنى حريص على أن لا تكون هذه العمارة على يده ، وكنت أرى منه محبة ومَيْلاً ثم تنكر بعض التنكر ، وعلمت أن الرجوع عن إصلاح الأسطوانة المذكورة غير ممكن لكسر بعضها وإخراجه ، فعلمت فوات وقت النظر ، فأجبت الرسول بذلك، ولم أحضر معهم مع علمى بأن بعض أهل المجلس كان مغرى بمخالفة ما أشير به ، وإن كان فى غاية الوضوح ، سامحه الله ، ثم افترقوا على إتمام ذلك ، فمكثوا أياما يعالجونه حتى تم، وأعادوا مكان تلك الخرزات الست مثلها من خرز أسطوان نَقَضُوه من أساطين مسجد قباء ، فكان ذلك بقدر تلك الخرز سواء ، وأحكموا إعادتها بالرصاص وعمد الحديد أحسن إحكام .

وقد كنت أستبعد قدرتهم على ذلك ، وأتعجب من قيام بقية الأسطوان من أعلاه ، مع رفع أسفله ، وكونه كالجبل من الحجر والرصاص ، ولكن ساعدهم المدد المحمدى فى ذلك مع حسن معرفة المعلم المباشر لسبك الرصاص .

ثم كان ما تقدم من إعادة الصندوق المذكور والقائم فوقه إلى محلهما، ونقض الرخام المؤزَّر به جدار الحجرة الظاهر وتجديده كما تقدم ، وعند قلع رخام الصفحة

الآخرة من الزاوية الشمالية إلى الصفحة الشرقية مع ما يليها من صفحة المشرق عند منعطفها ظهر الشق المتقدم ذكره وهو انشقاق قديم سدّ الأقدمون خلله بكِسَر الآجر وأفرغوا فيه الجص و بيضوه بالقَصّة فانشقّ البياض من رأس وَزَرة الرخام إلى رأس الجدار المذكور ، فأرادوا اختبار ماتحت البياض ليعلموا قدره ، فقشروا البياض عنه ، وأخرجوا مافى خلله من الجص والآجر ، فظهر من خلله بناء الحجرة المربع الذى هو جوف البناء المخمس المذكور فظهر منه ملتقى حائطه الشامى وحائطه الشرقى ، وظهر هناك شق أيضا فى جدار الحجرة الداخل عند ملتقى الجدارين المذكورين تدخل اليد فيــه ، وهو قديم أيضا ، وقد سَدّه المتقدمون ، ثم اتّسع قليلا على دوام الأيام .

فلما كان عشية السبت ثالث عشر شعبان عَقَدوا مجلسا فى جوف المقصورة عند الجدار المذكور ، حضَره القضاة والمشايخ والخدام وشيخهم الأمير إينال ، وطلبونى لذلك المجلس ، فترددت فى الحضور لمـا قدمته ، ثم توضأت وصليت صلاة الاستخارة وسألت الله أن يلهمنى السّداد والصواب ، وحضرت فوجدت الأمر قد اتفق عليه ، وشاهدت ما قدمته من وصف ذلك ، ورأيت على ذلك البناء الداخل من الهيبة والأنس ما لا يوصف ولا يدرك إلا بالذوق ، وتحرّر لى أن سبب انشقاق الجدار الظاهر انشقاق الجدار الداخل وميلانه نحو الجدار الظاهر وكأن الأقدمين لما رأوا انشقاق الجدار الداخل ــ ولعل رؤيتهم لذلك والله أعلم عقب الحريق عند ما أحدثوا السقف المتقدم وصفه على الحجرة الشريفة ــ أدعموا الجدار الداخل بأخشاب جعلوها بين الجدار الداخل والخارج عنـد رأسهما فى شرقى الحجرة ، فمال الجدار الظاهر من أعلاه بحيث صار أعلاه لا يوازى أسفله ، وخرج بسبب ذلك عن الاستقامة ، فحدث فيه الشق المذكور ، ورأيت الحاضرين بين ساكت ومشير ، فترجح عندى سلوك رأى ابن عباس رضى الله عنهما فى أمر الكعبة ، حيث أشار بترميمها فقط ، ورأيت أن ما يطلب هنا من الأدب أوْجَبُ مما يطلب هناك ، فحاولت إدعام البناء الظاهر ببناء ، فلم أوافق عليه ، فسألت

مهندس العمارةُ ـ وكان أعرف الحاضرين بهذا الأمر ـ هل تحققت الآن إشراف هـذا الجدار على السقوط وأنه لا يتأتى تأخيره ، أم يحتمل التأخير مدة إذا رمَّ بالجص والآجر كما كان أوّلا فيؤخر إلى أن يصير غير محتمل للتأخير ؛ فإنه لا يفعل هنا إلا ما تدعو إليه الضرورة فى الحال؟ فقال : الترميم شىء وقطع الفرط شىء آخر ، ثم سأل متولى العمارة عن كيفية ما يكتب ليطالع به المسامع الشريفة، فقال له القاضى الزكوى قاضى الشافعية وأحد الناظرين سامحه الله تعالى : سَرِّح العمالَ غداً للهدم وكتابة المحضر علينا ، وخافَتَ متولى العمارة بالإنكار عليه فى إحضارى ، وحَثّه على الإعراض عن كلامى .

ثم إن متولى العمارة ذكر لى أنه رأى رؤيا فهمَ منها الهدم ، فصمَّم عليه ، ورأيت عنده من شجاعة الجَنَان وثبات الجأش فى هـذا الأمر ما لا يوصف ، وبلغنى أن بعض الناس ذكر له أن ما سبق من كلامى دليلٌ على ما كان قد ألقاه إليه من حرصى على أن لا تكون هذه العمارة على يده ، وأن لا يفوز بهذه المنقَبَة العظيمة التى لم يسبق إليها ، ومَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ ، ولـكنى أُشْهِدُ الله ورسوله على أنى لم أرد سوى محض الوفاء بما أوجبه الله علينا من الأدب مع حبيبه صلى الله عليه وسلم ومن بذل النصيحة .

ثم فى صبيحة الرابع عشر من شعبان المذكور شَرَعُوا فى هدم المحل الشريف المتقدم ذكره من الجدار الظاهر ، فهدموا جانبا من الصفحة الشرقية وجانبها مما يليها من الصفحة المنحرفة منها إلى جهة الزاوية الشمالية ، وسَعَة ذلك خمسة أذرع بذراع اليد ، وذلك من بعد نحو أربعة أذرع من الأرض إلى رأس الجدار المذكور ، فظهر حينئذ هَدْم الحريق الذى فى الفضاء الكائن بين جدارى الحجرة الشريفة ، ورأينا فيه كثيراً من الأخشاب المحترقة قد سلم من بعضها قدر الذراع ونحوه .

ثم فى خامس عشر الشهر المذكور حضروا لتنظيف ذلك ، وتوجه متولى

العمارة لشيخنا العارف بالله تعالى سيدى شهاب الدين الأبشيطى قدس الله روحه ، وسأله فى الحضور للتبرك به ، فحضر من خارج الجدار ، وامتنع من الدخول وقرأ الفاتحة ، وقال : نظفوا على بركة الله ، ثم انصرف وقال لى بعد ذلك : ذكروا لنا أن هَدْم ذلك ضرورى ، فقلنا لهم : الضرورى يعمل ، فلما دخلوا لإزالة ذلك شاهدت أمرا مَهُولا من رَدْم الحريق بحيث لم يتأتّ إزالته إلا بالعَتَل والمَسَاحى ، وتحققْتُ بسبب ذلك عذرَ من أدرك زمن الحريق فى عدم إزالة مابالحجرة الشريفة منه كما قدمناه ، وكان ارتفاعه فى ذلك المحل نحو القامة ، وهو رَدْم من السقف الأعلى وجص وآجر من الجدار الذى كان بأعلى سقف المسجد لتمييز الحجرة الشريفة عن غيرها ، كما تقدم بيانه ، ومما كان على رؤوس الأساطين ومما احترق من أخشاب ذلك ، فاشتغلوا بتنظيفه وتزاحم الناس عليه فاستمروا فى ذلك حتى بلغوا فى تنظيفه الأرض القديمة ، بحيث ظهر تحصيبُ ذلك المحل بحصباء تشبه مافى المسجد ، غير أنها قد اسْوَدَّت من نَدَاوة الأرض ، واعتبرتُ التفاوتَ بين الأرض المرخمة خارج الجدار الظاهر والأرض المذكورة بداخله ، فكانت الأرض المذكورة — أعنى الداخلة بين الجدارين — أخْفَضَ من الخارجة بذراع وثلث بذراع اليد ، وظهر من وصف البناء الداخل ماقدمناه فى الفصل الثانى والعشرين من كونه مربعا بأحجار منحوتة عليها أبهة عظيمة ، وأن الصفحة الغربية منه مُلاَصِقة للصفحة الغربية من البناء الظاهر ، وليس بينهما ولا مغرز إبرة ، وأنه لا بابَ فيه ولا موضع باب ، وفى الصفحة الشمالية لاصق بها الأسطوان التى قدمنا وصفه ، وأن بعضه داخل فى الصفحة المذكورة ، وقد أثر فيه الحريق كما قدمناه حتى تشطب بعضه سيما فى أعاليه وهو فى صف مربعة القبر يليها من جهة المشرق .

وتبين حينئذٍ ما فى الجدار الداخل من الانشقاق المتقدم وصفه فى شماليه مما يلى المشرق ، فأدخلوا فيه شمعة ، فشاهدوا فيما يقابله من الجدار القبلى مما يلى

المشرق أيضاً انشقاقا مثله ، وتبين لى أن البناء المتقدم وصفه بين الجدارين القبليين فى موازاة الأسطوانة الظاهرة فى الجدار القبلى التى يقف عندها المسلّم على عمر رضى الله عنه إنما جعل إدعاما للجدار المذكور لما حدث به ذلك الانشقاق، وظهر ما أدعموا به من الأخشاب بين الجدار الداخل والخارج فى جهة المشرق على ما قدمناه ، فتردد متولى العمارة فى نقب الجدار الشامى لإحكام ذلك الشق وترميم الشق المقابل له .

ثم عزَم على هدم الجدار المذكور ـ أعنى جدار الحجرة الداخل من جهة الشام ـ بأجمعه ، فبدأ برفع السقف الذى وجد على الحجرة نفسها كما قدمناه ، وحينئذٍ ظهر لهم ساحة الحجرة الشريفة ، وستر الله تعالى القبور الشريفة عن الأعين بالردم ، ثم علمت أن هذ الموطن يطلب فيه من التثبت والأدب التام مالا يطلب فى غيره ، فانصرفت عازما على أن لا أحضر معهم ما داموا فى تعاطى الهدم وأن أحضر معهم فى البناء . ثم أفاضوا فى عَقْد قبة سُفْلية على جدار الحجرة الداخل رعاية الإتقان والإحكام فكرهت ذلك لعلمى أنه يجر إلى هَدْم معظم الحجرة مع ما فيه من تغيير الهيبة الأولى

ثم فى حادى عشر شعبان المذكور أجمعوا أمرهم على ذلك ، فشرعوا فى هَدْم الجدار الشامى والشرقى من البناء الداخل، فوجدوا فى الجانب الذى يلى المغرب من الجدار الشامى ، وكذا فيما يقابله من القبلى ، وكذا فى الغربى عند ما هَدَموا أسفل السترة المبنية على السقف المحترق بين فصوص الأحجار وأعلاها مع رأس الجدر المذكورة لَبِناً غير مَشْوى طولُ اللبنة منه أرجح من ذراع وعرضه نصف ذِراع ، وسمكه ربع ذراع، وطولُ بعضه وعرضه وسمكه واحد وهو نصف ذراع، ولم يجدوا مثل ذلك فى الجدار الشرقى ، ولا فيما يليه من الشامى والقبلى ، وقد عاب بعضُ الناس على الأقدمين فى وضعهم ذلك فى الجدار ، ونَسَبهم به إلى التقصير ، وربما قال: إن

البنائين زمن الوليد لما أمر ببناء المسجد على يد عمر بن عبد العزيز كانوا كفارا ، وإن ذلك من غشهم ، وهذا جهل من قائله .

وقد قدمنا من شرح حال بناء الحجرة ما فيه كفاية ، وتقدم أن عمر بن الخطاب أو ابن الزبير هو البانى للحجرة على ما رواه ابن سعد ، ولو سلم أن تلك البناية فى ولاية عمر بن عبد العزيز للعمارة المتقدمة فهو أتقى لله من أن يهمل قبر نبيه بيد الكفار حتى يغشوا فى بنائه بمثل ذلك . وقد ظهر لى فى ذلك أن السلف لما بنوا الحجرة الشريفة بالأحجار لقصد الإحكام والبقاء ، وكان ما عدا الأساس منها مبنيا باللبن فى عهده صلى الله عليه وسلم كما يؤخذ مما قدمناه ، فرأوا أن لا يخلو بناؤهم من بركة ذلك اللبن ، فوضعوا منه ما رأوا فيه الصلابة بين الأحجار المبنية بالقصة ، ولولا إتقان ذلك البناء لما مكث هذه المدة المديدة ، والعجب أن الخلل والانشقاق لم يحصل إلا فى الناحية الخالية منه ، وقد قدمنا أن الذى يظهر أن تلك الناحية سقطت وأعيدت ، واختلاف البناءين شاهد بذلك ، حتى إن الجدار الشرقى لم يكن مبنيا بالحجارة الموجهة إلا من داخله دون خارجه ، وعرض منقبته أقل من عرض بقية الجدر . ولما بلغوا فى هدم الجدار الشامى أرض الحجرة الشريفة شرعوا فى تنظيف الردم الساتر للقبور الشريفة ، وذلك فى صبيحة الثالث والعشرين من شعبان المذكور ، ومكثوا فى ذلك إلى غروب الشمس مع كثرتهم حتى بلغنى أن الحجرة الشريفة امتلأت بهم ، ولم يخصوا مكانا دون مكان ، فظنوا أن القبر الشريف النبوى قريبا من وسط الحجرة ، وليس كذلك كما سنبينه ، ووضعوا ما أخرجوه من الردم عند طرف المسقف الغربى فى زاويته المتصلة بسقف الدكاك ، وبنى عليه متولى العمارة تلك الدكة البارزة هناك . ثم وفى القضاى الزكوى بما وعد به متولى العمارة من كتابة المحضر ، وكتب فيه أهل المدينة ، ولم أكتب فيه ، واعتذرت بأنه لم يسبق لى عادة بمثل ذلك ، و بعثوا به إلى مصر المحروسة ، فلما كان فى صبيحة الخامس والعشرين من الشهر المذكور بعث إلىّ

متولى العمارة لأتبرك بمشاهدة الحجرة الشريفة بعد تنظيفها ، وصار قائل يقول : ظهر القبر الشريف ، وقائل يقول : لم يجدوا لجميع القبور الشريفة أثراً ، فحثني داعى الشوق وغلبة الوجد ، واستحضرت ما وقع لبعض السلف من سؤاله لعائشة رضى الله عنها أن تُرِيَه القبورَ الشريفة ، وغير ذلك مما سبق ومما سيأتى فى باب الزيارة ، ووصف السلف للقبور الشريفة ، وذكرهم ذرع الحجرة الشريفة وكيفيتها كما تقدم ، فعزمت على الإقدام ، وتمثلت بقول بعضهم :

ولو قيل للمجنون أرض أصابَهَا غبارُ ثَرَى ليلى لجَدَّ وأسرعا
لعـــلّ يرى شيئاً له نِسْبة بها يُعَلِّلُ قلباً كاد أن يتصدعا

فتطهرت وتوجهت لذلك مستحضرا عظيم ما توجهت إليه ، وموقع المثول ببيت أوسع الخلق كرما وعفوا ، وذلك هو المعول عليه ، واستحضرت قول بعضهم :

عَصَيْتُ فقل لى كيف ألقى محمدا ووَجْهى بأثواب المعاصى مبرقع

ثم أنشدت الذى يليه :

عَسَى الله مِنْ أجْلِ الحبيب وقُرْبه يُدَاركنى بالعفو فالعفو أوسع

وسألت الله أن يمنحنى حسنَ الأدب فى ذلك المحل العظيم ، ويلهمنى ما يستحقه من الإجلال والتعظيم ، وأن يرزقنى منه القبول والرضى ، والتجاوز عما سلف ومضى ، فاستأذنت ودخلت من مؤخر الحجرة ، ولم أتجاوز ذلك المحل ، فشمِمْتُ رائحة ما شممت فى عمرى رائحةً أطيب منها ، ثم سلمت بوجَل وحَيَاء ، على أشرف الأنبياء ، ثم على ضجيعيه خلاصة الأصفياء ، ودعوت بما تيسر من الدعوات ، وتشفعت بسيد أهل الأرض والسموات ، واستنزلت به فى بيته من الأزمات ، واغتنمت هذه الفرصة فى جميع الحالات ، ولله در القائل :

تمتّعْ إن ظَفِرْتَ بنيل قرب وحَصِّلْ ما استطعت من ادّخار
فقد وسّعت أبوابَ التدانى وقد قَرَّبْتُ للزوار دارى

وقد هَبَّتْ نُسَيْمَاتٌ لنجد　فَطِبْ واشْرَبْ بكاسات كبار
فما وَقْتٌ يمــــرُّ بمستعاد　وما دار الأعزَّة بالقـــرار
فودِّعْ أرضَ نجدٍ قبـــل بعد　فما نجدٌ لمرتحِـــل بدار
أقول لمن يمرُّ بأرض نجـــد　ويظفر من رباها بالديار
تزود من شميم عَـــرَارِ نَجْدٍ　فما بعـــد العشية من عَرَارِ
وقـــل أيضاً لمغتنم صفاء　على مَغْنًى يلوح لذى اعتبار
إذا العشرون من شَعْبان ولَّتْ　فواصِلْ شُرْبَ ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار　فإن الوقت ضاق على الصغار

فلما قضيتُ من ذلك الوطَر ، متعت عينى من تلك الساحة بالنظر ، لأتحف بوصفها المشتاقين ، وأنْشُرَ من طِيب أخبارها فى المحبين ، فتأملت الحجرة الشريفة فإذا هى أرض مستوية ، وتناولتُ من ترابها بيدى فإذا فيــه نَدَاوة وحصباء كالحصباء المتقدم وصفها بين الجدارين يظهر عند فحصه بالأصابع ، ولم أجد للقبور الشريفة أثراً ، غير أن بأوسط الحجرة موضعا فيه ارتفاع يسير جدا ، توهموا أنه القبر الشريف النبوى ، فأخذوا من ترابه للتبرك فيما زعموا ، ومنشأ ذلك الوهم جَهْلُ مَنْ كان هناك بأخبار الحجرة الشريفة ، وذلك المحل ليس هو القبر النبوى قطعا ، ولعله قبر عمر رضى الله عنه ؛ لأن الشافعى رضى الله عنه قد نص على أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما لحد له فى جدار القبلة .

قال الشافعى ، فيما نقله عنه الأقشهرى رداً على من قال إن النبى صلى الله عليه وسلم أدخل لقبره معترضا : هـذا من فحش الـكلام فى الأخبار ؛ لأن قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قريباً من الجدار ، وكان اللحد تحت الجدار ، فـكيف توضع الجنازة على عرض القبر حتى سُلَّ معترضا ؟ فدلَّ على أن هذا النقل غير صحيح ، انتهى .

وروى ابن عساكر عن جابر رضى الله عنه قال : رُشَّ قبر النبى صلى الله عليه وسلم

وكان الذى رش الماء على قبره بلال بن رباح بقربة بَدَأ من قبل رأسه حتى انتهى إلى رِجْليه ثم ضَرَّجه بالماء إلى الجدار ، لم يقدر على أن يدور من الجدار لأنهم جعلوا بين قبره و بين حائط القبلة نحوا من سَوْط .

وقال ابن سعد فى طبقاته : أخبرنا شُرَيح بن النعمان عن هشيم قال : أخبرنى رجل من قريش من أهل المدينة يقال له محمد بن عبد الرحمن عن أبيه قال : سقط حائط قبر النبى صلى الله عليه وسلم فى زمن عمر بن عبد العزيز — وهو يومئذ على المدينة فى ولاية الوليد — فكنت فى أول مَنْ نهض ، فنظرت إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا ليس بينه و بين حائط عائشة رضى الله عنها إلا نحو من شبر ، فعرفت أنهم لم يُدْخِلوه من قبل القبلة ، وعلى تقدير أن يكون ثَمَّ موضع بين القبر الشريف و بين جدار القبلة بحيث يتأتى إدخاله صلى الله عليه وسلم من ناحية القبلة فلا يكون ذلك الموضع محل القبر الشريف ؛ لبعده من جدار القبلة جدا . وفيما رواه ابن زَبَالة ويحيى من خبر عبد الله بن محمد بن عقيل فى قصة سقوط جدار الحجرة الشريفة المتقدم ذكره أن عمر بن عبد العزيز قال لمزاحم لما دخل : يا مُزَاحم كيف ترى قبر النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قال : متطاطيا ، قال : فكيف ترى قبر الرجلين ؟ قال : مرتفعين ، قال : أشهد أنه رسول الله .

وقد قدمنا من وصف داخل الحجرة وذكر ذَرْعها ما فيه كفاية .

وقد تأملت التفاوت بين أرض الحجرة الشريفة و بين أرض الفضاء الخارج بين الجدار الشامى الداخل وزاوية الجدار الخارج فوجدتُ أرضَ الحجرة أنْزَل منه بنحو ذراع ونصف ، وتقدم أن أرض الفضاء المذكور أخْفَضُ مما حول الحجرة من المسجد بذراع وثلث ، فيكون التفاوت بين داخل أرض الحجرة وأرض المسجد نحو ثلاثة أذرع .

وتأملت آثار رَدْم الحريق فى الجدران فرأيته فى بعضها نحو ثلاثة أذرع ، وفى بعضها نحو ذراعين ، وأخبرنى المباشرون لإخراجه بذلك أيضا .

ثم هدموا من الجدار القبلي مما يلي المشرق جانبا نحو أربعة أذرع وشيء ، حتى بلغوا به أرض الحجرة .

وهدموا أيضاً جانبا من الجدار الغربي مما يلي الشام حتى بلغوا به الأرض أيضاً ، وذلك نحو خمسة أذرع منه ، فَعَلُوا ذلك ليتأتى لهم إحكام القبة التي أجمعوا أمرهم عليها ، ولم يبق من أركان الحجرة الشريفة سوى مجمع جدار القبلة وجدار المغرب .

ثم إنهم هدموا من علو ما بقي من الجدارين المذكورين نحو خمسة أذرع ، ولم يبق من بناء الحجرة الأصلي إلا ما فضل منهما .

ووجدوا عند هدم مبدأ الجدار القبلي من أعلاه ميزابا قد احترق بعضه من جهة ما كان في بناء الجدار ، وبقي منه نحو الذراع ، وهو من عَرْعَر له رائحة ذكية ؛ وسَعَة مجرى الماء فيه نحو أربعة أصابع أو خمسة ، كأنه كان ميزابا للحجرة الشريفة قديماً فحرص الأقدمون على ما بقي منه بعد الحريق ووضعوه بين السترة التي أحدثوها لأجل السقف وبين رأس الجدار ، فجزاهم الله خيرا .

ولما أعيد بنا الحجرة حَرَصْتُ على أن يُعَاد فيها ، فوعدني متولي العمارة بذلك ، فلما كان عند ختم البناء سألته عنه ، فذكر لي أنه جعله في البناء الآتي ذكره في أعلى الجدار الشامي بين ما بقي من لَبِنِ الحجرة وليّس عليه بطين ذلك اللبن .

ثم عند الشروع في إعادة بناء الحجرة اقتضى رأيهم إدخال الأسطوان المتقدم وصفه خلف جدار الحجرة الشامي لتشققه فزادوا في عرض ذلك الجدار من الرحبة المثلثة الشكل المتقدم وصفها بين الجدارين ، وكان الشروع في إعادة بناء الحجرة في سابع عشر شعبان المذكور ، فابتدؤا بالجدار المذكور ، وأوصلوه بالجدار الغربي ، وأعادوا ذلك بأحجار الحجرة التي نقضوها منها ، ثم رأوا أن إحكام القبة التي عزموا عليها يقتضي تربيع محلها ، بحيث لا يزيد طوله على عرضه . وقد قدمنا في

ذرع الحجرة مايقتضى عدم ذلك ، فعقدوا قبْواً على نحو ثلث الحجرة الذى يلى المشرق والأرجل الشريفة ، وجعلوا الجدار الخارج من جهة المشرق متصلا بجدار الحجرة الداخل ، فأدخلوا ما كان بينهما فى جدار القبْو المذكور إلى نهاية ارتفاعه ، وكذا فعلوا فيما كان بين الجدار القبلى الداخل والخارج ، سَدُّوه أيضاً بالبناء حتى لم يبق حول البناء الداخل فضاء إلا ما بقى من الرحبة المثلثة الشكل فى جهة الشام وصار علو القبة المذكور فضاء أيضاً بين القبة و بين الجدار الظاهر فى جهة المشرق وعَقَدوا القبة المذكورة على ما بقى من الحجرة ، وهو ما يلى المغرب منها فى جهة الرؤس الشريفة ، وحاول بعض الناس أن يكون عقد القبة بالآجر ، فكرهت ذلك لما لا يخفى ، فاجتنبه متولى العمارة جزاه الله تعالى خيراً ، وعقدَها بالأحجار المنحوتة من الحجر الأسود ، وكملها بالأبيض ، وأخبرونى أن ارتفاع القبة المذكورة من داخل أرض الحجرة الشريفة إلى محدَّب القبة المذكورة — وهو أعلاها المغروز فيه هلالها — اثنا عشر ذراعا بذراع العمل ؛ فيكون بالذراع المتقدم وصفه ثمانية عشر ذراعا وربع ذراع .

ومن أرض الحجرة أيضاً إلى نهاية القبْو الذى بنى عليه أحد حوائط القبة المذكورة ثمانية أذرع وشىء بذراع العمل ، وذلك نحو أحد عشر ذراعا بالذراع المتقدم وصفُه ، وارتفاع حائط القبة الشرقى — وهو الذى يلى القبو المتقدم وصفه — عن طرف القبو الذى بنى عليه الحائط المذكور ذراع وثلثان بذراع العمل ، وذلك ذراعان ونصف راجح بالذراع المتقدم وصفه ، وصار ما بين حائط القبة المذكور و بين حائط الحجرة الظاهر فى جهة المشرق — أعنى سطح القبو المذكور وما اتصل به — كما كان بين الجدارين ، وأدخل فى عرض الجدار رحبة واحدة تحيط بها من المغرب حائط القبة المتقدم وصفه ، ومن المشرق حائط الحجرة الظاهر ، ومن القبلة حائط الحجرة الظاهر أيضاً ، ومن الشام سترة بنيت له فيما بين جدار القبة الذى يليه وجدار الحجرة الظاهر فى المشرق .

وذَرْع هذه الرحبة المذكورة بسطح القبو المذكور طولا من القبلة إلى الشام سبعة أذرع ونصف سدس ذراع بذراع العمل ، وذلك أحد عشر ذراعا بالذراع المتقدم وصفه .

وذَرْعُها عرضا مختلف : فما يلي القبلة ذراعان ونصف بذراع العمل ، ومما يلي الشام نحو الثلاثة .

وأما جدار القبة الشامي فقد تقدم أنهم زادوا في عرضه من الرحبة خلفه وجعلوه أيضاً متفاوت العرض ؛ فجعلوا ما يلي المشرق منه ــ وهو الموضع المحاذي للأسطوانة التي وقعت الزيادة في العرض لأجل إدخالها و إدعامها بذلك ــ أزيد من الجهة التي تلي المغرب منه بنحو نصف ذراع ؛ فإنهم جعلوا عرض الجدار في هـذه الجهة من أسفل عقد القبة نحو ثلاثة أذرع بذراع اليد ، وعرضه في الجهة الأخرى دون ذلك بنحو نصف ذراع ، بحيث صارت جهة الأسطوان المذكور بارزة عن بقية ذلك الجدار في الرحبة المذكورة كما سيأتي تصويره .

وقد جعلوا على رأس هذا الجدار بناء يسيرا مما بقي من اللبن الذى أخرج من بعض جدار الحجرة كما تقدم وصفه ، بعد أن تفرق اللبن المذكور ، وأخذ الكثير منه .

وتركوا في نحو وسط هـذا الجدار خَوْخَة ، فلما لم يبق إلا هي أدخلوا منها شيئاً كثيراً من الحصباء جاءوا بها من عَرْصَة العقيق من جنس حصباء المسجد بعد غَسْلها بالماء ليَضَعُوها على القبور الشريفة ، وكنت قد ذكرت لبعضهم أن موضع القبر الشريف النبوى مما يلي الجدار القبلي ، وأنه يستنبط مما قدمناه في مسمار الفضة المحاذي للوجه الشريف أن أول القبر الشريف من جهة المغرب على نحو ذراعين بذراع اليد من الحائط الغربي ؛ لأنا إذا أسقطنا عرض الجدارين الغربيين ــ وهما الجدار الداخل والخارج ، وهو نحو ثلاثة أذرع مما بين المسمار وأول الجدار الظاهر الغربي وهو نحو خمسة أذرع كما تقدم ــ كان الباقي نحو

الذراعين إلى الرأس الشريف ، فاستحسن ذلك ، فحضر معهم لما دخلوا من الخَوْخَة المذكورة لوضع الحَصْباء على القبور الشريفة ، فوضعوا ذلك على المحل الشريف المذكور كما وصفت ، وأخذوا بالهيئة المشهورة فى كيفية القبور الشريفة مِنْ أن رأس أبى بكر رضى الله عنه خلفَ مَنْكِب النبى صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر رضى الله عنه خلف منكب أبى بكر ، فوضعوا الحَصْباء عليهما كذلك وكان بعض المباشرين لذلك حَنَفيا ـ وهو صهر متولى العمارة ـ فجعلها مُسَنَّمَه ، وذلك بعد أن أكثروا فى الموضع المذكور من البَخُور بالعُود والعَنْبر وغيرهما من أنواع الروائح ، وعَرْفُ المحل الشريف على ذلك كله راجح فائح ، ولله در القائل :

بطيب رسول الله طابَ نسيمُها فما المِسْكُ ما الكافور ما المَنْدَلُ الرَّطْبُ

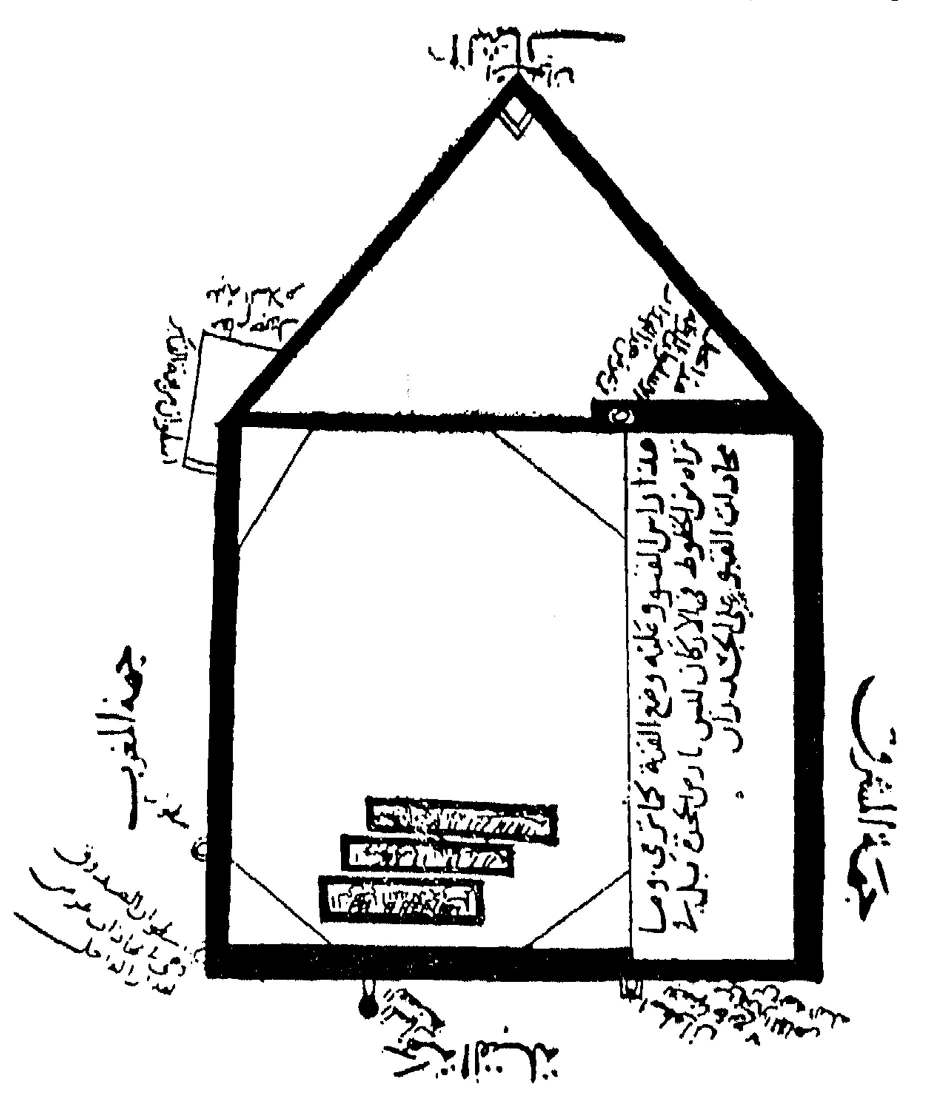
وألقى جماعة من الناس من تلك الخَوْخَة أوراقا كتبوا فيها التشفع بالنبى صلى الله عليه وسلم ومآربِ يسألونها بالحجرة الشريفة ، ثم سدوا الخوخة المذكورة ، وأحكموا بناءها كبقية الجدار ، و بيضوا القبة المذكورة وجميعَ جدرانهما من خارجها بالجص ، وجاءت حسنة فاضَ عليها أنسُ المحل الشريف ، ونَصَبُوا بأعلاها هلالا من نحاس يظنه الرائى ذهبا ، وهو قريب من سقف المسجد الأول ؛ فإن القبة المذكورة تحته ، ثم سدوا مابقى من نقب الجدار الظاهر ، وحضرتُ معهم فى ذلك الوقت ، وحضرت أيضا بعض بناء الحجرة الشريفة ، وتبركت بالعمل فيه ، ولم أحضر غير ذلك طلبا للسلامة ، وأنشدت فى ذلك المحل الشريف قصيدتى التى تطفلت بها على واسع كرم الجناب الرفيع الحبيب الشفيع الحالّ بذلك الحِمَى المنيع ، التى أولها :

قف بالديار لحى فى ذرى الحرم وحَىِّ هذا المُحَيَّا من ذوى إضَمِ

وكان الفراغ من ذلك وخَتْمُ بناء الجدار الظاهر فى يوم الخميس المبارك سابع شوال من السنة المذكورة ، وأصرفوا فى ذلك وفى غيره من عمارات المسجد و إعادة مَنَارة مسجد قباء وتجديد بعض سقفه و إحكام مصرف المياه التى كانت تجتمع

حول المسجد عند كثرة الأمطار ما لا جزيلا ، ومن أعظم ذلك نفعاً ما جعل لمصرف المياه المذكورة كما سيأتى وصفه فقد عم نفعه ، وذلك كله فى الصحائف الشريفة السلطانية الأشرفية ، أعز الله أنصارها ، وأعلى فى سلوك العدل منارها ، على يد متولى العمارة الجناب الشمسى المتقدم ذكره ضاعف الله تعالى حسناته .

وهذا تصوير ما استقر عليه الأمر من هذه العمارة فى صورة الحجرة المشرفة والقبور الشريفة بها :



ثم حدث بعد الحريق الثانى عنـد إنشاء القبة الثانية التى جعلوها بدلا عن القبة الزرقاء المتقدم ذكرها تأسيسُ دعامة وعقدٍ فى جهة المغرب عند مقام جبريل

عليه السلام متصل بجدار الحجرة الظاهر من أعلاه وأسطوان وعقد فى مقابلة ذلك فى المشرق متصل بالجدار الظاهر أيضاً فى جهة المغرب .

الفصل التاسع والعشرون

فى الحريق الحادث فى زماننا بعد العمارة السابقة وما ترتب عليه .

ألحقته هنا مع إلحاق ما تقدمت الإشارة إليه فى الفصول السابقة ؛ لحدوثه بعد الفراغ من مسودة كتابنا هذا لأنى توجّهتُ إلى مكة المشرفة للاعتمار أول شهر رمضان عام ست وثمانين وثمانمائة ، فورَدَ على بها عدةُ كتبٍ من الصادقين فى الخبر ، وشافهنى من شاهد الأمر والأثر ، بما حصل من الخطب العظيم ، والرزء الجسيم ، باحتراق المسجد النبوى أول الثلث الأخير من ليلة الثالث عشر من شهر رمضان ، وذلك أن رئيس المؤذنين وصدْر المدرسين الشمسى شمس الدين محمد ابن الخطيب قام يُهَلِّلُ حينئذٍ بالمنارة الشرقيـة اليمانية المعروفة بالرئيسية ، وصَعِدَ المؤذنون بقية المنائر ، وقد تراكم الغيمُ فحصل رعد قاصف أيقظ النائمين ، فسقطت صاعقة أصاب بعضُها هلالَ المنارة المذكورة ، فسقطت فى المسجد وله لهب كالنار ، وانشق رأسُ المنارة ، وتوفى الريّس المذكور لحِينهِ صَعِقاً ففَقَد مَنْ كان على بقية المنائر صوته ، فنادوه فلم يجب ، فصعد إليه بعضهم فوجده ميتا ، وأصاب مانزل من الصاعقة سقفَ المسجد الأعلى بين المنارة الرئيسية وقبة الحجرة النبوية فثقبه ثقبا كالترس ، وعلقت النار فيه وفى السقف الأسفل ، ففتح الخدام أبواب المسجد قبل الوقت المعتاد وقبل إسراجه ، ونودى بالحريق فى المسجد ، فاجتمع أمير المدينة وأهلُها بالمسجدالشريف ، وصَعَدَ أهلُ النجدة منهم بالمياه لإطفاء النار ،وقد التهبت سريعاً فى السقفين ، وأخذت لجهة الشمال والمغرب ، فعجزوا عن إطفائها ، وكلما حاولوه لم تزدد إلا التهابا واشتعالا ، فحاولوا قطعها بهَدْم بعض ما أمامها من السَّقْف، فسبقتهم لسرعتها ، وتطبق المسجد بدخان عظيم ، فخرج غالبُ مَنْ كان به ، ولم يستطيعوا المكث ؛ فكان ذلك سببَ سلامتهم ، وهرب مَنْ كان

بسطح المسجد إلى شماليه ، ونزلوا بما كان معهم من حبال الدّلاء التى اسْتَقَوْا بها الماء بخارج المسجد على الميضأة والبيوت التى هناك وما حول ذلك ، وسقط بعضهم فهلك ، ونزل طائفة منهم إلى المسجد من الدّرَج فاحترق بعضهم ولجأ بقيتهم إلى صحن المسجد مع مَنْ حالت النار بينه و بين أبواب المسجد ممن كان أسفل ، ومنهم صاحبنا الشيخ العالم صدر المدرسين الشمسى شمس الدين محمد بن المسكين المعروف بالعوفى ، فمات بعد أيام لضيق نفسه بسبب الدخان مع توعُّك سابق ، رحمه الله تعالى ! واحترق من الخدام الزينى شند نائب خازن دار الحرم ، تغمده الله برحمته ! ومات جماعة تحت هَدْم الحريق من الفقراء وسُودَان المدينة ، وجملَةُ من مات بسبب ذلك بضع عشرة نفسا ، وكانت سلامة من بقى بالمسجد على خلاف القياس ؛ لأن النار عظمت جدا حتى صارت كبحر لجى من نار ، ولها زفير وشهيق وألسُنٌ تصعد فى الجو ، وصار لفحها يؤثر من البعد حتى أثرت فى النخلات التى بصحن المسجد ، وعلق منها شىء بالمنارة الرئيسية فاحترقت ، ووصلت النار لثياب الريّس شمس الدين محمد رحمه الله تعالى فاحترقت بعد موته ، وصارت النار ترمى بشَرَر كالقَصْر فتسقط بالبيوت المجاورة المسجد ، ومع ذلك فلا تؤثر فيها ، حتى سقط بعض الشرر على سَعَف فلم يحترق ، وحمل بعض خزائن الكتب من تحت سقف المسجد إلى صحنه فأصابها الشرر فأحرقها .

ونقل عن جَمْع كثير أنهم شاهدوا حينئذٍ أشكال طيور بيض كالإِوَزّ يَحُومُون حول النار كالذى يكفها عن بيوت الجيران .

وأخبر أمير المدينة الشريفة السيد الشريف زين الدين فيصل الجازى أن شخصا من العرب صادق الكلام رأى فى المنام ليلة ثانى عشر من شهر رمضان أن السماء فيها جَرَاد منتشر ، ثم عقبته نار عظيمة ، فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم النار وقال : أمْسِكْها عن أمتى ، فجزاه الله عن أمته — خصوصا عن جيرانه — أفضَلَ ما جزى نبياً عن أمته

وحكى أيضا عن بواب رباط السبيل أنه ذكر مثل تلك الرؤيا عن غيره ، كتب لى بذلك صاحبنا العلامة شيخ المحدثين بالحرم النبوى الشيخُ شمسُ الدين بنُ شيخنا العلامة ناصر الدين العثمانى أمتع الله به

هذا مع ما حصل لأهل المدينة الشريفة من الدَّهْشة العظيمة والحيرة لما شاهدوا من هول هذه النار ومنظرها الفظيع ، حتى أيقن بعضهم بالهلاك ، وانتقل بعض أهل الدور منها لما وصل إليهم الشَّرَر ، وخرج بعضهم من باب المدينة الذى يلى البَقيع ، و بعضهم من بابها الذى يلى المصلى ، وظنوا أن النار محيطة بهم . قال الشمس العثمانى : وصار لجيع المدينة من جميع جهاتها بالبكاء ضَجيج ، و بالدعاء عَجيج ، قال : وأمر هذه النار عجيب ، وليس الخبر كالمعاينة ، وصار المسجد كالتَّنُّور ، ولم يمض إلا أقل من عشر دَرَج وقد استولى الحريق على جميع سقف المسجد وحواصله وأبوابه وما فيه من خزائن الكتب والربعات والمصاحف ، غير ما وقعت المبادرة لإخراجه أولا وهو يسير ، وغير القبة التى بصحن المسجد ، وسبق ذكر سلامتها فى الحريق الأول ، وكنت تركت كتبى بالخَلْوة التى كنت أقيم بها فى مؤخر المسجد ، فكتب إلىّ باحتراقها ، ومنها أصْلُ هذا التأليف وغيره من التآليف والكتب النفيسة نحو ثلاث مائة مجلد ، فمنّ الله تعالى علىّ ببرد الرضى والتسليم ، وفراغ القلب عن ذلك ، حتى ترجحت هذه النعمة عندى على نعمة تلك الكتب لما كنت أجِدُه قبل من التعلق بها؛ فلله الحمد والشكر على ذلك . هذا ، مع ما منّ الله به على من غيبتى عن هذا الأمر المَهُول ؛ فإن وقوعه كان فى ليلة الوصول إلى الحرم المكى ، ولم يتفق لى منذ سكنت المدينة الخروجُ منها فى رمضان ، بل كنت ألازم المسجد النبوى فيه من أوله إلى آخره ليلا ونهارا ، فكان ذلك سبَب النجاة من هذا الأمر

ولما اشتعلت النار فى السقف المحاذى للحجرة الشريفة ذاب الرصاص من القبة التى بسقف المسجد الأعلى ، واحترقت أخشابها وما يحاذيها من السقف الأسفل

والشباك الدائر على حائز عمر بن عبد العزيز الذى تعلق الـكسوة بأعلاه ، وسقط ما سقط من ذلك على القبة السفلى التى تقدم تجديدها ، فلما أصبحوا بدأوا بطفى ما سقط على القبة المذكورة ، واستمروا فى ذلك إلى آخر النهار ، فسلمت القبة المذكورة مع أن بعضها من الحجر الأبيض الذى يُسْرع تأثره بالنار ، وذلك من المعجزات النبوية ؛ لأن كثيرا من أساطين المسجد الشريف سقطت لما ذاب بعضُ رصاصها وتهشمت وهى من الحجر الأسود ، ومع ذلك تفتت كأنه أحجار النورة ، وعدة ما سقط منها مائة و بضع وعشرون أسطوانا ، ومابقى منها فقد أثرت فيه النار أثرا بينا ، وسلمت الأساطين اللاصقة بجدار الحجرة أيضا ؛ فالحمد لله على حماية الحجرة المنيفة ، الحاوية للقبور الشريفة ، واحترقت المقصورة التى كانت حول الحجرة الشريفة والمنبر الشريف وما كان أمام المصلى المنيف بالروضة الشريفة من الصندوق وما عليه من المحراب المتقدم وصفه ، وسقطت أكثر عقود المسجد ، وما بقى منها فهو آيل إلى السقوط ، وسقط علو المنارة الرئيسية ، ثم خَشُوا من سقوط بعض ما بقى منها فهدموا نحو ثلثها ، وكتبوا إلى سلطان مصر مولانا الأشرف سلطان الحرمين الشريفين قايتباى أيد الله أنصاره بذلك سادس عشر رمضان ، واقتضى رأى نائب الناظر سد أبواب حواصل المسجد حتى القبة التى بوسطه المرصد فيها زيت مصابيحه ، وترك الردم على حاله حتى ترد الأوامر الشريفة فتضرر النـاس بذلك ، فاتفقت الآراء على تنظيف مقدم المسجد ماعدا ما جاور الحجرة الشريفة خوفا على ما سقط من حلية قناديلها ، مع أنها يسيرة كما يؤخذ مما سبق ، فجعلوا على ذلك حاجزا من الآجُرّ ، ونقلوا هدم مقدم المسجد إلى مايلى باب الرحمة من مؤخره ، وعمل فى ذلك أميرُ البلد والقضاةُ والأشراف وعامة الناس حتى الـكثير من النساء والأطفال تقربا إلى الله تعالى بغير أجرة ، ولم يتأخر عن ذلك إلا المخدّرات من النساء .

وبَنَوْا فى محل المنبر منبراً من آجر ، وصَلَّوْا بالمصلى النبوى من حينئذ ، وعملوا

لأبواب المسجد غير باب جبرائيل خوخاً يدخل منها ، وسدوا ما زاد على ذلك ، ونصب الخدام خياماً بالمسجد إذ لم يبق به ظل ، وصار بعض أهل الخير يُسْرِج قناديلَ متعددة من عنده فى المسجد مع توفر الزيت بحاصله ، لكن تعذر ذلك بسبب سَدِّه ، واستمرت النار فيما لم ينقل هدمه من المسجد حتى فيما حول الحجرة الشريفة وموقف الزائرين تجاه الوجه الشريف ، وأخبر بعضهم بمشاهدة الدخان يتصاعد من ذلك المحل الشريف بعد مدة ، وفى أثناء شوال أخبر قاضى المالكية شمسُ الدين السخاوى حفظه الله تعالى أنه رأى فى النوم من يقول له : أطفِئُوا النار من الحُجْرَة الشريفة ، يعنى الموضع الذى تركوا تنظيفه حولها ، فتفقدوا ذلك فوجدوا النار فى ثمانية مواضع ، فأطفؤوا ذلك ، ثم رأوا أن مادة هذه النار لا تنقطع إلا بتنظيف الرَّدْم ، فاجتمعت الآراء على ذلك بعد توقُّفٍ تام من نائب الناظر ، وعَيَّنُوا لتعاطيه من يثقون به من الخدام والفقهاء والفقراء ، وكان الصوابُ المبادرَةَ لذلك أولا ، ولكن على كل خير مانع ، ولا يدرى أحد أسرار ما الله فى عباده صانع ، ولما نظفوا ذلك وجدوا حلية الصندوق المَجْعُول فى جهة الرأس الشريف وجانباً من الكسْوَة و بعض البُسُط سالماً لسقوط الردم عليه ، ووجدوا القناديل التى كان التخوُّفُ فى تنظيف ذلك المحل لأجلها ، وأداروا على الحجرة الشريفة جداراً من الآجر فى موضع المقصورة المحترقة ، وجعلوا فيها شبابيك وطاقاتٍ وأبواباً ، وقام بمصروف ذلك بعضُ النساء المباركات وغيرها ، وسامح البناؤون بنصف أجرهم مع توفُّر المصروف بحاصل المسجد الشريف ، وأحضرت تلك المرأة أيضاً وغيرها كسوة للحجرة الشريفة من القماش الأبيض فجعلت عليها .

وفى ذلك كله عبرة تامة وموعظة عامة لأولى الأبصار ، وهو منذر بأمر عظيم ، ولهذا اختص به هذا المحل المَنْسُوبُ إلى النذير صلى الله عليه وسلم ، وقد ثبت أن أعمال الأمة تُعْرَضُ عليه صلى الله عليه وسلم ، فلما ساءت منا الأعمال

المعروضة ناسَبَ ذلك الإنذار بإظهار عُنْوَان النار المجازَى بها فى موضع عَرْضها ، ولم أزَلْ فى وَجَل مما يعقب ذلك حيث لم يحصل الاتعاظ والانزجارُ ، وقد قال تعالى : « وَمَا نُرْسِلُ بالآيات إلا تخْويفا » ، وقال تعالى «ذلك الذى يُخَوِّف الله به عباده يا عِبَادِى فاتقون » وكأن لسان القدرة ينادى : ألا تتعظون بما تَرَوْنَ وتسمعون ؟ ألا تنتهون وتنزجرون ؟ ألا ترون إلى هذا المحل الشريف مع عظيم نسبته وعلو رتبته ومكانته لما تَلَوَّثَ بآثاركم معشَرَ المذنبين،وتدنَّسَ بأقذاركم كافة الغافلين،أرسلت عليه بحراً من النار السماوية تطهرُهُ من تلك الآثار ، وتزجركم عن التمادى على الإصرار ، وموالاة أتباع الأوزار ، وتشهد بصائركم عموم القدرة ، فترسلون من الأبصار سَوَابق العَبْرة ، تأسفا على ما اجترحتموه قبل هذه العِبْرة ، فمن لم يَنْتَه بهذا الزاجر الفعلى عن إصراره ، ولم يَقْتبس من هذه النار العظيمة قَبَسا يهتدى بأنواره ، فلْيَنظر فيما حدَث عقيب حريق المسجد القديم ، ويتفكر فى ضعفه عن احتمال العذاب الأليم ، حَمَانا الله من ذلك ، وسلك بنا أجمعين أحسن المسالك .

ومن العجائب أنه لم يتأتَّ إخراج رَدْم هذا الحريق بعد نَقْله لمؤخر المسجد حتى حضر الحجَّاج من سائر الآفاق الزيارة، وشاهدوا هذه العِبْرَة العظيمة : ورأوا ما اجتمع من الردم كالآكام والتلول الجسيمة ، ثم قُبَيْلَ دخول الحاج مكةبالقَعْدَة الحرام من العام الثانى أرسل الله سَيْلا عظيما بمكة المشرفة ملأ ما بين الجبلين وعَلاَ جدار أبواب المعلى ، ودخل جوف الكعبة الشريفة ، وارتفع فيها أزيَدَ من قامة وهَدَم دوراً كثيرة يقال إنها تزيد على ألفى دار ، وذهب بسبب ذلك من الأموال والأنفس ما لا يُحْصيه إلا الله تعالى ، حتى أنهم ضَبَطوا من وجد تحت الردم بالمسجد الحرام فقط عند تنظيفه فكانت عدتهم نحو الثمانين ، وقيل أزيد من مائة ، ولم أقف فيما نقل من سيول الجاهلية والإسلام على مثل ذلك ، ولما نظفوا ذلك الردم ـ وهو أتربة ونقض هدم حملها السيل ـ لم يتأتَّ إخراجه قبل وصول

الحجاج وصار ذلك كالآرام والتلول العظيمة فى المسجد الحرام ، فحضر الحجاج كلهم وشاهدوا ذلك ، فسبحان مَنْ بيده الخلق والأمر لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

ولما وصـــل خبر الحريق لرودس من بلاد النصارى أظهروا بذلك فرَحاً واستبشاراً ، وتظاهروا بالزينة وضرب النواقيس ، فلم يمض ذلك اليومُ إلا وقد أرسـل الله عليهم زَلازل عظيمة هَدَمَتْ عليهم جانباً من سور البلد والـكنيسة وكثيراً من دورهم ، وهلك منهـم بذلك خلائق لا يُحْصَوْن ، ودامت الزلازل عليهم ، أياما ،شاهدتُ ذلك فى كتب وردت من ثغر إسكندرية بخط مَنْ يعتمد عليه ، وذكروا أن المخبر لهم بذلك أهلُ المراكب الواردة من رودس المذكورة ، وأنهم سافروا والزلازلُ مستمرة بها ، وهم يخرجون الموتى من تحت الهدم بعد انتقال مَنْ بقى إلى خارج البلد ، فتأمل هـذه المعجزات النبوية ، والآيات الربانية .

ولما وصل القاصد إلى مصر المحروسة ، واتصل علم الحريق المذكور بسلطانها، عَظُمَ ذلك عليه ، و برزت أوامره الشريفة بالمبادرة إلى تنظيف المسجد الشريف، ورأى أن فى تأهيل الله تعالى له لعمارة ذلك مزيد التشريف ، وكمال التعريف ، وأنه كرَامة من الله تعالى أكرمه بها ، وذخيرة يرجو الفوز بسببها ، فاستقبل أمر العمارة بهمة تعلو الهمم العلية ، ورَسم بإبطال عمائره المـكية ،و بتوجه شادها السيفى الأمير سنْقُر الجمالى صُحْبة الحاج الأول بزيادة على مائة صانع من البنائين والنجارين والنشارين والدهانين والحجارين والنحاتين والحدادين والمرخِّمين وغيرهم ، وكثير من الحمير والجمال ، وصحبته وصحبة أخيه المقر الأشرفى الشجاعى شاهين والأمير قاسم الفقيه شيخ الحرم الشريف مبلغ عشرين ألف دينار ، وشرع السلطان فى تجهيز الآلات والمُؤَن حتى كثرت فى الطُّور واليَنْبُع والمدينة الشريفة .

ثم جَهَّز متولى العمارة الأولى بالمدينة الشريفة ــ وهو الجناب العالى الخواجكى الشمسى شمس الدين بن الزمن ــ فى أثناء ربيع الأول وصحبته أكثر من مائتى

جمل ومن مائة حمار وأزيد من ثلثمائة من الصناع أهل الصنائع الأولى وغيرهم من الحمالين والمبيضين والسباكين والجباسين، وأصرفوا لهم شيئاً من الأجرة قبل سفرهم، وقد صارت أحمال المؤن متواصلة قلّ أن تنقطع براً و بحراً ، واستقبلوا أمر العمارة بجدّ واجتهاد ، فهدموا المنارة الرئيسية التي أصابها الحريق إلى أساسها ، وهَدَموا من ســور المسجد من ركن المنارة التي بباب السلام إلى آخر جدار القبلة وما يليه من المشرق إلى باب جبريل ، وما يلي المنارة من المغرب أيضاً إلى باب الرحمة ، وأعادوا المنارة الرئيسية وسور المسجد المذكور ، وزادوا في عرضه يسيراً ، ووسعوا المحراب العثماني ، وسقفوا مقدم المسجد سقفاً واحداً ، بعــد أن قصروا أساطينه وجعلوا عليها عقوداً من الآجر فوقها أخشاب السقف ، وكانت الأساطين المذكورة قبل ذلك واصلة إلى سقف المسجد كهيئة ما بقي من أساطينه في بقية المشرق والمغرب والشام ، وجعلوا على المحراب العثماني قبة على رؤوس الأساطين ، بعد أن قرنوا إلى كل أسطوانة ثانيةً ، وجمعوا في بعضها بين خمس أساطين ؛ ليتأتى لهم عقد القبة المذكورة ، وأزالوا الأسطوانة التي كانت في مُحاذاة الأسطوانة التي إليها المصلَّى النبوي بينها و بين المحراب العثماني ، وجعلوا على ما يُحَاذي الحجرة الشريفة وما حوله قبة عظيمة على دعائمَ بأرض المسجد وعقودا من الآجر بدلا عن القبة الزرقاء التي كانت قبل الحريق ، وكانت تلك على رؤوس السواري كما سبق في الفصل السابع والعشرين ، وقدمنا هناك ما حصل من ضيق المسجد من جهة المشرق بسبب ابتناء بعض تلك الدعائم هناك ، فخرجوا بجدار المسجد الشرقي ـ أعني ما حاذى ذلك منه ـ بنحو عرض الجدار في البلاط الشرقي ، وأبقوا الباب المعروف بباب جبريل في محله .

ثم أحدثوا أسطواناً في جانب مثلث الحجرة ليشتدَّ به العقدُ الذي عليه القبة في تلك الناحية ، وحفروا لذلك أساساً عظيما ظهر بسببه القبر المنسوبُ في أحد الأقوال لفاطمة الزهراء رضي الله عنها ، وزادوا دعامتين وعقدا إلى جانب الأسطوانتين

اللتين فى جهة الوجه الشريف ، ولم يبالوا بما حدث بسبب ذلك من الضيق فى الموضع المواجِهِ للوجه الشريف داخل المقصورة وغيره لخشيتهم من سقوط القبة المذكورة ، وكانوا قد وجدوا فى جدار المنارة الرئيسية عند هَدْمها خزانةً وضع الأقدمون بها أوراقَ المصاحف المحترقة فى الحريق الأول وسَدُّوا عليها ، فأخرجوا تلك الأوراق ووضعوها فى أعلى القبة المذكورة عند ختمها ، فبدأ فى القبة تَشَقّق ، فقيل لهم : إن ذلك بسبب وضع الأوراق المذكورة بها ؛ لأن الله تعالى يقول « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً مُتَصَدِّعاً من خشية الله » فأخرجوا تلك الأوراق منها ، فقضيتُ العجب من ذلك .

ومن الغريب أنى كنت قد عزمت على التوجه إلى أرض مصر لزيارة والدتى وأهلى قبل الشروع فى العمارة المذكورة ، فلم أحضر شيئاً من ذلك ، ومَن الله تعالى بالوصول إلى الوالدة والأهل ، فتوفيت الوالدة بعد قدومى بعشر ليالٍ ، وكانت مدة غيبتى عن أهلى ستة عشر سنة ، ثم مَنّ الله تعالى بالعَوْد إلى المدينة الشريفة بعد تعويض ما تدعو الحاجة إليه من الكتب المحترقة ، فوجدتهم قد عمروا القبة المذكورة ومقدم المسجد وعَقَدوا العقود المتصلة بهذه القبة من المشرق والشام ، وجعلوها قَبْوًا بدل السقف ، واتخذوا فيما بين الحجرة الشريفة والجدار القبلى قبة لطيفة ، وحولها ثلاثة أخر تسمى مجاريد ، وجعلوا بين عقود هذه القباب و بين المنارة الرئيسية التى أعادوها بادهنجا للضوء والهواء ، وكان باب المنارة المذكورة من جهة المغرب ، فنقلوه إلى جهة الشام ، وأحدثوا أمامه أربع دَرَجات بأرض المسجد ، و إلى جانبها خِزانة ، وجعلوا موضع بابها الأول خَلْوة للخطيب يجلس بها إلى أن يخرج للخطبة يوم الجمعة ، وكان جلوسه فى الأعصار الخالية هناك مع وجود باب المنارة به ، واتخذوا أيضاً قبتين أمام باب السلام من داخله ، و بنوا الباب المذكور بالرخام الأبيض والأسود وَزَخْرفُوه زخرفةً عظيمة ، وكذلك القباب المذكورة ، وخفضوا أرض مقدم المسجد حتى ساوت أرض المصلى

الشريف ، واتخذوا له محرابا فى محل الصندوق الذى كان هناك وزخرفوه بالرخام وكذا المحراب العثمانى زخرفةً عظيمة ، وأعادوا ترخيم الحجرة الشريفة وما حولها وترخيمَ الجدار القبلى ، وأزالوا البناء الذى عمله أهل المدينة فى موضع المقصورة المستديرة بالحجرة الشريفة ، وأبدلوا ما يلى القبلة من ذلك بشبابيك من النحاس ، و بأعلاها شبكة من شريط النحاس كهيئة الزَّرَد ، وجعلوا لبقيتها مما يلى الشام مشبكا مشاجرا من الحديد وفاصلا عن يمين مثلث الحجرة و يساره فيه بابان كما سبق بسط كل ذلك فى محله ، وعملوا المنبر ودكة المؤذنين من رُخام ، وجعلوا فيما يلى باب الرحمة و باب النساء إلى مؤخر المسجد دكتين إحداهما بالمسقف الغربى والأخرى بالمسقف الشرقى ، وجعلوهما أخْفَضَ من الدكاك الشامية يسيرا ، وردموهما من أتربة المسجد ، واتخذوا فيما أعادوه من الجدار الشرقى خزائنَ للكتب وطاقات كبارا كالأبواب المقنطرة فى أعالى الجدار وطاقات متسعة مستديرة أيضاً تكثيراً للضوء ، ولم يكن بأعالى الجدار المذكور أولا غير شباك واحد ، وجعلوا نظير تلك الطاقات فى الجدار القبلى أيضاً ، و بنو الجدار من ابتداء تلك الطاقات بالآجُرّ ، وسبب الاحتياج إلى ذلك أن أساطين مقدم المسجد الشريف كانت واصلة إلى سقفه كما سبق ، ولم يكن بذلك قناطر من العقود سوى ما يلى الرحبة من الرواقين اللذين جَدَّدهما الناصر كما سبق ، وكان الساقط من الأساطين بمقدم المسجد هو الأكثر لسقوط العقود التى كانت بين السقفين عليها وقت الحريق واشتعال النار المذيبة للرصاص الذى بين خرز الأساطين ، فاقتضى رأيهم إعادة تلك الأساطين قصيرة وتكميلها إلى السقف بعُقود القناطر ، فأخذت القناطر حصة من الضوء ، فعوّضوا ذلك بتلك الطاقات ، وأكد عندهم فتحها أخذ متولى العمارة للدور التى فى قبلة المسجد المعروفة بدور العشرة ليجعلها مَدْرَسة للسلطان ، وعرض الجدار القبلى يسيرا منها ، وجعل فيها فتحات لشبابيك متعددة أيضاً ، ثم صرف الله تعالى عزمه عن ذلك وسد فتحات الشبابيك

المذكورة كلها بفصوص الأحجار كنسبة بناء الجدار ، وسَدَّ أيضاً الطاقاتِ التى بالجدار القبلى إلا ما يحاذى القبة التى على المحراب العثمانى ، فجعل لها ولما بقى من الطاقات قمريات من الزجاج وشبكات من شريط النحاس .

ثم استبدل متولى العمارة الرباط المعروف بالحصن العتيق وما فى شاميه من المدرسة الجوبانية والدار التى كانت تعرف بدار الشباك — وذلك كله فيما بين باب الرحمة و باب السلام — عند هدم هذا الجانب من الجدار الغربى ليتخذ فى ذلك مدرسة ورباطا لسلطان زماننا الأشرف أدام الله تعالى تأييده وتسديده ، واتخذ فى الجدار المذكور فتحاتٍ لشبابيك كثيرة فى ثلاث طبقات عدتها ثلاثون فتحة ، لأن الفتحة الثالثة من على يسار الداخل من باب السلام فى موضع باب خَوْخَة أبى بكر الصديق الآتى ذكرها فى أبواب المسجد ، جعلوه بابا ينفذ إلى المسجد ، وكذا الفتحتان اللتان بينها و بين باب السلام جعلوا لهما بابين إلى المسجد فقط ، وصارت هـذه الأبواب الثلاثة فى المسجد دون المدرسة من أصل حاصل المسجد الذى كان هناك ، والفتحة الخامسة — وهى الثالثة من خوخة أبى بكر — جعلوها بابا ينفذ من المسجد إلى أسفل المدرسة ، وجعلوا على الفتحات التى فى الطبقة العليا شبكة من شريط النحاس شبه الزرد ؛ لأنها جعلت لمجرد الضوء ، وقد تكلم الناس مع متولى العمارة فى أمر الشبابيك واتخاذها بجدار المسجد الشريف القبلى قبل انتقاله إلى هذه الجهة ، وكثر الكلام فى ذلك ، فكاتب السلطان فاستفتى علماء مصر فى ذلك فأفتاه جماعة منهم بذلك ، فقلدهم فيه ، وعوض ما فات من المصاحف والربعات ، و بعث بعض ذلك على يدى بحيث اجتمع من ذلك أكثر مما فات ، وكذلك الكتب بعث بجانب منها ووعَدَ بإرسال ما يحتاج إليه ، وكان من التوفيق بعثه للأمير الكبير الفَخْرى قاسم الفقيه ناظرا على المسجد الشريف وشيخا لخدامه ، وهو محب للعلم وأهله ، مُغْرَم بتلاوة القرآن الشريف ، لم يُرَ على طريقته مثله فى هـذا الباب ؛ فصار يباشر أمر الرَّبعات والمصاحف بنفسه

ومماليكه ، واتخذ لها كراسيّ صغارا يوضَع عليها بالروضة الشريفة فى أوقات الصلوات النهارية ، فيقرأ هو والناس فيها ؛ فعم نفعها.

ولما قارب المسجد التمام أخذوا فى عمارة الرِّبَاط والمدرسة المذكورين ، وأسسوا لهما منارة فى ناحيتهما التى تلى باب الرحمة ، وشرعوا أيضاً فى عمارة رِباط آخر بدلَ رباط الحصن العتيق ، وفى حمام قبالة الرباط المذكور استأجروا أرضَ الحمام من الناظر على الميضَأة التى بباب السلام فإنها منها ، وشرعوا أيضاً فى عمارة سبيل وفرن وطاحون ومطبخ للدشيشة ووكالة ذات حواصل فى الدور التى اشتروها قبل ذلك للسلطان من دور العباسا وما يلى ذلك فى جهة القبلة ، وذلك أن السلطان أعز الله تعالى أنصاره بعد رجوعه من الحج شرع فى شراء أماكن وجعلها وقفاً ليحمل رَيْعها إلى المدينة الشريفة ليفرَّقَ منه على أهلها ويعمل منه سماط كسماط الخليل عليه السلام ، وأبرز لذلك ستين ألف دينار كما ذكرناه فى الفصل الثالث والثلاثين ، فاتخذوا هذه الأماكن لذلك ، وهو أمر لم يُسْبَق إليه ، فسح الله تعالى فى أجله ، وبلغه من الخير غاية سؤاله وأمله ، ولم يكن بالمدينة الشريفة حمام قبل ذلك من مدة مديدة ، وكذا الطاحون ، وإنما يستعملون الأرحاء التى تُدَار بالأيدى .

ثم كتب إلى بعض الثقات بتكامل تحصيل تلك الأماكن ، وأن متحصلها سبعة آلاف إردب وخمسمائة إردب من الحبّ فى كل سنة ، وأن السلطان أدام الله نصره أنجز وقفها وشرَع فى عمارة أماكن بمصر تقوية للوقف ، ورسم بإبطال المُكُوس بالمدينة وتعويض أميرها .

وقد كملت سُقُفُ المسجد النبوى كلها فى أواخر شهر رمضان عام ثمان وثمانين وثمانمائة ، وتمت عمارة المسجد الشريف عقب ذلك ، ولم يبق سوى اليسير من العمائر السابق ذكرها وإكمال ترخيم المدرسة الأشرفية .

وفى عام تسع وثمانين حضر جماعة من الدّهانين بعث بهم السلطان الأشرف

أعز الله أنصاره من مصر لمحو ما بلغه أنه جُعل فى بعض سقف المسجد الشريف من الدهان بالنيلة و إبداله باللازَوَرْد ، وجَهَّز معهم أساقيل لذلك، فعملوه على أحسن وجه ، ثم جهز ءالمر الأشرف عين الأعيان ونخبة الزمان البهائى بهاء الدين أبا البقاء ابن الجيعان عظم الله شأنه وأسبغ عليه نعمه و إحسانه فى رَكْب مع جماعة من خَوَاصه ، فوصل إلى المدينة الشريفة سابع ذى القعدة الحرام من العام المذكور ، ومعه أحمال من كتب العلوم الشرعية موقوفة بالمدرسة الأشرفية ، وأحمال كثيرة من الحَبّ والدقيق والقدور النحاس التى جعلت برسم السِّماط المتقدم ذكره ، و بقايا الالات العمارة مما جهز فى المراكب الشريفة إلى الينبع ، فقرر أمر السماط ، فصرف لكل شخص من المقيمين من الحب ما يكفيه على حسب عدة عياله ، لكل نفرٍ سُبْعُ إردب مصرى بتقديم السين على الموحدة ، وسَوَّى فى ذلك بين الصغير والكبير والحر والعبد ، وجعل للآفاقيين ما يكفيهم من الخبز وطعام الجشيشة فى كل يوم، وقرر أمر المدرسة ، وصرف للمرخمين وغيرهم من أرباب الصنائع مصروف بقية عملهم ، وأحسن النظر فى ذلك حتى زاد جماعةً منهم من ماله وتلطف بهم وأحْسَنَ ، فانطلقت الألسُن بالدعاء له ، أحسن الله له الجزاء ، وجعل نصيبه من خيرى الدارين من أوفر الأجزاء .

وقد قارن هذه العمارة من السعد وتسهيل الأمور ما لا يوصف ، و يسر الله تعالى لهم من آلات العمارة ما لم نكن نظن حصوله بنواحى المدينة الشريفة ، خصوصا أخشاب الدَّوْم ، فقطعوا من الموضع المعروف بالشقرة ومن الصويدرة ومن الفرع وغير ذلك مالا يحصيه إلا الله تعالى ، وكذلك أخشاب السَّمُر .

وقد أخبرنى بعض المباشرين لهذه العمارة الميمونة أن المصروف فيها وفيما شرعوا فيه من عمارة المدرسة وتوابعها نقدا وأثمان آلات و بهائم وغير ذلك مائة وعشرون ألف دينار ، ومع ذلك فلم يتم بعد .

ثم بعد أن منّ الله تعالى بإتمامها بلغ السلطانَ الأشرفَ أن متولى العمارة تسمح

فى استعمال مؤن غير صالحة ، وأن القبة التى سبق اتخاذها على أعلى ما يحاذى الحجرة الشريفة قد تشققت ثم رمّت ثم تشققت ، ولم يفد الترميم فيها ، وأن المنارة الرئيسية قد مالت ، مع أمور أخرى ، فتغير خاطره على متولى العمارة ، ثم انتخب لذلك المقر الشجاعى شاهين الجمالى لما اشتمل عليه من الفضل والنبل و إصابة الرأى، وفوض إليه أيضاً مشيخة الحرم ونظره ونظر السماط ، فورد المدينة الشريفةَ فى موسم عام أحد وتسعين وثمانمائة ، وجمع الناس للنظر فى ذلك ، وراجَعَ فيه أهل الخبرة ، فاقتضى الحالُ هَدْمَ المنارة الرئيسية وهدم أعالى القبة المذكورة ، ولما هدم المنارة المذكورة ظهر أن الْخَلَلَ من عدم المبالغة فى حفر أساسها ، فحفَر أساسَها حتى بلغ به الماء ، واتخذ لها أحجاراً من الحجر الأسود مُتْقَنة ، وأحكم بناءها مع الحسن الفائق ، بحيث لم يُرَ قبلَها بالمدينة الشريفة مثلها ، وجعل بابها من المغرب فى محله الأول ، وأبطل تلك الدرج المحدثة بأرض المسجد على ماسبق ، وأما القبة فاتخذ فى الطاقات المحيطة بجوانبها سَقْفا يمنع من سقوط مايهدم منها إلى أرض الحجرة الشريفة ، ثم شرع فى هدمها و إعادتها ، بحيث لم يرفع كسوة الحجرة الشريفة ولم يتخذ المسجد طريقاً للعمال فى ذلك ، بل اتخذ أساقيل يمشى عليها إلى سطح المسجد فى ناحيته الشرقية ، واتخذ حاجزاً لمحل المنارة يحول بينها و بين المسجد بحيث يظن الظان أن المسجد لا عمارة به ، وصانه أيضاً من الامتهان بعمل أرباب الصنائع ، فجزاه الله تعالى خير الجزاء ، وجعل ثوابه على ذلك من أوفر الأجزاء .

وقد جاءت القبة حسنة مع الإتقان ، حتى إنه استصحب فى هذه العمارة الجِبْسَ من مصر المحروسة ، واستعمله فى البناء ، وحَرَص على إتقان الآجر ، وزاد العمال فيه على عادتهم ، ولم يوفق متولى العمارة قبله لشىء من ذلك ، سامحه الله ، وكل مُيَسَّرٌ لما خلق له .

وقد ذكر ابن النجار ما كان عليه الخلفاء من الاهتمام بعمارة المسجد النبوى

فقال : ولم يزل الخلفاء من بنى العباس ينفذون الأمراء على المدينة الشريفة ، ويمدُّونهم بالأموال لتجديد ما ينهدم من المسجد النبوى ، فلم يزل ذلك متصلا إلى أيام الناصر لدين الله ، أى الخليفة فى زمنه ، قال : فإنه ينفذ فى كل سنة من الذهب العين الإمامى ألفَ دينار لعمارة المسجد، وينفذ عدة من النجارين والبنائين والنقاشين وأرباب الحرف ، وتكون مادتهم مما يأخذونه من الديوان ببغداد من غير هذه الألف ، وينفذ من الحديد والصناع والرصاص والحبال والآلات شيئاً كثيراً ، ولا تزال العمارة مُتَّصلة فى المسجد حتى إنه ليس به موضع أصبع إلا وهو عامر ، انتهى .

قلت : وعقب وفاة ابن النجار بيسير انتقل أمرُ المدينة الشريفة إلى ملوك مصر ، ولم يزل ملوكها يهتمون بعمارة هذا المسجد الشريف ، ومن أعظمهم همةفى ذلك، وأحبِّهم فى سلوك هذه المسالك ، سلطانُ زماننا الملك المالك لصفوة الممالك الأشرف أبو النصر قايتباى ، أعَزَّ الله أنصاره ، وضاعف اقتداره ؛ فلذلك أجرى الله على يديه هذه العمارة ، وآثره بهذه الأثارة ، ومن تأمل ما قدمناه فى الفصل السادس والعشرين فى الحريق الأول عن المؤرخين من عمــل سقف المسجد على يَدِ مَنْ سبق وطول مدته وصفته ، وأحاط علمــا بما أسلفناه عن سلطان زماننا فى عمارته ، حكَم يقيناً بعلو همته ، وفخار مَنْقَبته ومرتبته ، واختصاصه بما لم يَفُزْ به مَنْ سبقه ؛ فكان هو سابقا ، وإن عد فى الزمان لا حقا ، وقد ذكرنا ماله بالحجاز الشريف من الآثار الجميلة ، وبعض مناقبه الجليلة ، فى الفصل الثالث والثلاثين فى خَوْخَة آل عمر رضى الله عنه لما خصه الله به من حَسْم مادة المفاسد المترتبة عليها فى زماننا ، وأمره بسَدِّ طابقها ، شكر الله صنيعه ، وحَصَّنه من العُدَاة بحُصُونه المنيعة

خاتمة

فيما نقل من عمل نور الدين الشهيد لخندق حَوْلَ الحجرة الشريفة مملوء بالرصاص ، وذكر السبب فى ذلك ، وما ناسبه

اُعلم أنى قَدْ وقَفْتُ على رسالة قد صنّفها العلامةُ جمال الدين الأسنوى فى المنع من استعمال الوُلاَة للنصارى ، وسماها بعضهم « بالانتصارات الإسلامية » ورأيت عليها بخط تلميذه شيخ مشايخنا زين الدين المراغى ما صورته « نصيحة أولى الألباب ، فى منع استخدام النصارى كتاب » لشيخنا العلامة جمال الدين الأسنوى ، ولم يسمه ، فسميته بحضرته ، فأقرنى عليه ، انتهى . فرأيته ذَكَر فيها ما لفظه : وقد دعتهم أنفُسهم ـ يعنى النصارى ـ فى سَلْطنة الملك العادل نور الدين الشهيد إلى أمر عظيم ظنو أنه يتم لهم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولوكره الكافرون، ، وذلك أن السلطان المذكور كان له تهجُّد يأتى به بالليل ، وأوراد يأتى بها ، فنام عقبَ تهجده ، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم فى نومه وهو يشير إلى رجلين أشْقَرَيْنِ ويقول : أَنجِدْنِي أنْقِذْنِي من هذين ، فاستيقظ فَزِعاً ، ثم توضَّأ وصلَّى ونام فرأى المنامَ بعينه ، فاستيقظ وصلى ونام فرآه أيضا مرة ثالثة ، فاستيقظ وقال : لم يبق نَوْم ، وكان له وزير من الصالحين يقال له جمال الدين الموصلى ، فأرسل خَلْفَه ليلا ، وحكى له جميعَ ما اتفق له ، فقال له : وما قُعُودك ؟ اخْرُجِ الآنَ إلى المدينة النبوية ، واكتم ما رأيت ، فتجهَّز فى بقية ليلته ، وخرج على رَوَاحلَ خفيفة فى عشرين نَفَرًا ، وصحبته الوزيرُ المذكور ، ومال كثير ، فقدم المدينة فى ستة عشر يوما ، فاغتسل خارجَها ودخل فَصَلَّى بالروضة ، وزار ، ثم جلس لا يدرى ماذا يصنع ، فقال الوزير وقد اجتمع أهل المدينة فى المسجد : إن السلطان قَصَد زيارة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأحضر معه أموالا للصّدَقة ، فاكتبوا مَنْ عندكم ، فكتبوا أهل المدينة كلهم ، وأمر السلطان بحضورهم ،

وكل مَنْ حضر ليأخذ يتأمله ليجد فيه الصفة التى أراها النبى صلى الله عليه وسلم له فلا يجد تلك الصفة ، فيعطيه ويأمره بالانصراف ، إلى أن انقضت الناس ، فقال السلطان : هل بقى أحد لم يأخذ شيئاً من الصدقة ؟ قالوا : لا ، فقال : تفكروا وتأملوا ، فقالوا : لم يبق أحد إلا رجلين مَغربيين لايتناولان من أحد شيئاً ، وهما صالحان غَنِيّان يكثران الصدقة على المحاويج ، فانشرح صدرُه وقال : علىَّ بهما ، فأتى بهما فرآهما الرجلين اللذَيْن أشار النبى صلى الله عليه وسلم إليهما بقوله : أنجدنى، أنقذنى من هذين ، فقال لهما : مِنْ أين أنتما ؟ فقالا : من بلاد المغرب ، جئنا حاجَّيْنِ فاخترنا المجاورة فى هذا العام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أصْدُقانى ، فصمَّما على ذلك ، فقال : أين منزلهما ؟ فأخبر بأنهما فى رباط بقرب الحجرة الشريفة ، فأمسكهما وحضر إلى منزلهما ، فرأى فيه مالا كثيرا وخَتْمَتَين وكتباً فى الرقائق ، ولم ير فيه شيئاً غير ذلك ، فأثنى عليهما أهلُ المدينة بخير كثير وقالوا : إنهما صائمان الدهر ملازمان الصلوات فى الروضة الشريفة وزيارة النبى صلى الله عليه وسلم وزيارة البقيع كل يوم بكرة وزيارة قباء كل سبت ، ولا يَرُدَّانِ سائلا قط بحيث سَدَّا خَلَّة أهل المدينة فى هذا العام المجدب ، فقال السلطان: سبحان الله ! ولم يظهر شيئاً مما رآه ، وبقى السلطان يطوف فى البيت بنفسه ، فرفع حَصِيرا فى البيت ، فرأى سردابا محفورا ينتهى إلى صَوْب الحجرة الشريفة ، فارتاعت الناس لذلك ، وقال السلطان عند ذلك : اصْدُقانى حالكما وضَرَبَهُما ضربا شديدا ، فاعترفا بأنهما نصرانيان بَعَثَهُما النصارى فى زىّ حجاج المغاربة ، وأمالوهما بأموال عظيمة ، وأمروهما بالتحيل فى شىء عظيم خَيَّلته لهم أنفسهم ، وتوهموا أن يمكنهم الله منه ، وهو الوصول إلى الجناب الشريف ويفعلوا به ما زَيَّنه لهم إبليسُ فى النقل وما يترتب عليه ، فنزلا فى أقرب رباط إلى الحجرة الشريفة ، وفَعَلاَ ما تقدم ، وصارا يَحْفِران ليلا ، ولكل منهما محفظة جلد على زى المغاربة ، والذى يجتمع من التراب يجعله كل منهما فى محفظته ، ويخرجان لإظهار زيارة البقيع ،

فيُلقيانه بين القبور ، وأقاما على ذلك مدة ، فلما قربا من الحجرة الشريفة أرْعَدَتِ السماء وأبرقت ، وحصل رَجيف عظيم بحيث خيل انقلاع تلك الجبال ، فقدم السلطان صبيحةَ تلك الليلة . واتفق إمساكهما واعترافهما ، فلما اعترفا وظهر حالهما على يديه ، ورأى تأهيلَ الله له لذلك دون غيره بكى بكاء شديداً ، وأمر بضرب رقابهما ، فقتلا تحت الشباك الذى يلى الحجرة الشريفة ، وهو مما يلى البقيع ، ثم أمر بإحضار رَصاص عظيم ، وحَفَر خندقا عظيما إلى المـــاء حول الحجرة الشريفة كلها ، وأذِيبَ ذلك الرصاص ، وملأ به الخندق ، فصار حول الحجرة الشريفة سوراً رصاصاً إلى الماء ، ثم عاد إلى مُلْكه ، وأمر بإضعاف النصارى ، وأمر أن لايستعمل كافر فى عمل من الأعمال ، وأمر مع ذلك بقطع المكوس جميعها ، انتهى

وقد أشار إلى ذلك الجمالُ المطرى باختصار ، ولم يذكر عمل الخندق حول الحجرة وسَبْك الرصاص به ، لكن بَيَّنَ السنة التى وقع فيها ذلك مع مخالفة لبعض ماتقدم ، فقال فى الكلام على سور المدينة المحيط بها اليوم : وصل السلطان نور الدين محمود بن زَنكى بن اقسنقد فى سنة سبع وخمسين وخمسمائة إلى المدينة الشريفة بسبب رؤيا رآها ذكرها بعضُ الناس وسمعتُها من الفقيه علم الدين يعقوب ابن أبى بكر المحترق أبوه ليلة حريق المسجد عمن حدثه من أكابر مَنْ أدرك أن السلطان محموداً المذكور رأى النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فى ليلة واحدة وهو يقول فى كل واحدة : يامحمود أنقذنى من هذين الشخصين الأشقرين تجاهه ، فاستحضر وزيره قبل الصبح فذكر له ذلك ، فقال له : هذا أمر حَدَثَ فى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ليس له غيرك ، فتجهز وخرج على عجل بمقدار ألف راحلة وما يتبعها من خيل وغير ذلك ، حتى دخل المدينة على غَفْلة من أهلها والوزيرُ معه ، وزار وجلس فى المسجد لايدرى مايصنع ، فقال له الوزير: أتعرف الشخصين إذا رأيتهما ؟ قال: نعم ، فطلب الناسَ عامة للصدقة ، وفرق عليهم ذهباً كثيراً وفضة ، وقال : لايبقيَنَّ أحَدٌ بالمدينة إلا جاء ، فلم يبق إلا رجلان مجاوران من

أهل الأندلس نازلان فى الناحية التى قبلة حُجرة النبى صلى الله عليه وسلم من خارج المسجد عند دار آل عمر بن الخطاب التى تعرف اليوم بدار العشرة ، فطلبهما للصدقة فامتنعا وقالا : نحن على كفاية ما نَقْبَل شيئاً ، فجدَّ فى طلبهما ، فجىء بهما ، فلما رآهما قال للوزير : هما هذان ، فسألهما عن حالهما وما جاء بهما ، فقالا : لمجاورة النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : اصْدُقانى ، وتكرر السؤال حتى أفضى إلى مُعَاقبتهما فأقرَّا أنهما من النصارى ، وأنهما وَصَلا لكى ينقلا مَنْ فى هذه الحجرة الشريفة باتفاق من مُلوكهم ، ووجدهما قد حَفَرا نَقْباً تحت الأرض من تحت حائط المسجد القبلى ، وهما قاصدان إلى جهة الحجرة الشريفة ، ويجعلان الترابَ فى بئر عندهما فى البيت الذى هما فيه ، هكذا حدثنى عمن حدثه ، فضرب أعناقَهما عند الشباك الذى فى شرقى حجرة النبى صلى الله عليه وسلم خارج المسجد ، ثم أُحْرِقا بالنار آخر النهار وركب متوجها إلى الشام ، انتهى .

وقد ساق المجدُ هذه الواقعة على الوجه الذى ذكره المطرى فقال : ومن الحوادث فى المسجد الشريف مانقله جماعة من مشايخ المدينة وعلمائها ، وذكر ما تقدم ، وكذلك الزين المراغى ذكر ما تقدم عن المطرى نقلا عنه ، وزاد أن وزير السلطان نور الدين الذى استحضره وذكر له القصة هو الموفق خالد بن محمد ابن نصر الْقَيْسَرَانى الشاعر ، قال : وكان موفقاً ، انتهى .

ومأخذه فى ذلك ــ كما رأيته فى حاشية بخطه على كتابه ــ أن الذهبى قال فى ترجمة الموفق هذا : موفق الدين ، أبو البقاء ، صاحب الخط المنسوب ، وكان صَدْراً ، نبيلا ، وافر الحشمة ، وزَرَ للسلطان نور الدين ، توفى بحلب سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، انتهى .

وقد خالف الزين فى ذلك ما قدمناه عن شيخه الأسنوى من تسمية الوزير المذكور بجمال الدين الموصلى ، ولا يلزم من كون الموفق وزَر للسلطان نور الدين أن يكون هو الوزير عند وقوع الرؤيا المذكورة ؛ لاحتمال أنه وزَرَ له بعد ذلك

أو قبله ، وجمال الدين الموصلي هذا هو الجواد الأصفهاني، وقد تقدم ذكره في ترخيم الحجرة ، ووصفه بأنه وزير بني زَنْكِي ؛ لأنه كان وزيرَ والد نور الدين الشهيد الذي هو زنكي ثم وزر لولده غازي ، وأدرك دولة نور الدين الشهيد وزمان هذه الواقعة ؛ فالظاهر أنه وزَرَ له، وأنه المراد في هذه الواقعة .

والعجب أني لم أقف على هذه القصة في كلام مَنْ ترجم نورَ الدين الشهيد مع عظمها ، وهي شاهدة لما ذكره الإمام اليافعيّ في ترجمته من أن بعض العارفين من الشيوخ ذكر أنه كان في الأولياء معدوداً من الأربعين وصلاح الدين نائبه من الثلاثمائة ، انتهى .

وقال ابن الأثير : طالعتُ تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا ، فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز ملكا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، انتهى .

وقد اتفق بعد الأربعمائة من الهجرة ما يقرب من قصة رؤيا نور الدين الشهيد المتقدمة على ما نقله الزين المراغي عن تاريخ بغداد لابن النجار ، قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن المبارك المقرى ، عن أبي المعالي صالح بن شافع الجلى ، أنبأنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن محمد المعلم ، ثنا أبو القاسم عبد الحليم بن محمد المغربي أن بعض الزنادقة أشار على الحاكم العُبَيْدي صاحب مصر بنقل النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه من المدينة إلى مصر ، وزَيَّنَ له ذلك ، وقال : متى تم لك ذلك شَدَّ الناس رحالَهم من أقطار الأرض إلى مصر ، وكانت مَنْقَبَة لسكانها ، فاجتهد الحاكم في مدة وبَنَى بمصر حائزا ، وأنفق عليه مالا جزيلا . قال : و بعث أبا الفتوح لنَبْشِ الموضع الشريف ، فلما وصل إلى المدينة الشريفة وجلس بها حضر جماعة المدنيين وقد عَلِمُوا ماجاء فيه ، وحضر معهم قارىء يعرف بالزلباني ، فقرأ في المجلس « وإن نَكَثُوا أيمانَهُمْ من بعد عَهْدِهِم » إلى قوله « إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » فماج الناس، وكادوا يقتلون أبا الفتوح ومَنْ معه من الجند ، وما منعهم من السرعة إلى ذلك إلا أن البلاد كانت لهم .

ولما رأى أبو الفتوح ذلك قال لهم : الله أحَقُّ أن يُخْشَى ، والله لو كان على من الحاكم فَوَات الروح ما تعرضْتُ للموضع ، وحصل له من ضيق الصدر ما أزعجه كيف نهض فى مثل هذه المخزية ، فما انصرف النهارُ ذلك اليوم حتى أرسل الله ريحاً كادت الأرضُ تزَلْزَلُ من قوتها حتى دحرجت الإبل بأقتابها والخيلَ بسروجها كما تدحرج الكُرَة على وجه الأرض ، وهلك أكثرها وخلق من الناس ، فانشرح صدر أبى الفتوح وذهب رَوْعُه من الحاكم لقيام عُذْرِه من امتناع ما جاء فيه .

قلت : ونقل ابن عذرة فى كتاب «تأسى أهل الإيمان ، فيما جرى على مدينة القيروان» لابن سعدون القيروانى ما لفظه : ثم أرسل الحاكم بأمر الله إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم من ينبش قبر النبى ، فدخل الذى أراد نبشه داراً بقرب المسجد وحفر تحت الأرض ليصل إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فرأوا أنواراً ، وسمع صائح: إن نبيكم ينبش ، ففتش الناس فوجدوهم وقتلوهم، انتهى.

ومما يناسب ذلك ما ذكره المحب الطبرى فى الرياض النضرة فى فضائل العشرة ، قال : أخبرنى هرون بن الشيخ عمر بن الزعب ـ وهو ثقة صدوق مشهور بالخير والصلاح والعبادة ـ عن أبيه ، وكان من الرجال الكبار ـ قال : كنت مجاوراً بالمدينة وشيخُ خدام النبى صلى الله عليه وسلم إذ ذاك شمسُ الدين صواب اللمطى ، وكان رجلا صالحاً كثير البر بالفقراء والشفقة عليهم ، وكان بينى و بينه أنس ، فقال لى يوماً : أخبرك بعجيبة ، كان لى صاحبٌ يجلس عند الأمير و يأتينى من خبره بما تمسُّ حاجتى إليه، فبينما أنا ذات يوم إذ جاءنى فقال: أمر عظيم حَدَث اليوم ، قلت : وما هو ؟ قال : جاء قوم من أهل حَلَب و بذَلوا للأمير بذْلاً كثيرا ، وسألوه أن يمكنهم من فَتْح الحجرة و إخراج أبى بكر وعمر رضى الله عنهما منها ، فأجابهم إلى ذلك ، قال صواب : فاهتممت لذلك هما عظيما ، فلم أنشب أن جاء رسولُ الأمير يدعونى إليه ، فأجبته ، فقال لى : يا صواب يَدُقُّ عليك الليلة أقوام المسجد ، فافتح لهم ، ومكنهم مما أرادوا ولا تعارضهم ، ولا تعترض

عليهم ، قال : فقلت له : سَمْعاً وطاعَةً ، قال : وخرجت ولم أزل يومى أجْمعَ خلْفَ الحجرة أبكى لا ترقأ لى دمعة ولا يشعر أحد ما بى ، حتى إذا كان الليل وصلَّينا العشاء الآخرةَ وخرج الناس من المسجد وغلقنا الأبواب فلم نَنْشَبْ أن دُقَّ الباب الذى حذاء باب الأمير ، أى باب السلام ، فإن الأمير كان سكنه حينئذ بالحصن العتيق .

قال : ففتحت الباب ، فدخل أربعون رجلا أعدُّهم واحداً بعد واحد ، ومعهم المسَاحِى والمَكَاتل والشموع وآلات الهدم والحفر . قال : وقصدوا الحجرة الشريفة ، فوالله ما وصلوا المنبر حتى ابتلعتهم الأرض جميعَهم بجميع ما كان معهم من الآلات ، ولم يبق لهم أثر . قال : فاستبطأ الأميرُ خبرَهم ، فدعانى ، وقال : يا صواب ألم يأتِكَ القوم ؟ قلت : بلى ، ولكن اتفق لهم ما هو كيت وكيت ، قال : انظر ماتقول ، قلت : هو ذلك ، وقم فانظر هل ترى منهم باقية أو لَهُمْ أثرا ، فقال : هذا موضع هذا الحديث ، وإن ظهر منك كان يقطع رأسك ، ثم خرجت عنه ، قال المحبُّ الطبرى : فلما وعيت هذه الحكاية عن هرون حكيتها لجماعة من الأصحاب فيهم مَنْ أثق بحديثه فقال : وأنا كنت حاضراً فى بعض الأيام عند الشيخ أبى عبد الله القرطبى بالمدينة والشيخ شمس الدين صواب يحكى له هذه الحكاية سمعتها بأذنى من فيه ، انتهى ما ذكره الطبرى .

قلت : وقد ذكر أبو محمد عبد الله بن أبى عبد الله بن أبى محمد المرجانى هذه الواقعة باختصار فى تاريخ المدينة له ، وقال : سمعتها من والدى ، يعنى الإمام الجليل أبا عبد الله المرجانى ، قال : وقال لى : سمعتها من والدى أبى محمد المرجانى سمعها من خادم الحجرة ، قال أبو عبد الله المرجانى : ثم سمعتها أنا من خادم الحجرة الشريفة ، وذكر نحو ما تقدم ، إلا أنه قال : فدخل خمسة عشر — أو قال عشرون — رجلاً بالمَساحِى والمِقَاف ، فما مَشَوْا غير خُطْوة أو خطوتين وابتلعتهم الأرض ولم يُسَم الخادم ، والله أعلم .

الفصـــل الثلاثون

في تحصيب المسجد الشريف

وذكر البُزاق فيه، وتخليقه، وإجماره، وذكر شيء من أحكامه

أوله تحصيب المسجد النبوي

روى أبو داود في سُنَنه عن أبي الوليد قال: سألت ابن عمر عن الحصْبَاء الذي في المسجد، فقال: مُطِرْنَا ذاتَ ليلة، فأصبحت الأرضُ مُبْتَلة، فجعل الرجلُ يأتي بالحَصْبَاء في ثوبه ويَبْسُطه تحته، فلما قَضَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الصلاةَ قال: ما أحْسَنَ هذا؟ وهو صريح في جعل الحصْبَاء في المسجد في زمنه صلى الله عليه وسلم.

ويؤيده ما رواه أصحابُ السنن من حديث أبي ذر: إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الرحمة تواجهه، فلا يمسح الحصباء، وكذا ما رواه أحمد من حديث حذيفة قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل شيء حتى عن مَسْح الحصى، فقال: واحدة أودَعْ، وكذا مارواه أبو داود بإسناد جيد عن أبي هريرة، قال أبو بدر: أراه رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قال: إن الحصاة تُنَاشِدُ الذي يخرجها من المسجد، لكن قد سئل الدارقطني عن هذا الحديث فذكر أنه رُوِي موقوفاً على أبي هريرة، وقال: رَفْعه وَهَم من أبي بدر.

وروى يحيى عن بعض السلف أنه كان إذا خرج بالحصاة من المسجد في ثوبه أو نعله أمر بردِّها إلى المسجد.

وروى ابن شبة عن سليمان بن يسار قال: الحصاة إذا أُخْرِجَتْ من المسجد تصيحُ حتى ترد إلى موضعها.

وذكر البرهان ابن فَرْحُون أن مالكاً سئل عن الرجل يخرج من المسجد فيجد شيئاً من حصى المسجد قد تعلّق بوجهه، أيلزمه ردُّه إلى المسجد؟ فقال: لا يلزمه ذلك، وأرْخَصَ له في طَرْحه، فقال السائل: يا أبا عبد الله إنهم يقولون

إذا أُخْرِجَتِ الحصاة من المسجد تصيح حتى ترد إلى المسجد ، فقال له مالكٌ : دعها تصيح حتى ينشق حلقها ، فقال : أَوَلَها حَلْق ؟ قال : فمن أين تصيح ؟

وروى ابن شبة عن ابن عباس أنه قال لنفيع فى الحصاة : رُدَّها و إلا خاصَمَتْك يوم القيامة .

وحكى الأقشهرى عن شيخ الخدام ظهير الدين بن عبد الله الأشرفى قال : أتانى عامَ خمسةَ عَشَر وسبعمائة رجُلٌ من الشام فى موسم الحاج وقال : كنت حَجَجْتُ عامَ أولَ وحملت شيئاً من تراب المسجد وحَصْبائه ، فلم أزل أراه فى المنام يقـول لى : رُدَّنِى إلى موضعى ، عَذَّبْتَنِى عذبك الله ، فها أنا أتيت به ، قال : فأخرج صُرَّةً فيها ما ذكره ، فصببناها فى المسجد ، انتهى .

والذى يقتضيه كلام المؤرخين أن تحصيب المسجد إنما حدث فى زمان عمر ابن الخطاب ؛ فقد روى يحيى عن عبد الحميد بن عبد الرحمن الأزهرى قال : قال عمر بن الخطاب حين بنى مسجد رسول الله صـــلى الله عليه وسلم : ما نَدْرِى ما نفرش فى مسجدنا ، فقيل له : افرش الخصف والحصر ، قال : هذا الوادى المبارك فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «العَقِيقُ وادٍ مبارك » قال: فحصبه عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وروى ابن زبالة عن عبيد الله بن عمر قال : قدِم سفيان بن عبد الله الثقفى على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومسجدُ النبى صلى الله عليه وسلم غير محصوب، فقال: أما لـكم وادٍ ؟ فقال عمر : بلى ، قال : فاحْصِبُوه منه ، فقال عمر : احصبوه من هذا الوادى المبارك ، يعنى العقيق .

قال المطرى : رمل المسجد الشريف ــ أى الذى يحصب به ــ يحمل من وادى العقيق ، من العرصة التى تسيل من الجماء الشمالية إلى الوادى، وليس بالوادى رمل أحمر غير ما يسيل من الجماء ، وهو رمل أحمر يُغَرْبَلُ ثم يفرش فى المسجد ، انتهى .

وروى ابن زبالة من طريق الضحاك عن بشر بن سعيد أو سليمان بن يسار ــ شَكَّ الضحاك ــ أنه حَدَّث أن المسجد كان يرش فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم وزمان أبى بكر وعامة زمان عمر ، وكان الناس يتنخَّمون فيه ويَبْصُقون حتى عاد زَلَقاً ، حتى قدم ابن مسعود الثقفى ، فقال لعمر : ألس قربكم وادٍ ؟ قال : بلى ، قال : فمر بحصباء تطرح فيه فهو أكَفُّ للمخاط والنخامة ، فأمر عمر بها ، وهذه الرواية مع ضعفها قد اشتملت على أنهم كانوا يبصقون فى المسجد .

حكم البزاق فى المسجد

وفى الصحيحين عن أنس مرفوعا « البُزَاقُ فى المسجد خطيئة ، وكفارتها دفنها» . وقد رواه ابن زبالة ، وروى أيضاً عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم رَأى نُخَامة فى المسجد فقال : « مَنْ فعل هذا جاء يوم القيامة وهى فى وجهه » .

وعن عبد الله بن قسيط مرفوعا « لا يبصق فى مسجدى هذا » .

وحديث ابن عمر رواه البزار وابن خزيمة فى صحيحه ، وروى أحمد عن أبى أمامة أنه صلى الله عليه وسلم قال «البُصَاق فى المسجد سيئة ، ودفنه حسنة» . ورواه ابن شبة بمعناه .

وروى أيضاً عن أبى هريرة قال «إن المسجد لينزوى من النخامة كما ينزوى الجلد من النار » ولهذا جزم النووى فى التحقيق وشرح المهذب بتحريمه . ووقع فى عبارة بعض أصحابنا التعبيرُ بالكراهة ، وحَمَلها بعضهم على كراهة التحريم ، وقال بعض العلماء : إنما يكون البُزَاق فى المسجد خطيئة لمن لم يدفنه لأنه يقذر المسجد و يتأذى به .

قال القرطبى : و يدل على صحة هذا التأو يل حديث أبى ذر الذى رواه مسلم وغيره « ووجدت فى مساوى أعمالها ــ أى الأمة ــ النخامة تكون فى المسجد لا تدفن » فلم يثبت لها حكم السيئة بمجرد إيقاعها فى المسجد ، بل بذلك و ببقائها غير مدفونة .

قلت : الرواية الأولى بينت أن الفعل خطيئة ، وأن الدفن يكفرها كما يكفر

الجَلْدَ معصية الزنى ، فلتحمل الرواية الأخرى عليها ؛ لأن الإخبار فيها عما استقر عليه الأمر ، لـكن روى ابن شبة من طريق الفرج بن فضالة عن أبى سعيد قال : رأيت واثلة بن الأسقع دخل مسجدَ دمشق فصلى فيه ، فبزَقَ تحت رجله اليسرى ثم عرَكها ، فلما انصرفت قلت له : أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تَبْزُقُ فى المسجد؟ فقال: هكذا رأيت النبى صلى الله عليه وسلم صَنَع.

ورواه أبو داود من الطريق المذكورة بنحوه ، وفرج بن فضالة ضَعَّفه الدارقطنى وغيره ، وقواه أحمد ، واقتصر الحافظ ابن حجر فى التقريب على تضعيفه .

وروى ابن شبة أيضاً بإسناد فيه ضعف عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ دخل مسجدى هـذا فبزَقَ أو تنخّم فليَحْفِرْ فليبعد وليدفنه ، فإن لم يفعل فليبزق فى ثوبه حتى يخرج به » وهذا لو صح كان حجة لهذا المذهب .

فإن قيل : يعضده حديث البخارى عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم « رأى نُخَامة فى القبلة ، فشق ذلك عليه حتى رؤى فى وجهه ، فقام فحكَّه بيده ، فقال : إن أحدكم إذا قام فى صلاته فإنه يُناجى ربه ، أو إن ربه بينه وبين القبلة ، فلا يبزقن أحدكم قِبَلَ قبلته ، ولـكن عن يساره أو تحت قدمه ، ثم أخذ طرف ردائه فبَصَق فيه ثم رد بعضه على بعض ، فقال : أو يفعل هكذا » وكذا ما رواه ابن شبة بإسناد جيد عن أبى نضرة أن النبى صلى الله عليه وسلم « رأى نخامة فى قبلة المسجد ، فغضب غضبا شديدا حتى كاد يدعو على صاحبها ، ثم قال : لا يَبزُقْ أحدُكم فى قبلته ؛ فإن ربه مستقبله ، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملـكا ، ولـكن عن يساره أو تحت قدمه اليسرى ، فإن كان على يساره أحد فليبزق فى ثوبه » وفى رواية « فإن كان عن يساره أحد يكره أن يبزق نحوه فليبزق فى ثوبه ، وبزق النبى صلى الله عليه وسلم فى ثوبه وحَكَّ بعضَه ببعض » فاقتضى ذلك جواز البصاق فى المسجد فيما عدا القبلة واليمين حالة الصلاة ، وهو مقيد بالدفن لما سبق .

قلنا : مَسَاق الحديث لبيان أدب المصلى فى كيفية البصق ، من غير تعرض لسكونه فى مسجد ، والبصاق فى المسجد قد بينه منطوق الحديث السابق ؛ فلا يُتْرَكُ بهذا ، وأفاد القفال فى فتاويه ــ وقد ذكر حديث النخامة فى المسجد ــ فائدةً حسنة فقال : هذا الخبر محمول على ما إذا نزلت النخامة من الرأس ، أما إذا كانت من الصدر فهى نجسة ؛ فلا يجوز دفنها فى المسجد » .

وروى أبو داود من حديث ابن عمر قال : بينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوما إذ رأى نخامة فى قبلة المسجد ، فتغيظ على الناس ، ثم حَكَّها ، وأحسبه قال : فدعا بزعفران فلطّخه به ، وقال : إن الله قِبَلَ وجه أحدكم فلا يبزقن بين يديه .

وروى ابن شبة عن شيخه خلاد بن يزيد بن عبد العزيز بن أبى رواد عن نافع عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم صلّى صلاةً ذاتَ يوم ، فرأى فى قبلة المسجد نخامة ، فلما قضى صلاته أخذ عوداً فحكها ، ثم دعا بخلوق فَخَلَّقَ مكانها ، ثم أقبل على الناس فقال : يا أيها الناس إذا صلى أحدكم فلا يَتْفُلْ أمامه ولا عن يمينه ؛ فإنه يستقبل الرب عز وجل بوجهه .

وروى ابن شبة أيضاً بسند جيد إلى أبى الوليد قال : قلت لابن عمر : ما بَدْء الزعفران ــ يعنى فى المسجد ــ فقال : رأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نخَامة فى المسجد ، فقال : ما أقبح هذا ! مَنْ فعل هــذا ؟ فجاء صاحبُها فحكها وطَلَاها بزعفران ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أحسن من ذلك . مبدأ تخليق المسجد

ورواه يحيى بلفظ : قلت لابن عمر : يا أبا عبد الرحمن ألاتخبرنى ما كان بَدْء هذه الصفرة التى فى قبلة المسجد ؟ قال : نعم ، صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا انصرف رأى نخَامة فى القبلة ، وذكره ، وقال : فسارَعَ الناسُ إليه ، فكان هذا بدأه .

وروى النسائى وابن ماجه عن أنس قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم

نخامة فى قبلة المسجد ، فغضب حتى احمرّ وجهه ، فقامت امرأة من الأنصار فحكّتها ، فجعلت مكانها خَلوقا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أحْسَنَ هذا !.

وروى ابن شبة أيضاً بسندٍ جيد عن أبى نضرة أن ذلك الذى بَزَقَ فى قبلته جاء بشىء من زَعْفَران فطَلَى ذلك المكان ، فأعجب ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أيضاً بسند لا بأس به قال : أبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حائط المسجد بُزَاقا ، فحكّه على خرقة ، وأخرجه من المسجد ، فجعل مكانه شيئاً من طيب أو زعفران أو وَرْسٍ .

وعن إبراهيم بن قُدَامة عن أبيه أن عثمان بن مَظْعون تَفَل فى القبلة ، فأصبح مكتئبا ، فقالت له امرأته : مالى أراك مكتئبا ؟ قال : لا شىء إلا أنى تَفَلْت فى القبلة وأنا أصلى ، فعمدت إلى القبلة فغسلتها ثم عملت خَلوقا فخلّقتها ، فكانت أول من خَلّق القبلة .

وروى أيضاً برجال ثقات عن جابر عن عبد قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجدنا هذا وفى يده عُرْجُون ابن طاب ، فرأى فى قبلة مسجدنا نخامة فحكّها بالعُرْجون ، ثم أقبل علينا فقال : أيكم يحب أن يُعْرِض الله عنه ؟ قلنا : لا أينا يا رسول الله ، قال : فإن أحدكم إذا قام يصلى فإن الله قِبَلَ وجهه فلا يبصق قبل وجهه ولا عن يمينه ، وليبصق قبل يساره تحت رجله اليسرى ، فإن عجلت به بادرة فليقل هكذا بثوبه ، ثم طَوَى بعضَه على بعض ، أرونى عَبيراً ، فقام فَتًى من الحى يشتدّ إلى أهله فجاء بِخَلوق فى راحته ، فأخذه النبى صلى الله عليه وسلم على رأس العرجون ثم لطخ به على أثر النخامة ، قال جابر رضى الله عنه : فمن هنالك جعلتم الخلوق فى مساجدكم .

وقد رواه أبو داود بنحوه . وجابر هو من بنى حَرَام بطنٍ مَن بنى سَلِمَة ،

ومسجدهم كان بمنازلهم التى فى غربى بُطْحان ومساجد الفتح ، وليس هو مسجد القبلتين كما وقع للمطرى وجماعة حتى جعلوا أمر الخلوق له لما سنبينه .

وسيأتى ما رواه ابن زبالة من حديث جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى فى مسجد بنى حَرَام بالقاع ، وأنه رأى فى قبلته نخامه ، وكان لا يفارقه عرجون ابن طاب يتخصَّر به ، وذكر الحديث الآتى ، وفيه « فكان أول مسجد خُلِّق » .

وروى أبو داود وابن حِبَّان فى صحيحه عن أبى سهلة السائب بن خلاد من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أن رجلا أمَّ قوما فبَصَق فى القبلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ : لا يُصَلِّى لكم ، فأراد بعد ذلك أن يصلى لهم فمنعوه وأخبروه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : نعم ، وحسبت أنه قال : إنك آذَيْتَ الله ورسوله .

وفى رواية أوردها المجد أن النبى صلى الله عليه وسلم لما رأى النخامة فى المحراب قال : مَنْ إمام هذا المسجد ؟ قالوا : فلان ، قال : قد عزَلْته ، فقالت امرأته : لِمَ عزلكَ النبى صلى الله عليه وسلم من الإمامة ؟ فقال : رأى نخامة فى المحراب ، فعمدَتْ إلى خَلوق طيب فخلقت به المحراب ، فاجتاز رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : مَنْ فعل هذا ؟ فقالوا : امرأة الإمام ، قال : وهَبْتُ ذنبه لامرأته ورددته إلى إمامته .

قلت : واختلاف هذه الروايات صريح فى أنها وقائع متعددة ؛ فلا تعارض فيها ، نعم هى متضمنة للرد على ما رواه ابن شبة عن جابر بن عبد الله قال : كان أول مَنْ خلّق المسجد ورَزَقَ المؤذنين عثمان رضى الله عنه ، وتقدم فى الفصل الرابع من رواية يحيى عن جابر بنحوه ، إلا أن يحمل على أن المراد أنه اتخذ له الخلوق من بيت المال .

ونقل ابن زبالة عن ابن عَجْلان أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامِلِه

على المدينة أن لا يخلق إلا القبلة ، وأن يغسل الأساطين ، قال : فلم تكن الأساطين تخلّق فى سلطانه .

وقدمت الخيزُرَانُ أم موسى فى سنة سبعين ومائة ، فأمرت بالمسجد فخلّق ووَلِيَ ذلك مِن تخليقه مؤنسة جاريتها ، فقام إليها إبراهيم بن الفضل بن عبد الله مولى هشام بن إسماعيل فقال : هل لكم أن تسبقوا مَنْ بعدكم وأن تفعلوا مالم يفعل من كان قبلكم ؟ قالت له مؤنسة : وما ذلك ؟ قال : تخلقون القبر كله ، ففعلوا ، وإنما كان يخلق منه ثلثاه أو أقل ، وأشار عليهم فزادوا فى خَلُوق أسطوان التوبة والأسطوان التى هى علم عند مصلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فخلقوهما حتى بلغوا بهما أسفلهما ، وزادوا فى الخَلُوق فى أعلاهما .

تخليق القبر

وروى بعضهم عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى) الآية ، قال : طهرا بيتى نظفاه وبخراه وخلقاه .

تجمير المساجد

وروى يحيى من طريق ابن زبالة وغيره عن على بن حسن بن حسن بن حسن — وكان من خيار الناس — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بإجمار المسجد ، قال : ولا أعلمه إلا قال : يوم الجمعة .

وروى ابن ماجه عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : جنّبُوا مساجدَكم صبيانَكم ومجانينكم وشراءكم و بيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم و إقامة حدودكم وسلّ سيوفكم ، واتخذوا على أبوابها المطاهر ، وجَمِّروها فى الجمع .

وروى أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن خُزَيمة فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد فى الدور ، وأن تنظف وتطيب .

وروى يحيى من طريق محمد بن يحيى عن محمد بن إسماعيل عن أبيه أنه قدم

على عمر بن الخطاب بسَفَط من عُودٍ ، فلم يسع الناس ، فقال عمر : أجمروا به المسجد لينتفع به المسلمون ، فبقيت سُـــنّة فى الخلفاء إلى اليوم ، يؤتى كل عام بسَفَط من عود يجمر به المسجد ليلة الجمعة و يوم الجمعة عند المنبر من خلفه إذا كان الإمام يخطب .

وعن ســعد القَرَظ قال : قدم على عمر بعود ، فقسمه بين المهاجرين ، ثم قسم للمسجد حظا ، فكان يجمره فى الجمع ، فجرى ذلك إلى اليوم ، وولاه سعد القرظ ؛ فكان الذى يجمر .

وقد تقدم من رواية يحيى أيضاً فى الكلام على حكم قناديل الحجرة أن عمر أتى بمِجْمَرَة من فضة ، وأنه دفعها إلى سعد جد المؤذنين وقال : أجمر بهــا فى الجمعة وشهر رمضان ، وكان سعد يجمر بها فى الجمعة ، وكانت توضع بين يدى عمر ابن الخطاب .

وروى ابن زبالة عن نعيم المجمر عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال له : تُحْسِن تطوف على الناس بالمجمرة تجمرهم ؟ فقال : نعم ، فكان عمر يجمرهم يوم الجمعة .

وفى مسند أبى يَعْلَىٰ الموصلى عن ابن عمر أن عمر كان يجمِّرُ مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم كل جمعة .

قال أصحابنا : و يستحب فرش المسجد ، وقد ترجم البخارى للصــلاة على الخمرة ، وروى عن مَيْمُونة أنها كانت تصلى عليها ، وقال ابن زيد : الخمرة هى السجادة ، وقال الطبرى : هى مُصَلًّى صغير ينسج من سعف النخل و يرسل بالخيوط ، وقال البخارى فى صحيحه : وصلى أنس على فراشه ، وقال : كنا نصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم فيسجد أحدنا على ثوبه ، وقال يحيى : حدثنا أبو مُصْعَب قال : حدثنا مالك عن عمه أبى إسماعيل بن مالك عن أبيه أن طِنْفِسَة لعقيل بن أبى طالب كانت تُطْرَح يوم الجمعة إلى جـدار المسجد الغربى ، فإذا غشى الطنفسة

فرش المسجد

كلما ظل الجدار خرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : ثم يرجع بعد صلاة الجمعة فقيِّلَ قائلة الضحى ، ورواه ابن زبالة أيضاً ، وروى يحيى عن عطاء بن أبى رَبَاح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تفقَّدُوا نعالكم عند أبواب مساجدكم . وعن موسى بن يعقوب أن النبى صلى الله عليه وسلم اتبع غبار المسجد بجريدة . ورواه ابن أبى شيبة عن يعقوب بن زيد ، ولفظه : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتبع غبار المسجد بجريدة .

وقد ذكرنا فى آخر الكلام على فضل المسجد شيئاً مما جاء فى النهى عن قِرْبَان المسجد لمن أكل الثوم أو البصل ، وذكرنا فى زيادة عمر رضى الله عنه فى الكلام على البُطَيْحاء ماجاء فى النهى عن رفع الصوت فيه ، وما يتعلق بإنشاد الشعر فيه ، وذكرنا فى زيادة الوليد ما يتعلق بالصلاة على الجنائز فيه ، وروى ابن شبة عن شيبة بن قصاح مرسلا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إذا رأى أحدكم القملة فى ثوبه وهو فى المسجد فليحفر لها فليدفنها ، وليبصق عليها ، فإن ذلك كفارتها . ورواه ابن زَبالة ثم روى عن محمد بن المنكدر قال : أخبرنى مَنْ رأى أبا هريرة يَدْفِن قملة فى المسجد ، وروى يحيى عن يوسف بن ماهك قال : رأيت عبيد بن عمير أخذ من ثوب ابن عمر قملة فدفنها فى المسجد ، وعن أبى بكر بن المنكدر قال : رأيت عمى محمد بن المنكدر يأخذ القملة وهو فى المسجد فيقتلها فى المسجد فيبزق عليها ، وعن جعفر بن محمد قال : لا بأس بأن يدفن القملة فى المسجد .

قلت : وهذه الأشياء لاتقوم الحجة بها . وقد روى أحمد فى مسنده عن أيوب قال : وجد رجل فى ثوبه قملة فأخذها ليطرحها فى المسجد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تَفْعَلْ رُدَّهَا فى ثوبك حتى تخرج من المسجد » وروى ابن شبة بسند جيد عن يحيى بن أبى كثير اليمانى عن الحضرمى أن النبى صلى الله

عليه وسلم قال : إذا أبصر أحدُكم القملة وهو يصلى فى المسجد فليصرها فى ثوبه ولا يقتلها فى المسجد . وروى يحيى عن ابن عمر قال : إذا وَجَدَ أحدُكم القملة فى ثوبه وهو فى المسجد فليجعلها فى ثوبه حتى يخرج بها . قال النووى : فإن قَتَلها لم يجز إلقاؤها فى المسجد ؛ لأنها ميتة ، وكره مالك قتلها فى المسجد ، ونقل ابن العماد عن كتب المالكية أنه يحرم طرح القمل حيا ، بخلاف البرغوث ؛ لأن البرغوث يعيش بأكل التراب ، بخلاف القمل ففى طرحه تعذيبه بالجوع ، انتهى .

وقد جاءت أحاديث فى النهى عن البيع والشراء وإنشاد الضالة فى المسجد ، وروى ابن أبى عدى الحافظ من حديث على بن أبى طالب قال : صليت العصر مع عثمان أمير المؤمنين ، فرأى خياطاً فى ناحية المسجد ، فأمر بإخراجه ، فقيل له : يا أمير المؤمنين إنه يكنس المسجد ، ويغلق الأبواب ، ويرش أحياناً ، فقال عثمان : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : جنبوا صناعكم من مساجدكم .

قلت : ومن المنكرات فى زماننا ما يتساهل فيه المتكلمون فى أمر العمارة من استعمال النشارين والنجارين والحجارين بالمسجد النبوى للعمل فى آلاته واكتساب أولئك العمال بذلك ، مع ما يتولد من ذلك من الدق العنيف وتشعيث المسجد بما ينتشر من النشارة والنجارة وغير ذلك ، مع إمكان عمل ذلك خارج المسجد الشريف والإتيان به مُهيأ . وقد قدمنا أن عائشة رضى الله عنها كانت تسمع الوتد أو المسمار يُضْرَب فى بعض الدور المطيفة بالمسجد فترسل إليهم : لا تؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن عليا ما صنع مصراعى داره إلا بالمناصع تَوَقّيا لذلك ، وفى خبر رواه المقدسى فى « مثير الغرام » عن كعب الأحبار أن سليمان عليه السلام قال للعفريت الذى أحضره لقطع الرخام لعمارة بيت المقدس : هل عندك من حيلة أقطع بها الصخر ؟ فإنى أكره صوت الحديد فى مسجدنا هذا ، والذى أمرنا الله به من ذلك هو الوقار والسكينة ، فقال : ابتغ لى وَكْرَ عقاب فإنى

لا أعلم فى السماء طيراً أشد منــه ولا أكثر حيلة ، فوجدوا وكر عقاب ، فغطى عليه ترساً غليظاً من حديد ، فجاءه العقاب فلم يقدر عليه ، فحلق فى السماء متطلعا فلبث يومَه وليلتَه ثم أقبل ومعه قطعة من السامور ، فتفرقت له الشياطين حتى أخذوه منه ، فأتوا به سليمان عليه السلام ، فكان يقطع به الصخر ، انتهى.

وكذلك إدخالهم البغال والحمير الحاملة لتلك الآلات مع إمكان حَمْل الرجال لها من باب المسجد ، والله الموفق

وإذا سمع شخص مَنْ ينشد ضالة فى المسجد فليقل له : أيها الناشد غـيرك الواجد ، وما أشبهه مما ورد ، إلا أن يسأل الإنسانُ جلساءه فليس بذلك بأس ، ولا يبلغ بذلك الصوت كما نقله ابن زبالة عن مالك ، ومن باع فيـه قيل له : لا أربَحَ الله تجارته ، كما ورد مرفوعا . قال الزين المراغى : والقياسُ أن يقـال للسائل فيه : لا فتَحَ الله عليه ، كما قاله بعض شيوخنا . وفى العُتْبية أن مالكا كره المَرَاوح فى المسجد ، ويجوز النوم فيه من غير كراهة عندنا ، وكرهه بعضهم لغير الغريب الذى لا مَوْضِع له غيره ، وروى فى ذلك أحاديث .

وأسند أحمد بن يحيى البلاذرى عن أبى سعيد مولى أبى أسيد قال : كان عمر بن الخطاب يَعُسُّ فى المسجد بعد العشاء ، فلا يرى أحداً إلا أخرجه إلا رجلا قائما يصلى ، فمر بنفر من أصحاب النبى صلى الله عليـه وسلم فيهم أبىّ بن كعب فقال : مَنْ هؤلاء ؟ فقال أبى : نفر من أهلك يا أمير المؤمنين ، قال : ما خلّفـكم بعد الصلاة؟ قالوا : جلَسْنَانذكر الله ، فجلس معهم، ثم قال لأدناهم : خذ فى الدعاء فدعا ، فاستقرأهم رجلا رجلا حتى انتهى إلىّ وأنا بجنبه ، فقال : هاتِ ، فحُصِرْت وأخذنى الخجل ، فقال : قل ولو أنْ تقول : اللهم اغفرلنا ، اللهم ارحمنا، ثم أخذ عمر فى الدعاء ، فما كان أحد أكثر دمعة ولا أشد بكاء منه ، ثم قال : تفرقوا الآن ، انتهى .

الحدث فى المسجد

ولا يحرم إخراج الريح من الدبر فى المسجد ، لكن الأولى اجتنابه ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم « فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنوآدم » قال الزركشى : وقال بعض المتكلمين على الحديث من القدماء : الحدَثُ فى المسجد خطيئة يُحْرَمُ بها المحدث استغفار الملائكة ودعاءهم المرجو بركته .

وروى ابن عدى فى الكامل من طريق حمزة بن أبى حمزة الضبى عن أبى الزبير عن جابر قال : إن النبى صلى الله عليه وسلم نهى أن يمر باللحم فى المسجد، قال ابن عدى : وهذا منكر بهذا الإسناد ، لا يرويه عن أبى الزبير غير حمزة ، وحمزة يضع الحديث .

قلت : وقد روى ابن شبة نحوه ، غير أنه منقطع الإسناد ، ويغنى عنه ما ورد من النهى عن اتخاذ المسجد طريقاً ، والله أعلم .

القراءة فى المصحف بالمسجد

وقال مالك : لم تكن القراءة فى المصحف بالمسجد من أمر الناس القديم ، وأول مَنْ أحدثه الحجاجُ بن يوسف . وقال أيضاً : أكره أن يقرأ فى المصحف فى المسجد ، وأرى أن يقاموا من المساجد إذا اجتمعوا للقراءة .

قلت : الذى عليه السلف والخلف استحباب ذلك ، وفى الصحيح « إنما بنيت — يعنى المساجد — لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن » وهو عام فى المصاحف وغيرها ، وقد روى ابن شبة عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : إن أول من جمع القرآن فى مصحف وكتبه عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ثم وضعه فى المسجد، فأمر به يقرأ كل غداة . وعن محرز بن ثابت مولى سلمة بن عبد الملك عن أبيه قال : كنت فى حَرَس الحجاج بن يوسف ، فكتب الحجاج المصاحف ، ثم بعث بها إلى الأمصار ، وبَعَث بمصحف إلى المدينة ، فكره ذلك آلُ عثمان ، فقيل لهم : أخرجوا مصحف عثمان يقرأ ، فقالوا : أصيب المصحف يوم مقتل عثمان . قال محرز : وبلغنى أن مصحف عثمان صار إلى خالد بن عمرو بن عثمان ، قال : فلما استخلف المهدىُّ بعَثَ بمصحف إلى المدينة ؛ فهو الذى يقرأ فيه اليوم ،

وعزل مصحف الحجاج فهو فى الصندوق الذى دون المنبر ، انتهى .

بعث المصاحف إلى المساجد

وقال ابن زبالة : حدثنى مالك بن أنس قال : أرسل الحجاج بن يوسف إلى أمهات القرى بمصاحِفَ ، فأرسل إلى المدينة بمصحف منها كبير ، وهو أول مَنْ أرسل بالمصاحف إلى القرى ، وكان هذا المصحف فى صندوق عن يمين الأسطوانة التى عملت علماً لمقام النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان يفتح فى يوم الجمعة والخميس ، ويقرأ فيه إذا صليت الصبح ، فبعث المهدى بمصاحف لها أثمان فجعلت فى صندوق ونحى عنها مصحف الحجاج ، فوضعت عن يسار السارية ، ووضعت منابر لها كانت تقرأ عليها ، وحمل مصحف الحجاج فى صندوقه فجعل عند الأسطوانة التى عن يمين المنبر ، انتهى .

قلت ولا ذكر لهذا المصحف الموجود اليوم بالقبة التى بوسط المسجد المنسوب لعثمان رضى الله تعالى عنه فى كلام أحد من متقدمى المؤرخين ، بل فيما قدمناه ما يقتضى أنه لم يكن بالمسجد حينئذٍ ، بل ولا ذكر له فى كلام ابن النجار ، وهو أول من أرَّخَ من المتأخرين ، وقد ترجم لذكر المصاحف التى كانت فى المسجد ، ثم ذكر ما قدمناه عن ابن زَبَالة ثم قال : وأكثر ذلك دَثَرَ على طول الزمان ، وتفرقت أوراقه ، قال : وهو مجموع فى يومنا هذا فى جِلاَلٍ فى المقصورة أى المحترقة إلى جانب باب مروان . ثم ذكر أن بالمسجد عدة مصاحف بخطوط مِلاَحٍ موقوفة مخزونة فى خزائن ساج بين يدى المقصورة خلف مقام النبى صلى الله عليه وسلم . قال : وهناك كرسى كبير فيه مصحف مُقْفَل عليه نفذ به من مصر ، وهو عند الأسطوانة التى فى صف مقام النبى صلى الله عليه وسلم ، وإلى جانبه مصحفان على كرسيين يقرأ الناس فيهما ، وليس فى المسجد ظاهر سواهما ، انتهى . ولم أر نسبة المصحف الموجود اليوم لعثمان رضى الله عنه إلا فى كلام المطرى ومَنْ بعده عند ذكر سلامة القبة التى بوسط المسجد من الحريق كما قدمناه . نعم ذكر ابن جُبَير فى رحلته ما حاصله أن أمام مقام النبى صلى الله عليه وسلم — وقد عبر عنه بالروضة

الصغيرة ـ صندوقاً ، وأن بين المقام و بين الحجرة ـ أى بجانب المقام من جهة المشرق ـ محمل كبير عليه مصحف كبير فى غشاء مقفل عليه هو أحد المصاحف الأربعة التى وَجَّه بها عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى البلاد ، انتهى .

وهذا المصحف الذى أشار إليه ينطبق فى الوصف على المصحف الذى ذكر ابن النجار أنه نفذ به من مصر ، ولم يصفه بما ذكره ابن جبير من نسبته لعثمان ، مع أن ابن جُبَير مُصَرِّح بأنه من المصاحف التى بعث بها عثمان إلى الآفاق ، لا أنه الذى قتل وهو فى حجره ، وقد قال ابن قتيبة : كان مصحف عثمان الذى قتل وهو فى حجره عند ابنه خالد ، ثم صار مع أولاده وقد دَرَجُوا . قال : وقال لى بعض مشايخ أهل الشام : إنه بأرض طُوسَ ، انتهى .

وقال الشاطبى ما حاصله : إن مالكا رحمه الله قال : إنما يكتب المصحف على الكتابة الأولى ، لا على ما استَحْدَثه الناس . قال : وقال : إن مصحف عثمان رضى الله عنه تغيَّبَ فلم نجد له خبراً بين الأشياخ . وقال أبو عبيد القاسمُ ابن سلام فى كتابه فى القرآت : رأيتُ المصحفَ الذى يقال له الإمام مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه ، استُخْرِج لى من بعض خزائن الأمراء ، وهو المصحف الذى كان فى حجره حين أصيب ، ورأيت آثار دمه فى مواضع منه . ورده أبو جعفر النحاس بما تقدم من كلام مالك . قال الشاطبى : وأباه المنْصِفُون لأنه ليس فى قول مالك « تَغَيَّب » مايدل على عدم المصحف بالكلية بحيث لا يوجد ؛ لأن ما تغيب يرجى ظهوره .

قلت : فيحتمل أنه بعد ظهوره نقل إلى المدينة ، وجعل بالمسجد النبوى . لكن يُوهِن هذا الاحتمال أن بالقاهرة مصحفاً عليه أثر الدم عند قوله تعالى : (فسيكفيكهم الله ـ الآية) كما هو بالمصحف الشريف الموجود اليوم بالمدينة ، و يذكرون أنه المصحفُ العثمانى ، وكذلك بمكة ، والمصحف الإمام الذى قتل عثمان رضى الله عنه وهو بين يديه لم يكن إلا واحد ، والذى يظهر أن بعضهم

وضع خَلُوقاً على تلك الآية تشبيهاً بالمصحف الإمام ، ولعل هذه المصاحف التى قدمنا ذكرها مما بعث به عثمان رضى الله عنه إلى الآفاق ، كما هو مقتضى كلام ابن جبير فى المصحف الموجود بالمدينة ، وفى الصحيح من حديث أنس فى قصة كتابة عثمان رضى الله عنه للقرآن من الصحف التى كانت عند حَفْصة « وأنه أمر بذلك زيدَ ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها فى المصاحف ، وأنه أرسل إلى كل أفقٍ بمصحف كما نسخوا» .

مصاحف عثمان التى أرسلها إلى الآفاق

واختلف فى عدة المصاحف التى أرسل بها عثمان إلى الآفاق ؛ فالمشهور كما قال الحافظ ابن حجر أنها خمسة . وأخرج ابن أبى داود فى كتاب المصاحف من طريق حمزة الزيات قال : أرسل عثمان أربعة مصاحف ، و بعث منها إلى الكوفة بمصحف ، فوقع عند رجل من مراد فبقى حتى كتبت مصحفى عليه . قال ابن أبى داود : وسمعت أبا حاتم السجستانى يقول : كَتَبَ سبعة مصاحف ، [وأرسلها] إلى مكة ، و إلى الشام ، و إلى اليمن ، و إلى البحرين ، و إلى البصرة ، و إلى الكوفة ، وحبس بالمدينة واحداً ، انتهى.

وليس معنا فى أمر المصحف الموجود اليوم سوى مجرد احتمال ، والله أعلم .

تعليق المصابيح فى المسجد

و يستحب تعليق المصابيح فى المسجد وقد قدمنا ما يقتضى أن تميما الدارى أول من فعل ذلك فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل : أول من فعله عمر بن الخطاب ، لما جمع الناس فى التراويح على إمام واحد . وروى ابن زَبالة عن يوسف ابن مسلم قال : كان زيت قناديل المسجد يحمل من الشام ، حتى انقطع ذلك فى ولاية جعفر بن سليمان الأخيرة على المدينة ، فجعله على سوق المدينة . قال : ثم لما طرح ما يؤخذ من العنب عن الناس فى ولاية داود بن عيسى على المدينة سنة ثمان وتسعين ومائة أخرج من بيت المال .

قال : ولم يزل رِزْقُ صاحب زيت المسجد ثلاثة دنانير تجرى عليه فى كل شهر من بيت المال ، وعليه فيها ما تكسر من القناديل ، انتهى .

وقال ابن النجار . وفى يومنا هذا يصل الزيت من مصر من وقوف هناك ، ومقداره سبعة وعشرون قنطاراً بالمصرى ، و يصل معه مائة وستون شمعة بين كبار وصغار ، وعلبة فيها مائة مثقال ندّ لتجمير المسجد ، انتهى .

قلت : وفى زماننا يُحْمَل له من الزيت من مصر والشام زيادة على مائةقنطار بعضُها من أوقاف تحت نظر قاضى الشافعية بمصر وبعضها تحت نظر الإمام بمصر، والله أعلم .

الفصل الحادى والثلاثون

فيما احْتَوَى عليه المسجدُ من الأروقة والأساطين

والبالوعات والسقايات والدروع ، وغير ذلك مما يتعلق به من الرسوم

وصف عام

قال ابن جبير : إن المسجد النبوى مستطيلٌ يحفه من جهاته الأربع بلاطات مستديرة به ، ووسطه كله صحن ، فجهة القبله منها — يعنى المسقف القبلى — خمس بلاطات ، يعنى أروقة ، وقد قدمنا أنه زيد فيه رواقان آخران فصار سبعة أروقة آخذةً من المشرق إلى المغرب ، قال : والجهة الشامية خمسة أروقة أيضاً .

قلت : وهذا مُوَافق لما قدمناه فى زيادة المهدى عن ابن زبالة من أنه جعل خمس أساطين فى السقائف الشامية ، وقدمنا أن الموجود به اليوم أربع فقط ، وذلك أربعة أروقة ، فكأنه لما زيد بعد الحريق الأول الرواقان فى مسقف القبلة اختصروا رواقاً من المسقف الشامى فأدخلوه فى صحن المسجد ، ولم أر مَنْ نبه على ذلك من المؤرخين ، وهذا المسقف هو المسمى اليوم بالدكاك ؛ لارتفاعه على بقية أرض المسجد ، ولم أعلم وقت حدوث ذلك ، ولم يتعرض ابن جُبَير لذكر ارتفاعه مع ذكره لما دون ذلك ، وقد كانت رحلته قبل حريق المسجد الأول فلعل ذلك مما حدث بعده ، كما حدثت الدكتان اللتان بجنبتى المسجد فى الحريق الثانى كما سبق .

وحدث فى زماننا قبيل ذلك عند طرف الدكاك القبلى مما يلى المغرب دكة بارزة هناك ، وهى الدكة التى وضع بها ما أخرج من جوف الحجرة الشريفة من الهدّم فى العمارة التى أدركناها .

وفى كلام ابن زبالة ما يؤخذ منه تسمية المسقف الشامى بسقائف النساء .

قال ابن جبير : والجهة الشرقية ثلاثة أروقة آخذة من القبلة إلى الشام ، والجهة الغربية أربعة كذلك ، هـذا ما ذكره ابن جبير إلا أنه عبر فى الجميع بالبلاطات بدل الأروقة ، وكذا صنع ابن عبد ربه فى العقد ، وهو مطابق لما عليه المسجد اليوم ، إلا ما أشرنا إليه فى المسقف القبلى والشامى .

جدران المسجد

قال ابن جبير : ونصف جدار القبلة الأسفل رخام موضوع إزارا على إزار ، أى وزرة فوق أخرى ، مختلف الصنعة واللون ، مجزع أبدع تجزيع ، والنصف الأعلى من الجدار منزل كله بفصوص من الذهب المعروف بالفُسَيْفِساء قد أنتج الصناع فيه نتائج من الصنعة غريبة تضمنت تصاوير أشجار مختلفات الصفات مائلة الأغصان بثمرها ، والمسجد كله على تلك الصنعة ، لكن الصنعة فى جدار القبلة أحْفَلُ ، والجدار الناظر إلى الصحن من جهة القبلة كذلك ، ومن جهة الشام أيضاً ، والغربى والشرقى الناظران إلى الصحن مُجَدَّدان أيضاً ومُقَرْنَصان قد زينا برسم يتضمن أنواعا من الأصبغة ، إلى ما يطول وصفه ، انتهى .

ووصف ابن عبد ربه فى « العقد » ما فى جدار القبلة من وَزَرَات الرخام وطرر الذهب والفسيفساء ، ثم قال : وحيطان المسجد كلها من داخله مزخرفة بالرخام والذهب والفسيفساء أولها وآخرها .

وذكر أيضاً أن رؤوس الأساطين مذهبة عليها أكُفٌ منقشة مذهبة ، وكذلك أعتاب الأبواب مذهبة أيضاً .

قلت : وقد زال ذلك كله بسبب الحريق الأول ، وبقى من آثاره شىء يسير فى مؤخر المسقف الغربى بجدار المسجد مما يلى الدكاك ، وشىء يسير بالمأذنة الغربية

الشمالية مما يلى بابها فيه شىء من الفسيفساء . وأما جدار القبلة فليس به اليوم إلا لوح يتضمن صور أشجار عن يمين مستقبل المحراب الشريف ، وهو من الآثار القديمة ، وكان يقابله فى جهة يسار المستقبل لوح مثله سقط قريباً ، ثم زال ذلك كله فى الحريق الثانى . وبالجدار المذكور اليوم وَزَرة رخام أولُ مَنْ أحدثها بعد الحريق الأول الظاهر جَقْمَق كما قدمناه مع بيان أن المحراب العثمانى وما حوله كان مرخما قبل ذلك ، و بقية المسجد مبيض أحسن بياض .

وفى جدار القبلة عصابتان من طراز تقدم ذكرهما أيضاً ، وكان قد انقشر من العليا منهما شىء يسـير ، فقلع متولى العمارة التى أدركناها ذلك وما حَوْله ، وجعله طرازا باسم سلطاننا الأشرف قايتباى أعزالله أنصاره ، ووصله ببقية العصابة المذكورة . وتقدم أيضاً ذكر الطراز الآخر من جهة السقف إلى قرب العصابة المذكورة ، و بيان أن الذى ترجَّحَ عنـدى أنه جعل لتمييز المسجد النبوى عما زيد فيه ، وقد زال ذلك كله بعد الحريق الثانى ، وأعادوا منه ترخيم جدار القبلة كما سبق .

عدد أساطين المسجد

وأما عـدد الأساطين فذكر ابن زبالة أنها مائتان وستة وتسعون أسطوانا ، منها فى جدار القبر الشريف ستة . وذكر ابن النجار أيضاً ما يؤخذ منه ذلك .

وقال ابن جبير : عدتهـا مائتان وتسعون أسطوانا ، ولا مخالفة بينهما ؛ لأن ابن جبير لم يعتبر الأساطين الست التى فى جدار القبر الشريف ، وليس فيه خلل إلا بأسطوان واحد ؛ لأن الذى اقتضاه تحريرنا أن جملة الأساطين التى كانت فى ذلك الزمان بمـا فى جدار القبر مائتان وخمسة وتسعون أسطوانا ؛ لأن المسقف الغربى أربعة صفوف ، فإذا اعتبرتها من الجدار القبلى إلى الجدار الشامى كان كل صف ثمانية وعشرين أسطوانا ، فجملة هـذا المسقف مائة أسطوان واثنا عشر أسطوانا ، والمسقف الشرقى ثلاثة صفوف كل صف منها ثمانية وعشرون أيضاً إلا الصف الأوسط فإنه ينقص أسطوانا كما ظهر لنا عند انـكشاف الحجرة ؛ لأن

الأسطوانة الملصقة إلى جدار الحجرة الشامى الذى فى جوف الجدار الظاهر التى تقدم أن متولى العمارة أدخلها فى عرض ذلك الجدار فى الصف المذكور إنما يقابلها فيه الأسطوان الداخل بعضها فى الجدار الظاهر من جهة القبلة ، وكان مقتضى وضع الأساطين فى مقابلة بعضها بعضاً من كل جانب أن تكون بينهما أسطوانة أخرى فى موازاة الأسطوانة التى بين مربعة القبر وأسطوان الصندوق الداخلة فى الجدار الظاهر ، لكن لم يتأتَّ ذلك ؛ لكونها تكون حينئذ فى جَوْف الحجرة الشريفة ، فسقط بسبب ذلك فى هذا الصف أسطوان ، وخفى ذلك على مَنْ لم يشاهد الحجرة الشريفة . وحينئذ فجملة أساطين المسقف الشرقى من جدار القبلة إلى الجدار الشامى ثلاثة وثمانون أسطوانا ، والباقى بعد ذلك فى المسقف القبلى ما يوازى صحن المسجد فقط ، وهو خمسة صفوف كل صف عشرة أساطين فجملة ذلك خمسون أسطوانا ، والباقى أيضاً فى المسقف الشامى خمسة صفوف تقابل ذلك وجملتها خمسون أسطوانا ، فجملة أساطين المسجد بما دَخَلَ فى جدار القبر مائتان وخمسة وتسعون أسطوانا — بتقديم التاء — وفى مؤخر المسقف الغربى أسطوانتان ملتصقتان إلى الجدار الغربى لم تدخلا فى هذه العدة .

وأما عدد أساطين المسجد اليوم فقد تقدم أنه زيد فى المسقف القبلى من ناحية صحن المسجد رواقان ونقص من المسقف الشامى من ناحية الصحن رواق ، فيزيد على ما تقدم عشرة أساطين ، وذلك خارج عن الأساطين التى أُحْدِثَتْ لأجل السقف البارز فى رحبة المسجد أمام الباب الشامى من المقصورة المستديرة على الحجرة الشريفة .

وحدث فى العمارة المتجددة بعد الحريق إسقاط أسطوان كانت بين الأسطوان التى إليها المُصَلّى النبوى و بين المحراب العثمانى ، وضم بعض أساطين أخرى إلى الأساطين التى هنالك ، وفيما حول الحجرة الشريفة ، و إبدال بعضها بدعائم على ماسبقت الإشارة إليه فى الفصل التاسع والعشرين مع ماحدث من التغيير فى أساطين

المسقف القبلى، وكانت أساطين المسجد كلها ــ كما قال ابن جبير فى وصفها ــ أعمدة متصلة بالسمك دون قسى ينعطف عليها ، فكأنها دعائم قوائم ، وهى من حجر منحوت قطعا ململمة مثقبة، يوضع أنثى فى ذكر ، أى بأعمدة الحديد ، ويفرغ بينها الرصاص إلى أن يتصل عمودا قائما ، ويكسى بغلالة جيار ، ويبالغ فى صقلها ودلكها ، فتظهر كأنها رخام أبيض .

قلت : وأراد بالقسى ما نسميه اليوم بالقناطر المعقودة حول صحن المسجد ، وأما الأساطين الداخلة فى الأروقة فإنها متصلة بالسقف ، سوى الرواقين اللذين يليان رحبة المسجد من المسقف القبلى ، ثم جعل المسقف القبلى كنسبتهما بعد العمارة المتجددة بعد الحريق الثانى كما سبق .

وقد عبر ابن النجار ــ تبعا لمن قبله ــ عن تلك العقود بالطاقات ، فقال : وأما طاقاته أى المحيطة بالصحن فى القبلة إحدى عشرة طاقة ، وفى الشامى مثلها ، وفى المشرق والمغرب ــ أى كل جانب منهما ــ تسع عشر طاقة ، و بين كل طاق وطاق أسطوان ، ورأس الطاقات مسدود بشبابيك من خشب .

قلت : وهو موافق لكلام ابن ز بالة فيما يلى المشرق والمغرب ، مخالف له فيما يلى القبلة والشام ؛ فإنه قال : وعدد طاقاته مما يلى القبلة اثنتا عشرة طاقة ، ومما يلى الشام اثنتا عشرة ، ومما يلى المشرق تسع عشرة ، ومما يلى المغرب تسع عشرة ، فذلك اثنتان وستون طاقة ، انتهى .

وهذا لايتم إلا على تقدير أن يكون المسقف الغربى ثلاثة أروقة فقط كالمسقف الشرقى ، فتكون العقود التى تلى القبلة والشام اثنى عشر ، وما تقدم فى عدد الأساطين ينافيه ؛ فالصواب ماذكره ابن النجار .

وعدد قناطره المحيطة برحبته اليوم من جهة القبلة والشام موافق لما ذكره ابن النجار ؛ فإنها من كل جانب إحدى عشرة ، غير أن باب المقصورة الشامى وما أحدث له من السقف أمامه سد واحدة من تلك القناطر القبلية .

وأما عدد قناطره من المشرق والمغرب فقد نقصت واحدة من كل جهة ؛ لما تقدم من زيادة الرواقين بالمسقف القبلي، ونقص رواق من المسقف الشامي ، فصار عدد القناطر في كل جانب منهما ثماني عشرة قنطرة .

والمسدود اليوم بالشبابيك من رؤوس القناطر إنما هو رؤوس القناطر القبلية وبعض ما يليها من القناطر الشرقية ، ثم زال ذلك في الحريق الثاني ، وقد ذكر ابن زبالة عن محمد بن إسماعيل قال : أدركت المسجدَ كان يضيق عن الناس يوم الجمعة حتى يصلي بعضهم في دار القضاء ، وهي يومئذ مبنية ، وفي دار ابن مكمل ، وفي دار النحامين ، وفي دار عاتكة ، قال : فلما قدم أبو جعفر المنصور المدينةَ سنة أربعين ومائة أمر بستور فستر بها صحن المسجد على عمد لها رؤوس كقريات الفساطيط ، وجعلت في الطِّيقَانِ ــ أي القناطر المتقدم ذكرها ــ فكانت الريح تدخل فيها ، فلا يزال العمود يسقط على الإنسان ، فغيّرَهَا وأمر بستورٍ هيأ كثف من تلك الستور وبحبال ، فأتى بها من جدة من حبال السفن القنبار ، وجعلت على يسبيك حبالها اليوم ، فكانت تجعل على الناس كل جمعة ، فلم يزل كذلك حتى خرج محمد بن عبدالله بن حسن يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة خمس وأربعين ومائة ، فأمر بها فقطعت دراريع لمن كان يقاتل معه ، فتركت حتى كان زمان هرون أمير المؤمنين فأحدث هذه الأستار ، ولم يكن يعني صحن المسجد يستر زمان بني أمية .

قلت : وهذا شيء قد انقطع قديما لعدم الاحتياج إليه لما قَلَّ الناسُ بالمدينة ، حتى إن كثيراً من الأروقة لا يمتلىء بالناس .

وبالمسجد اليوم ستارة بالقرب من باب الحجرة الشامي تُرْخَى على ما يليه من القناطر الشرقية لتَقِيَ من يجلس هناك من خدام المسجد حر الشمس .

وقال ابن زبالة ويحيى : وكان ماء المطر إذا كثر في صحن المسجد يغشى السقائف التي في القبلة ، وكانت حصباء تلك الناحية تسيل إلى صحن المسجد ،

فجعل بين القبلة والصحن لاصقاً بالسوارى حجاب من حجارة من المربعة التى فى غربى المسجد إلى المربعة التى فى شرقيه على القبر ، فمنع الماء من الصحن أن يغشى القبلة ومن حصباء القبلة أن يصير إلى الصحن . وعبارة يحيى : فأمر أبو البحترى بحجارة فجعلت رداً لذلك المـاء الذى كان يدخل والحصباء التى كانت تسيل فيما بين المربعة التى كانت عند القبر والمربعة التى فى غربى المسجد ، وجعل ذلك لاصقاً بالسوارى .

قلت : والمراد أنه جعل أحجار الحجاب المذكور فيما بين السوارى التى تلى رحبة المسجد من المشرق إلى المغرب ، وقد كانت مربعة القبر أول السوارى المذكورة من جهة المشرق ؛ لأنهـا فى صف أسطوان الوفود كما قدمناه ، وذلك الصف كان آخر المسقف القبلى ، وكانت المربعة الغربية فى آخر الســوارى المذكورة مما يلى المغرب ، وهى الأسطوان المثمنة اليوم التى بينها وبين ركن صحن المسجد الغربى اليوم أسطوانتان بسبب زيادة الرواقين المتقدم ذكرهما فى مؤخر المسقف المذكورة ، وهذا الحجاب المذكور قد اندفن اليوم فلا يظهر منه شىء ، والظاهر أنه كان بين السوارى المُطِيفة بصحن المسجد من المشرق والمغرب حجاب مثل ذلك ، وكانت بقاياه ظاهرة فيما يلى الدكاك من المسقفين المذكورين قبل حدوث ما سبق من الدكاك بهما ، والمسقف القبلى اليوم أرضه عالية على ما يليه من الصحن يسيراً ؛ فلا يغشاه مياه الأمطار ، لـكن وطأه متولى العمارة بعد الحريق الثانى حتى ساوى به أرض المصلى الشريف كما سبق ، فاحتاج إلى عمل حجاب من الأحجار بين السوارى التى تلى رَحَبَةَ المسجد من جهة القبلة وما حولها .

عدد بالوعات المسجد

وأما عدد البالوعات بصحن المسجد فقد ذكر ابن زبالة ويحيى أن به أربعاً وستين بالوعة لماء المطر عليها أرحاء لها صَماً ثم من حجارة يدخل الماء من خلالها .

قلت : ولا يظهر به اليوم غير بالوعة واحدة لها فُوّهتان ، وهى عند الحجرين

المتقدم ذكرها فى تجديد المسجد ، وإحدى الفوهتين إلى جانب الحجرين من القبلة ، والثانية إلى جانبهما من جهة الشام ، ويجتمعان فى بئر واحدة هناك ، وعليهما حجران كالأرحاء ، وفى أسفل ما على فوهتيهما من ذلك مشبك يدخل الماء من خلاله ليمنع نزول الحصباء هناك ، ومع ذلك فقد بحروها فى العمارة المتقدم ذكرها أولا ، فخرج منها شىء كثير من الحصباء .

سقايات المسجد

وأما السقايات التى كانت به فذكر ابن زبالة أنه كان فى صحن المسجد فى زمنه تسع عشرة سقاية ، وذلك فى صفر سنة تسع وتسعين ومائة ، منها ثلاث عشرة أحدثتها خالصة ، وهى أول من أحدث ذلك ، ومنها ثلاث سقايات لزيد البربرى مولى أمير المؤمنين ، ومنها سقاية لأبى البحترى وهب بن وهب ، ومنها سقاية لشجن أم ولد هارون أمير المؤمنين ، ومنها سقاية لسلسبيل أم ولد جعفر بن أبى جعفر . وقد أورد ذلك ابن النجار مترجماً عليه بذكر السقايات التى كانت فى المسجد ، ثم قال : وأما الآن فليس فى المسجد سقاية إلا فى وسطه . قال : وفيه بركة كبيرة مبنيــة بالآجر والجص والخشب ينزل إليها بدرج أربع فى جوانبها ، والماء ينبع من فوارة فى وسطها تأتى من العين ، ولا يكون الماء فيها إلا فى أيام المواسم إذا جاء الحاج، و بقية السنة تكون فارغة . عملها بعض الأمراء بالشام، واسمه شامة . قال : وعملت الجهة أم الخليفة الناصر لدين الله فى مؤخر المسجد سِـقَايَةً كبيرة فيها عدة من البيوت ، وحفرت لها بئراً ، وفتحت لها باباً إلى المسجد فى الحائط الذى يلى الشام ، انتهى .

قلت : الذى يظهر من كلام ابن زبالة أنه أراد بالسقايات ما يجعل لأجــل الشرب ، وظاهر ما ذكره ابن النجار أن المراد بذلك ما يجعل للوضوء . وذِكْرُهُ لمـا عملته أم الخليفة الناصر لدين الله صريح فى ذلك ، فإنه يعنى بذلك الميضأة التى بابُهَا فى حائط المسجد الشامى ، وكان لها باب آخر من خارج سُدَّ قديماً ، وهو ظاهر فيما يلى المسجد من المغرب .

وقوله « فيها عدة بيوت » أى عدد الأخلية التى بها.

وقوله أولا « فأما الآن فليس فى المسجد سقاية إلا فى وسطه ». الظاهرُ أنه يريد السقاية التى كانت للشرب بوسط المسجد .

وقد ذكرها البدر ابن فرحون فقال : ولقد كان فى وسط المسجد سقاية يحمل إليها الماء من العين بناها شيخ الخدام فى ذلك الوقت ، ووقف عليها أوقافاً من ماله وكانت متقدمة على النخل تقديرها خمسة عشر ذراعا فى مثلها ، وجعل فى وسطها مصرفاً للماء مرخما ، ونصب فيها مواجير الماء وأزياراً ودوارق وأكوازاً ، وحَجَّرها بالخشب والجريد ، وجعل لها غَلَقاً من حديد ، واستمرت السنين العديدة ، فكثر الشر فيها ، والتزاحم عندها ، وصار يدخلها من يتوضأ فيها فربما يزيل فيها الأذى، من استقرب المدى ، ثم تعدى الحال وزاد شرها . وذكر فتنة اتفقت للخدام مع بعض الأشراف بسببها ، قال : فلما غلبت مفسدتها على مصلحتها أزيلت عن اجتماع من القاضى شرف الدين الأميوطى والشيخ ظهير الدين ، انتهى .

وأما البركة التى ذكرها ابن النجار فإنها مذكورة فى كلام المطرى ، واقتضى كلامه نسبتها لابن أبى الهيجاء ، فإنه ذكر ما سيأتى عنه فى الكلام على العين الزرقاء من أن ابن أبى الهيجاء فى حدود الستين وخمسمائة أمدَّ منها شعبة وأوْصَلها إلى الرحبة التى عند المسجد من جهة باب السلام ، يعنى سوق المدينة اليوم . ثم قال : وكان قد جعل منها شعبة صغيرة تدخل إلى صحن المسجد ، وجعل لها مَنْهلا بدَرَج عليه عَقْد يخرج الماء إليه من فَوَّارة يتوضأ منها مَنْ يحتاج إليه ، فحصل بذلك انتهاك حرمة المسجد الشريف من كشف العورات والاستنجاء فى المسجد ، فسُدَّت لذلك ، انتهى .

قلت : وقد رأيت آثار درجها فى غربى النخيل التى بصحن المسجد قريبا منها ، وليس بالمسجد اليوم شىء من السقايات إلا ما يحمل إليه من الدوارق المسَبَّلة فيشربها الناس فى أوقات مخصوصة ، إلا أن خزانة الخدام الآتى ذكرها

لا يزال بها ماء لأجل شربهم . ثم لما عمر سلطان زماننا الأشرف مدرسته التى بين باب الرحمة و باب السلام جعل فيها سبيلا مما يلى باب الرحمة له شباك إلى المسجد .

حواصل المسجد

وأما الحواصل والخزائن التى بالمسجد الشريف ففيه القبة التى بصحنه ، وقد مر ذكرها ، وغالب ما يوضع فيها اليوم زيت وَقُود المسجد ، وتقدم أن المصحف المنسوب إلى عثمان رضى الله تعالى عنه موضوع بها .

و بالمسجد أيضا أمام كل من المنارات الأربع خزانة ، إلا أن ما أمام المنارتين القبليتين من ذلك أصلى ، بخلاف المنارتين الشاميتين فإنه محدث ، ولذلك قال البدر ابن فرحون : وما أحق بالإزالة ما أحدث بالمنارتين الشاميتين ؛ إذ قدم بابهما على بابيهما الأصليين ، وجعل ما بين البابين فى كل منارة خلوة اقتطع بها جانب من المسجد كبير لا شك فى تحريمه ، انتهى .

وفى جهة المغرب أيضا إلى جانب باب المنارة الشمالية الغربية المعروفة بالخشبية — سميت بذلك لأن حد الخشبتين كان يؤذن بها — خزانة صغيرة يضع بعض الخدام فرشهم فيها ، وربما أقام بها من يريد الاعتكاف بالمسجد و يليها فى جهة المغرب أيضا حاصلان كبيران يوضع فيهما القناديل الزجاج و بعض آلات المسجد ، وفى الأول منهما مما يلى الخزانة المذكورة وضعت كتبى ، وكنت أجلس به للمطالعة والاعتكاف فإنه من المسجد ، واتفق لى فى سبب الإقامة به أمر ليس هذا محل ذكره .

و يقابل ذلك فى جهة المشرق مما يلى المنارة المعروفة بالسنجارية خلوة كبيرة فيها فرش الخدام أيضا ، و إلى جانبها خزانتان إحداهما بيد من تكون له النوبة من الفراشين يضع فيها فوانيس المسجد ونحوها ، والثانية بيد الخدام أيضا ، وفى جهة المشرق قريبا من باب جبريل بينه و بين باب النساء خزانة يضع فيها الخدام الماء لشربهم و بعض فرشهم وأمتعتهم ، وهى المذكورة فى كلام ابن جبير حيث

قال : وفى الجهة الشرقية بيت مصنوع من عود هو موضع مبيت بعض السَّدَنة الحارسين للمسجد المبارك ، قال : وسدنته فتيان أحابيش وصقالبة ظِرَافُ الهيئة نظاف الملابس والشارات ، انتهى ، وإلى جانب الخزانة المذكورة صندوق يوضع فيه ما يستخرج من القبة من الزيت للوقود فى كل ليلة .

وفى غربى المسجد بين باب الرحمة و باب السلام حاصل يوضع فيه النورة ، يعرف بابه بخَوْخَة أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، فإنها كانت فى مُحَاذاته كما تقدم ، فلما زيد فى المسجد جعلوا هناك خوخة فى المسجد تحاذى الخوخة الأولى وقد جعل لذلك ثلاثة أبواب عند عمارة المدرسة الأشرفية ، ومحل الخوخة من ذلك الباب الثالث من على يسارك إذا دخلت من باب السلام

قناديل المسجد

وأما عدد قناديله فذكر ابن زبالة أنها مائتان وتسعون قنديلا فى زمانه ، وجملتها فى زماننا مائتا قنديل وستة وخمسون قنديلا ، هذه الدائمة ، ونحو المائة قنديل يسرجونها فى بعض الأوقات ، و يجعلون فى كل قنطرة من القناطر التى تلى صحن المسجد من مقدمه وجنبتيه ثلاثة قناديل ، و يقتصرون فى بعض الأوقات على واحد فى كل قنطرة كما فى القناطر التى فى مؤخر المسجد ، سيما إذا قلّ عندهم الزيت ، وحدث بعد الحريق الثانى زيادة سلاسل كثيرة معدة لتعليق القناديل بها ، و بصحن المسجد أربعة مشاعيل اثنان فى جهة القبلة واثنان فى جهة الشام ، وكل واحد كالأسطوانة ، و بأعلاه مسرجة عظيمة تشعل فى ليالى الزيارات المشهورة ، ولا أدرى ابتداء حدوث ذلك ، و يزيدون تنانير و بزاقات فى مقدم الروضة وما حولها ، ويحتفلون بذلك سيما فى ليلة سبع وعشرين من رمضان ، و يسرجون فى كل ليلة منه نحو أربعين شمعة ، و يضعونها على شمعدانات كبار فى قبلة الروضة والحجرة ، وفى غربى المنبر ، و بعضها فى محراب الحنفية الآتى ذكره .

وللمسجد فوانيس عدتها ستة ، يطوف بها الخدام بعد صلاة العشاء الآخرة

لإخراج الناس من المسجد عند غلق أبوابه ، ولا يَدَّعُون به إلا الخدام ومَنْ له نوبة من أرباب وظائفه .

وذكر البدر ابن فرحون فى ترجمته شبل الدولة كافوراً المظفرى شيخ الخدام المعروف بالحريرى أن من آثاره الحسنة تبطيل الطوف بالشعل من جريد النخل وتبديلها بالفوانيس التى يطوفون بها اليوم كل ليلة ، وذلك أنهم كانوا قبل الحريرى وصَدْرا من ولايته يأخذ عبيد الخدام و بعض الفراشين شعلا من سعف النخل فيطوفون بها عوض الفوانيس اليوم يَجْرُون بها كأشد مايكون من الجرى، فإذا وصلوا باب النساء خرجوا بها وخبطوا ما بقى معهم منها ، وكانت تسود المسجد وتسود بابه أيضاً ، وفيها من البَشَاعة مالا يخفى ، فأمر بالفوانيس عوضها رحمه الله تعالى .

فى صحن المسجد نخيل مغروسة

و بصحن المسجد نخيل مغروسة ، ولم أدر ابتداء حدوث ذلك ، إلا أن ابن جبير قال فى رحلته عند ذكر القبة التى بصحن المسجد مالفظه : و بإزائها فى الصحن خمس عشرة نخلة ، انتهى .

وقال البدر ابن فرحون : إن أول مَنْ أدركتُ من مشايخ الخدام الشيخ عزيز الدولة ، قال : وفى أيامه غرس كثير من هذا النخل الذى بالمسجد اليوم ، وكان منه شىء قبل العزيزى ، ومات أكثره ، انتهى .

وذكر المجدُ عزيزَ الدولة وقال : إن غرس أكثر هذا النخل كان فى زمانه، ثم قال : وكأنه لم يتعرض أحد لإنكار هذه البدعة إجلالا لشأنه ، أو خوفاً من لسانه ، أو تمكيناً له من الاقتداء بمَنْ غرسه قبله وخنق فى عنقه من هذا المنكر حبله ، وقد انجعفت تلك النخيل لهبوب عاصفة هبت فى أواخر مشيخة ياقوت الرسولى ، ثم أعيد الغراس ، ووقع الإنكار من بعض الناس ، لكن لم يصادف كلامه محلا من الإشارة والإفادة ، ولعله سوغ حملا على احتمال أنه لم يغرس

أولا إلا بنوع من الاستحقاق ، لكن لا يخفى ما فى اعتماد الاحتمال البعيد من قلة التقى .

قلت : وقد أراد طوغان شيخ أن يزيد فيه سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة ، فأنكرتُ ذلك ، وقام بعض أهل الخير فى المنع منه ، فبطل ذلك ولله الحمد .

أئمة المسجد

ولم يزل المسجد النبوى بإمام واحد يصلى بالناس فى مقام النبى صلى الله عليه وسلم ، ويتقدم أيام الموسم إلى المحراب العثمانى ، حتى سعى طوغان شيخ المذكور فى إحداث محراب للحنفية فى دولة الأشرف إينال ، فقام أهل المدينة فى منعه ، وساعدهم على ذلك من أرباب الدولة المصرية صاحب الشيم المرضية جمال الدين يوسف ناظر الخواص الشريفة ، تغمده الله برحمته ، فلم يتم لطوغان المذكور ذلك ، فلما توفى المشار إليه أعاد طوغان السعى فى الدولة المذكورة ، فبرزت المراسيم به بعد الستين وثمانمائة[1] ، واستمر إلى زماننا فيصلى إمامه الصلوات الخمس عقب انصراف إمام المحراب النبوى ، وهو إمام الشافعية ، إلا فى التراويح فيصليان معاً ، وهذا الأمر دبَّ إلى المدينة الشريفة من مكة المشرفة .

وقد قال الزركشى : إن السبب فى حدوث ذلك بها أن الإمام كان فى ذلك الوقت مبتدعا ، فعندما امتنع الناس من إقامة الجماعة مع إمامهم الذى أقاموه سمحوا للناس فى اتخاذ أئمة لأنفسهم ، واستمر الأمر عليه ، وكذا جرى مثله فى بيت المقدس وجامع مصر قديما ، انتهى .

وقد بينا حكم ذلك فى كتابنا الموسوم « بدفع التعرض والإنكار ، لبسط روضة المختار » .

عرض جدر المسجد

وقال ابن زبالة ويحيى : وعرض منقبة جدار المسجد مما يلى المغرب ذراعان ينقصان شيئاً ، وعرض منقبته مما يلى المشرق ذراعان وأربعة أصابع ، وإنما زيد فيه لأنها من ناحية السيل .

قلت : وهذا لأن السيل كان يغشى المسجد من تلك الجهة ، ولهذا سقط

(١) هذا التاريخ لا يناسب ماقبله ، فلعله « بعد التسعين وثمانمائة »

جدار الحجرة الشرقي كما قدمناه ، وسقط أيضاً جدار المسجد من الناحية المذكورة كما قدمناه من قول ابن زبالة « أخاف المسجد من شرقيه فى سلطان محمد ابن عبد الله الربعى من ولد ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب من ناحية موضع الجنائز فأمر به فبنى » انتهى .

وقد قدمنا فى زيادة الوليد ما رواه يحيى من طريق ابن زبالة فى ذرع عرض المسجد ، وبينا فساده ، والصواب ما ذكره ابن زبالة فى أواخر الكلام على المسجد؛ فإنه ذكر ذَرْعَ مسجد النبى صلى الله عليه وسلم الأول عرضا وطولا ، ثم قال : وذَرْعُ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم ذَرْعُ عرضِه من مقدمه فى القبلة بين المشرق والمغرب مائة وخمسة وستون ذراعا ، وذرعُ عرضه من مؤخره إلى الشام بين المشرق والمغرب مائة وثلاثون ذراعا ، ينقص مؤخره عن مقدمه خمسة وثلاثين ذراعا ، وطولهُ من اليمن إلى الشام مائتان وأربعون ذراعا .

قلت : وقد حررت ذَرْعَه فكان عرضه من مقدمه فى القبلة مائة ذراع وسبعة وستين ذراعا ونصفا ، فيزيد على ما ذكره ابن زبالة ذراعين ونصفا ، وذلك لاختلاف الأذْرِعَة أو لرخاوة الحبل الذى وقع القياس به ، ونحو ذلك .

وكان عرضه من مؤخره فى الشام مائة وخمسة وثلاثين ذراعا فيزيد على ما ذكره خمسة أذرع .

وكان طوله من القبلة إلى الشام مائتى ذراع وثلاثة وخمسون ذراعا ، فيزيد على ما ذكره ابن زبالة ثلاثة عشر ذراعا .

وقد ذكر ابن النجار ما يوافق ذرعنا هذا مع مخالفة يسيرة فقال : طولُ المسجدِ اليوم من قبلته إلى الشام مائتا ذراع وأربعة وخمسون ذراعا وأربعة أصابع ، ومن شرقيه إلى غربيه — يعنى فى مقدمه — مائة ذراع وسبعون ذراعا صافية ، انتهى .

قال ابن زبالة : وطول رحبة المسجد — يعنى صحنه — من اليمن إلى الشام مائة

وخمسة وستون ذراعا ، وعرضها بين المشرق والمغرب ثمان وتسعون ذراعا ، انتهى .

وذكر ابن النجار أن طولها مائة وتسعة وخمسون ذراعا وثلاثة أصابع ، وعرضها سبع وتسعون ذراعا راجحة .

قلت : وطول رحبة المسجد اليوم من القبلة إلى الشام مائة ذراع واثنان وخمسون ذراعا ونصف ذراع ، فإذا أضَفْتَ لذلك عرض الرواق الذى زيد فى الرحبة على ما قدمناه من أنه زيد فيها رواقان من ناحية ونقص رواق من ناحية والرواق نحو تسعة أذرع فيكون جملة ذلك مائة وأحداً وستين ذراعا ونصفا ، وذلك نحو ما ذكره ابن النجار .

وأما عرض الرحبة اليوم من مقدم المسجد فخمسة وتسعون ذراعا بتقديم التاء على السين ، والله تعالى أعلم .

وذكر ابن النجار أن طول المسجد فى السماء خمسة وعشرون ذراعا ، ومراده ارتفاعه من أرضه إلى أعلى شُرُفاته ؛ لأنه ذكر فى موضع آخر ما يقتضى أن ارتفاعه من أرض المسجد إلى سقفه أحد وعشرون ذراعا ، فيكون سمك السقف والحائط الذى عليه الشَّرَاريف حول صحن المسجد أربعة أذرع ، والذى بين أرض مقدم المسجد وسقفه بعد خفض أرضه عقب الحريق الثانى اثنان وعشرون ذراعا ، وتقدم فى زيادة عمر رضى الله عنه ما يقتضى أنه كان بينهما فى زمانه أحد عشر ذراعا ، ولم أقف على ذكر ما جعله عثمان رضى الله تعالى عنه بينهما ، وذرع ما بين الأرض المحيطة بالمسجد من خارجه وأعلى سترة جداره من جهة المغرب ثمانية وعشرون ذراعا ؛ فهذا سمك المسجد من خارجه ، والله أعلم .

وقد تقدم ذكر منابر المسجد وذرعها فى زيادة الوليد

الفصل الثانى والثلاثون

في أبواب المسجد وماسد منها ، وما بقى ، وما يحاذيها من الدور قديما وحديثا

أبواب المسجد

تقدم أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل للمسجد الشريف ثلاثة أبواب : بابا فى مؤخره ، والباب الذى يُدْعَى باب عاتكة و يقال له باب الرحمة ، والباب الذى كان يدخل منه النبى صلى الله عليه وسلم وهو باب آل عثمان

وقد اقتضى كلام المؤرخين أن هذين البابين لم يحولا عن مكانهما ، بل لما زيد فى المسجد من جهتهما جعلا فى محاذاة محلهما الأول

وقد قدمنا فى زيادة عمر رضى الله عنه أنه جعل الأبواب ستة : بابين عن يمين القبلة ، و بابين عن يسارها ، و بابين خلف القبلة ، وأنه لم يغير باب عاتكة ولا باب عثمان ، بل زاد فى جهة باب عاتكة البابَ الذى عند دار مروان وهو باب السلام ، وزاد بعد باب عثمان البابَ المعروف بباب النساء ، فهذان البابان هما المَزِيدَان فى المغرب والمشرق .

وسبق أيضاً أن عثمان رضى الله تعالى عنه أقر هذه الأبواب على حالها ، ولم يزد فيها شيئاً .

ولم يذكر ابن زبالة ولا يحيى ولا رزين ما زاده الوليد من الأبواب ، ولا ما زاده المهدى حين زاد فى المسجد ، إلا أن ابن النجار قال : وأما أبواب المسجد فكانت بعد زيادة المهدى فيه ، وذكر تسعة عشر بابا غيرَ باب خَوْخَة أبى بكر رضى الله عنه ، كما سيأتى ، و بين أما كنها كما سنشير إليه .

وقال المطرى وتبعه المراغى والمجدُ : لما بنى الوليد بن عبد الملك المسجد ووسّعه جعل له عشرين بابا ، وذكر الأبواب المذكورة بعينها مع الخَوْخَة المذكورة ، وهذا وهم ؛ لأن المنقول فى هذه الأبواب أنها إنما كانت فى زيادة المهدى ، وهى التى استقر عليها الحال فى أمر المسجد ، وأيضا فما سيأتى فى وصف الأبواب التى

فى جهة الشام وما يليها من جهة المشرق والمغرب لا يتصور أن يكون فى زمن الوليد ؛ لما تقدم من أن المهدى هو الذى زاد ذلك ، والمطرى موافق عليه ، فكيف يذكر وصف تلك الأبواب فيما نسبه للوليد ، وسيأتى أيضاً أن أحد هذه الأبواب — وهو باب زياد — إنما فتحه زياد فى ولاية أبى العباس المنصور .

والحاصل من كلام مَنْ كان قبل المطرى من المؤرخين أن الذى استقر عليه أمر المسجد بعد انتهاء زياداته فى أمر الأبواب عشرون بابا ، مع عَدِّ الخَوْخَة المذكورة ؛ فإنها كما سيأتى كانت شارعَةً فى رحبة دار القضاء ولا ينافى ذلك قول ابن زبالة . وفى المسجد — يعنى فى زمنه — أربعة وعشرون بابا لأنه قال فى تفصيلها : منها ثمانية من ناحية المشرق ، ومما يلى القبلة : باب يدخل منه الأمراء من ناحية باب مروان إلى المقصورة ، وعن يسار القبلة الباب الذى تدخل منه المقصورة من موضع الجنائز ، وعن يمين القبلة باب بحذائه سواء فى الطرف الآخر أى فى مقابلته يدعى باب بيت زيت القناديل ، ذكروا أن مروان عمله ، وخوخة آل عمر تحت المقصورة ، ومما يلى المغرب ثمانية أبواب منها الخوخة التى تقابل يمين خوخة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ومما يلى الشام أربعة ، انتهى كلام ابن زبالة ؛ فغيره لم يعد الباب الذى كان فى القبلة شارعاً فى دار مروان ؛ لأنه باب دار ، وكذا خوخة آل عمر ؛ لأنها للدار لاللمسجد ، وكذا باب زيت القناديل؛ لأنه باب خزانة للمسجد لا يدخل منه عامة الناس ، وكان موضعه عند زاوية الجدار الغربية مما يلى القبلة وجدوه عند عمارة المنارة التى بباب السلام وسد بجدارها

وأما الباب الذى ذكره عن يسار القبلة فيؤخذ من كلامه أنه كان فى المشرق مقابلا لباب زيت القناديل وأنه خاص بالمقصورة ، ولو كان بابا عاما لعده فى الأبواب التى فى جهة المشرق ، وقد ظهر هذا الباب عند هَدْم المنارة الشرقية بعد الحريق الذى أدركناه ، وهو باب صُغير وجد مسدودا عند زاوية

جدار المسجد الشرقية ، وكأن الدخول كان منه إلى الخزانة التي تحت المنارة الشرقية اليمانية ثم منها إلى المقصورة ، ولهذا لما بسط ابن زبالة الكلام على أبواب المسجد في موضع آخر لم يذكر هذه الأبواب الأربعة ، بل اقتصر على العشرين

فلنذكر ما ذكره وغيره فيها وما زاده المطري في بيانها مما يعرف بمحلها ثم نفرد خوخة آل عمر بالكلام عليها ، فنقول :

باب النبي صلى الله عليه وسلم

الأول : وهو مبتدأ أبواب جهة المشرق مما يلي القبلة ، بابُ النبي صلى الله عليه وسلم ، سمي بذلك لكونه في مقابلة حجرة عائشة رضي الله تعالى عنها التي بها قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، لا لكونه دَخَل منه ؛ إذ لا وجود له في زمنه صلى الله عليه وسلم ، وقد سد عند تجديد الحائط الشرقي ، وجعل مكانه شباك يقف الإنسان عنده من خارج ، فيرى الحجرة الشريفة ، كذا قاله المطري ومَنْ بعده ، وسيأتي ما يخالفه

باب علي

الثاني : باب علي رضي الله عنه ، كان يقابل بيتَه الذي خلف بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد سد أيضاً عند تجديد الحائط ، وما ذكرنا من أن باب النبي صلى الله عليه وسلم مقدم على هذا الباب للقبلة صرح به المطري ومَنْ تبعه ، وهو الذي تقتضيه المناسبة التي ذكروها للتسمية بذلك ، لكن صرح ابن النجار بخلافه ، فقال في عَدِّ أبواب جهة المشرق : باب علي ، ثم باب النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم باب عثمان ، ثم باب مستقبل دار رَيْطَة ، إلى آخر الترتيب الآتي ، ومأخذه في ذلك أن ابن زبالة ويحيى ذكرا ما كان مكتوبا على جدارات المسجد فقالا : وفي الزيادة الشرقية في جَوْف المسجد بين باب علي و باب النبي صلى الله عليه وسلم مكتوب ، وذكرا ما كان مكتوبا

ثم قالا : و بين باب النبي صلى الله عليه وسلم و باب عثمان مكتوب ، وذكرا ما كان مكتوبا

ثم ذكرا أيضاً في الكتابة من خارج الجدار على الأبواب نحو هذا ، وقالا

أيضاً : إن فى القبلة من خارج المسجد فى موضع الجنائز حيث يصلى على الموتى عند باب على بن أبى طالب مكتوب بعد البسملة (إن فى خلق السموات والأرض ـ الآية) فاقتضى ذلك أن باب على هو أول أبواب هذه الجهة ، وأن باب النبى صلى الله عليه وسلم هو الثانى منها ، والذى حمل المطرى ومن تبعه على مخالفة ذلك ما قدمناه عنه من رعاية تلك المناسبة ، ويحتمل أن بيت على رضى الله عنه كان ممتداً فى شرقىّ حجرة عائشة رضى الله عنها إلى موضع الباب الأول فسمى باب على بذلك ، ويدل له ما تقدم عن ابن شبة فى الكلام على بيت فاطمة رضى الله عنها من أنه كان فيما بين دار عثمان التى فى شرقى المسجد وبين الباب المواجه لدار أسماء، ويكون تسمية الباب الثانى بباب النبى صلى الله عليه وسلم لقربه من بابه ، والله أعلم.

باب عثمان
باب جبريل

الثالث : باب عثمان ، وهو الباب الذى وضع قبالة الباب الذى كان يدخل منه النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد قدمنا عن ابن زبالة ويحيى أن الباب الذى كان يدخل منه النبى صلى الله عليه وسلم هو باب آل عثمان ولذا أطلق عليه فى رواية ليحيى فى زيادة عثمان أنه باب النبى صلى الله عليه وسلم . وقد ظهر درج عند باب مقصورة الحجرة الشامى فى مقابلة الباب المذكور بسبب الحفر للدعامة التى هناك ، والظاهر أنه درج الباب المذكور قبل تحويله ؛ لكونه فى موازاة جدار المسجد الأول كما يؤخذ مما سبق من حدوده، وسمى بذلك لمقابلته لدار عثمان بن عفان، وسيأتى أنها كانت من الطريق التى تسلك إلى البقيع التى عن يسار الخارج من هذا الباب إلى الطريق التى فى شامى المدرسة الشهابية، والذى يقابل هذا الباب اليوم من دار عثمان رباط أنشأه جمال الدين محمد بن أبى المنصور الأصفهانى المعروف بالجواد وزير بنى زَنْكى.

قال المطرى : وقفه على فقراء العجم ، وجعل له فيه تربة لها شباك فى جهة الشباك المتقدم ذكره فى مقابلة القبر الشريف . ولما مرض وهو فى السجن قال للشيخ أبى القاسم الصوفى : كنت أخشى أن أنقل من الدست إلى القبر ، يعنى أنه فرح بأن يأتيه الموت وهو على تلك الحالة ، وقال له : إن بينى وبين أسد

الدين شركوه ــ يعنى عم صلاح الدين بن أيوب ــ عهداً أن مَنْ مات قبل صاحبه حمله صاحبه الحى إلى المدينة الشريفة فدفنه فيها فى التربة التى عملها ، فإن أنا مت فامْضِ إليه فذكره ، فلما توفى سار الشيخ إلى أسَد الدين فى هـذا المعنى ، فأعطاه مالا صالحاً ليحمله به إلى مكة والمدينة الشريفتين ، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية ، ومن يقرأ بين يدى تابوته عند النزول والرحيل وقدوم مدينة تكون فى الطريق ، وينادى بالصلاة عليه فى البلاد ، فلما كان فى الحلة اجتمع الناس للصلاة عليه ، فإذا شاب قد ارتفع على موضع عالٍ ونادى بأعلى صوته :

سرى نَعْشُه فوق الرقاب ، وطالما   سرى جودُه فوق الركاب ونائلُهْ
يَمُرُّ على الوادى فَتُثْنِى رماله   عليـه ، وبالنادى فتثنى أراملُهْ

فلم يُرَ باكٍ أكثر من ذلك اليوم ، ثم وصلوا به إلى مكة فطافوا به حول الـكعبة ، وصلوا عليه بالحرم ، وحملوه إلى المدينة فصلوا عليه ودفنوه بتربته المذكورة .

وكانت وفاته فى سنة تسـع وخمسين وخمسمائة ، وكان له آثار حسنة سيما بالحرمين الشريفين ، وعمل للمدينة الشريفة السور الآتى ذكره ، وسنذكر هناك شيئاً من ترجمته .

وفى قبلة رباطه من دار عثمان أيضاً تُرْبَة اشترى أرضَها أسَدُ الدين شيركوه ابن شاذى عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذى ، وحمل إليهـا هو وأخوه نجم الدين أيوب والد صلاح الدين بعـد موتهما ودفنا فيها سنة ست وسبعين وخمسمائة ، وتوهم الذهبى أنهما دفنا بالبقيع لجزم به فى العبر .

وبقية دار عثمان من القبلة دار إلى جانب هـذه التربة موقوفة على خدام الحرم الشريف يسكنها مشايخهم ، وهذه دار عثمان الـكبرى المقابلة لهذا الباب ، وسيأتى ذكر داره الصغرى التى فى موضعها رباط المغاربة . ويعرف هـذا الباب أيضاً بباب جبريل عليه السلام .

قلت : ولم يبينوا سببَ تسميته بذلك ، ولعل سببها ما سبق فى الفصل الرابع والعشرين من قول أبى غسان : إن علامة مقام جبريل التى يعرف بها اليوم أنك

تخرج من الباب الذى يقال له باب آل عثمان فترى على يمينك إذا خرجت من ذلك الباب على ثلاثة أذرع وشبر وهو من الأرض على نحو من ذراع وشبر حجراً أكبر من الحجارة التى بها جدار المسجد ، مع ما قدمناه أيضاً من أن الأصل فى ذلك أن جبريل عليه السلام فى غَزْوَة بنى قُرَيْظَة أتى على فرس عليه اللأمة حتى وقف بباب المسجد عند موضع الجنائز ، ولم يكن ثم حينئذ غير الباب المذكور وروى ابن زبالة عن المطلب بن عبد الله أن حارثة بن النعمان مرّ والنبىّ صلى الله عليه وسلم مع جبريل فى موضع الجنائز ، فمر ولم يسلم ، فقال جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم : أهو ممن شهد بدرا ؟ قال : نعم ، قال : فكيف هو فى أمتك؟ أيرون لهم به ؟ قال : نعم ، قال : مازالت الملائكة الذين شهدوا بدرا معك يرى لهم ، قال: فجاء حارثة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : هل رأيت الرجل الذى كان معى ؟ قال : نعم وشبهته بدحية الكلبى ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : فإنه جبريل ، وقد قال لو سلم لرددنا عليه ، فقال : ما منعنى من السلام إلا أنى رأيتك تحَدَّثُ معه فكرهت أن أقطعه عنك ، وروى البيهقى فى الدلائل عن حارثة بن النعمان قال : مررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل جالس فى المقاعد ، فسلمت عليه ومررت ، فلما رَجَعْنا وانصرف النبى صلى الله عليه وسلم قال لى : هل رأيت الذى كان معى ؟ قلت : نعم ، قال : فإنه جبريل عليه السلام ، وقد ردّ عليك السلام .

وكان مكتوباً على هذا الباب من خارجه بعد البسملة (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ـ الآيتين) .

باب ريطة (باب النساء)

الرابع : باب رَيْطَة بفتح الراء ابنة أبى العباس السفاح ، كان يقابل دارها ، ويعرف بباب النساء ، وسبب تسميته بذلك مارواه أبو داود من طريق عبدالوارث عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو تركنا هذا الباب للنساء ، قال : نعم ، فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات . ثم قال أبو داود عقبه : وقال غير عبدالوارث : قال قال عمر ، وهو أصح ، ثم رواه من طريق إسماعيل

عن أيوب عن نافع عن ابن عمر « قال قال عمر » بمعناه ، قال : وهو أصح . ثم رواه أيضاً من طريق بكير عن نافع قال : إن عمر بن الخطاب كان ينهى أن يدخل من باب النساء ، وهذا هو المعتمد ؛ لما تقدم من أنه لم يكن فى زمنه صلى الله عليه وسلم فى شرقى المسجد غير باب آل عثمان . وقد روى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن ابن عمر قال : سمعت عمر حين بنى المسجد يقول : هذا باب النساء ، فلم يدخل منه ابن عمر حتى لقى الله ، وكان لا يمر بين أيدى النساء وهن يصلين .

ودار ربطة التى كانت مقابلة لهذا الباب قال المطرى : كانت دار أبى بكر الصديق ، ونقل أنه توفى فيها ، وهى الآن مدرسة للحنفية بناها يازكوج أحد أمراء الشام ، وعمل له فيها مشهداً نقل إليه من الشام ، والطريقُ إلى البقيع بينها و بين دار عثمان ، نقل ذلك ابن زبالة .

قلت : وما ذكره من نسبة الدار المذكورة لأبى بكر الصديق سيأتى مستنده مع بيان مافيه .

وفى أعلى هذا الباب من خارجه لوح من الفسيفساء مكتوب فيه آية الكرسى من بناء المسجد القديم ، وقد زال عند الحريق الثانى .

خامس

الخامس : باب كان يقابل دار أسماء بنت الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنهم ، كانت من جملة دار جبلة بن عمرو الساعدى ، ثم صارت لسعد بن خالد بن عمر بن عثمان ، ثم صارت لأسماء المذكورة ، وهى اليوم رباط للنساء ، وقد سُدَّ هذا الباب أيضاً عند تجديد الحائط الشرقى من المنارة الشرقية الشمالية إلى هذا الباب المذكور فى أيام الناصر لدين الله سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، كذا قاله المطرى ومَنْ تبعه ، وظاهر كلام ابن جُبَير أن سَدَّ هذا الباب وغيره من الأبواب كان قبل الثمانين وخمسمائة ؛ لأن رحلة ابن جبير كانت قبل الثمانين كما قدمناه ، وقد قال فيها : وللمسجد المبارك تسعة عشر بابا أى غير خوخة أبى بكر لم يبق منها مفتوحاً غير أربعة ، فى المغرب منها اثنان ، وفى المشرق

اثنان، انتهى. لكنه قال بعد ذلك: وفي القبلة باب واحد صغير مغلق ، يعني باب دار الإمارة . ثم قال: وفي المغرب خمسة مغلقة أيضاً ، وفي المشرق خمسة أيضاً مغلقة ، وفي الشام أربعة مغلقة أيضاً ، انتهى . فتبين أنها كانت في زمنه غير مسدودة لكنها مغلقة ، فيكون سَدُّها حَدَث في التاريخ الذي ذكره المطرى ، والله أعلم .

باب سادس

السادس ، باب كان يقابل دار خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه وقد دخل في بناء الحائط المذكور، والدار المذكورة اليوم رباط الرجال ، ومعها في جهة الشمال دار عمرو بن العاص كما سيأتي بيانه ، ويعرف الرباط المذكور اليوم برباط السبيل ، وكذا رباط النساء المتقدم ذكره يعرف بذلك أيضاً ، والرباطان المذكوران بناهما القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري رحمه الله تعالى . وذكر ابن زبالة ويحيى أنه كتب على نجاف هذا الباب من داخل « مما أمر به المهدى محمد أمير المؤمنين مما عمل البصريون سنة اثنتين وستين ومائة ومبتدأ زيادة المهدى في المسجد .

قلت : وكتابة ذلك عليه تقتضي أنه الذي أحدثه وما بعده ، وأنه أول زيادته كما تقدم .

باب سابع

السابع : باب كان يقابل زقاق المناصع دخل أيضاً في الحائط بعد تجديده ، وزقاق المناصع كان بين دار عمرو بن العاص وأبيات الصوافي ، وعبر عنها المطرى بدار موسى بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي لأمر توهمه من كلام ابن زبالة كما سنوضحه إن شاء الله تعالى ، والزقاق اليوم ينفذ إلى دار الحسن بن على العسكري ، وتعرف اليوم بحوش الحسن ، وكان الزقاق المذكور ينفذ إلى المناصع خارج المدينة ، وهو كان متبرزاً للنساء بالليل على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبيات الصوافي هذه التي عبر عنها المطرى بدار موسى ابن إبراهيم سيأتي أن بعضها اليوم رباط للرجال أنشأه القاضي الفاضل محيي الدين

أبو على عبد الرحيم بن على بن الحسن اللخمى البَيْسانى ، ودخل هذا الباب أيضاً فى الحائط عند تجديده .

باب ثامن

الثامن: باب كان يقابل أبيات الصوافى دخل فى الحائط أيضاً عند تجديده ، وأبيات الصوافى تقدم أن بعضها الذى يلى دار عمرو بن العاص هو رباط الفاضل ، و بعضها الآخر وهو الذى كان يقابل هذا الباب هو المعروف اليوم بدار الرسام التى وقفها الشيخ صفى الدين السلامى على أقاربه ثم على الفقراء ، وفى شاميها الباب الذى يدخل منه إلى رباطى النخلة ، وهما رباطا السلامى ، وقد عبر المطرى عن ذلك بقوله « وهى — يعنى أبيات الصوافى — فى دور كانت بين موسى بن إبراهيم المخزومى و بين عبيدالله بن الحسين الأصغر بن على زين العابدين بن الحسين ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهم » قال : وموضع هذه الدور اليوم دار اشتراها الشيخ صفى الدين أبو بكر بن أحمد السلامى رحمه الله ووقفها على قرابته السلاميين ، انتهى .

وسيأتى أن أبيات الصوافى هى الدور التى كان فيها قهطم ، وأنها كانت بين دار عمرو بن العاص ودار موسى بن إبراهيم المخزومى المشتركة بينه و بين عبيد الله بن الحسين ، وأن هذه الدار المشتركة كانت أول الدور فى جهة المشرق مما يلى الشام ، فأبيات الصوافى هى دار قهطم ، وفى موضعها ما قدمناه من رباط الفاضل ودار السلامى . وأما الدار المشتركة ففى موضعها اليوم الميضأة المعطلة و بيت الرئيس إبراهيم الذى بين الميضأة والزقاق الذى يلى دار المضيف كما سيأتى بيانه ، ودار المضيف هى آخر الدور التى فى جهة الشام ، والدار المشتركة كانت ملاصقة لها ، وسيأتى بيانُ منشأ ما وقع للمطرى ، وهذا الباب آخر الأبواب التى كانت فى جهة المشرق .

أبواب المسجد الشامية

وقد طوى المطرى الكلام على الأبواب الشامية ، فقال : وفى شمالى المسجد

أربعة أبواب سدت أيضاً عند تجديد الحائط الشمالى ، وليس فى شمالى المسجد اليوم باب إلا باب سقاية عمرتها أم الإمام الناصر .

وسبب عدم كلام المطرى على الأبواب الشامية أن ابن زبالة لم يذكر ما يقابلها من الدور ، لكن ظهر لى أنه يؤخذ من كلامه وكلام ابن شبة فى الدور المطيفة بالمسجد ، فلنذكر ما استفدنا منهما فى ذلك ، فنقول :

باب تاسع

التاسع : باب كان فى دبر المسجد ، وهو أول أبواب الشام مما يلى المشرق ، وكان يقابل دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف ، وهى دار جده عبد الرحمن التى كان يُنْزِلُ بها ضيفانَ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتى ، وبقية دار ابن مسعود ، وفى موضعهما الدار المعروفة بدار المضيف وما فى غربيها من رباط الظاهرية

باب عاشر

العاشر : باب كان يقابل دار أبى الغيث بن المغيرة ، وفى موضعها اليوم الرباط المعروف برباط الظاهرية والشرشورة

الباب الحادى عشر

الحادى عشر : باب كان يقابل ما يلى دار أبى الغيث من أبيات خالصة مولاة أمير المؤمنين ، وموضع ذلك المارستان الذى أنشأه أبو جعفر المنتصر بالله سنة سبع وعشرين وستمائة

الباب الثانى عشر

الثانى عشر : باب كان فى مقابلة بقية أبيات خالصة وفى موضع ذلك اليوم بيت وزقاق يتوصل منه إلى الرباط الذى أنشأه الشيخ شمس الدين الششترى) وهذا الباب آخر الأبواب التى كانت فى جهة الشام ، وكلها اليوم مسدودة كما تقدم ، وما يوجد اليوم من الدور والأبنية الملاصقة لجدار المسجد المذكور كلها حادثة كما يؤخذ من كلام متقدمى المؤرخين ، ولم أقف على ابتداء حدوث ذلك

الباب الثالث عشر

الثالث عشر : وهو أول أبواب المغرب مما يلى الشام باب كان يقابل دار منيرة وكانت من دور عبد الرحمن بن عوف ، ثم صارت لعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، ثم صارت لمنيرة مولاة أم موسى ، وفى موضعها اليوم الدار التى

صارت لشيخنا العارف بالله سيدى عبد المعطى المغربى نزيل مكة المشرفة ، ثم انتقلت للسيد الشريف العلامة محيي الدين قاضى الحنابلة بالحرمين الشريفين ، وما فى قبلتها إلى الباب الذى يدخل منه إلى دور القياشين التى للخواجا قاوان ، وهذا الباب مسدود كما هو مشاهد من خارج المسجد .

الباب الرابع عشر

الرابع‌عشر : باب كان يقابل دار منيرة أيضاً كما صرح به ابن زبالة ويحيى ، ووهم المجدُ فجعله الذى بعده ، وموضع ما يقابله اليوم من دار منيرة الدار الموقوفة على الجدام التى فى قبلة الزقاق الذي يدخل منه إلى دور القياشين ، وهذا الباب مسدود اليوم كما يظهر من خارج المسجد أيضاً ، وبذلك يعلم أن محلهما من ذلك الجدار لم يجدد .

الباب الخامس عشر

الخامس عشر : باب كان يقابل دار نصير صاحب‌المصلى وهو مولى المهدى وكانت هذه الدار منزلا لسكينة بنت الحسين بن على رضى الله عنهم ، وفى موضعها اليوم الدار التى عن يسار الداخل من زقاق دور القياشين والدار التى تعرف اليوم بدار تميم الدارى ، وقد آلت إلىّ ثم وقفتُها ، وهى الآن منزلى ، ولم أقف على أصل فى تسميتها بذلك ، وهذا الباب فى مقابلة الدار المعروفة بدار تميم من دار نصير ، وهو مسدود اليوم ، وبقيت منه قطعة تظهر من خارج المسجد ، ودخل باقيه عند تجديد الحائط من باب عاتكة إليه .

الباب السادس عشر

السادس عشر : باب كان يقابل دار جعفر بن يحيى بن خالد بن بَرْمَك ، وقد دخل فى داره هذه فارعٌ أطمُ حسان بن ثابت كما قاله ابن زبالة ، وفى موضعها اليوم المدرسة الكلبرجية التى أنشأها السلطان شهاب الدين أحمد سلطان كلبرجة من بلاد الهند فى سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة ، وهذا الباب دخل فى الحائط عند تجديده ، وأسقطه المطرى مع أنه مذكور فى كلام ابن زبالة ويحيى ، ولما أسقطه زاد بدله بابا لا وجود له فى كلام من قبله ، على ما سيأتى التنبيه عليه .

باب عاتكة
(باب السوق)
(وباب الرحمة)

السابع عشر : باب عاتكة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية ، كان يقابل دار عاتكة المذكورة ، ثم صارت هذه الدار ليحيى بن خالد البرمكى والد جعفر ، ودخلت فى دار جعفر المتقدم ذكرها ، وتوهم الزين المراغى من نسبتها لجعفر بن يحيى ومن كون أطم حسان دخل فى دار جعفر بن يحيى أنها محل أطمه ، وليس كذلك لما قدمناه ، وفى موضعها اليوم دار من أوقاف الخدام فى قبلة المدرسة الكلبرجية تواجه يمينَ الخارج من باب المسجد المذكور ، وقد استبدلها الشيخ الزينى بن مزهر بإزالة ديوان الانشاآت وما غربيها من الدور، واتخذ ذلك مدرسة ورباطا وأروقة على يد صاحبنا العلامة الشيخ نور الدين المحلى نفع الله به ، ويعرف هذا الباب قديماً أيضا بباب السوق ، كما يؤخذ مما سيأتى فى باب زياد ، لأن سوق المدينة كانت فى المغرب فى جهته . ويعرف قديماً أيضا بباب الرحمة ؛ فإن يحيى ذكر فى بناء النبى صلى الله عليه وسلم لمسجده أنه صلى الله عليه وسلم جعل له ثلاثة أبواب : باب فى مؤخره ، وباب عاتكة الذى يدعى باب عاتكة ويقال باب الرحمة ، هذا لفظه . وأطْبَقَ على وصفه بذلك مَنْ بعده من المؤرخين ، حتى صار فى زماننا هو الأغلب عليه ، ومع ذلك فلم أر فى كلام أحد بيان السبب فى تسميته بذلك، وسألت عنه مَنْ لقيته من المشايخ فلم أجد عند أحد منهم علما من ذلك ، ثم ظهر لى معناه بحمد الله تعالى ، وذلك أن البخارى روى فى صحيحه عن أنس ابن مالك أن رجلا دخل المسجد يوم الجمعة من بابٍ كان نحو دار القضاء ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب ، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما ، ثم قال : يارسول الله ، هلكَتِ الأموالُ ، وانقطعت السبل ،فادع الله يغثنا ،فرفَعَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال : اللهم أغثنا ،اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، قال أنس : ولا والله ما نرى فى السماء من سَحَاب ولا قَزَعة ، وما بيننا و بين سَلْع من بيت ولا دار ، قال : فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس ، ولما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت ، فلا والله ما رأينا الشمسَ سبعا ، ثم دخل رجل من

ذلك الباب فى الجمعة ـ يعنى الثانية ـ ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب ـ الحديث ـ بطوله ، وسنبين فى باب زياد ـ وهو الذى يلى هذا ـ أن دار القضاء كان محلها بين باب الرحمة وباب السلام ، وقد تقرر أنه لم يكن للمسجد فى زمنه صلى الله عليه وسلم فى هذه الجهة إلا الباب المعروف بباب الرحمة ؛ فظهر أن هذا الرجل الطالب لإرسال المَطر وهو رَحْمة إنما دخل منه ، وقد أنتج سؤالُه حصولَ الرحمة ، وأنشأ الله السحاب الذى كان سببا فيها من قِبَله أيضا ؛ لأن سَلْعا فى غربى المسجد ، فسمى والله أعلم بباب الرحمة لذلك ، لـكن فى رواية البخارى عن أنس أيضا أن رجلا دخل يوم الجمعة من باب كان وُجَاه المنبر ، ومقتضاها أنه دخل من الباب الذى كان فى شامى المسجد ؛ لقرب إطلاق مواجهته المنبر عليه ، لـكن ذلك الباب ليس نحو دار القضاء ، فليجمع بين الروايتين بأن الواقعة متعددة كما اقتضاه كلام بعضهم ، أو بأنه وقع التجوز فى إطلاق كون ذلك الباب وُجَاه المنبر ، أو بأن باب الرحمة كان كما قدمناه فى آخر جهة المغرب مما يلى الشام ، فجاء ذلك الداخل من جهته ودخل منه ، ثم رأى أن قيامه بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر لا يتم له إلا بتخطى الصفوف ، فمرج إلى الباب الآخر المواجه للمنبر ، فغلب إطلاق باب الرحمة على الباب الذى فى جهة مجيئه ؛ لاعتضاده بما تقدم من مجىء السحاب من قبله ، والله أعلم

باب زياد (باب القضاء)

والثامن عشر : باب كان يعرف بباب زياد ، وقد سد أيضا عند تجديد الحائط الذى هو فيه وكان بين خَوْخَة أبى بكر الآتى ذكرها و بين الباب الذى قبله وسمى بذلك لما رواه ابن شبة عن محمد بن إسماعيل بن أبى فديك عن عمه قال : كانت رَحْبة القضاء لعمر رضى الله عنه ـ يعنى دارا له ـ وأمر حفصة وعبد الله ابنيه رضى الله عنهما أن يبيعاها عند وفاته فى دَيْن كان عليه ، فإن بلغ ثمنها دينه و إلا فاسألوا فيه بنى عدى بن كعب حتى تَقْضُوه ، فباعوها من معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما ، وكانت تسمى دار القضاء ، قال ابن أبى فديك : فسمعت

عمى يقول : إن كانت لتسمى دار قضاء الدين . قال : وكان معاوية اشتراها عند ولايته ، فلم تزل حتى قدم زياد بن عبد الله المدينة سنة ثمان وثلاثين ومائة ، فهدَمها وجعلها رحبة للمسجد ، وفتح فيها الباب الذى إلى جنب الخَوْخَة الصغيرة ، وجعل هدمها على أهل السوق ، قال محمد بن إسماعيل بن أبى فديك : فأخذ منى فى هَدْمها أربعة دوانق ، قال ابن أبى فديك : وأخبرنى أيضا كما أخبرنى عمى عبيد الله بن عمر بن عبد الله بن عبد الله بن عمر قال : وأشار لى عبيد الله إلى صندوق فى بيته وقال : فى هذا الصندوق إبراآت من ذلك الدين . وروى أيضا عن عبد العزيز بن مروان أن دار القضاء كانت لعبد الرحمن بن عوف ، قال : وهى اليوم رحبة لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غربيه مما يلى دار مروان . وروى عن سَهْلَة بنت عاصم أنها إنما سميت دار القضاء لأن عبد الرحمن اعتزل فيها ليالى الشورى حتى قضى الأمر فباعها بنو عبد الرحمن من معاوية ، فصارت بعد فى الصوافى ، وكانت الدواوين فيها وبيت المال ، فهدمها أبو العباس أمير المؤمنين وصَيَّرها رحبة للمسجد ، فهى اليوم كذلك

وروى ابن زبالة خبر ابن أبى فديك الأول مقتصراً عليه من طريق محمد ابن إسماعيل — يعنى ابن أبى فديك — عن ابن عمر أن عمر توفى وترك عليه ثمانية وعشرين ألفا ، فدعا عبد الله وحَفْصة فقال : إنى قد أصَبْتُ من مال الله شيئاً ، وأنا أحِبُّ أن ألقى الله وليس فى عنقى منه شىء ، فبيعا فيه حتى تَقْضياه ، فإن عجز عنه مالى فسَلاَ فيه بنى عَدِى ، فإن بلغ وإلا فلا تَعْدُوَا قريشا ، فخرج عبد الله بن عمر إلى معاوية فباع منه دار عمر التى يقال لها دار القضاء ، وباع ماله بالغابة ، فقضى دينه ؛ فكان يقال « دار قضاء دين عمر » وهى رحبة القضاء .

قال محمد بن إسماعيل : فهدم زياد بن عبيد الله إذ كان واليا لأبى العباس على المدينة فى سنة ثمان وثلاثين ومائة دارَ القضاء ، وكانت تُكْرَى من تجار أهل

المدينة ، فهدمها زياد وجعلها رحبة للمسجد ، وفتح الباب الذى إلى جنب الخوخة — الخبرَ المتقدم .

قلت : وما تضمنه هذا الخبر من تاريخ هدم الدار وعمل الباب المذكور فيها ربما يخالف ما ذكره ابن زبالة ويحيى فيما كتبا على أبواب المسجد ، فإنهما قالا : وعلى باب زياد فى لوح من ساج مضروب بمسامير مكتوب من خارج ، ثم ذكرا من جملة المكتوب : أمَرَ عبدُ الله عبد الله أمير المؤمنين أكرمه الله بعمل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمارة هذه الرحبة توسعةً لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن حضره من المسلمين فى سنة إحدى وخمسين ومائة ابتغاء وجه الله والدار الآخرة ، إلى آخر ما ذكراه .

قلت : وزياد هذا هو زياد بن عبيد الله بن عبد المَدَان الحارثى خالُ السفاح ، وكانت ولايته على المدينة ومكة من قبل أبى العباس المنصور فى سنة ثمان وثلاثين ومائة ؛ فقولُ ابن أبى فديك فى رواية ابن شبة «فلم يزل حتى قدم زياد بن عبيد الله سنة ثمان وثلاثين» مُبَيِّنٌ لتاريخ قدومه فقط ، وقوله « فهدمها » يعنى فى مدة ولايته ؛ فليس فيه تعرض لأن الهدم كان فى ذلك التاريخ ؛ فلا يخالف ما كتب على الباب المذكور ، وليحمل أيضاً قوله فى رواية ابن زبالة « فهدم زياد بن عبيد الله إذ كان والياً فى سنة ثمان وثلاثين ومائة » على أن المرادَ بيانُ ابتداء ولايته ، لا تاريخ الهدم ، جَمْعا بين الكلامين ، والرواية الأولى أقرب إلى التأويل من هذه .

وقد ذكر ابن زبالة فى روايته المتقدمة عن محمد بن إسماعيل أنه قال : إن زياد بن عبيد الله جعل السُّتُورَ على الأبواب الأربعة : باب دار مروان أى المعروف بباب السلام ، والخَوْخَة أى المجعولة فى محاذاة خوخة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وباب زياد أى المذكور ، وباب السوق أى وهو باب الرحمة كما يؤخذ من كلام يحيى .

وقال المجد فى ترجمة دار القضاء : هى دار مروان بن الحكم ، وكانت لعمر ابن الخطاب فبيعت فى قضاء دَيْنه ، وقد زعم بعضهم أنها دار الإمارة ، وهو محتمل لأنها صارت لأمير المدينة .

قلت : دار مروان هى الآتية فى قبلة المسجد ، وليست هذه بلا شك ، ولعل المراد أن مروان ملك دار القضاء فنسبت إليه ، وهو غير معروف ، إلا أن الحافظ ابن حجر نقل عن ابن شبة أنها صارت لمروان وهو أمير المدينة ، قال : فلعل ذلك شبهة من قال « إنها دار الإمارة » فلا يكون غلطا ، وقال فى المشارق : وقد غلط فيها بعضهم فقال يعنى دار الإمارة .

قلت : والذى رأيته فى ابن شبة إنما هو صيرورتها لمعاوية كما قدمناه ، مع أن المشهور قديما بدار الإمارة إنما هى دار مروان التى فى قبلة المسجد ، وتقدم أن الأمراء كانوا يدخلون من باب منها إلى المقصورة ، وتوهم البرهان ابن فرحون أنها رحبة دار القضاء ، فقال : قال ابن حبيب : وما كان مَنْ مضى – يعنى من القضاة – يجلسون فى رحاب المسجد ، بل إما عند موضع الجنائز ، يريد خارج باب جبريل ، و إما رحبة دار مروان وهى التى تسمى رحبة القضاء ، وقد جعل ذلك فى هـذا الوقت ميضأة ، انتهى .. وهو وَهَم ؛ لأن الذى جعل ميضأة هو نفس دار مروان كما سيأتى ، و بالجملة فلا خلاف فى كون دار القضاء هى الرحبة التى كانت فى غربى المسجد إلى باب مروان .

و يؤخذ مما تقدم أن هذه الرحبة كانت فى محاذاة باب زياد وما بعده إلى باب السلام .

و يؤخذ مما سيأتى فى الدور المُطيفة بالمسجد أنها كانت ممتدة إلى باب الرحبة أيضاً ، وهو مقتضى ما أخبر به بعضُ مشايخ المدينة أنه لم يزل يسمع أنه لم يكن بين باب الرحمة و باب السلام دار تلاصق المسجد .

قلت : فموضع هذه الرحبة اليوم دار الشباك الملاصقة لباب الرحمة ، وما يليها من المدرسة الجوبانية والحصن العتيق .

ودار الشباك أنشأها شيخ الخدام كافور المظفرى ، المعروف بالحريرى ، بعد السبعمائة ، وجعل لها شباكاً إلى المسجد ، وليس حول المسجد دار لها شباك فى جدار المسجد إلا هى ، والذى يظهر أن باب زياد كان فى موضع شباكها أو إلى جانبه القبلى

وأما المدرسة الجوبانية فابتناها جوبان أتابك العساكر المُغلية فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة ، وجعل له فيها تربة ملاصقة لجدار المسجد بين دار الشباك والحصن العتيق ، وهى ــ أعنى التربة ــ من جملة رحبة القضاء ، واتخذ فيها شباكاً فى جدار المسجد ، وهو مسدود اليوم ، ولم يدفن فيها بعد أن حمل إليها فى تابوت سنة ثمان وعشرين وسبعمائة من بغداد بأمر السلطان أبى سعيد فدخلوا به مكة وطافوا به حول البيت كما فُعل بالجواد الأصفهانى ، وذلك صحبة الحاج العراقى ، فلما وصلوا به المدينة مَنَعهم أميرُها من ذلك حتى يشاور السلطان الناصر ، كذا قاله بعضهم ، وقال الصلاح الصفدى : لما بلغ الملك الناصر أمر تجهيزه ليدفن فى المدينة جهز الهجن إلى المدينة ، وأمرهم أن لا يمكن من الدفن فى تربته ، فدفن فى البقيع .

وذكر لى بعضُ الناس أن علة المنع من دفنه بتربته أنه إذا وضع فيها للقبلة كانت رجلاه إلى الجهة الشريفة ؛ لأن تربته فى غربى المسجد ، بخلاف الجواد وغيره ممن دفن فى شرقى المسجد ، فإن رؤسهم إلى جهة الأرجل الشريفة ، والله أعلم .

وأما الحصن العتيق فإنه كان منزلا لأمراء المدينة ، ثم انتقل إلى السلطان غياث الدين سلطان بنجالة أبى المظفر أعظم ابن السلطان اسكندر، وابتناه مدرسة

فى سنة أربعة عشرة وثمانمائة ، وتوفى فى تلك السنة ، ويقال : إن غيره سبقه إلى جَعْله رِباطاً قبل ذلك .

ثم اقتضى رأىُ متولى العمارة بعد الحريق الحادث فى زماننا استبدال دار الشباك المذكورة وما يليها من الجوبانية وجميع الحصن العتيق عند هدم ما يلى ذلك من جدار المسجد الغربى ، وعمل ذلك مدرسة ورباطاً للسلطان الأشرف فيما بين باب السلام وباب الرحمة كما سبق فى الفصل التاسع والعشرين .

واعلم أن المطرى زاد هنا بابا بدل الباب الذى أسقطه قبل باب عاتكة فقال : إنه كان بين باب عاتكة وخَوخَة أبى بكر الآتية بابان سُدّا عند تجديد الحائط ، وتبعه على ذلك مَنْ بعده ، والذى اقتضاه كلام ابن زبالة ويحيى وابن النجار أنه ليس بين باب عاتكة وبين الخوخة سوى باب زياد ، ولهذا لما أسقط ابن النجار ذكر الخوخة من الأبواب وجعل أبواب هذه الجهة سبعة قال : الخامس باب عاتكة ، السادس باب زياد ، السابع باب مروان ، انتهى . وبه يُعلم أن الصواب ماقدمناه ، والله أعلم .

خوخة تجاه خوخة أبى بكر

التاسع عشر : الخُوخَة المجعولة تُجَاه خَوْخة أبى بكر رضى الله عنه لما زيد فى المسجد ، وهو معنى ما تقدم عن ابن زبالة حيث قال فى عدد الأبواب : ومما يلى المغرب ثمانية أبواب ، ومنها الخوخة التى تقابل يمنى خوخة أبى بكر .

قلت : وكانت شارعة فى رَحْبة دار القضاء كما قدمناه من كلام ابن زبالة وقدمنا أيضا فى زيادة عمر رضى الله عنه عن أبى غسان قال : أخبرنى محمد بن إسماعيل بن أبى فديك أن عمه أخبره أن الخوخة الشارعة فى دار القضاء فى غربى المسجد خوخة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، أى المجعولة فى محاذاة خوخته .

قال ابن زبالة فى ذكر الكتابة على أبواب المسجد : وليس على الخوخة لا من داخل المسجد ولا من خارجه كتابة ، وقد قدمنا أن لهذه الخوخة اليوم بابا مما يلى المسجد ، وأنه باب حاصل يعرف بحاصل النورة ، وهى معروفة بخوخة أبى بكر ،

ويؤخذ مما تقدم أن ذلك الحاصل من دار القضاء ، وبابه اليوم هى الفتحة الثالثة من الفتحات التى على يسار الداخل من باب السلام ، جُعل بابا فى موضع الخَوْخَة يدخل منه للمسجد ، وبعده شباك ، ثم باب يدخل منه المدرسة الأشرفية .

العشرون : باب مروان ، سمى بذلك لملاصقته لداره التى كانت فى قبلة المسجد مما يلى الباب المذكور ، وبعضها ينعطف على المسجد من جهة المغرب ، وفى موضعها اليوم الميضأة التى أنشأها المنصور قلاوون الصالحى عام ست وثمانين وستمائة ، ويعرف الباب المذكور أيضا بباب السلام ، وباب الخشوع ، قاله المطرى . وفى رحلة ابن جبير أنه يعرف بباب الخشية ، اه . والزوار غالبا إنما يدخلون منه ؛ لكونه أقصد إلى طريقهم من باب المدينة ، فلا يخفى مناسبة تسميته بذلك كله

قال المطرى : ولم يكن فى القبلة حتى إلى اليوم باب إلا خَوْخَة آل عمر ، أو خوخة لمروان عند داره فى ركن المسجد الغربى ، شاهدناهاعند بناء المنارة الكبيرة المستجدَّة ، كان يدخل من داره إلى المسجد منها ، وقد انسدت بحائط المنارة الغربى

قال الزين المراغى : وينبغى الاعتراض على من أطلق أن مروان كان يدخل منها للمسجد ؛ لأن مروان قتلته زوجته أم خالد بن يزيد آمنة بنت علقمة ، ويقال :فاختة بنت هاشم ، وقيل : مات مطعونا ، وقيل : مسموما ، فى نصف رمضان سنة خمس وستين

وكانت مدة خلافته تسعة أشهر ، وذلك قبل أن يزيد ولد ولده الوليد بن عبد الملك بن مروان فى المسجد بنحو من ثلاثين سنة ، ولا شك أنها خَوْخَة آل مروان ؛ فالصواب أنه كان يدخل من مثلها ، لا منها ، وكأن هذا الباب هو المراد بقول ابن زبالة : وباب فى قبلة المسجد يخرج منه السلطان إلى المقصورة.

قلت : أما ما ذكره المطرى من أنه لم يكن فى قبلة المسجد باب — يعنى فيما مضى إلى زمنه — إلا خوخة آل عمر؛ فمردود بما قدمناه عن ابن زبالة ؛ فإنه فصل الأبواب الزائدة على العشرين فجعل منها الباب الذى كان فى القبلة يدخل منه الأمراء من ناحية دار مروان ، ثم ذكر البابين اللذين عن يمين القبلة وعن يسارها يدخل منهما إلى المقصورة ، والباب الذى عن يمين القبلة هو هذا الذى أدركه المطرى ؛ فلا يصح ما ذكره الزين المراغى من حمل كلام ابن زبالة فى الباب الذى ذكره فى القبلة عليه ؛ لأنه قد غاير بينهما ، وأما استدراك المراغى على القول بأن مروان كان يدخل من الباب الذى ذكره المطرى فصحيح ، وقد تقدم عن ابن زبالة أنه يسمى باب بيت زيت القناديل . والذى يظهر كما قال المراغى أنه جعل فى مقابلة باب اتخذه مروان هناك أيضا ؛ لأن ابن زبالة روى أن مروان لما بنى داره جعل لها خَوْخَة فى القبلة ، ثم قال : أخشى أن أمنعها ، أى لكونها فى القبلة ، فجعل لها بابا على يمينك حين تدخل : أى وهو الباب المتقدم وصفه ، ثم قال : أخشى أن أمنع المسجد ،فجعل الباب الثالث الذى يلى باب المسجد، يعنى الملاصق لباب السلام من خارجه ، وفى موضعه اليوم السقاية المقابلة لباب مدرسة الحصن العتيق ، وهذا سبب المناسبة فى تسمية رحبة القضاء برحبة دار مروان ؛ لمقابلتها لبابه هذا .

وروى ابن زبالة عن إسحاق بن مسلم أن عمر بن عبد العزيز لما بنى المسجد أراد أن يجعل فى الأبواب حلقا ، ويجعلها فى الدروب ؛ لئلا يدخلها الدواب ، فعمل الحلقة التى فى باب المسجد مما يلى دار مروان ، ثم بدا له فتركها .

قلت : المراد بذلك السلسلة الحديد المجعولة بجنبتى عقد باب السلام تمنع الدواب من الدخول . وفى باب الرحمة اليوم آثار سلسلة كانت هناك ، وسلسلة باب السلام ترفع فى أيام الموسم ؛ لأنه اتفق فى سنة أربع وخمسين وثمانمائة ازدحام الناس عندها فهلك جماعة ، وكان أمام باب السلام من داخله درابزين شبيه

بالدرابزين الذى كان من داخل باب جبريل ، وكان الناس لا ينزعون نعالهم إلا عنده ، وكذلك كان مثله أمام باب الرحمة من داخله أيضا ؛ فجعل الأمير بردبك المعمار أيام عمارته للظاهر جَقْمق هذه الأحجار المصفوفة إفريزا عند طرف عقد باب السلام مما يلى باب الحصن العتيق ، وجعل ما أمام الباب مما يحاذى العقد المذكور رحبة بالمسجد،وصار الناس ينزعون النعال عندها، وعمل عند عقد باب الرحمة مثل ذلك ، ورفع ذلك الدرابزين ، وكان ما بين الدرابزين و باب الرحمة منخفضا عن أرض المسجد فسواه بأرض المسجد كما هو اليوم ، فاحتاج إلى رفع عتبته ، فزاد العتبة المتخذة فوق العتبة الأصلية ، وقصر شيئا من أسفل الباب ، وذلك ظاهر فيه اليوم ، وحصل بذلك صيانة المسجد ، واتخذ أيضا الرحبة التى أمام باب النساء ، ورفع الدرابزين الذى كان من داخله ، واتخذ لباب جبريل الرحبة التى أمامه ، ولم يرفع الدرابزين ؛ لأن الناس لم يكونوا يَمْشُون بنعالهم إليه ، ثم أزيل درابزينه أيضا عند عمارته بعد الحريق الثانى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

الفصل الثالث والثلاثون

فى خَوْخَة آل عمر رضى الله تعالى عنه المتقدم ذكرها ، وما يتعين من سَدِّها فى زماننا .

تحديد موضع خوخة آل عمر

أُعلم أنها اليوم هى التى يُتَوَصَّل إليها من الطابق الذى بالرواق الثانى من أروقة القبلة ، وهو الرواق الذى يقف الناس اليوم فيه للزيارة أمام الوجه الشريف بالقرب من الطابق المذكور . والذى يتخلَّص مما قدمناه فى زيادة عثمان رضى الله عنه والوليدِ والمهدىِّ أن الأصل فى ذلك أنه لما احتيج لدار حَفْصَة ـ يعنى حجرتها ـ قالت : كيف بطريقى إلى المسجد،فقيل لها : نعطيك أوسَعَ من بيتك ، ونجعل لك طريقا مثل طريقك ، فأعطيت دار عبيد الله بن عمر ، أى التى صارت إليه بعد حَفْصَة ، وكانت مِرْبَدًا ، هذا ما رواه ابن زبالة .

وقد قدمنا فى زيادة الوليد من رواية ابن زبالة أن عمر بن عبد العزيز بعث إلى رجال من آل عمر ، وأخبرهم أن أمير المؤمنين كتب إليه أن يبتاع بيت حَفْصَة ، وكان عن يمين الخَوْخَة أى من داخل المسجد ، فقالوا : ما نبيعه بشئ ، قال : إذاً أدخله فى المسجد ، قالوا : أنت وذاك ، فأما طريقنا فإنا لا نقطعها ، فهدم البيت ، وأعطاهم الطريق ووَسَّعها لهم

وقدمنا أيضا ما رواه يحيى عن مالك بن أنس من أن الحَجَّاج الثَّقَفى هو الذى ساوم عبيد الله بن عبد الله بن عمر فى هذا البيت وهدمه . وفى رواية ليحيى أن عمر بن عبد العزيز لما وصل فى العمارة إلى دار حفصة قال له عبيد الله : لست أبيع هذا هو حق حفصة ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يسكنها ، فقال عمر : ما أنا بتاركـكم أو أدخلها المسجد ، فلما كثر الكلام بينهما قال لهم عمر : أجعل لكم فى المسجد بابا تدخلون منه ، وأعطيكم دار الرقيق ، وما بقى من الدار فهو لكم ، ففعلوا

وقال المطرى : إن الوليد لما حج وطاف فى المسجد رأى هذا الباب فى القبلة فقال لعمر : ما هذا الباب ؟ فذكر له ما جرى بينه و بين آل عمر فى بيت حفصة ، وكان جرى بينه وبينهم فيه كلام كثير ، وجرى الصلح على ذلك ، فقال له الوليد : أراك قد صانعْتَ أخوالَكَ .

وقد قدمنا من رواية ابن زبالة الإشارة إلى هذا ، وقدمنا من روايته أيضا عن عبد العزيز بن محمد أنه كان يسمع عبيد الله بن عمر يقول : لا أماتنى الله حتى أرانى سدها .

وتقدم أن تلك الخَوْخَة لم تزل طريق آل عمر إلى دارهم حتى عمل المهدى المقصورة على الرواق القبلى .

قال المطرى : فمنعوهم الدخول من بابهم ، فجرى فى ذلك أيضا كلام كثير تقدمت الإشارة إليه ، اصطلحوا على سدّ الخَوْخَة من أعلاها فى جدار المسجد ،

وأن يخفضوها فى الأرض ويجعلوا على أعلاها فى موضع الباب الأول شباك حديد فى القبلة ، وحفروها كالسرب ، فتخرج خارج المقصورة فى الرواق الثانى من أروقة القبلة ، ولها ثلاث دَرَجات عند بابها فى جَوْف السرب بالمسجد ، وهو الطابق الموجود اليوم ، وعليه قفل من حديد ، ولا يفتح إلا أيام قدوم الحـاج للزيارة ، قال المطرى : وهى طريق آل عمر إلى دارهم التى تسمى اليوم دار العَشرة ، وإنما هى دار آل عبد الله بن عمر ، انتهى .

قلت : وعلى هذا السرب من خارج المسجد باب فى جدار المسجد أيضا ، وأمامه دهليز يتوصل منه إلى شارع فيه دور كثيرة سنشير إلى بعضها فى ذكر الدور المُطيفة بالمسجد .

اتخاذ بعض الناس بابا وسيلة للتدجيل

وقد اختلقوا لتلك الدور أسماء ، حتى قالوا فى بعضها : هو بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وبعضها نسبوه إلى فاطمة ابنته رضى الله تعالى عنها . ويتخذ بعض أهل تلك الدور على ما بلغنى كُحْلاً فى نقرة من الجدار ويقولون للحجاج : هذه مكحلة فاطمة الزهراء رضى الله تعـالى عنها ، ويشيرون أيضا إلى رَحاً عندهم فيقولون : هذه رحا فاطمة الزهراء ، أخبرنى بذلك من لَبَّسُوا عليه الأمر وأخبروه بهذه الأكاذيب حتى أعطاهم شيئاً . ويجلس عند ذلك الطابق بالمسجد شخص ليس هو اليوم من ذرية آل عمر ؛ لأن مَنْ كان بيدهم مفتاح هذا الطابق من آل عمر قد انقرضوا ، وبقيت منهم زوجة هذا الشخص الذى يجلس عند هذا الطابق ، ثم توفيت وتركت أولادا منه ، فاستمر المفتاح بيده ، فيستنيب مَنْ يجلس عند هذا الطابق ويفتحه أيام الموسم ، ويقف عنده جماعة يُزَوِّرون الحجاج ويأخذون من الداخلين منه شيئا شبيها بالمَكْس ؛ فإن الجالس عنده لا يمكن أحدا من الدخول منه إلا ببذل شىء يرضيه ، وما حال الحاج الغريب إذا رأى مثل هـذا الباب بدرج تحت الأرض فى المسجد وقيل له : إنه يصل إلى بيت النبى صلى الله عليه وسلم وبيت ابنته ؟ .

وقد اشتهر ذلك عند أهل المدينة حتى إن أحداً منهم لاينكره ، فيود الغريب المسكينُ لو بذل روحه فى الوصول لذلك ، وربما لم يكن معه شيء ، فيتجشم المشقة فى الوصول لذلك ، فقد أخبرنى صاحبُنا الشيخُ المبارك أبو الجود بركات الجيعانى أنه قدم المدينة قديماً قبل أن يجاور بها ، قال : فلم أملك نفسى أن دخلت فى هذا الطابق فطبقه الجالس عنده على ظهرى حتى كاد يقصمه لأنه لم يُعْطِه شيئاً . وأخبرنى هو وغـيره ممن أثق به أنه يقع فى أسفله من الازدحام واختلاط النساء بالرجال مالا يوصف مع ضيقه ، حتى إن الماشى فيه يحتاج إلى الانحناء .

وأخبرنى بعضهم أنه رأى فيـه منكراً شنيعاً، وهو أن بعض الأحداث يمشى خلف النساء مع الازدحام ، وكون المشى على تلك الهيئة ؛ فيقع ما لايرضى الله ولا رسوله بين يديه صلى الله عليـه وسلم . وكيف يتمادى الناس على إقرار ذلك الآن ؟ وهو ليس إلا لمجرد ما ذكرناه ، فإنه كان بابا لدار ، ولأن مَنْ هو بيده لا يملك شيئاً من تلك الدور ، ولو كان مالـكها فليس وضعه لسوى دخول أهل تلك الدور منه ، فإنه لم يجعل إلا ليدخل منه آل عمر إلى المسجد ، لا لأن يأخذوا فلوساً على من يخرج من المسجد ماراً منه ، فقد كانوا منزهين عن ذلك . ثم لوسلمنا أن تلك الدور مستحقة للزيارة فزيارتها متيسرة من خارج المسجد ، وكيف يتخذ المسجد طريقاً ، ويخص منه ما يكون بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم على تلك الحالة المنكرة لأجل شيء خسيس من الدنيا ؟ ونحن نفديه صلى الله عليه وسلم بأنفسنا فضلا عن أموالنا ، وقد أمر صلى الله عليـه وسلم بسد الأبواب التى كانت شارعة فى المسجد إلا خَوْخَة أبى بكر وإلا باب علىّ كما قدمناه ، مع أن أهل تلك الأبواب إنمـا كان قصدهم بها التوصل إلى المسجد ، فـكيف يبقى باب بين يديه صلى الله عليه وسلم لانفع له إلا أخذ شيء من الحطام على المرور منه ؟ هذا مالايرضاه مؤمن يرَى تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم .

ثم إن هذا الطابق له قفل ، وما حوله من الخشب فيه نوع نتوء ، فقد رأيت مَنْ لا أحصيه من الخلق يتعثرون به ، وربما سقط بعضهم لوجهه ، ثم إنه إذا كثر الدوس عليه فى ليالى الزيارات كليلة النصف من شعبان ونحوها يرتجّ تحت الأرجل حتى تزلزل الأرض زلزالها ، وذلك يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قدمنا أن عائشة رضى الله عنها كانت تسمع الوتد يوتد والمسمار يضرب فى بعض الدور المطيفة بالمسجد فترسل إليهم لاتُؤْذُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالوا : وما عمل علىّ مِصْرَاعَيّ داره إلا بالمناصع — وهو متبرَّزُ النساء ليلا خارج سور المدينة — توقّيا لذلك .

وروى يحيى فى كتابه عن محمد بن يحيى بن زيد النوفلى عن أبيه عن الثقة عنده أن عائشة رضى الله عنها ذكرت أن بعض نساء النبى صلى الله عليه وسلم دَعَتْ نجاراً فعلّق ضَبّة لها ، وأن النجار ضرب المسمار فى الضبة ضربا شديداً ، وأن عائشة رضى الله عنها صاحت بالنجار وكلمته كلاما شديداً وقالت : ألم تعلم أن حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ميتاً كحرمته حياً ؟ فقالت الأخرى : وماذا سمع من هذا ؟ قالت : إنه ليؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت هذا الضرب اليومَ ما يؤذيه لو كان حياً .

حج السلطان قايتباى

ولم أزل منذ قدمت المدينة أنكر هذا الأمر بالقلب واللسان وكتابة البنان ، ولكن لم أجد على ذلك مُعينا ؛ لرسوخ الطباع العامية فى التمسك بالعوائد الماضية من غير روية ، وقد نبهت على إنكار ذلك فى كتابى « الوفا ، بما يجب لحضرة المصطفى » صلى الله عليه وسلم ، ثم شافهت فى أمره مولانا الهمام ، سلطان ممالك الإسلام ، ذا الشجاعة التى شاعت عجائبها ، والشهامة التى ذاعت غرائبها ، سلطان الإسلام والمسلمين ، ووجهة القاصدين والآملين ، السلطان الملك الأشرف قايتباى ، جعل الله الممالك منظومة فى سلك ملكه ، وأقطار الأرض جارية فى حَوْزه ومِلْكه ؛ فإنه لما حج سنة أربع وثمانين وثمانمائة بدأ بالمدينة النبوية لزيارة

التربة المصطفوية على الحال بها أفضل الصلوات وأزكى التسليمات ، فقدمها طلوعَ الفجر من يوم الجمعة الميمون الثانى والعشرين من ذى القعـدة الحرام ، فلبِسَ لدخولها حلل التواضع والخشوع ، وتحلى بما يجب لتلك الحضرة النبوية من الهيبة والخضوع ، فترجَّلَ عن جواده عند باب سورها ، ومشى على أقدامه بين رباعها ودورها ، حتى وقف بين يدى الجناب الرفيع ، الحبيب الشفيع ، صلى الله عليه وسلم ، وناجاه بالتسليم ، وفاز من ذلك بالحظ الجسيم ، ثم ثنى بضَجِيعَيْه رضى الله تعالى عنهما بعـد أن صلى بالروضة الشريفة التحية ، وعفّر وجهه فى ساحتها السنية ، وعرض عليه الدخولُ إلى المقصورة المستديرة حول جدار القبور الشريفة ، المعروفة اليوم بالحجرة المنيفة ، فتعاظم ذلك ، وقال : لو أمكننى أن أقف فى أبعد من هذا الموقف وقفت ، فالجناب عظيم ، ومَنْ ذا الذى يقوم بما يجب له من التعظيم ؟ ثم صلى صبح الجمعة فى الصف الأول بين فقراء الروضة عند أسطوان المهاجرين بالقرب من مصلاى ، كان بينى و بينه إمامه شيخ الشيوخ الإمام العلامة نادرة الزمان وعين الأعيان برهان الدين الكركى ، فسح الله فى أجله ، وأدام النفع به ، ولم يكن بينى و بينه سابق معرفة ، حتى إنى لم أبدأه بسـلام ولا كلام ، وكذلك السلطان أعزه الله أنصاره وضاعف اقتداره ، لم أتعرف إليه ، ولم يكن ذلك فى خَلَدى ولا عزمت عليه ، ثم توجه السلطان بجماعته لزيارة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة بن عبد المطلب ومَنْ يليه من شهداء أحد رضوان الله عليهـم ، فمشى مترجِّلا كعادته ، حتى خرج من باب المدينة ، ولم يزل ذلك دأبه ، فلم يركب بالمدينة جَوَادا حتى خرج منها ، فلما كان وقت صلاة الجمعة حضر فى ذلك المصلى فكان بينى و بينه إمامه المشار إليه أيضا ، ثم قرأ شخص على شيخ المحدثين العلامة شمس الدين ابن شيخنا أبى الفرج العثمانى مجلس خَتْم البخارى ، وكأن الإمام المشار إليـه تفرَّسَ فىّ الاتصاف بطلب العلم ، ففاتحنى الكلام فى بعض المسائل العلمية المتعلقة بذلك ، فجاريته فيهـا ، فرأيت كماله واضح البرهان ،

وفضله ظاهر العنوان ، مع كمال الإنصاف فى البحث ، فانتسجت المودة حينئذ ، ثم قام الإمام المشار إليه، واستمر السلطان جالساً، ثم بدأنا بالملاطفة، وشرفنا بالمحادثة ، وخاض فى شىء من العلم ، فرأيت من تواضعه وحلمه وثقوب فهمه مافاق الوصف ، فأنشدته قول بعضهم :

كانت مُسَاءلة الركبان تخبرنى عن أحمد بن سعيد أطيبَ الخبر
ثم التقينا ، فلا والله ما سمعت أذنى بأحسَنَ مما قد رأى بصرى

وأنهيت إليه أمر الطابق المذكور ، وقلت فى نفسى : لعل الله تعالى أرسل هذا السلطان المسعود وجمعنى به من غير قصد ليفوز بتنزيه الحضرة الشريفة من ذلك ، ويكون ذلك فى صحائفه ، وقد قدمنا ما حاوله الملوك الماضُونَ من سدّه مع أن المفاسد التى قدمناها لم تكن موجودة فى زمنهم ، وإنما تركوه كما قدمناه لمانع ، ولا مانع من سده اليوم بحمد الله تعالى ، فوعد بذلك . ثم وقع الاجتماع بالإمام المشار إليه فكلمته فى ذلك ، وقلت له : بلغنى أن مَنْ بيده مفتاح الطابق المذكور يجتمع له فى كل سنة نحو عشرة دنانير من هذا الطابق ، ولى معلوم فى جهةٍ هذا قدرُه فى كل سنة ، فأنا أنزل عنه لمن بيده ذلك المفتاح تطييباً لخاطره ، فذكر ذلك للسلطان ، فقال : نحن نرضيه من عندنا ، ثم إنه نصره الله تعالى حضر لصلاة المغرب ، فتفضل بالبداءة بالكلام ، ولم يكن إمامه حاضراً ، ولكنه سبق منه التربية التامة عنده ، فسألنى عن الآية المنقوشة فى المصلى الشريف ، وهى قوله تعالى (قد نرى تقلب وجهك فى السماء ــ الآية) هل نزلت قبل المعراج وفرض الصلاة أم بعد ذلك ؟ وكيف كان الاستقبال قبل نزولها ؟ فشرعتُ فى الجواب ، فأقيمت الصلاة فى أثناء ذلك، فلما قضى صلاته تنفل بست ركعات ، ثم أقبل علىّ طالبا للجواب ، فذكرت له تاريخ نزولها بالمدينة ، وما فيه من الخلاف ، وأن فرض الصلاة ليلة فى المعراج كان بمكة ، وما ذكروه فى أمر

استقبال بيت المقدس ، وما حكى من الخلاف فى تعدد نَسخ القبلة ، وصلاته صلى الله عليه وسلم بمكة بين الركنين اليمانيين جاعلاً الكعبة بينه و بين بيت المقدس ، إلى غير ذلك من الفوائد التى قدمناها فى محلها من كتابنا هذا ، واستمريت معه كذلك حتى صلينا العشاء الآخرة ، لحصل منه فى ذلك المجلس من الإكرام ما أرجوله به كال المجازاة من صاحب الحضرة الحبيب الشفيع صلوات الله وسلامه عليه .

وفرق بالمدينة الشريفة مالا جزيلاً ستة آلاف دينار أو أكثر ، ودفع إلىّ على يدإمامه المشار إليه من ذلك جزأ وافرا ، وتكلمت معه فى رَفْع مُسكوس المدينة وتعويض أميرها عن ذلك شيئاً ، فأفهم الوعْد به ، وسألنى عن أمر دار العباسا التى اشتريت له ، وكانت سبباً فى قتل القضائى الزكوى تغمده الله تعالى برحمته لعدم السياسة فى أخذها ، فأخبرته بحقيقـــة الحال ، فقال : لم لم تكتب إلىّ بهذا ؟ فاعتذرت له بعذر قَبِله ، وتبرأ من جميع ما فعلوا فيها ، ووعد بما يكون فيه صلاح أمرها ، ثم وفى بذلك بعدعوده ، فزادهم مبلغاً كثيراً رَضُوا به ، وتفضل بالتشريف بطلب الكتابة إليه بما يكون فيه صلاح أحوال المدينة والتنبيه على من يَرِدُها من المحتاجين .

ثم توجه فى الرابع والعشرين من الشهر المذكور مصحوباً بالسلامة إلى مكة المشرفة ماشياً على أقدامه بين فقراء المدينة وفقهائها حتى خرج من باب المدينة ، فوقف هناك ، وقرأنا له الفاتحة ، ثم ركب جواده ، أدام الله تأييده وحرسه من الردى ، وأنار له طرق الحق والهدى .

ثم قدمتُ مكة صحبة الحاج الشامى فوجدته قد سلك بها مسلك التواضع أيضاً ، وتصدق فيها بمال جزيل أكثر مما تصدق بالمدينة الشريفة .

ولما اجتمعت بإمامه المشار إليه بمكة المشرفة تذاكرْنا الصـــدقة الشريفة

بالمدينة الشريفة وعمومها ، وما حصل بها من النفع ، فذكرتُ له أن أربعة من فقراء المغاربة لم يأخذوا شيئاً لملازمتهم لرباطهم ، وعدم إتيانهم لمن كان يفرق ، وأن شخصاً آخر مستحقاً كنت أود لو حصل له أكثر مما دفع له ، فبلغ ذلك السلطان ، فلما كان فى أوسط أيام منًى توجهت لوَدَاع الإمام المشار إليه ، فأشار بمُوادعة السلطان ، فقلت له : أخشى أن يتوهم أن المجىء لقصد آخر ، فقال : لابد من موادعته ، فتوجهنا إليه فحصل منه من الإكرام ما أطلب له الجزاء عليه من أكرم الأكرمين ، ثم قال : أنتم ذكرتم للامام كيت وكيت ، فلم ينس ماتقدم ذكره من أمر جماعة الفقراء ، فقلت له : نعم ، فأمر لهم بمائة دينار أقسمها عليهم لكل واحد عشرون ديناراً ، ثم قال : هل بقى أحد ؟ فقلت له : ما أستحضر أحداً ، ورأيت له اهتماماً تاماً بتعميم جيران الحضرة الشريفة ، وودعنى قائماً وسأل عن أمر الطابق المذكور لما قدمنا مكة ، وأمر بأن لا يفتح ، وأن يسد بعد ذلك ، فلما بلغ ذلك شيخ الخدام بالمدينة الشريفة منع من فتحه عند قدوم الحاج المصرى فى هذا العام ، ولكن بقى سده ، فإن الطريق فى قطع الشر قلع أصوله ، وقد وعد بسده .

وقف السلطان قايتباى لأهل المدينة المنورة

ثم إن السلطان أيده الله تعالى رجع إلى مصر مصحوباً بتأييد الله ونصره ، فبلغنا أنه أبرز بعد وصوله ستين ألف دينار ليشترى بها أماكن تكون أوقافاً يُحْمَل ريعها إلى الحضرة الشريفة ، ويعمل بها سماط كسماط الخليل عليه السلام، وهذا أمر لم يسبقه إليه أحد من ملوك الإسلام ، والمسئول من الله تعالى أن ييسر له ذلك .

وقد ألحقنا فى الفصل التاسع والعشرين ما برزت به المراسيم الشريفة من إبطال المكوس ، وتعويض أمير المدينة الشريفة عنها ، وأنه وقف أماكن كثيرة يتحصل منها نحو سبعة آلاف وخمسمائة إردب من الحب كل سنة لعمل السماط

المذكور ، وليصرف من ذلك كفاية أرباب البيوت بالمدينة الشريفة ، ثم وصول البهائى أبى البقاء بن الجيعان عظم الله شأنه بجملة من ذلك والصرف والتقرير وعمل السماط على الوجه السابق ، والمرجو من الله تعالى دوام ذلك له ؛ فإن الله تعالى قد أجْرَى على يديه من الخيرات ما لم يجتمع لأحد من الملوك قبله : فمن ذلك ما تقدم من العمارة بالمسجد النبوى والحجرة الشريفة ، وإبطال هذا الطابق المتقدم وصفه ، ومن العجب أن مَنْ كان بيده هذا الطابق توجه إليه بمصر وسأل أن يمكّنَ من فتحه ، فلم يجبه لذلك ، وقرر له فى الذخيرة بضعة عشر ديناراً كل سنة عوضاً عما كان يحصل له منه ، ثم وردت المراسيم الشريفة بالإخبار بذلك ، والأمر بسده ، ولكن شَقّ على بعض أهل الحظوظ النفسية تمام هذا الأمر والمتسبب فيه الفقير الحقير ، فتسبب فى تأخيره ، فمات شيخ الخدام إينال الإسحاقى ولم يسده ، فلما قدمتُ مصر عام سبع وثمانين وثمانمائة أنهيت للسلطان أن الطابق لم يسد ، وخشيتُ أن يغضب بسبب ذلك على بعض الناس ، فاعتذرت بأن موجب التأخير وفاة شيخ الحرم ، فبرزت مراسيمه الشريفة لشيخ الحرم ومتولى العمارة الشمس بن الزمن بسده بالبناء ، بحيث لا يفتح أبداً ، وكان المعاكس فى هذا الغرض قد أمال متولى العمارة إليه مع ما سبق فى الفصل الثامن والعشرين من إيغار صدره منى ، وكان هذا الطابق قد احترق وارتدم بعد أمر السلطان بسده فى حريق سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وأثرت النار فى قبوه تأثيراً عظيما ، فأعاده متولى العمارة وأحكمه ، وجعل له باباً ، فلما وردت عليه المراسيم الشريفة بما سبق على يدىّ أجاب بأنه يراجع السلطان فى ذلك لأن تلك الدور صارت له .

ثم إن شيخ الحرم أنهى إلى السلطان ذلك ، فبرزت المراسيم الشريفة بسده واللوم على تأخيره مع تكرر الأمر بذلك ، فأمره متولى العمارة بتأخير ذلك ليراجع السلطان فيه ، وقال : إنه يجعل تلك الدور مَزَارات ليتم له ما أراده من بقاء ذلك

الطابق ، وتعجب الناس من إقدامه عليه ، ثم بلغ السلطان ذلك مع أمور يطول شرحها؛ فغضب غضباً شديداً وبرز مرسومه بسد رالوعيد التام على تأخيره ، فسده شيخ الحرم بالبناء المحكم من خارج المسجد ، ونزع باب طابقه ، وردمه بالأتربة حتى ساوى أرض المسجد ، ولم يبق له أثر ، وذلك فى رابع ذى القعدة سنة ثمان وثمانين وثمانمائة ، وسُرّ أهل الخير بذلك ، وتضاعفت أدعيتهم للسلطان نصره الله تعالى . وهذا من أعظم محاسنه .

من آثار قايتباى بالحرمين الشريفين

ومن ذلك إجراء عين خليص بعد انقطاعها مرة بعد أخرى ، وهى من أحسن مَناهل الحج وأعذبها ، وكذلك بركة الروحاء .

ومن ذلك عمارة مسجد الخيف بعد أن تهدّم بأجمعه ، وإنشاء المنارة والسبيل اللذين عند بابه ، وإجراء المعلوم لمن يؤذّن بتلك المنارة ولمن يؤم بالمسجد المذكور .

ومن ذلك إحداث الظل بمقدم مسجد نَمِرَة المنسوب لإبراهيم الخليل ، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ، وقد كان الحجاج يقاسُونَ به شدة من حر الشمس فى ذلك اليوم ، فالله تعالى يظله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله .

ومن ذلك إجراء عين عَرَفة من بطن نَعْمان ، بعد أن دثَرت وانمحت معالمها واندرست ، وعمارة بركها ومجاريها،حتى فاضت الأنهار بأقاصيها وأدانيها ، وأوصلها إلى مسجد نمرة ، وأنشأ به صهريجا يجتمع فيه الماء ، فأذهب بذلك عن الحجج الأعظم الظمأ ، وقد كنت أرى الفقراء فى كل سنة فى ذلك اليوم لا يسألون غالبا إلا الماء ، وكان من أعز الأشياء هناك ، فلم يبق له طالب ، ولله الحمد ، سقاه الله بذلك من حوض الكوثر .

ومن ذلك المدرسة والرباط اللذان عمرهما بمكة المشرفة ، ولا نظير لهما فيها .

ومن ذلك حجه فى هذا العام ، فإن ذلك لم يقع لأحد من ملوك مصر من

نحو مائة وخمسين سنة ، وكان آخر من حج منهم الملك الناصر محمد بن قلاوون ، حج ثلاث حجات : أولاها سنة عشر وسبعمائة ، وثانيتها سنة عشرين ، وثالثتها سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، ولم يحج أحد بعد ذلك من سلاطين مصر ، وأرجو أن يفسح الله فى أجل سلطاننا هذا حتى يدرك ذلك ، ويتم له ما نواه من الخير بالحضرة النبوية .

وقد أنشأ بثغر إسكندرية برجا عظيما لم يسبق إليه ، وشحنه بالأسلحة والجند .

ولما توجهت إلى زيادة بيت المقدس رأيت له فيه وفيما بين مصر وبينه من الآثار العظيمة ما لم أره من غيره من الملوك من المدارس والمساجد والقناطر ، وهذا المحل لا يحتمل بسط ذلك ، وإنما ذكرنا من آثاره الجميلة ما يتعلق بالحجاز لأنه محل الغرض .

وهو ملك مطاع ، محظوظ ، صبور ، غير عجل ، كثير الحياء والوقار والمهابة ، إذا حاول أمرا لا يسرع فيه ، بل يتأنى كثيرا ، ويعظم أهل العلم ويجلهم .

وإنما أمتعنا بذكر ذلك هنا ليكون سببا فى حث الواقف على ذلك على الدعاء لهذا الملك السعيد بإنجاح المطالب ، ونيل المآرب ، ولتنبعث همة مَنْ جاء بعده من الملوك على أن يقتدى به فى الخير فيصنع مثل ما صنعه ، ونسأل الله تعالى أن يُفسِح فى أجله ، فقلّ أن يأتى بعده مثله .

الفصل الرابع والثلاثون

فيما كان مُطيفاً بالمسجد الشريف من الدور ، وما كان من خبرها ، وجُلُّ ذلك من منازل المهاجرين رضى الله تعالى عنهم .

روى ابن سعد فى طبقاته عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خَطَّ الدور بالمدينة ، فخط لبنى زُهْرَة فى ناحية مؤخر المسجد ، فكان لعبد الرحمن بن عوف الحش ، والحش: نخل صغار لا يسقى. رسول الله يخط دور المدينة

وعنه أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خط الدور ؛ فخط لبنى زهرة فى ناحية مؤخر المسجد ؛ فجعل لعبد الله وعتبة ابنى مسعود هذه الخطة عند المسجد .

وقال ياقوت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرا إلى المدينة أقْطَعَ الناسَ الدور والرِّبَاعَ ؛ فخط لبنى زهرة فى ناحية من مؤخر المسجد ، وكان لعبد الرحمن بن عوف الحش المعروف به ، وجعل لعبد الله وعتبة ابنى مسعود الهُذَلِيَّيْنِ الخطة المشهورة بهم عند المسجد ، وأقطع الزبير بن العوام بَقيعاً واسعا ، وجعل لطلحة بن عبيد الله موضع دوره ، ولأبى بكر الصديق موضع داره عند المسجد ، وأقطع كل واحد من عثمان بن عفان وخالد بن الوليد والمِقدَاد وغيرهم مواضع درهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقْطِع أصحابه هـذه القطائع ، فما كان فى عفاء الأرض فإنه أقطعهم إياه ، وما كان من الخطط المسكونة العامرة فإن الأنصار وهَبوه له فكان يقطع من ذلك ما شاء ، وكان أول من وهب له خططه ومنازله حارثه بن النعمان وَهَب له ذلك وأقطعه صلى الله عليه وسلم ، انتهى.

دار آل عمر بن الخطاب

فأولُ الدور الشوارِعِ حول المسجد من القبلة دارُ عبد الله بن عمر بن الخطاب التى فيها الخَوْخَة المتقدم وصفها ، وليست الدار المذكورة اليوم بيد أحد من آل عمر كما قدمناه ، وقدمنا أن موضع هذه الدار كان مِرْبَدًا أعطيته حَفْصَة رضى الله تعالى عنها بدل حجرتها لما احتيج إلى إدخاها فى المسجد ، وفى رواية أن آل عمر أعطوا بدلها دار الرقيق وما بقى منها .

وقال ابن غسان ، فيما نقله ابن شبة : وأخبرنى مخبر أن تلك الدار – يعنى دار آل عمر – كانت مربدا يتوضأ فيه أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما توفى استخلصته حفصة رضى الله عنها بثلاثين ألف درهم ، فورثها عنها عبد الله بن عمر ؛ فهى التى قال فيها عبد الله فى كتاب صدقته : وتصدق عبد الله بداره التى عند المسجد التى ورث من حفصة .

بيت لأبى بكر الصديق صار لآل عمر

قال : وأخبرنى مخبر قال : كان بيت أبى بكر الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم « سدوا عنى هذه الأبواب ـ الحديثَ » بيد عبد الله بن عمر ، وهو البيت الذى على يمينك إذا دخلتَ دار عبد الله من الخوخة التى فى المسجد ، فتلقاك هناك خوخة فى جوف الخوخة التى هى الطريق مُبَوَّبة ، فتلك الخوخة خوخة أبى بكر .

قال : وكانت حفصة ابتاعت ذلك المسكن من أبى بكر مع الدار التى فوق هذه ، أى التى فى قبلتها كما سنبينه ، قال : وتصدقت بتلك الدار على ولد عمر .

قلت : هذه الرواية الأخيرة ضعيفة كما قدمناه ؛ ولذلك لم يبين قائلها ، ولأنه فى دور بنى تَيْم لما ذكر دار أبى بكر التى ورد فيها الحديث المذكور لم يذكر هذه الرواية ، بل اقتصر على الرواية المشهورة فى أنها فى غربى المسجد ؛ فإن الخوخة الواردة فيها الحديث هى الشارعة فى رحبة دار القضاء ، ولذلك لما زادوا فى المسجد أرادوا محاكاتها ، فجعلوها خوخة شارعة هناك ، ولم يجعلوها كبقية أبواب المسجد ، ولأنه جَزَم فى دور أزواج النبى صلى الله عليه وسلم بأن عائشة رضى الله عنها اتخذت الدار التى يقال لها دار عائشة بين دار الرقيق و بين دار أسماء بنت أبى بكر فتصدقت بها .

قلت : فإن كانت دار الرقيق هى بيت حفصة فبيت عائشة إلى جنبه ، والمعروف عند الناس أن البيت الذى على يمين الخارج من خَوْخَة آل عمر المذكورة هو بيت عائشة رضى الله عنها ، فلعل الاشتباه فى نسبته إلى أبى بكر رضى الله عنه نشأ من ذلك ، مع أن الذى اقتضاه كلام المؤرخين أن البيت المذكور عن يمين الخَوْخَة هو بيت آل عمر ، وأن دار عائشة ليست فى هذا المحل ، وهذه الدار المذكورة ـ أعنى التى على يمين الداخل من الخوخة ـ وقف ناظره شيخ الخدام ، و بلغنى أن واقفها اشترط أن لا يسكنها متزوج ، و بابها اليوم

شارع فى القبلة ، ولها شباك عن يمين الخوخة لعـله كان فى موضع بابها الأول لما كانت الخوخة شارعة فى الدار المذكورة ، وأما البيت الذى عن يسار الخَوْخَة فوقفه أيضاً ناظره شيخ الخدام ، و بابه ليس شارعا عند الخوخة ، بل بعيد منها فى المغرب ، وهو آخر الدور الآتى ذكرها ، ومقتضى ما سيأتى عن ابن شبة وابن ز بالة أن الدار المعروفة اليوم بدار عائشة والدارين اللتين إلى جانبها الغربى فى قبلة المسجد من جملة دار آل عمر ؛ لأنهما قالا : فى الدور الشوارع من القبلة دار عبد الله بن عمر ، ثم دار مروان الآتى ذكرها ، وأما الدار الثانية التى تقدمت الإشارة إليها فى كلام أبى غسان من دور حفصة فوق هذه فقد ذكرها بقوله : وكانت لحفصة الدار التى بين زُقَاق عبد العزيز بن مروان الذى أدخل فى دار مروان دار الإمارة و بين زقاق عاصم بن عمر بابها شارع قبالة دير أطم بنى النجار الذى يدعى فو يرعا ، فتصدقت بها على ولد عمر ؛ فهى بأيديهم صدقة منها .

قلت : وهـذا الوصف منطبق اليوم على دار قاضى الشافعية أبى الفتح بن صالح وما لاصقها من جهة الشام ؛ لأن زقاق عاصم هو الزقاق الشارع بابُ هذه الدار فيه الآخذ منها إلى جهة القبلة والميضأة ، ولأن فو يرعا كان فيما بينها و بين المدرسة الشهابية كما سيأتى بيانه ، وعلى هذا فزقاق عاصم هو الذى فى شاميها ، دخَـلَ بعضُه فيما حاذى دار مروان ، وبقى منه ما يفرق بين دار آل عمر هذه والدار التى لها الخوخة ، والله أعلم .

دار مروان ابن الحكم

ثم يلى دار عبد الله بن عمر ذات الخوخة فى قبـلة المسجد من غربيها دار مروان بن الحـكم ، قال ابن ز بالة : وكان بعضها للنحام — يعنى نعيم بن عبد الله من بنى عدى — و بعضها من دار العباس بن عبد المطلب ، فابتاعها مروان فبناها وجعل فيها دارا لابنه عبد العزيز بن مروان ، ثم ذكر خبر أبوابها المتقدم ذكره فى أبواب المسجد .

وروى ابن زبالة فى ذيل زيادة عثمان بن عفان رضى الله عنه فى المسجد ، عن غير واحد منهم محمد بن إسماعيل عن أبيه أنه كانت فيها نَخَلات ، فابتاع مروان من آل النحام كل نخلة وموضعها بألف درهم ، وكن ثمانيا أو اثنتى عشرة ، فرأى الناس أن مروان قد أغلى ، فلما وجب له البيع عَقَرَهن و بناها دارا فغبطه الناس .

ونقل ابن شبة عن بعضهم أن دار مروان بن الحكم التى ينزلها الوُلاَة إلى جنب المسجد ـ يعنى الدار المذكورة ـ كانت مربدا لدار العباس التى دخلت فى المسجد ، فابتاعها مروان،فسمعت من يقول : كانت القبة التى كانت فى دار مروان وحُجُرتها التى تلى المسجد عن يسار مَنْ دخل الدار للنحام أخى بنى عدى بن كعب ، وكانت فيها نخلات ، فابتاعها مروان من النحام بثلاثمائة ألف درهم ، وأدخلها فى داره ، فذلك الموضع ليس من المربد الذى ابتاع من العباس

وذكر ابن شبة فى موضع آخر أن دار مروان صارت فى الصَّوَافى ، أى لبيت المال .

قلت : وفى موضعها اليوم كما قدمناه الميضأة التى فى قبلة المسجد عند باب السلام ، وما فى شرقيها إلى دور آل عمر ، قال ابن زبالة وابن شبة : وإلى جنبها ـ يعنى دار مروان ـ فى المغرب دارُ يزيد بن عبد الملك التى صارت لزبيدة ، وكان فى موضعها دار لآل أبى سفيان بن حرب ، كانت أشرف دار بالمدينة بناء وأذهبه فى السماء . ودار كانت لآل أبى أمية بن المغيرة ، فابتاعها يزيد ، وأدخلها فى داره ، وهدمها ، وكان بعض أهل المدينة وفَدَ على يزيد بن عبد الملك وقد فرغوا من بناء داره ، فسأله عنها ، فقال : ما أعرف لك أصلحك الله بالمدينة دارا ، فلما رأى ما فى وجهه قال : يا أمير المؤمنين ، إنها ليست بدار ، ولكنها مدينة ، فأعجب ذلك يزيد .

قلت : وفى موضع هذه الدار اليوم ما يقابل الميضأة فى المغرب من دار الأشراف العباسا والدار الملاصقة لها فى المغرب المشتراتَيْنِ للسلطان ، وقد أضافوا إليهما ما فى قبلتهما من الدور .

دار رباح ودار المقداد

وقد ذكر ابن شبة أن رباحا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ دارا على زاوية دار يزيد بن عبد الملك الغربية اليمانية ، وأن المِقْدَاد بن الأسود حليفَ بنى زهرة اتخذ دارا بين بيت رباح مولى رسول الله صل الله عليه وسلم و بين زقاق عاصم ، فتكون هذه الدار على زاوية دار يزيد الشرقية اليمانية ، فهما من جملة ما اشترى للسلطان اليوم . و بين الميضأة و بين هذه الدور زقاق لعله متصل بزقاق عاصم بن عمر ، إلا أن ابن زبالة وابن شبة لم يذكراه ، قالا : ثم وُجاه دار يزيد دار أو يس بن سعد بن أبى سرح العامرى . قال ابن شبة فى هذه الدار : أخبرت أنها كانت لمطيع بن الأسود فناقَلَ بها العباس إلى الدار التى بالبلاط يقال لها دار مطيع ، وزاده عشرة آلاف درهم ، ثم باعها العباس من عبد الله بن سعد بن أبى سرح بثلاثين ألف درهم ، فسكنها بنو أخيه ؛ فهى الدار التى يقال لها دار أو يس عند دار يزيد بن عبد الملك بالبلاط ، وقد سمعنا مَنْ يذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم أقطع مطيعا داره تلك ، فالله أعلم أى ذلك كان .

قلت : وموضع دار أو يس اليومَ المدرسةُ الباسطية التى أنشأها القاضى عبد الباسط سنة بضع وأر بعين وثمانمائة ، وما فى شرقيها من مؤخر المدرسة المعروفة اليوم بالحصن العتيق المتقدم ذكرها ، فذلك كله يواجه دار يزيد المذكورة ، و يفصل بينهما بلاط باب السلام .

دار مطيع ابن الأسود

قالا : ثم إلى جنب دار أو يس — أى فى المغرب — دار مطيع بن الأسود العَدَوى ، أى المتقدم ذكر قصتها وأنها كانت للعباس رضى الله تعالى عنه ، قال ابن شبة : و يقال لها دار أبى مطيع ، وعندها أصحاب الفاكهة ، وزاد فى قصتها أنه بلغه أيضا أن حكيم بن حزام ابتاعها هى وداره التى من ورائها بمائة ألف

درهم ، فشركه ابن مطيع ، فقاومه حكيم ، فأخذ ابن مطيع داره بالثمن كله و بقيت دار حكيم فى يده ربحا ، فقيل لحكيم : خدعك ، فقال : دار بدار ومائة ألف درهم ، وكان يقال لدار أبى مطيع العنقاء ، قال لها الشاعر :

* إلى العَنْقَاء دارِ أبى مُطِيع *

و بين يدى دار أبى مطيع أبيات ليزيد بن عبد الملك فيها الغسالون ، يقال : إن يزيد كان ساوَمَ آلَ مطيع بدارهم ، فأبوا أن يبيعوها ، فأحْدَثَ عليهم تلك البيوت ، فسدّ وجه دارهم ، فهى تدعى أبيات الضِّرار ، وهى مما صار للخيزران .

قلت : وموضع دار أبى مُطِيع اليوم الدار التى فى غربى المدرسة الباسطية التى اشتراها وكيل الخواجا ابن الزمن ، وفى غربيها سوق المدينة اليوم ، وهو من البلاط ، وموضعه عندها هو المراد بقول ابن شبة : وعندها أصحاب الفاكهة ، فكأن الفاكهة كانت تباع فيه حينئذ .

دار حكيم ابن حزام

وأما دار حكيم التى ذكر أنها من ورائها فمحلها اليوم الدارُ التى فى شامى هذه الدور التى عندها درج العين بالسوق المذكور ، قال ابن شبة فى دور بنى أسد : واتخذ حكيمُ بن حزام داره الشارعة على البلاط إلى جنب دار مطيع أبن الأسود ، بينها و بين دار معاوية بن أبى سفيان ، يحجز بينها و بين دار معاوية الطريق ، ومراده بالبلاط الموضع الذى به سوق المدينة اليوم أمام المدرسة الزمنية الممتد منها إلى الشام .

وقوله « يحجز بينها ـ أى دار حكيم ودار مطيع ـ و بين دار معاوية الطريق » أى البلاط المذكور ؛ فالظاهر أن دار معاوية هذه هى المقابلة لها بين الدارين فى المغرب ، وهناك فى مقابلتها اليوم رباط جدد أنشأه الفخر ناظر الجيوش بمصر سنة تسع عشرة وسبعمائة بابُهُ شارع فى سوق المدينة اليوم ودار خربة .

وقال ابن شبة أيضا فى دور بنى عدى بن كعب : اتخذ النعمان بن عدى داره

التى صارت لمحمد بن خالد بن برمك و بناها ، وفى الشارعة عند الخياطين بالبلاط عند أصحاب الفاكهة ابتاعها من آل النحام وآل أبى جَهْم ، وكانت صارت لهم مواريث ، انتهى .

ومحل هذه الدار إما الدار الخربة التى إلى جانب الرباط الشارع فى السوق ، أو المدرسة الزمنية ، والله أعلم .

ولنرجع إلى ذكر الدور المطيفة بالمسجد .

دار عبد الله ابن مكمل

قال ابن شبة : وفى غربى المسجد دار عبد الله بن مكمل الشارعة فى رحبة القضاء ، وهى مما يتشاءمُ به ، وذلك مما نشأ عن بنائها .

وقال فى دور بنى زهرة : كان عبد الرحمن بن عوف وهبها لابن مكمل ، فباعها آله من المهدى ؛ فهى بأيدى ولده اليوم خراب إلى جنب المسجد ، أى قبل أن تبنى رحبة القضاء .

قال : وهى التى يقولون : إن أهلها قالوا : يارسول الله ، اشتريناها ونحن جميع فتفرقنا ، وأغنياء فافتقرنا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أتركوها فهى ذميمة .

وقال ابن زبالة : هى التى يجلس إلى رُكْحِها[1] صاحبُ الشرط ، وإليها أصحاب الفاكهة ، وهم يهابون بناءها و يتشاءمون بها ؛ فهى على حال ما اشتريت عليه .

وقد تَرْجَم فى الموطأ لما يتقى من الشؤم ، وروى فيه عن يحيى بن سعيد أن امرأة جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، دار سكناها والعدد كثير والمال وافر فقلّ العدد وذهب المال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دَعُوهَا ذميمة » ورواه البزار بنحوه عن ابن عمر ، إلا أنه قال فيه : إن قوما جاؤا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وزاد فيه : فقالوا : يا رسول الله كيف نَدَعُها ؟ قال « بيعوها أو هَبُوها » .

(١) ركحها أى جانبها .

وقال البزار : أخطأ فيه صالح بن أبى الأخضر ، والصواب أنه من مُرْسَلات عبد الله بن شداد ، وروى الطبرانى نحوه عن سهل بن حارثة الأنصارى ، وفيه يعقوب بن حميد بن كاسب وثقه ابن حبان وغيره وضعفه جماعة .

قلت : وفى موضع دار ابن مكمل اليوم المدرسةُ المعروفة بالجوبانية من بابها إلى آخر رباطها الذى فى غربيها ، بل يؤخذ مما سبق عن ابن زبالة من جلوس أصحاب الفاكهة إليها أنها كانت تمتد إلى سوق الصواغين اليوم ؛ لما تقدم من بيان أصحاب الفاكهة ، ولما سيأتى فى الدار التى بعدها .

دار النحام

وفى المَغْرِب أيضاً دار النحام العدوى . وعبارة ابن زبالة وابن شبة : وفى غربى المسجد دار ابن مكمل ودار النحام ، الطريقُ بينهما قدر ستة أذرع .

وقال ابن شبة فى دور بنى عدى : واتخذ النَّحّام نعيمُ بن عبد الله دارَهُ التى بابُها وجاه زاوية رحبة دار القضاء ، وشرقيها الدار التى قبضت عن جعفر بن يحيى ابن خالد بن برمك التى كانت بيت عاتكة بنت يزيد بن معاوية فهى بيد ولده على حَوْز الصدقة .

قال : وأخبرنى مخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم حازَهاَ له قطيعة منه .

قلت : ودار جعفر المذكورة هى المواجهة لباب الرحمة ؛ فعلم بذلك أن دار النحام هذه كانت فى مقابلة باب المدرسة الجوبانية المتقدم ذكرها فى بيان رحبة القضاء عند ذكر باب زياد ، وأن الطريق التى بين دار النحام ودار ابن مكمل هى البلاط الآخذ من باب الرحمة إلى السوق ، وعلم بذلك أن رحبة القضاء كانت تمتد من جهة باب الرحمة إلى باب الجوبانية .

دار جعفر ابن يحيى

ثم إلى جنب دار النحام دار جعفر بن يحيى التى دخل فيها بيت عاتكة بنت يزيد بن معاوية . وأطم حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه المسمى بفارع .

قلت : وقد تقدم بيان محلها فى باب الرحمة ، وأنه اليوم هو البيت المواجه

لباب الرحمة ، وهوكان موضع بيت عاتكة ، وما فى شاميه من المدرسة الـكابرجية وهو موضع الأطم .

دار نصير

ثم إلى دار جعفر بن يحيى دار نصير صاحب المصلى ، كانت بيتا لسكينة بنت الحسين بن على رضى الله عنهم ، ثم إلى جنبها الطريقُ إلى دار طلحة بن عبيد الله ستة أذرع .

قلت : وقد تقدم فى أبواب جهة المغرب أن فى محل دار نصير اليوم الدار المعروفة بتميم الدارى ، والتى فى شاميها إلى الطريق التى تدخل منها إلى دور القياشين التى صارت للخواجا قاوان ، وهذه الطريق هى المرادة هنا ، وتلك الدور هى دور طلحة بن عبيد الله ، وفى شرقيها دار منيرة الآتى ذكرها .

قال ابن شبة فى دور بنى تيم : واتخذ طلحة بن عبيد الله داره بين دار عبد الله بن جعفر التى صارت لمنيرة و بين دار عمر بن الزبير بن العوام ، ففرقها ولده من بعده ثلاثة أدور ، فصارت الدار الشرقية اللاصقة بدار منيرة ليحيى ابن طلحة ، وصارت التى تليها لعيسى بن طلحة ، وصارت الأخرى لإبراهيم ابن محمد بن طلحة .

قلت : ودار عمر بن الزبير التى فى غربى دار طلحة ملاصقة لدار عروة ابن الزبير ، قال ابن شبة : اتخذهما الزبير وتصدق بهما عليهما وعلى أعقابهما ، وهما متلازقتان عند خوخة القوارير : انتهى .

وفى نهاية الطريق إلى دور القياشين خَوْخَة كانت شارعةً فى المغرب عند سوق العطارين ، الظاهرُ أنها المراد بخوخة القوارير .

دار منيرة مولاة أم موسى

ثم إلى جنب الطريق إلى دور طلحة دار منيرة مولاة أم موسى ، كانت لعبد الله بن جعفر بن أبى طالب .

قلت : وقد بينا محلها فى أول أبواب المسجد من جهة المغرب ، و يستفاد منه أنها كانت من طريق دور القياشين إلى ما يحاذى نهاية المسجد .

ثم إلى جنبها خوخة آل يحيى بن طلحة .

قلت : وهناك اليوم زقاق لطيف خلف الفرن المحاذى لقرب مؤخر المسجد من المغرب ، يعرف بزقاق عانقينى ، هو المراد بذلك ؛ لأن بعض الدور التى فيه يسلك منها إلى دور القياشين التى هى دور طلحة .

حش طلحة

ثم إلى جنب خوخة آل يحيى بن طلحة حش طلحة بن أبى طلحة الأنصارى وهو اليوم خراب صوافى عن آل ابن برمك .

قلت : والظاهر أن فى محله اليوم الفرن المتقدم ذكره وما حوله .

وقد قدمنا فى زيادة المهدى ما ذكره ابن شبة فى إدخاله صدر دار آل شرحبيل ابن حسنة التى كانت لأم حبيبة رضى الله تعالى عنها فى مؤخر المسجد .

قال ابن شبة عقب ذلك : ثم باعوا بقيتها من يحيى بن خالد بن برمك فهدمها حين هدم حش طلحة ، ثم صارت بَرَاحا فى الصوافى ، ثم بنى فى موضعها الناس بأكثر من أصحاب الصوافى ؛ فعلم بذلك أن حش طلحة كان ينعطف على المسجد من جهة الشام ، وسيأتى فى ذكر البلاط ما يصرح بذلك ، والظاهر أن بقية دار شرحبيل من الحش المذكور هو ما حاذى الميضأة التى فى شامى المسجد من المغرب ، بدليل ما سيأتى ، والله أعلم .

ثم إلى جنب حش طلحة الطريق خمسة أذرع .

قلت : وهذه الطريق هى التى فى شامى الميضأة المتقدم ذكرها ، يتوصل منها إلى رباط الشيخ شمس الدين الششترى .

أبيات خالصة

ثم إلى جنب الطريق أبيات خالصة مولاة أمير المؤمنين ، وهى دار حباب مولى عتبة بن غزوان .

قلت : وفى موضعها اليوم دار أحد رئيسى مؤذنى المسجد ، وما يليها من المارستان الذى أنشأه المنتصر بالله ، وما يليه من رباط الظاهرية ، كما تقدم فى ذكر أبواب المسجد .

دار حميد بن عبدالرحمن بن عوف

ثم إلى جنب أبيات خالصة دارُ أبى الغيث بن المغيرة بن حميد بن عبد الرحمن ابن عوف ، وهى صدقة .

وذكر ابن شبة فى دور بنى زهرة أن من دور عبد الرحمن بن عوف التى اتخذها الدر التى يقال لها الدار الكبرى دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف بحش طلحة .

قال : وإنما سميت الدار الكبرى لأنها أول دار بناها أحدٌ من المهاجرين بالمدينة ، وكان عبد الرحمن يُنْزِلُ فيها ضِيفانَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت أيضاً تسمى دار الضيفان ، فسرق فيها بعض الضيفان ، فشكا ذلك عبد الرحمن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد بنى فيها النبى صلى الله عليه وسلم بيده فيما زعم الأعرج ، وهى بيد بعض ولد عبد الرحمن بن عوف .

قلت : وهى غير دار عبد الرحمن بن عوف المعروفة بدار مليكة التى تقدم أنها دخلت فى المسجد .

وفى شامى المسجد اليومَ مما يلى الشرق دار تعرف بدار المضيف ، فلعل تسميتها بذلك لكونها فى موضع دار الضيفان المذكورة ، لكن ذكر الدار الآتية بعدها قبل جهة المشرق يبعد ذلك ، فكأن الجانب الغربى من دار المضيف وما حوله فى المغرب من الساباط وبعض رباط الظاهرية فى موضع الدار المذكورة .

ثم إلى جنب دار أبى الغيث بقيةُ دار عبد الله بن مسعود ، كانت لجعفر ابن يحيى ، وقد قبضت صافية عنه .

قلت : قد قدمنا أنها كانت تدعى دار القُرّاء ، وأن بعضها دخل فى زيادة الوليد ، وبقيتها فى زيادة المهدى ، فكأن المراد بعض بقيتها ، بدليل ما هنا ، ومع ذلك فأنا أستبعد أن يبقى منها بقية فى جهة الشام ، سيما إذا كان المهدى قد زاد مائة ذراع .

ثم يضاف لذلك ما زاده الوليد منها ، وعرض الرحبة التى فى شامى المسجد ،

وأىّ دار يكون طولها هذا المقدار فضلا عن أن يبقى بعد ذلك منها بقية ؟ وموضع ما وصفوه اليوم هو ما يلى المشرق من الدار المعروفة بدار المضيف المتقدم ذكرها ، والله أعلم .

دار موسى المخزومى

قال ابن زبالة وابن شبة : ثم من المشرق دار موسى بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومى ، كان ابتاعها هو وعبيدُ الله ابن حسين بن على بن حسين بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم ، فتقاوماها ، فظن عبيدُ الله أن موسى لا يريد إلا الربح ، فأسلمها عبيد الله فصارت لموسى .

قلت : وظاهر ذلك أن الدار المذكورة أول جهة المشرق مما يلى الشام ، وفى موضعها اليوم — كما قدمناه فى ذكر أبواب المسجدِ — بيتُ بعض رئيسى المؤذنين الذى يلى دار المضيف ، وما يليه من الميضأة المعطلة اليوم ، و بين ذلك و بين دار المضيف زقاق يعرف بخرق الجمل يتصل إلى الدور الملاصقة لسور المدينة ، ولعله المعروف قديما بزقاق جمل ؛ فإن ابن شبة ذكر أن فاطمة بنت قيس اتخذت دارا بين دار أنس بن مالك و بين زقاق جمل ، ودارُ أنسِ بن مالك ذكر أنها فى بنى جديلة ، وهى فى شامى سور المدينة .

ثم إلى جنب دار موسى أبياتُ قهطم دار موسى ودار عمرو بن العاص ، وهى — يعنى دار عمرو — صدقة من عمرو ، وهى اليوم صوافى : أى أبيات قهطم ، هذه عبارة ابن شبة .

وعبارة ابن زبالة « و إلى جنبها أبيات فيها قهطم ، وهو صوافى » .

والطريق بين دار موسى بن إبراهيم و بين دار عمرو بن العاص السهمى ، وهى اليوم لهم صدقة .

أبيات الصوافى

قلت : وأبيات قهطم هى التى سماها ابن زبالة فى ذكر الكتابة على أبواب المسجد أبيات الصوافى ، وسمى الطريق التى ذكرها هنا بزقاق المناصع ، لكن

كلام ابن شبة يقتضى كون أبيات قهطم المذكورة بين دار موسى و بين دار عمرو بن العاص ؛ فتكون الطريق المذكورة بين أبيات قهطم و بين دار عمرو ابن العاص ، فلنحمل كلام ابن زبالة على ذلك ، ويكون قوله « والطريق بين دار موسى » يعنى وما يليها من أبيات قهطم و بين دار عمرو بن العاص .

وقد قدمنا أن فى محل أبيات الصوافى رباط الفاضل والدار المعروفة بدار الرسام وقف السلامىّ والباب الذى يدخل منه إلى رباط السلامى ، وموضع دار عمرو بن العاص اليوم مؤخر رباط السبيل الذى يسكنه الرجال ، وهو مما يلى الشام منه ، والطريق التى بينه و بين رباط الفاضل هى زقاق المناصع ، وليست اليوم نافذة كما تقدم ؛ و يؤخذ مما قدمناه فى زيادة المهدى أنه كان عندها رحبة تسمى برحبة المشارب ، والله أعلم .

دار خالد ابن الوليد

ثم إلى جنب دار عمرو دارُ خالد بن الوليد . قال ابن شبة وابن زبالة : وهى بيد بنى أيوب بن سلمة ــ يعنى ابن عبد الله بن الوليد بن المغيرة ــ زاد ابن زبالة : أن أيوب بن سلمة اختصم فيها هو و إسماعيل بن الوليد بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة ، يقول أيوب : هى ميراث وأنا أرثها دونكم بالقعد ، أى لأنه أقرب عصوبة ، و يقول إسماعيل : هى صدقة ، أى فيدخل فيها القريب و إن بَعُد ، فأُعْطِيهَا أيوبُ ميراثاً بالقعد ، انتهى .

وهذا لأن أيوب المذكور كما ذكر ابن حزم وارث آخر مَنْ بقى من ولد خالد بن الوليد ، قال : لانقراض ولد عمه خالد بن الوليد كلهم . قال : وكان قد كثر ولد خالد بن الوليد حتى بلغوا نحو أربعين رجلا ، وكانوا كلهم بالشام ، ثم انقرضوا كلهم فى طاعون وقَع فلم يبق لأحد منهم عقب ، انتهى . وروى ابن زبالة عن يحيى بن المغيرة بن عبد الرحمن عن أبيه قال : شكا خالدُ بن الوليد ضيقَ منزله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له « ارْفَع البناء فى السماء وسَلِ الله السَّعَة » ورواه ابن شبة ، إلا أنه قال : فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « اتسع

فى السماء » وذكر من رواية الواقدى أن خالد بن الوليد حَبَسَ داره بالمدينة لاتُباع ولا تُوهب .

قلت : وفى موضعها اليوم مقدم رباط السبيل المتقدم ذكره ، وذلك يدل على صغرها ، بخلاف غيرها من الدور ، ولذلك شكا ضيقها ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

دار أسماء بنت حسين

ثم إلى جنبها دار أسماء بنت الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وكانت من دار جبلة بن عمر الساعدى .

قلت : وقد قدمنا ذكر حالها ، و بيان محلها ، فى خامس أبواب المسجد .

دار ريطة

ثم إلى جنبها دار رَيْطَة بنت أبى العباس ، وكانت من دار جبلة ودار أبى بكر الصديق ، قاله ابن زبالة .

قلت : مُرَاده أنه أدخل فى دار رَيْطَة من شرقيها ما يليها من دار أبى بكر الصديق [لا] أن دار أبى بكر كانت على سَمْتها فى محاذاة المسجد ، كما توهمه المطرى لجعل دار رَيْطَة هى دار أبى بكر ، وأنها المدرسة المقابلة لباب النساء كما قدمناه عنه ، والصواب أن دار أبى بكر كانت خَلْفَ المدرسة المذكورة فى جهة المشرق ؛ لأن ابن شبة قال فى دور بنى تَيْم : اتخذ أبو بكر رضى الله تعالى عنه دارا فى زقاق البقيع قبالة دار عثمان رضى الله عنه الصغرى ، وذكر أن دار عثمان الصغرى هى التى بنحو زقاق البقيع إلى جنب دار آل حَزْم الأنصاريين . وذكر فى خبر مقتل عثمان رضى الله عنه ما يقتضى أن هذه الدار الصغرى كانت متصلة بداره الكبرى الآتى ذكرها ، وأن قَتَلَته تَسَوَّروا ودخلوا عليه منها . وفى موضعها اليوم الرباط المعروف برباط المغاربة ، و يعرف برباط سيدنا عثمان ؛ فعلم بذلك أن دار أبى بكر كانت فى مقابلة ذلك من جهة الشام ؛ فتكون فى محل الدور التى فى شرقى المدرسة المذكورة إلى ما يحاذى الرباط المذكور ، ولا يبعد أن يكون بعضها دخل فى المدرسة المذكورة ، ودار أبى بكر هذه هى المرادة بما رواه ابن سعد فى طبقاته عن عائشة رضى الله عنها أن أبا بكر رضى الله عنه مَرِضَ مَرَضَه الذى

الذى مات فيه وهو نازل يومئذٍ فى داره التى قَطَع له النبىُّ صلى الله عليه وسلم وجاه دار عثمان بن عفان ، أى الصغرى . والله أعلم .

ثم الطريق بين دار رَيْطَة و بين دار عثمان – يعنى العظمى – خمسة أذرع ، قاله ابن زبالة وابن شبة . ونقل المطرى عن ابن زبالة أن الطريق بينهما سبعة أذرع ، والذى ذكره ابن زبالة ماقدمناه ، وهى اليوم نحو ذلك ، ويعرف بطريق البقيع .

دار عثمان ابن عفان

ثم دار عثمان رضى الله عنه . وروى ابن سعد فى طبقاته عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : لما أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم الدورَ بالمدينة خَطَّ لعثمان بن عفان داره اليوم ، ويقال : إن الْخَوْخَة التى فى دار عثمان اليوم وجاه باب النبى صلى الله عليه وسلم التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج منها إذا دخل بيت عثمان ، هذا لفظ ابن سعد .

قلت : وهذه الدار هى التى عبر عنها ابن شبة بقوله « واتخذ عثمان رضى الله عنه داره العظمى التى عند موضع الجنائز فتصدق بها على ولده فهى بأيديهم صدقة » وقد قدمنا أن فى محلها اليوم رباط الأصفهانى وتربة أسد الدين شِيرِكُوه عم السلطان صلاح الدين بن أيوب ومعه فيها والد صلاح الدين أيضاً ، والدار التى يسكنها مشايخ الخدام .

دار أبى أيوب الأنصارى

ثم بعد دار عثمان فى القبلة الطريق خمسة أذرع ، أو نحو ذلك، ثم منزل أبى أيوب الأنصارى الذى نزله النبى صلى الله عليه وسلم ، وابتاعه المغيرة بن عبدالرحمن ابن الحارث بن هشام ، وجعل فيه ماءه الذى يسقى فى المسجد .

قلت : قد قدمنا فى الفصل الرابع عشر من الباب الثالث شرح حال هذه الدار ، وأن الملك المظفر شهاب الدين غازى اشترى عَرْصَتها و بناها مدرسة ووقفها على المذاهب الأربعة .

دار جعفر الصادق

ثم إلى جنب منزل أبي أيوب دار جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم التي يُسْتَقى فيها الماء ، التي تصدق بها جعفر ، وكانت لحارثة بن النعمان الأنصاري .

قلت : في موضعها اليوم العرصة الكبيرة التي في قبلة المدرسة الشهابية ، وفيها محراب قبلة مسجد جعفر الصادق وأثر محاريب ، وهي الآن ملك الأشراف المنايفة ، ثم انتقلت منهم للشجاعي شاهين الجمالي شيخ الحرم . ابتناها مسكنا له .

دار حسن ابن زيد

وقبالتها — أي في المغرب — دارُ حسن بن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم ، وهو أطم كان حسن ابتاعه فخاصمه فيه أبو عَوْف النَّجَّاري ، فهدمه حسن ، فجعله دارا .

قلت : وهو الأطم الذي يدعى بفويرع ، وفي موضع هذه الدار اليوم بيت الأشراف المنايفة الذي عليه سَابَاطٌ متصل بالمدرسة الشهابية ، والبيت الذي في قبلته وما في غربيها إلى دار القُضاة بني صالح .

دار فرج الخصي

والطريق خمسة أذرع بينها — أي بين دار حسن المذكورة — و بين دار فرج الخصي أبي مسلم مولى أمير المؤمنين ، وكانت دار فرج من دور إبراهيم بن هشام ، وهي قبلة الجنائز ، كان فيها سرب تحت الأرض يسلكه إبراهيم إلى داره دار التماثيل التي كان ينزل بها يحيى بن حسين بن زيد بن علي .

قلت : أما الطريق المذكورة فهي الآخذة من باب المدرسة الشهابية إلى بيت بني صالح ، ودار فرج المذكورة هي الرباط المعروف برباط مَرَاغة ، والطريق المذكورة بينه و بين دار المنايفة ، وأما دار التماثيل التي كان يتوصل إليها ابنُ هشام بالسرب المذكور فلم يبينها ابن زبالة ولا ابن شبة ، غير أنه كان شخص شرع في عمارة الميضأة التي بباب السلام المتقدم ذكرها في دار مروان فوجَدَ سربا تحت الأرض مَقْبُوًّا عند ركنها القبلي مما يلي المغرب ، وعنده باب الخربة المعروفة

بدار الخرازين ، وشرعوا فى عمارتها ــ أى دار الخرازين ــ بدلا من رباط الحصن العتيق . وقد دخلتها قبل هدمها ، فرأيت فيها صناعات غريبة فى البناء من صناعات الأقدمين ، فترجّحَ عندى بقرينة وجود السرب عندها ووجود ذلك بها أنها المرادة بدار التماثيل ، والله أعلم .

دار عامر ابن ابن الزبير ابن العوام

ثم إلى جنب دار فرج الخصى دار عامر بن عبد الله بن الزبير بن العوام ، وكان ابن هشام ــ حين بنى داره ــ أخذ بعضَ حق عامر ، فقال له عامر : فأين طريقى ؟ قال : فى النار ، قال عامر : تلك طريق الظالمين .

قلت : وموضعها اليوم البيت الموقوف الذى بيد الخدام ، وهو عن يسار الخارج من خَوْخَة آل عمر ، ويسمونه اليوم بيت النبى صلى الله عليه وسلم .

ثم ترجع إلى دار عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنه من حيث ابتدأت .

قلت : وذكر ابن شبة فى دور بنى هاشم أن حمزة بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه اتخذ الدار التى صارت لآل فُرَافصة الحنفيين ولآل وردان دبر زقاق عاصم بن عمر ، اهـ .

وقد تقدم فى ذكر سدّ الأبواب إلا ما استثنى ما يقتضى أن حمزة رضى الله تعالى عنه كان له طريق إلى المسجد ، وتقدم بيان زقاق عاصم ؛ فتحصل من ذلك أن دار حمزة رضى الله تعالى عنه كانت فى قبلة المسجد ، وهى غير معلومة المحل ، والله أعلم .

الفصل الخامس والثلاثون

فى البلاط ، وبيان ما ظهر لنا مما كان حوله من منازل المهاجرين

تحديد مكان البلاط

وقد بَوَّبَ البخارى فى صحيحه لمن عَقَلَ بعيره على البلاط أو باب المسجد ، وأورد فيه حديث جابر قال : دخل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المسجدَ ، فدخلت إليه ، وعَقَلْتُ الجمل فى ناحية البلاط ، وبوب أيضا للرجم بالبلاط ، وأورد فيه

حديث اليهوديين اللذين زَنَيَا ، قال ابن عمر : فرجما عند البلاط . وفى رواية لابن عمر : فَرُجِمَا قريبا من موضع الجنائز .

وعند أحمد والحاكم من حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجم اليهوديين عند باب المسجد .

وفى الحديث أن عثمان رضى الله تعالى عنه أتى بماء فتوضأ بالبلاط .

وهذا كله مقتضٍ لأن البلاط كان قديما قبل ولاية معاوية رضى الله عنه .

وفيما قدمناه ما يبين أنه كان فى شرقى المسجد فى ناحية موضع الجنائز ، وظاهر كلام ابن زبالة وابن شبة أن أول حدوثه فى زمن معاوية رضى الله عنه ؛ فإنهما رَوَيَا عن عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله قال : بَلَّطَ مروانُ بن الحكم البلاطَ بأمر معاوية رضى الله عنه ، وكان مروان بلط ممرَّ أبيه الحكم إلى المسجد ، وكان قد أسن وأصابته ريح ، فكان يجر رجليه فتمتلئان ترابا ، فبلطه مروان بذلك السبب ، فأمره معاوية بتبليط ما سوى ذلك مما قارب المسجد ففعل ، وأراد أن يبلط بقيع الزبير فحال ابنُ الزبير بينه وبين ذلك ، وقال : تريد أن تنسخ اسم الزبير ، ويقال : بلاط معاوية ؟ قال : فأمضى مروان البلاط ، فلما حاذى دار عثمان بن عبيد الله ترك الرحبة التى بين يدى داره فقال له عبد الرحمن بن عثمان : لئن لم تُبَلِّطْهَا لأدخلنها فى دارى ، فبلطها مروان .

واقتصر عياض فى بيان البلاط على ما فى غربى المسجد منه ، فقال : البلاط موضع مبلط بالحجارة بين المسجد والسوق بالمدينة ، انتهى .

وقد تبع فى ذلك أبا عبيد البكرى ، وفيه نظر ؛ لأن مقتضى الأحاديث المتقدمة إرادة ما فى شرقى المسجد منه ، ومع ذلك فهو فى شرقى المسجد وغربيه والشام .

وقال ابن شبة : حدثنا محمد بن يحيى قال : حدثنا مَنْ يوثق به من أهل العلم أن الذى بلط حوالى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة معاوية بن أبى

سفيان رضى الله عنهما ، أمر بذلك مروان بن الحكم ، وولى عمله عبد الملك بن مروان ، و بلط ما حول دار عثمان بن عفان الشارعة على موضع الجنائز .

حدود البلاط

وحَدُّ ذلك البلاط الغربى : ما بين المسجد إلى خاتم الزوراء عند دار العباس ابن عبد المطلب بالسوق . وحده الشرقى إلى دار المُغِيرَة بن شُعْبة رضى الله عنه التى فى طريق البَقيع من المسجد . وحده اليمانى إلى حد زاوية دار عثمان بن عفان الشارعة على موضع الجنائز . وحده الشامى وَجْه حش طلحة خلف المسجد ، وهو فى المغرب أيضا إلى حدار إبراهيم بن هشام الشارعة على المصلى .

وللبلاط أسراب ثلاثة تصب فيها مياه المطر ؛ فواحدٌ بالمصلَّى عند دار إبراهيم ابن هشام ، وآخر على باب الزوراء عند دار العباس بن عبد المطلب بالسوق ، ثم يخرج ذلك الماء إلى ربيع فى الجبانة عند الحطابين ، وآخر عند دار أنسِ بن مالك فى بنى جَديلة عند دار بنت الحارث ، اهـ

و يؤخذ من ذلك أن البلاط كان من المغرب فيما بين المسجد و بين الدور المطيفة به .

و يمتد البلاط الآخر من باب الرحمة إلى أن يصلَ إلى الصواغ وسوق العطارين اليوم ، و يستمر كذلك إلى حد سوق المدينة الأول عند أحجار الزيت ومشهد مالك بن سنان ؛ فهناك خاتم الزوراء عند دار العباس ، وهو خاتم البلاط ، وذلك ما بين مشهد مالك بن سنان والدور المواجهة له كما سنبينه فى ذكر سوق المدينة ، وهو موجود اليوم فى تلك الجهة .

و يمتد أيضا البلاط الآخذ من باب السلام إلى أن يصل إلى المدرسة الزمنية ، و ينعطف لجهة الشام حتى يتصل بالبلاط الممتد من باب الرحمة لجهة سوق الصواغ والعطارين ، وهذا الجانب منه هو الذى تقدمت الإشارة إليه بأن عنده أصحاب الفاكهة .

وفى طبقات ابن سعد عن محمد بن عمرو فى دار حكيم بن حزام المتقدم ذكرها فيه أنها عند بلاط الفاكهة عند زقاق الصواغين ، انتهى .

ثم يمتد البلاط الآخذ من باب السلام فى الاستقامة من المدرسة الزمنية فيمر بالموضع المعروف اليوم بسويقة ، فيجاوز باب المدينة المعروف بباب سويقة حتى يصل إلى المصلى ، وهذا معنى قوله « وهو فى المغرب أيضاً إلى حد دار إبراهيم ابن هشام الشارعة على المصلى » .

وهذه الناحية من البلاط الغربى هى المسماة بخط البلاط الأعظم ، وما كان عن يمين الماشى فى هذا البلاط قاصدا بابَ السلام فهو الذى يعبر عنه بميمنة البلاط الأعظم ، وما كان عن يساره فهو الذى يعبر عنه بميسرة البلاط الأعظم .

وأما البلاط الشرقى فحده من القبلة ظاهر عند زاوية الدار التى يسكنها مشايخ الخدام من دار عثمان وزاوية رباط مراغة .

ومن المشرق يمتد فى زقاق البقيع إلى خارج باب رباط المغاربة عند ما يعطف من آخر الدور التى قدمنا أنها فى محل دار أبى بكر رضى الله عنه المقابلة لرباط المغاربة ، ولعل دار المغيرة بن شعبة هى التى تواجهك حين تعطف هناك ، ثم تكون على يسارك وأنت ذاهب إلى البقيع فى مقابلة الرباط المعروف برباط الصادر والوارد ، ولعل البلاط كان متصلا بها .

وقد قال ابن شبة فى دور بنى عبد شمس : إن عثمان رضى الله تعالى عنه اتخذ أيضاً دار المغيرة بن شعبة التى بالبقيع فعارض المغيرة إلى دار عثمان بن عفان التى يقال لها دار عمرو بن عثمان التى بين دار المغيرة بن شعبة اليوم و بين دار زيد ابن ثابت من الأنصار ، انتهى .

فدار المغيرة التى ناقل بها عثمان ليست المرادة ؛ لأنه قال فيها « إنها بالبقيع » وذكر فى هذه التى حدد بها البلاط أنها بزقاق البقيع .

وأيضاً قد قدمنا قول محمد بن عقيل فى خبره فى سقوط جدار الحجرة « حتى

إذا كنتُ عند دار المغيرة بن شعبة لقيتنى رائحة لا والله ما وجدت مثلها قط » فإنه يدل على قرب دار المغيرة من المسجد .

وأيضاً فمن الشائع بين الناس اليوم نسبتهم إلى عثمان رضى الله تعالى عنه الدارَ التى فى شرقى الدار التى قلنا لعلها دار المغيرة بينها و بينها ساباط ، ولعلها التى كانت لعثمان وناقل بها المغيرة إلى داره التى بالبقيع ، وقد قال فى وصفها « إنها بين دار المغيرة اليوم ودار زيد بن ثابت » فتكون دار زيد بن ثابت هى التى تلى ذلك فى المشرق أيضاً على يسار الذاهب إلى البقيع ، وما عن يمينه مما يلى رباط المغاربة دور آل حزم من الأنصار .

وقد قال ابن شبة : إن عتبة بن غَزْوَان حليفَ بنى نوفل بن عبد مناف اتخذ داره التى بالبقيع إلى شرقى دور آل حزم الأنصار ؛ فتكون على يمين الذاهب إلى البقيع بعد دور آل حزم .

فأما البلاط الشامى فمحله ظاهر بين المسجد والدور التى قدمناها فى شاميه ، لكن حدث فيه دور لاصقة بالمسجد بعد سد الأبواب التى فى تلك الجهة كما قدمناه .

وأما ما ذكره ابن شبة من أن الماء الذى يصبُّ فى السرب الذى بالمُصَلَّى والسرب الذى عند دار العباس يخرج إلى ربيع فى الجبانة عند الحطابين فالمراد أنه يخرج إلى الربيع المذكور فى شامى سوق المدينة عندسوق الحطابين قرب ثَنِيَّة الوَدَاع ، لما سيأتى فى ترجمة الجبانة .

وقوله « إن السرب الآخر عند دار أنس بن مالك فى بنى جديلة عند دار بنت الحارث » فأما دار أنس فلم يتحرر لى معرفتها ، غير أنه سيأتى فى بئره — وكانت فى داره — ما ترجح عندنا فى محلها ؛ فيؤخذ منه أن داره كانت عند البئر المعروفة اليوم بالرباطين خلف الحديقة المعروفة بالرومية فى شامى سور المدينة .

وأما دار بنت الحارث فلم أعلم محلها ، وعلى ما ذكرناه فى دار أنس تكون

فى محل الحديقة المعروفة بالرومية أو ما حولها . ودار بنت الحارث هـذه لها ذكر فى أماكن كثيرة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يُنْزِلُ بها الوفودَ ، وجعل بها أسْرَى بنى قريظة حتى خندق لهم الخنادق بالسوق وقتلوا .

وروى ابن زبالة عن محمد بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : جاء النبى صلى الله عليه وسلم إلى نفرٍ من أصحابه من قريش والأنصار وهم فى دار بنت الحارث ، فلما رأوه أوْسَعُوا له ــ الحديث .

وبنت الحارث : اسمها رَمْلَة . وهـذه الأسراب الثلاثة لا يعرف منها شىء اليوم .

وقد علا الـكَبْسُ على كثير من البلاط ، ولم يبق ظاهرا منه إلا ما حول المسجد النبوى وشىء من جهة بيوت الأشراف ولاة المدينة . وله بلاليع يجتمع الماء فيها ، فإذا كثرت الأمطار تجتمع حول المسجد لامتلاء تلك البلاليع ، فيصير أمام أبواب المسجد كالغُدْران الـكبار ، خصوصا فى شرقى المسجد ، لحفر الشمسُ ابن الزمن متولى العمارة الشريفة البَلاَّعة التى فى شرقى المسجد وتتبَّع ما حولها ، فوجد سربا تحت الأرض آخذا من شرقى المسجد إلى جهة زقاق المناصع ، وتَتَبَّعه حتى وصل إلى الحوش المعروف اليوم بحوش الحسن ، فوجد الناس قد بنوا هنالك ، ولم يتمكنوا من تتبعه إلا بهدم الأبنية فتركوه ، وهذا هو السرب الذى تقدم أنه كان يخرج عند دار أنس بن مالك فى بنى جديلة .

ثم إن متولى العمارة حفر سربا لتلك البلاليع التى عنـد أبواب المسجد ، وأوصلها بالسرب الذى يسير فيه وسخ العين ؛ فحصل بذلك غاية النفع ، وصار الماء لا يقف بعـد ذلك بأبواب المسجد ، ووجد البلاط الأول على أكثر من نصف قامة من الأرض فيما يلى الصاغة وسوق العطارين ، وكذا فى شامى المسجد .

وأما الدور المطيفة بالبلاط الأعظم ــ وهو الآخذ من باب السلام إلى المُصَلَّى ــ ففى قبلة منازل بنى زريق ، وسيأتى من كلام ابن شبة نقلا عن أبى غسان أن

ذَرْعَ ما بين مسجد النبى صلى الله عليه وسلم الذى عنده دار مروان و بين المسجد الذى يصلى فيه العيدُ بالمصلى ألف ذراع ، وقد ذَرَعْناه فكان كذلك ، لكن الذى يظهر أن البلاط لم يكن متصلا بمسجد المصلى ؛ لأنه ذكر أن نهايته دار ابن هشام ، ولم تكن الدور متصلة بنفس المسجد .

بيان الدور المطيفة بالبلاط

فأول الدور المطيفة بهذا البلاط مما يلى المُصَلّى فى ميسرته دار إبراهيم ابن هشام المخزومى .

وفى ميمنته فى قبلتها جانحا إلى المغرب دارُ سعد بن أبى وَقَّاص ، والطريق بينهما . ودار سعد هذه قال ابن شبة : إنها هى التى فى دبر دار جبى ، ولها فيها طريق مسلمة .

قال : وسمعت من يقول : كانتا دارا واحدة لسعد ، وإن عمر بن الخطاب كان قاسَمَه إياها ، وكانت دار جبى قسيمة هذه الدار حين قاسمه ماله مَقْدَمَ سعد من العرق ، فاشترى دار جبى عثمان بن عفان ، ثم صارت لعمرو بن عثمان ، وكانت جبى أرضعت عمرا فوهبها لها ، فكانت بيدها ، حتى سمعت نقيضا فى سقف بيتها فقالت لجاريتها : ما هذا ؟ قالت : السقف يسبح ، قالت : ماسبح شىء قط إلا سجد ! فخرجت ، فاضطربت خباء بالمصلى ، ثم باعت الدار من بعض ولد عمر بن الخطاب . قال : وسمعت من يقول : إن عثمان نفسَه أقطعها إياها .

ثم يليها فى ميمنة البلاط المذكور دار لسعد بن أبى وقاص أيضاً ، وكانت لأبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فناقَلَه أبو رافع إلى داريه بالبقال ، وكانتا دارا لسعد .

وفى ميسرة البلاط فى مقابلة هـذه الدار دار لسعد أيضاً ، والطريقُ بينهما عشرة أذرع ، ودور سعد صدقة .

وقد ذكر ابن شبة كتابَ وَقْفها . و بقى من دوره دار أخرى قال ابن شبة :

واتخذ سعد أيضاً دارا بالمصلى ، بين دار عبد الحميد بن عبيد الكنانى و بين الزقاق الذى يسلك فى بنى كعب عند الحمارين ، وفتح فى طائفة من أدنى داره بابا فى الزقاق ، حتى صارت كأنها داران .

قلت : وسيأتى ذكر منازل بنى كعب ، وذكر الحمارين ، ويعلم من مجموع ذلك أن زقاق الحمارين كان فى قبلة البيوت التى بالمصلى والبيوت التى فى قبلة البلاط ببنى زرق .

ثم يلى دار سعد التى كانت لأبى رافع فى ميمنة البلاط المذكور دار آل خراش من بنى عامر بن لؤىّ ، وتعرف بدار نوفل بن مُسَاحق بن عمرو العامرى وفى دبرها من جهة القبلة كُتّاب عروة رجلٍ من اليمن ، كان يعلم . وفى كتاب عروة مسجد بنى زريق ، وعنده دار رفاعة بن رافع . ودار آل خراش هذه هى التى عناها ابن شبة بقوله : وقال — يعنى أبا غسان — : وحدثنى عبد العزيز أن رافع بن مالك الزرقى قتل بأحُد فدُفن فى بنى زريق ، قال : وقيل : إن موضع قبره اليوم فى دار آل نوفل بن مساحق التى فى بنى زريق فى كتاب عروة ، وصارت للعباس بن محمد . ثم يلى دار آل خراش فى الميمنة أيضا دار الربيع التى يقال لها دار حفصة ، وهى مولاة لمعاوية بن أبى سفيان ، كانت تسكنها فنسبت إليها قبل ، وكانت هذه الدار قَطيعةً من رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان بن أبى العاص الثقفى ، فابتاعها من ولده معاويةُ بن أبى سفيان وكانت معها لعثمان أيضا دار آل خراش المتقدمة إلى جنبها ، ويقال : إنه ابتناها فى قطيعة النبى صلى الله عليه وسلم إياه أيضا . وفى الميسرة فى شامى الدارين المذكورين مقابلا لهما دارُ نافع بن عتبة بن أبى وقاص التى ابتاعها الربيع مولى أمير المؤمنين من ولد نافع ، وتعرف أيضا بدار الربيع . وفى دبر الدار المتقدمة التى يقال لها دار حفصة من القبلة دار عَبْد بن زَمْعَة ، قال ابن شبة : واتخذ عَبْدُ بن زَمْعة دارَهُ التى فى كتاب عروة إلى حدها الشامى ، فتكون دار حفصة بينها و بين البلاط بابها لازق فى كتاب

عروة ، أى فى غربيها . وفى قبلة دار عَبْد بن زَمْعة دار ابن مشنو ، قال ابن شبة أيضا : واتخذ عبد الرحمن بن مشنو دارَهُ التى فى كتاب عروة حدُّها من الشام دار عبد بن زمعة ، وحدُّها من المشرق كتاب إسحاق الأعرج بابُهَا لاصق فى كتاب عروة أى فى غربيها أيضا ، وهى صدقة منه . وفى قبلة دار ابن مشنو دارُ عمار بن ياسر فإنها حد دار ابن مشنو من القبلة ، قال ابن شبة : واتخذ عمار بن ياسر داره التى فى بنى زريق ، وكانت من دور أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وبابُهَا وُجَاهَ دار عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أى الذى فى شرقيها ، وكانت أم سلمة أعطته إياها ، ولها خَوْخَةشارعة فى كتاب عروة أى فى المغرب وهى خوخة عمار نفسه ، انتهى ؛ فهذه الدور الثلاثة مصطفة فى القبلة خلف دار حفصة المذكورة ، وخلف الدار الآتية بعدها ، و بينهن من المغرب كتاب عروة ومسجد بنى زريق ، ومن المشرق زقاق دار عبد الرحمن بن الحارث الآتى ذكره .

وذكر ابن شبة ما حاصله أن دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى فى بنى زريق ، فيما بين دار ابن أم كلاب الشارعة على المصلى إلى دار رفاعة بن رافع الأنصارى قبالة مسجد بنى زُرَيْق .

ثم يلى دار الربيع التى يقال لها دار حفصة فى ميمنة البلاط دارُ أبى هريرة رضى الله تعالى عنه . ثم يليها فى الميمنة أيضا زقاق دار عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، ودارُه هى التى تقدم أنها تقابل دار عمار بن ياسر فى الشرق ، و بينها وبين البلاط الداران الآتى ذكرها ، وهذا الزقاق سيأتى له ذكر فى رجوعه صلى الله عليه وسلم من صلاة العيد .

وكذا دار أبى هريرة هذه ، قال ابن شبة : اتخذ أبو هريرة الدَّوْسيُّ دارا بالبلاط بين الزقاق الذى فيه دار عبد الرحمن بن الحارث بن هشام و بين خط البلاط الأعظم ، فباعها ولده من عمر بن بزيع .

والذى ظهر لى بعد التأمل فيما ذكره ابن شبة فى هـذه الدور — بقرينة

ما سنذكره إن شاء الله تعالى — أن زقاق عبد الرحمن بن الحارث هو أول زقاق يلقاك عن يمينك إذا دخلت من باب المدينة اليوم تريد المسجد ، وظهر لى أيضا أن دار هشام والدار الثانية التى تليها فى المَيْسَرة و بعض الثالثة كُنَّ من خارج سور المدينة ، وكذلك ما يقابل ذلك فى الميمنة من دارى سعد و بعض دار آل خراش .

ثم يلى زقاق عبد الرحمن بن الحارث فى ميمنة البلاط دارُ عبدالله بن عوف . ثم يليها فى الميمنة زقاق أبى أمية بن المغيرة ، قال ابن شبة فى دور بنى زهرة : واتخذ عبدُ الله بن عَوْف بن عبد عوف دارا بالبلاط بين زقاق دار عبد الرحمن بن الحارث بن هشام و بين زقاق دار أبى أمية بن المغيرة ، و يقال لها : دار طلحة بن عبد الله بن عوف ؛ فهى صَدَقة بأيدى ولده إلا شيئا خرج منها صار لبكار بن عبد الله بن مصعب الزبيرى . و يلى دار أبى أمية التى نسب إليها الزقاق المذكور فى قبلتها دار الحُوَيْطب بن عبد العزى بينها و بين دار سعيد بن عمرو بن نفيل ، وهما شارعتان فى خط الحارين الشارع إلى دار ابن عُتْبة ببنى زريق شرق دار أبى أمية ، وفى شرقيها أيضا دار صُهَيْب بن سِنان ، وكانت لأم سلمة رضى الله تعالى عنها، وكل هذه الدور فى بنى زريق .

ولنرجع إلى جهة الميسرة فنقول : وفى الميسرة فى مقابلة دار أبى هريرة وبعض التى قبلها دار حُوَيْطب بن عبد العُزى ، وهى غير داره السابقة ، وتلك ليست فى البلاط كما قدمناه ، قال ابن شبة فى دور بنى عامر بن لؤى : واتخذ حُوَيطب بن عبد العزى داره التى بين دار عامر بن أبى وقاص وعتبة بن أبى وقاص ، بالبلاط منها البيت الشارع على خاتمة البلاط بين الزقاق الذى إلى دار آمنة بنت سعد وبين دار الربيع مولى أمير المؤمنين ، وهى صدقة منه على ولده ، انتهى . ولم يذكر لعتبة ابن أبى وقاص دارا بالمدينة . والذى انتقل إلى المدينة واتخذ بها الدار إنما هو ابنُه نافع ، وداره هى المتقدم ذكرها التى صارت للربيع ؛ فهى المرادة .

وقال فى بيان دار عامر بن أبى وقاص الزهرى : واتخذ عامر بن أبى وَقّاص دارَه التى فى زُقاق حلوة بين دار حُوَيْطب بن عبدالعُزَّى و بين خط الزقاق الذى فيه دار آمنة بنت سعد بن أبى سَرْح، انتهى .

فيتلخص من ذلك أن دار حُوَيْطب المذكورة فى شرقىّ دار الربيع المتقدمة فى المَيْسَرة و إلى جانبها خاتمة البلاط ، وهو اليوم الزقاق الذى بين سور المدينة و بين البيوت المقابلة له ولمشهد سيدنا مالك بن سِنان على يسارك عندما تدخل من باب المدينة ، وأن من دار حُوَيْطب بيتا خلفها من جهة جانبها الغربى شارعا على خاتمة البلاط المذكورة ، وخلفه من جهة الشام الزقاق الذى فيه دار آمنة ، وتكون دار عامر بن أبى وقّاص خلف دار حُوَيْطب من جهة جانبها الشرقى ، و يكون زقاق حلوة فى شرقيهما ، ولعله المعروف اليوم بزقاق الطول ؛ لانطباق الوَصْف المذكور عليه ، وسيأتى لزقاق حلوة ذكر فى الآبار

ثم فى الميسرة أيضا دارُ عبد الله بن مَخْرَمة قال ابن شبة فى دور بنى عامر بن لؤى : اتخذ عبد الله بن مَخرَمة داره التى فى البلاط الشارع بابها قبالة دار عبد الله بن عَوْف التى فيها بنو نَوْفَل بن مُسَاحق بن عبد الله بن مَخْرَمة،وخرج عنهم بعضها فهو فى يد ورثة عمر بن بزيع مولى أمير المؤمنين .

ولنرجع إلى جهة المَيْمَنة فنقول:ثم إلى زقاق دار أبى أمية فى الميمنة من شرقيه دار خالد بن سعيد الأكبر بن العاص التى يقال لها دار سعيد بن العاص الأصغر أبن سعيد بن العاص ، و يقال لها دار ابن عتبة، و إنما ورثها عبد الله بن عتبة عن عمه خالد بن سعيد . و يقابلها فى المَيْسَرة دار أم خالد التى لآل خالد بن الزبير بن العَوّام ، ورثوها عن أمهم أم خالد بن سعيد بن العاص ، وقيل : إنهما قَطيعة من النبى صلى الله عليه وسلم . ثم يلى دار خالد بن سعيد فى الميمنة دارُ أبى الجَهْم ، ثم دار نوفل بن عدى ، ثم دار آل المُنْكَدِر التَّيْمى . قال ابن شبة فى دور بنى عدى : واتخذ أبو الجَهْم داره التى بين دار سعيد بن العاص التى يقال لها دار أبن عتبة و بين دار نوفل ابن عدى بابها شارع فى البلاط .

قلت : وهذه الدار هى المرادة بما رواه مالك فى الموطأ عن عمه أبى سَهْل بن مالك بن أبى عامر عن أبيه : كنا نسمع قراءة عمر بن الخطاب ونحن عند دار أبى جَهْم بالبلاط ، وكذا بما رواه البيهقى عن موسى بن عقبة أن رجال بنى قُرَيْظة قُتلوا عند دار أبى جَهْم التى بالبلاط ، ولم يكن يومئذٍ بلاط ، فزعموا أن دماءهم بلغت أحجار الزيت التى كانت بالسوق .

وقال ابن شبة فى دور بنى أسـد : واتخذ نَوْفَل بن عَدِى بن أبى حُبَيْش دارين : إحداهما التى بالبلاط عنـد أصحاب الرباع بين دار المنكدر التيمى و بين دار آل أبى جَهْم العدويين ، والدار الأخرى فى بنى زُرَيق وُجاه الـكتاب الذى يقال له كتاب آل زيان بين منزل أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام الذى صار لبنى عبيد بن عبد الله بن الزبير و بين حد الزقاق الذى عند الحمارين ، دبرهما دار هانىء التى بأيدى آل جبر ، انتهى.

وهذه الأمور التى ذكرها فى الدار الثانية حول ماخلف دار سعيد بن العاص المسماة دار ابن عتبة من جهة القبلة ، والزقاق الذى ذكره هناك عند الحمارين يمتدّ فى المغرب إلى المصلَّى فى قبلة دور سعد بن أبى وقاص .

وقد ذكر ابن شبة أيضاً أن دار رُوَيْشِد الثقفى التى يقال لها القمقم فى كتاب ابن زيان هى التى حَرَّقها عليه عمر بن الخطاب فى الشراب ، وكان رويشد حمارا، وفى غربى هـذه الدار أدنى دار على بن عبد الله بن أبى فَرْوَة ، وشرقيها الطريق بينها و بين بيوت آل مصبح ، و يمانيهـا دار الأويسيين التى لسكن خالد بن عبد الله الأويسى ، وشاميها قبلة بيوت آل مصبح التى بينها و بين دار موسى بن عيسى ، و بيوت آل مصبح ذكرها فى دور بنى عامر بن لؤى فقال : واتخذ ابن أم مكتوم دارا هى البيوت التى للمصبحين بين دار آل زَمْعة بن الأسـود و بين شرقى القمقم ،انتهى . وهذه الأمور أيضاً حول الدور المتقدمة فى بنى رزيق .

وقوله فى دار نوفل الأولى وهى المقصودة لأنها التى فى ميمنة البلاط وأنهـا

عند أصحاب الرباع ، لم أعلم المراد به، غير أن فى طبقات ابن سعد أن دار حُوَيْطب ابن عبد العزى المتقدم ذكرها فى الميسرة عند أصحاب المصاحف ، فإنه قال فى ترجمته : وله دار بالبلاط عند أصحاب المصاحف ، فلعل المراد بالرباع المصاحف ؛ لأن المصحف يسمى ربعة ؛ فيستفاد منه أن هذه الناحية من البلاط ميمنة وميسرة تسمى بذلك ، لكن قال ابن شبة فى دور العباس بن عبد المطلب ما لفظه : وقد سمعتُ مَنْ يذكر أن دار فضالة بن الحكم بن أبى العاص التى بالبلاط الخربة التى عند أصحاب الرباع على يمين مَنْ سلك إلى بنى جديلة كانت مِرْبَدا للعباس رضى الله عنه ، ويقال : إنها كانت مربداً لنعم الصدقة ، انتهى .

وهو يقتضى أن أصحاب الرباع ليسوا فى البلاط الأعظم ، لأنه ليس فيه مَسْلك إلى بنى جديلة ، وإنما يتوصل منه إلى بنى جديلة بعد إتيان البلاط الآخر الذى هو موضع سوق المدينة اليوم عند درج العين ، وقد تقدم أن ذلك يسمى بموضع الفاكهة ، والله أعلم .

هذا ما علمته من الدور التى بهذا البلاط ، وفى الاقتصار عليها كفاية ؛ لأن المقصود المهمّ لنا من ذلك ما يتعلق ببيان مسجد بنى زُرَيق ، وبطريق النبى صلى الله عليه وسلم فى ذهابه إلى المصلى ورجوعه منها كما سيظهر لك .

وأما البلاط الممتد فى المغرب إلى سوق المدينة القديم فكان عند خاتمة دار العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه كما تقدم .

وقال ابن شبة فى دور العباس : ومنها الدار التى بالزَّوْرَاء سوق المدينة عند أحجار الزيت ، أقطعها له عمر بن الخطاب ، قال : وقد بلغنى أن دار طلحة بن عمر بالبلاط كانت مِرْبَدا لدار العباس هذه ، فابتاعها عمر من بعض بنيه . ويقوى ذلك أن المنصور أبا جعفر ابتاع تلك الدار من ولد طَلْحة بن عمر بأربعين ألف دينار .

ثم ذكر للعباس دارا أخرى ليست فى البلاط ، لكنها فى شامى هذه الدار ،

فقال : ومنها الدار التى إلى جَنْب دار آل قارظ حُلَفاء بنى زُهْرة ، بينها و بين خطة بنى ضَمْرة ، وهى التى كان عبد الله بن عباس يسكن وجعلت المحررة هناك لطعام كان ابن عباس يطعمه .

قلت : و إنما ذكرنا هاتين الدارين لما سيأتى من ذكرهما فى الدار التى أخذ بها هشام بن عبد الملك سوق المدينة .

و يستفاد مما سيأتى فى ترجمة أحجار الزيت أن دار العباس التى عند خاتمة البلاط المذكور كانت بقرب مشهد سيدنا مالك بن سنان فى شرقيه ، وسيأتى أنه دفن عند مسجد أصحاب العَبَاء ، أى الذين يبيعون العبى ، وهنالك كانت أحجار الزيت .

الفصل السادس والثلاثون

فيما جاء فى سوق المدينة الذى تصدق به النبى صلى الله عليه وسلم على المسلمين ، وذكر دار هشام بن عبد الملك التى أخذ بها السوق .

الرسول ينشىء السوق

روى عمر بن شبة عن عطاء بن يَسَار قال : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل المدينة سوقا أتى سوق بنى قَيْنُقَاع ، ثم جاء سوق المدينة فضرب به برجله وقال : هذا سوقكم ؛ فلا يضيق ، ولا يؤخذ فيه خَرَاج .

وروى ابن زَبَالة عن يزيد بن عبيد الله بن قسيط أن السوق كانت فى بنى قَيْنُقَاع حتى حول السوق بعد ذلك .

أسواق المدينة فى الجاهلية

وقال ابن شبة : قال أبو غسان : وكان بالمدينة فى الجاهلية سوق بزَبَالة من الناحية التى تدعى يثرب ، وسوق بالجسر فى بنى قَيْنُقَاع ، وبالصفاصف بالعصبة سوق ، وسوق يقوم فى موضع زقاق ابن حبين كانت تقوم فى الجاهلية وأول الإسلام ، وكان يقال لذلك الموضع : مزاحم .

وروى ابن شبة أيضاً عن صالح بن كَيْسَان قال : ضرب رسولُ الله صلى الله

عليه وسلم قبة فى موضع بَقيع الزبير فقال : هذا سوقكم . فأقبل كعب بن الأشرف فدَخَلها وقَطَع أطنابها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا جَرَمَ لأنقلنّها إلى موضع هو أغْيَظُ له من هذا ، فنقلها إلى موضع سوق المدينة ، ثم قال : هـذا سوقـكم ، لا تتحَجَّروا ، ولا يُضرَب عليه الخراج .

وعن أبى أسيد أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول‌الله إنى قد رأيت موضعا للسوق ، أفلا تنظر إليـه ؟ قال : فجاء به إلى موضع سوق المدينة اليوم ــ أى فى زمنهم ــ قال : فضرب النبىُّ صلى الله عليه وسلم برجْله وقال: هذا سوقكم ؛ فلا ينقص منه ، ولا يضربَنّ عليه خراج .

وروى ابن زبالة عن عباس بن سهل عن أبيه أن النبى صلى الله عليـه وسلم أتى بنى سـاعدة فقال : إنى قد جئتكم فى حاجة تُعْطُونى مكانَ مقابركم فأجعلها سوقاً ، وكانت مقابرهم ماحازت دار ابن أبى ذئب إلى دار زيد بن ثابت ، فأعطاه بعضُ القوم ، ومنعه بعضهم ، وقالوا : مقابرنا ومخرج نسائنا ، ثم تَلاَوَمُوا فلحقوه وأعْطَوه إياه ، فجعله سوقا .

قلت : وسيأتى ما يبين أن دار ابن أبى ذئب ودار زيد بن ثابت كانتا فى شرقى السوق ، الأولى عند أثنائه مما يلى الشام ، والثانية عند أثنائه مما يلى القبلة ؛ فليست المقابر المذكورة سوق المدينة كله ، بل بعضه . وقد قدمنا فى منازل بنى ساعدة أن ابن زبالة نقل أن عرض سوق المدينة ما بين المصَلَّى إلى جرار سعد ، وهى جرار كان يَسْقِى الناسَ فيها الماء بعد موت أمه ، وقدمنا أن الذى يترجح أن المصلى حده من جهة القبلة ، وأن جرار سعد حده من جهة الشام ؛ فتكون جرار سعد قرب ثَنِيَّة الوَدَاع ، وقد قوى الآن ذلك عندى جدا ، لما سيأتى فى ذكر دار هشام .

وروى ابن شبة أيضاً وابن زبالة عن محمد بن عبد الله بن حسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تصدَّق على المسلمين بأسواقهم .

وروى ابن زبالة عن خالد بن الياس العدوى قال : قرئ علينا كتابُ عمر ابن عبد العزيز بالمدينة : إنما السوق صَدَقة فلا يضربَنّ على أحد فيه كِراء .

وعن ابن أبي ذئب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ على خيمة عند موضع دار المنبعث فقال : ما هذه الخيمة ؟ فقالوا : خيمة لرجل من بنى حارثة كان يبيع فيها التمر ، فقال : حرقوها ، فحرقت . قال ابن أبي ذئب : و بلغنى أن الرجل محمد بن مسلمة .

وروى ابن شبة عن أبي مردود عبد العزيز بن سليمان أن عمر بن الخطاب رأى كِيرَ حَدّاد فى السوق ، فضرب به برجله حتى هَدَمه ، وقال : أتنتقصُ سوق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وروى ابن زبالة عن حاتم ابن إسماعيل عن حبيب قال : مر عمر بن الخطاب على باب معمر بالسوق ، وقد وضع على بابه جرة ، فأمر بها أن تُقلع ، فخرج إليه معمر فقال : إنما هذه جرة يَسْقِى فيها الغلامُ الناسَ ، قال : فنهاه عمر أن يحجر عليها أو يحوزها . قال : فلم يَلْبث أن مرّ عليها وقد ظلل عليها ، فأمر عمر بالجرة والظلال فنزعهما .

وعن عبد الله بن محمد قال : كان الراكبُ ينزل بسوق المدينة فيضع رَحْله ، ثم يطوف بالسوق ورَحْله بعينه يُبْصره ، لا يغيبه عنه شيء .

وروى أيضاً قصة أخذ معاوية رضى الله تعالى عنه لدار النقصان من صحن سوق المدينة .

وروى أيضاً عن محمد بن طلحة وغيره قال : أحدث إبراهيم بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة فى سلطان هشام بن عبد الملك ، وهو يومئذ والٍ له على المدينة ، دارا أخذ بها سوق المدينة ، وسدّ بها وجوه الدور الشوارع فى السوق ، وكتب إلى هشام يذكر له عليها وعظيم قدرها ، فكتب إليه هشام يأمره بإمضائها و إمضاء عين السوق ، وكان أحْدَثها فى سكك أهل

المدينة ، ودخلت فى بعض منازلهم ، فكتب إليه أن أمْضِهَا وإن كانت فى بطونهم .

قلت : ونقل ابن شبة عن أبى غسان أنه قال : كان الذى هاج هشام بن عبد الملك على بناء داره التى كانت بالسوق أن إبراهيم بن هشام بن إسماعيل كان خال هشام بن عبد الملك ، وكان ولاه المدينة ، فكتب إليه إبراهيم ، فذكر أن معاوية بن أبى سفيان بنى دارَيْن بسوق المدينة يقال لإحداها دار القطران والأخرى دار النقصان ، وضرب عليهما الخراج ، وأشار عليه أن يبنى دارا يدخل فيها سوق المدينة ، فقبل ذلك هشام ، و بناها ، وأخذ بها السوق كله ، انتهى .

وقال ابن زبالة عقب ما تقدم : فابتدأ الدار من خاتمة البلاط أى الذى عند دار العباس بالزوراء بقرب مشهد مالك بن سنان رضى الله عنه ، فيكون هذا الجدار فى شرقى السوق ، وهذا أول الجدار المذكور مما يلى القبلة ، وما سيأتى فيه دال على أنه استمر يمده إلى جهة الشام ، وليس ابتداء هذا الجدار من القبلة أول السوق لما سيأتى ، بل بقى منه بقية فى جهة القبلة إلى المصلى سيأتى ذكرها .

قال ابن زبالة عقب ذكره لابتداء الدار من خاتمة البلاط : فمضى بها حتى سد بها وجه دار العباس بن عبد المطلب ، أى التى عند خاتمة البلاط ودار نخلة ، وكانت لآل شيبة بن ربيعة ، وإنما سميت دار نخلة لنخلة كانت فيها . ثم دار معمر العدوى التى كان يجلس صاحبُ السوق بفنائها . ثم دار خالد بن عقبة التى بفنائها أصحابُ الرقيق .

وجعل لبنى ساعدة طريقا مبوبة ، ثم أخذ وجه دار ابن جحش . ثم وجه دار ابن أبى فروة التى كانت لعمر بن طلحة بن عبيد الله ، ثم وجه دار ابن مسعود، ثم وجه دار زيد بن ثابت ، وجعل للطريق منفذا مبوبا . ثم وجه دار جبير ابن مطعم التى فيها أصحاب العَبَاء . ثم وجه دار القارظيين . ثم وجه دار العباس ابن عبد المطلب ، أى الثانية التى كان عبدُ الله بن عباس يسكنها ، وجعل لبنى

ضَمْرة طريقا مبوبا . ثم وجه دار ابن أبى ذئب . ثم دار آل شويفع . ثم صدقة الزبير ، وجعل لبنى الديل طريقا مبوبا .

قلت : وهذا الطريق عند نهاية هذا الجدار الشرقى مما يلى الشام قرب ثنية الوداع ، والطرق المذكورة قبْله كلها فى الجدار المذكور خططها فى المشرق .

ثم بين ابن زبالة ما يقابل هـذا الجدار فى المغرب مبتدئا بما يقابله من جهة القبلة ، ثم إلى الشام فقال عقب ما تقدم :

ثم أخذ بها من الشق الآخر ، فأخذ وجـه الزوراء ووجه دار ابن نصلة الكنانى . ثم على الطاقات حتى ورد بها خيام بنى غفار ، وجعل لمخرج بنى سلمة من زقاق ابن جبير بابا مبوبا عظيما يغلق . ثم مضى بها على دار النقصان ودار نويرة ، وجعل لسكة أسلم بابا مبوبا . ثم مضى بها على دار ابن أزهر ودار ابن شهاب ودار نوفل بن الحارث حتى جاوز بها دار حجارة ، وكانت لعبيد الله بن عباس ابن عبد المطلب ، حتى إذا جاوز بها دار حجارة جعل لها بابا عظيما يقابل الثنية .

قلت : يعنى ثنية الوَدَاع ، وهذا الباب فى جهة الشام كما صرح به ابن شبة فقال ، عقب ما تقدم : وجعل لها بابا شاميا خلف شامى زاوية دار عمر بن عبد العزيز بالثنية . ثم جعل بينها و بين دار عمر بن عبد العزيز عرضا ثلاثة أذرع ، ثم وضع جدارا آخر وُجاه هذا الجدار . ثم قاد الأساس بينه و بين الدور كلها ثلاثة أذرع حتى الزقاق الذى يقال له زقاق ابن جبير ، جعل عليه بابا ، وجعل على الزقاق الذى يقال له زقاق بنى ضمرة عند دار آل أبى ذئب بابا . ثم جعل على الزوراء خاتم البلاط أى بابا ؛ فيستفاد منه جعل باب هناك ، وليس فى كلام ابن زبالة تعرض له .

ثم إن ابن زبالة ذكر ما بقى من شقى الدار الغربى والشرقى مما يلى القبلة إلى المصلى ، فقال عقب كلامه السابق : ثم ساقها من الشقين جميعا الغربى والشرقى فسدَّ بها وجوه الدور ، وأخذ بها السوق فسد بها من الشق الشرقى وجه دار

قطران ، وكانت من دور معاوية . ثم وجه دار ابن جودان وتلك الدور .

ومن الشق الغربي دار حجارة لكثير بن الصّلت ، وكانت قبله لربيعة ابن دراج الجمحى . ثم وجه الربعة التى فيها دار آل أبى عثمان حُلَفاء أزهر ابن عبد عوف . ثم جعل للسكة منفذا . ثم وجه دار التمارين ، وكانت لمعاوية ابن أبى سفيان ، وقبله لسعيد بن عبد الرحمن بن يربوع .

فلما بلغ ابن هشام بالدار التمارين وقف ، وجعل لها هنالك بابا عظيما يقابل المصلى .

وقال ابن شبة عقب قوله فيما تقدم « وجعل على الزوراء خاتم البلاط » ما لفظه : ثم مدَّ الجدار حتى جاء به على طيقان دار القطران الأخرى الغربى ، حتى جاء بها إلى دار ابن سباع بالمصلى التى هى اليوم لخالصة ، فوضع ثم بابا أى بالمصلى .

قال : ثم بنى ذلك بيوتا ؛ فجعل فيه الأسواق كلها ، فكان الذى ولى ابن هشام أى على بنائها سعد بن عبد الرحمن الزرقى من الأنصار ، فتم بناؤها إلا شيئاً من بابها الذى بالمصلى .

ونقلت أبوابها إليها معمولة من الشام ، وأكثرها من البلقاء ، انتهى .

وقال ابن زبالة ، عقب كلامه السابق : وفعل ذلك فى بقيع الزبير ، وضرب عليه طاقات ، وأكراها ، وسد بها وجوه دورهم ، وجعل للسكك منفذا يغلق .

قلت : ومراده أنه جعل فى فضاء بقيع الزبير دارا كدار السوق ، ولا يتوهم من ذلك أن بقيع الزبير من جملة السوق ؛ لما سيأتى فى ترجمته .

قال ابن زبالة : وجعل لدار السوق حوانيت فى أسفلها ، وعلالىّ تكرى للسكن ، وحملت أبوابها من البلقاء ، فمنها بقية بالمدينة مكتوب فيها البلقاء .

قال : فبينا الناسُ لا يدرون بموت هشام إلى أن جاء ابن المكرم الثقفى من الشام بريدا بموته رسولا للوليد بن يزيد ، ويبشرهم بالعطاء ، فصاح حين دخل

هدم الدار التى وضعت مكان السوق

الثنية : ألا إنّ هشاماً الأحول قد مات ، فوثب الناسُ على الدار فهدموها ، وعلى عين السوق فقطعوها .

وعبارة ابن شبة : فلم تزل — أى تلك الدار — على ذلك حياةَ هشام بن عبد الملك ، وفيها التجار ، فيؤخذ منهم الـكِرَاء ، حتى توفى هشام ، فقدم بوفاته ابن مكرم الثقفى ، فلما أشرف على رأس ثنية الوداع صاح : مات الأحول ، واستخلف أمير المؤمنين الوليد بن يزيد ، فلما دخل دار هشام تلك صاح به الناس: ما تقول فى الدار ؟ قال : اهْدِمُوها ، فوقع الناس فهدموها ، وانتهبت أبوابها وخشبها وجريدها ، فلم يمض ثالثة حتى وضعت إلى الأرض .

فقال أبو معروف أحدُ بنى عمرو بن تميم :

ما كان فى هَدْم دار السوق إذ هدمت سوقُ المدينة مِنْ ظُلْم ولا حَيف
قام الرجال عليها يضربون معاً ضَرْباً يفرق بين السور والتحف
ينحطُّ منها ويَهْوِى من مناكبها صَخْر تقلب فى الأسواق كالخلف

وذكر ابن زبالة هذه الأبيات عن أبى معروف ، إلا أنه زاد قبلها ثلاثة أخرى فقال : وقال أبو معروف :

قل للوليد أبى العبَّاس قد جَمَعَتْ أيمانُ قومك بالتسليم فى الصحف
مازلْتَ ترمى ويرمى الناسُ عن هَدَفٍ حتى وضعت نصالَ النبل فى الهدف
أعطاك ربُّكَ طوعاً من قلوبهم نُصْحاً تبين قبل الظن والحلف
ما كان فى هدم دار السوق إذ هدمت الأبياتَ المتقدمةَ

بيت أم كلاب

وروى ابن زبالة من طريق جعفر بن محمد عن أبيه قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم براوية الخمر التى أهْدَى له الدوسى فأهريقت بالسوق عند بيت أم كلاب حيث يُهَرَاق الشراب اليوم ، وسيأتى فى ترجمة أحجار الزيت قول ابن أبى فديك : أدركت أحجار الزيت ثلاثة مواجهة بيت ابن أم كلاب ، وهو اليوم يعرف ببيت

بنى أسـد ، انتهى ، وكأنه غيرُ بيت ابن أم كلاب الذى له ذكر فى بنى زريق ، فهذا السوق هو المراد بما ورد من أنه صلى الله عليه وسلم خرج بأسْرَى بنى قُرَيظة إلى سوق المدينة فَخَنْدَقَ بها خنادق ، ثم ضرب أعناقهم فى تلك الخنادق ، ويظهر مما قدمناه ومما سيأتى فى ترجمة الزوراء أن مقدم سوق المدينة مما يلى خاتمة البلاط وما حول ذلك كان يسمى بالزوراء .

وروى ابن شبة عن بعضهم أنه قال : أدركت سوقاً بالزوراء يقال له سوق الحرص ، كان الناس ينزلون إليها بدرج.

البطحاء

قلت : ورأيت فى الأم للشافعى رضى الله تعالى عنه ما يقتضى تسمية سوق المدينة بالبَطْحَاء ؛ فإنه روى عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطُب يوم الجمعة ، وكان لهم سوق يقال لها البطحاء ، كانت بنو سليم يجلبون إليها الخيلَ والإبل والغنم والسمن ، فقدموا فخرج إليهم الناسُ ــ الحديثَ .

بقيع الخيل

وروى ابن شبة من طريق عُرْوة عن عائشة رضى الله عنها قالت فى حديث ساقه : كان يقال لسوق المدينة بقيع الخيل ، وهذا الحديث تقدم من رواية ابن زبالة فى ذكر دُعَائه صلى الله عليه وسلم للمدينة وسؤاله نَقْلَ وبائها ، وفيه : ثم عمد إلى بقيع الخيل ــ وهو سوق المدينة ــ فقام فيه ووجْهُه إلى القبلة ، فرفع يديه إلى الله فقال : اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة ــ الحديث .

والبقيع هنا بالموحدة التحتية ؛ فهو المراد بقول ابن عمر فى حديثه الذى رواه الأربعة والحاكم : إنى أبيع الإبلَ بالبقيع بالدنانير ، وآخذ مكانها الدراهم ــ الحديث ولما خفى هذا على كثير من الناس قال بعضهم : إن الظاهر أن المراد النَّقيع بالنون أى حمى النقيع ، قال : لأنه أشبه بالبيع من البقيع الذى هو مدفن ، وقال النووى: ليس كما قال ، بل هو بقيع الغرقد ــ بالباء ــ ولم يكن ذلك الوقت كثرت فيه القبور ، انتهى ، ولم يذكر أحد من مؤرخى المدينة أنه كان ببقيع الغرقد سوق ، مع اعتنائهم

بذكر أسواق المدينة فى الجاهلية والإسلام ؛ فالمعتمد ما قدمناه ، والمسمى بالبقيع هنا ما يلى المصَلّى من سوق المدينة ، ويسمى بقيع المصَلّى أيضاً كما سيأتى ، ولهذا روى أحمد والطبرانى عن أبى بُرْدة بن نيار قال : انطلقنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بقيع المصَلّى فأدخل يده فى طعام ثم أخرجها فإذا هو مغشوش ، أو مختلف ، فقال : لَيْسَ منا مَنْ غَشَّنا ، ورواه الطبرانى أيضاً عن أبى موسى قال : انطلقت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق البقيع ، فأدخل يَدَه فى غرارة ، فأخرج طعاماً — الحديثَ ، فعبر عن بقيع المصلى بسوق البقيع .

وروى ابن زبالة أيضاً فى ذكر سوق المدينة عن محمد بن طلحة قال : رأيت عثمان بن عبد الرحمن و إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد ومحمد بن المنكدر ، وزيد بن حصفة يقومون بفناء بركة السوق اليوم قبل أن تكون ، يقومون مستقبلين فسألت عثمان بن عبد الرحمن عن ذلك ، فقال : قد اختلف علينا فى ذلك ؛ فقائل يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو هنالك ، وقائل يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم هنالك فينظر إلى الناس إذا انصرفوا من العيد ، قال : وكان عامر بن عبد الله بن الزبير يقف عند التبانين فيدعو ، وسيأتى فى ذكر المصلى ما رواه الشافعى فى الأم من طريق عبد الرحمن التيمى عن أبيه عن جده أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم رَجَع من المصلى يوم عيدٍ فسلك على التمارين من أسفل السوق ، حتى إذا كان عند مسجد المصلى الذى هو عند موضع الدار التى بالسوق قام فاستقبل فَجَّ أسلم فدعا ثم انصرف .

بركة السوق

قلت : وهذا بين أن بركة السوق فى شامىِّ فَجِّ أسلم ، وسيأتى فى منازل أسلم ما يبين أن منازلهم فى شامى الثنية التى عليها حصن أمير المدينة اليوم ، وتقدم فى ذكر دار السوق حيث قال فيها فى جهة المغرب : وجعل لسكة أسلم باباً مايبين ذلك ، وحينئذ فبركة السوق هى المَنْهَل الذى ينزل إليه بالدرج عند مشهد النفس

الزكية من عين المدينة على يسار المار إلى ثنية الوَدَاع ، وفى كلام ابن زبالة مايومىء إلى أن الذى أحدث العينَ هناك إنَّما هو إبراهيم بن هشام ، وسيأتى فى ترجمة أحجار الزيت أن النبى صلى الله عليه وسلم استسقى عند أحجار الزيت قريباً من الزوراء ، والله أعلم .

وروى ابن شبة عن أبى هريرة أنه كان يقول : لا يذهب الليل والنهار حتى يخسف برجل بصَحْن هذا السوق ، قال ابن أبى فديك : وكنت أسْمَعُ من المشايخ أنه قال والله أعلم : إن ذلك يكون على باب بيت البرّادين ، ويقال : هو بفناء دار ابن مسعود .

وعن عبد الرحمن بن الحارث بن عبيد عن جده قال : خرجت مع أبى هريرة حتى إذا كنا عند دار ابن مسعود قال : يا أبا الحارث ، إن حِبِّى أبا القاسم صلى الله عليه وسلم أخبرنى أنه رُبَّ يمين بهذه البقعة لا يصعد إلى الله ، قال : قلت له : أنَّى ذلك يا أبا هريرة ؟ قال : أما أنى أشهد ما كذبت ، قلت : وأنا أشهد .

وروى ابن زبالة عن عبد الرحمن بن يعقوب أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء السوق فرأى حنطة مُصَبَّرة فأدخل يَدَه فيها ، فناله بلل فى جوفها ، فقال :ماهذا ؟ لصاحب الطعام ، قال : أصابنى مطر فهو هذا البَلَلُ الذى ترى ، قال : ألا جعلته على رأس الطعام حتى يراه الناس ؟ مَنْ غَشَّ فليس منى ، من غَشَّ فليس منى ، وأصل الحديث رواه أبو داود وغيره ، ولفظه : أن النبى صلى الله عليه وسلم مَرَّ برجل يبيعُ طعاماً ، فسأله كيف تبيع ؟ فأخبره، فأوحى إليه أن أدْخِلْ يَدَكَ فيه، فأدخل يدهُ فإذا هو مبلول ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس منا من غش .

وعن ابن المغيرة قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل يبيع طعاما فى السوق بسعر هو أرفع من سعر السوق ، فقال : تبيعُ فى سوقنا بسعر هو أرفع من سعرنا؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال : صبراً واحتساباً ؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال :

أبشروا فإن الجالب إلى سوقنا كالمجاهد فى سبيل الله ، وإن المحتكر فى سوقنا كالمُلْحِد فى كتاب الله .

قلت : وقوله «بسعر هو أرفع» أى بزيادة فى السعر وهو المبيع ، ويدل لذلك ما رواه ابن شبة عن ابن عبد الرحمن بن حاطب بن أبى بَلْتَعَةَ قال : كان أبى وعثمان بن عفان شريكين يجلبان التمر من العالية إلى السوق ، فمر بهم عمر بن الخطاب ، فضرب الغرارة برجله وقال : يابن أبى بَلْتَعة زد فى السعر وإلا فاخْرُج من سوقنا .

وروى ابن زَبَالة عن القاسم بن محمد أن عمر بن الخطاب مَرَّ بحاطب بن أبى بَلْتَعَة وهو بسوق المصَلّى وبين يديه غرارتان فيهما زَبيب ، فسأله عن سعره ، فسعَّر له مُدَّين بدرهم ، فقال عمر : قد حُدِّثْتُ بِعِيرٍ مُقْبِلة من الطائف تحمل زبيباً وهم إذا وضَعُوا إلى جَنْبِك غداً اعتبروا بسعرك ، فإما أن ترفع فى السعر ، وإما أن تدخل زبيبك فى البيت فتبيعه كيف شئت ، فلما رجع عمر حاسَبَ نَفْسه فى الظهر ، ثم خرج فأتى حاطباً فى منزله فقال : إن الذى قلت لك ليس بعزيمة منى ولا قضاء ، وإنما هو شىء أردتُ به الخيرَ فحيث شئت فَبِعْ .

الفصل السابع والثلاثون

فى منازل القبائل من المهاجرين ، ثم اتخاذ السُّور على المدينة .

قال عمر بن شبة : نزل بنو غفار بن مليل بن ضَمْرَة بن بكر بن عبد مناف ابن كنانة القطيعةَ التى قطع لهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى ما بين دار كثير بن الصَّلْت التى تعرف بدار الحجارة السوق إلى زُقَاق ابن حبين إلى دار أبى سَبْرة إلى منازل آل الماجِشُون بن أبى سلمة ، وبهذه الخطة مسجد بنى غفار صلى فيه النبى صلى الله عليه وسلم وهو خارج من منزل أبى رُهْم بن الحصين الغفارى . **منازل بنى غفار**

قلت : ودار كثير بن الصلت هذه تقدم بيانها فى غربى السوق مما يلى القبلة شامى المصلى ، وأما زقاق ابن حبين ، ففى غربى السوق أيضا مما يلى الشام بالقرب من حِصْن أمير المدينة ، وابن حبين كان مولى للعباس بن عبد المطلب . وأما دار أبى سَبْرة فلم أعْرِفْها ؛ فالظاهر أنهـا كانت فى جهة غربى سوق التمارين . وأما منازل آل الماجشُون ، فذكر هو فى موضع آخر أنهـا فى زُقَاق الجلادين ، وسيأتى فى منازل بنى كعب أنه شارع على المُصَلَّى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

واتخذ سباع بن عُرْفُطة الغفارى خطة بالمُصَلَّى وهى الدار التى يقال لها دار عبد الملك بن مروان بالمصلى وجهها شارع قبالة الحجامين .

قلت : وذلك فى شامى المصلى مما يلى السوق والمغرب لأن ابن شبة قال : إن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب اتَّخَذ دارا بالمصلَّى فى موضع الحجامين ، ثم ابتاعها معاوية ، فزادها فى مُصَلَّى النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أدخلها بعد هشام بن عبد الملك فى داره التى أخذ بها السوق ثم هدمت .

ونزل سائر بنى غفار محلتهم وهى السائلة من جبل جُهَينة إلى بطحان وما بين خط دار كثير بن الصَّلت بِبُطْحان إلى بنى غفار ؛ فنزلت بنو غفار منزلهم من خط دار كثير بن الصَّلت إلى أن يُفْضى إلى جهينة .

قلت : وجبل جهينة لم أعرفه ، فإما أن يكون أراد به ما يلى جبيل سَلْع فى مقابلة المُصَلَّى ونسبه إلى جهينة لنزولهم عنده ، وهناك سائلة تسيل من سَلْع إذا حَصَل المطر ، وإما أن يكون أراد به أحد الجبلين اللذين فى غربى مساجد الفتح لما سيأتى فى منازل جهينة . وأما دار كثير بن الصَّلت بِبُطْحَان فقد ذكر فى موضع آخر ما يبين أنها كانت على شَفير وادى بُطحان بالعُدْوة الغربية ، وأن عقبة بن أبى مُعَيط لما جَلَده عثمان بن عفان فى الشراب حلَف لا يُساكنه إلا وبينهما بطن وادٍ ، فناقَلَ كثير بن الصَّلت بداره هذه إلى دار الوليد بن عقبة التى فى قبلة مصلى العيد الذى يصلى به الإمام اليوم ، والله أعلم .

ونزل بنو أبى عمرو بن نعيم بن مهان من بنى عبد الله بن غفار شامىّ وغربى بنى مبشر بن غفار ، ومعهم بنو خفاجة بن غفار .

منازل بنى ليث ابن بكر

ونزل بنو ليث بن بكر ما بين خط بنى مبشر بن غفار إلى خط بنى كعب بن عمرو بن خزاعة الذى يسلكك إلى دور الغطفانيين .

قلت : يؤخذ مما سيأتى فى منازل بنى كعب أن منازل بنى لَيْث كانت فى قبلة خط بنى مبشر ، وشامى بنى كعب ؛ فتكون جهة منازل بنى ليث فى شامى التمارين وغربيهم ، ولعل قول ابن زبالة فى دار السوق فى جهة المغرب قبل ذكر دار التمارين ثم جعل للسكة منفذا يريد به طريق بنى ليث ومن يشركهم فى ذلك . وقد قال ابن شبة فى دور بنى مخزوم : واتخذ أبو شريح الخزاعى حليف بنى مخزوم دارا غربيها شارع على بطحان ، وشاميها شارع إلى الزقاق الذى يدعى زقاق بنى ليث ، والله أعلم .

ونزل بنو أحمر بن يعمر بن ليث ما بين مسجدهم إلى سوق التمارين ، واتخذوا المسجد الذى فى محلتهم يدعى مسجد بنى أحمر .

ونزل بنو عمر بن معمر بن ليث ما بين مسجدهم الذى يدعى مسجد بنى كدل إلى بطحان إلى منزل بنى مبشر بن غفار إلى زقاق الجلادين الذى فيه دار الماجشون إلى دار أبى سَبْرة بن خلف إلى التمارين

ونزل آلُ قسيط بن يعمر بن ليث ما بين شامى بنى كعب من منازل آل نضلة بن عبيد الله بن خراش إلى خط كتاب النصر إلى الشارع إلى المصلى إلى بطحان .

ونزل بنو رجيل بن نعيم بطرف المُصَلَّى بين غربى دار كثير بن الصلت أى التى هى قبلة المصلى إلى دار آل قايع الأسديين الشارعة على بطحان .

ونزل بنو عتوارة بن ليث — وهم بنو عضيدة — ما بين طرف دار

الوليد بن عقبة اليمانى ببُطحان إلى الحَرَّة إلى زقاق القاسم بن غنام من دار الوليد ابن عقبة .

منازل بنى ضمرة بن بكر

ونزل بنو ضَمْرة بن بكر إلا بنى غفار محلتهم التى يقال لها بنو ضمرة ، وهى شرقى ما بين دار عبد الرحمن بن طلحة بن عمر بن عبيد الله بن معمر بالثنية إلى محلة بنى الدِّيل بن بكر إلى سوق الغنم الشارع إلى دار ابن أبى ذئب العامرى ، واتخذوا فى محلتهم مسجدا .

منازل بنى الديل

ونزل بنو الديل بن بكر فى محلتهم — وهى ما بين ضمرة إلى الدار التى يقال لها دار الخرق — حدُّها زقاق الحضارمة ، ويدعى الخط العظيم لها بنى ضمرة ، إلى جبل فى مربد أبى عمار بن عبيس من بنى الديل يقال له المستندر إلى دار الصَّلْت ابن نوفل النوفلى التى بالجبانة .

قلت : الجبل الذى ذكر أنه يسمى بالمستندر هو الجبل الصغير الذى فى شرقى مشهد النفس الزكية بمنزلة الحاج الشامى ؛ لانطباق الوصف المذكور عليه ، والله أعلم .

ونزل أبو نمر بن عُوَيف من بنى الحارث بن عبد مناف بن كنانة على بنى ليث بن بكر فاتخذوا الدارَ التى يقال لها دار أبى نمر ، وهى فى خط بنى أحمر بن ليث المتقدم ذكره .

منازل ابنى أفصى

منازل أسلم ومالك ابنى أفصى — نزل بنو أسلم ومالك ابنى أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر منزلين ؛ فنزلت بنو مالك بن أفصى وأمية وسهم ابنى أسلم ما بين خط زقاق ابن حبين مولى العباس بن عبد المطلب الشامى من زاوية يقصان التى بالسوق إلى خط جهينة إلى شامى ثنية عثعث .

قلت : قد علم مما سبق فى دار السوق أن زقاق ابن حبين فى غربى سوق المدينة ، وسيأتى فى ترجمة ثنية عثعث أنها منسوبة إلى جبل يقال له سليع عليه بيوت

أسلم بن أفصى؛ فهى الثنية التى عند الجبيل الذى عليه حصن أمير المدينة اليوم ، والمراد من بيوت أسلم منزل هؤلاء ، والله أعلم .

ونزلت سائر أسلم ، وهم آل بريدة بن الحصيب وآل سفيان — ما بين زقاق الحضارمة إلى زقاق القنبلة .

قلت : وذلك فى شرقى مؤخر سوق المدينة مما يلى الشام ، وفى جهة زقاق الحضارمة اليوم حديقة تعرف بالحضرمية شامىّ سور المدينة ، وفى شاميها جهة زقاق القنبلة .

ونزلت هذيل بن مدركة ما بين شامى سائلة أشجع وزاوية دور يحيى بن ابن عبد الله بن أبى مريم إلى دار حرام بن مزيلة بن أسد بن عبد العزى بالثنية زاويتها اليمانية ، وذلك مجتمعها ومجتمع أسلم .

منازل مزينة ومن حل معها

منازل مزينة ومَنْ حَلَّ معها من قيس عَيْلان بن مضر — ونزل بنو هدبة ابن لاطم بن عثمان بن عمرو ، إلا بنى عامر بن نور بن لاطم بن عثمان ، وعثمان نفسه الذى يقال له مزينة ، وهى أمه — ما بين زاوية بيت القروى المطِلّ على بطحان الغربية إلى زاوية بيت ابن هبار الأسدى الذى صار لبنى سمعان الشرقية إلى خط بنى زريق إلى دار الطائفى التى بشق بطحان الشرقى .

ونزل معها فى هذه المحلة بنو شيطان بن يربوع من بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفة بن قيس و بنو سليم بن منصور وعدوان بن عمرو بن قيس .

وعن شرقى خطة مُزَينة هذه سليم بن منصور إلى دار خلدة بن مخلد الزرقى ، وأدنى دار أم عمرو بنت عثمان بن عفان إلى بيوت نفيس بن محمد مولى بنى المعلى فى بنى زريق من الأنصار ، إلى أن تلقى بنى مازن بن عدى بن النجار ؛ فهؤلاء الذين نزلوا مع مُزَينة ، ودخل بعضهم فى بعض ، و إنما نزلوا جميعا لأن دارهم فى البادية واحدة .

قلت : فمنازل مُزَينة ومَنْ حلّ معها فى غربى مصلى العيد اليوم إلى عُـدْوَة بطحان الشرقية ثم فى قبلة الدور التى بالمُصَلَّي ثم فى قبلة بنى رزيق إلى بنى مازن ابن النجار .

وقد نزلت بنو ذكوان من بنى سليم مع أهـل راتج من اليهود ، مابين دار قدامة إلى دار حسن بن زيد بالجَبَّانة .

قلت : ودار قدامة هى المرادة بقول ابن شبة فى دور بنى جُمَح « واتخذ قدامة ابن مظعون الدار التى فيها المجزرة على فوهة سكة بنى ضمرة ودبر دار آل أبى ذئب على يمينك وأنت ذاهب إلى بنى ضمرة » والله أعلم .

ونزل بنو أوس بن عثمان بن مزينة بطَرَف السورين ، مابين دار أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق إلى مُفْضَى السورين إلى الحمارين ، الزقاق الذى فيه قصر بنى يوسف مولى آل عثمان إلى البقال .

قلت : وهذه الأمور بقرب البقيع ، كما سيأتى فى تراجمها .

ونزل بنو عامر بن ثور بن ثعلبة بن هُذْبة بن لاطم مابين بيت أم كلاب الذى فى خط بنى رزيق الشارع على المصلى إلى دار مدراقيس الطبيب إلى دار عمرو بن عبدالرحمن بن عوف ودار عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام ودار هشام ابن العاص المخزومى .

قلت : ودار مدراقيس الطبيب لها ذكر فى دور بنى محارب بن فهر .

قال ابن شبة : واتخذ مَعْمَر بن عبد الله بن عامر داراً فى بنى زُرَيق بين الدار التى يقال لهـا دار مدراقيس الطبيب ودار أم حسان التى صارت لعمر بن ابن عبد العزيز العمرى ، وهذه الأماكن فى قبلة ماتقدم ممـا يلى الدور التى فى قبلة البلاط فى الميمنة وما حولها ، ولعـل دار أم حسان المذكورة هى الموضع المعروف اليوم بدار حسان فى قبلة الدور التى بالبلاط المُوَالية لدرب سـويقة ، والله أعلم .

منازل جهينة وبلى

منازل جهينة و بلى ــ ونزل جهينة بن زيد بن السود بن الحارث بن قضاعة و بلى بن عمرو بن إلحاف بن قضاعة مابين خط أسلم الذى بين أسلم وجهينة ، إلى دار حرام بن عثمان السلمى الأنصارى التى فى بنى سلمة إلى الجبل الذى يقال له جبل جهينة إلى يمانى ثنية عثعث التى عليها دار ابن أبى حكيم الطيب .

قلت : ذِكْرُ دار حرام بن عثمان فى بنى سلمة يرجح أن المراد بجبل جهينة أَحَدُ الجبلين اللذين فى غربى مساجد الفتح ، وهناك منازل بنى حرام من بنى سلمة ، وقد تقدم بيان ثنية عثعث ، وأنها منسوبة إلى الجبل الذى عليه حصن أمير المدينة اليوم ، والله أعلم .

منازل قيس ابن عيلان

منازل قيس بن عَيْلان ــ نزلت أشْجَع بن رَيْث بن غَطَفان بن سعد بن قيس الشعبَ الذى يقال له شعب أشجع ، وهو مابين سائلة أشجع إلى ثنية الوداع إلى جوف شعب سَلْع ، وخرج إليهم النبى صلى الله عليه وسلم بأحمال التمر فنثره لهم ، واتخذت أشجع فى محلتها مسجدا .

قلت : وما ذكره منطبق إما على شعب سلع الذى فى شرقيه ، فتكون منازلهم بين خط أسلم الذى فى شامى ثنية عثعث و بين جبل سلع وهكذا إلى ثنية الوداع ، و إما على شعب سلع الذى فى شاميه ، وقال عروة بن الزبير : قدمت أشْجَع فى سبعمائة يقودهم مسعود بن رخيلة فنزلوا شعبهم ، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحمال التمر ، فقال : يامعشر أشجع ، ماجاء بكم ؟ قالوا : يارسول الله جئناك اقرب ديارنا منك ، وكرهنا حَرْبك ، وكرهنا حرب قومنا لقلتنا فيهم ؛ فأنزل الله تعالى (أَوْجَاؤُكم حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ــ إلى قوله تعالى : سبيلا).

ونقل ابن شبة فى تأديب عمر بن الخطاب الرعية فى أمر دينهم أن رجلا من أشجع يقال له بقيلة كان غازيا ، فبلغه أن جَعْدَة بن عبد الله السلمى يحدث

النســاء ، وأن جوارى يَخْرُجْنَ إلى سَلْع فيحدثهن ، ثم يعقل الجارية ويقول : قومِى فى العقال فإنه لا يصبر على العقال إلا حَصَان ، فتقوم ساعة ثم تسقط ، فربما تكشفت ، فكتب الأشجعى إلى عمر :

ألا أبلغ أبا حَفْصٍ رسـولا ... فِدًى لَكَ مِنْ أخى ثقة إزارى
فما قُلُصٌ تَقُمْنَ مُعَقَّلَاتٍ ... قَفَا سَـلْعٍ لمختلف التِّجَار
قلائصُ من بنى سَعْد بن بَكْرٍ ... أوَ اسْلَمَ أو جُهَيْنَةَ أو غفارِ
يُعَقِّلُهُنَّ جَعْـدَةُ من سُلَيم ... معيدا يبتغى سَقَط العَذَارى
قلائصَنا هَـداكَ الله إنا ... شُغِلْنَا عنهـمُ زَمَنَ الحِصَارِ
يُعقلهن أبيَضُ شَيْظَمِيٌّ ... فبئس مُعَقِّلُ الذود الطَّوَارى

فدعا عمر بجَعْدَة فقال : أنت لعمرى كما وصف أبيض شيظمى ، وسأله فأقرَّ فضربه مائةً مَعْقُولا ، وغرَّبه إلى الشام ، فكُلِّم فيه ، فأذن له على أن لا يدخل المدينة ، ثم أذن له أن يجمع ، ثم أذن له أن يدخل فى الجمعة مرتين .

وقال ابن إسحاق : الذى كتب بالشعر رجل من هَوَازن يدعى خَيْثَمة .

منازل بنى جشم — ونزلت بنو جُشَم بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس محلّتها التى يقال لها بنو جُشَم ، وهى ما بين الزقاق الذى يقال له زقاق سفين إلى الأساس الذى يقال له أساس إسماعيل بن الوليد إلى خَوْخَة الأعراب إلى دور ذكوان مولى مروان بن الحكم .

قلت : ولم أعرف شيئاً مما ذكره ، غير أنه ذكر فى دور بنى جُمَح أن محمد بن حاطب اتخذ الدار التى تُدْعى دار قُدَامة فى بنى زريق شرقيها الدار التى يقال لها دار الأعراب ، فلعل خوخة الأعراب وما ذكر معها فى تلك الجهة ، والله أعلم .

ونزلت بنو مالك بن حماد وبنو زنيم وبنو سكين من فَزَارة بن ذبيان بن

بَغيض بن ذئب بن غطفان المحلةَ التى يقال لها بنو فزارة ، وهى إلى حمام الصعبة إلى سوق الحطابين الذى بالجَبّانة ، ولم ينزلها أحد من بنى عدى بن فزارة .

قلت : والذى علمنا جهته من ذلك سوق الحطابين بالجبانة قرب مسجد الراية وثنية الوَدَاع كما سيأتى فى ترجمة الجبانة ، والله أعلم .

منازل بنى كعب ابن عمرو وإخوتهم

منازل بنى كعب بن عمرو ، وإخوتهم من بنى المُصْطَلق .

نزل بنو كعب بن عمرو بن عدى بن عامر ما بين يمانى بنى ليث بن بكر إلى دار شريح العَدَوى إلى موضع التمارين بالسوق إلى زقاق الجلادين الشارع على المصلى يمنةً ويسرةً إلى بطحان إلى زقاق كدام ، وكدام : سقاط كان هناك ، إلى دار ابن أبى سليم الشارعة على شامى المصلى .

ونزلت بنو المصطلق بن سعد بن عمرو وأخوه كعب بن عمرو رَهْط جُوَيْرِية بنت الحارث زوج النبى صلى الله عليه وسلم ظاهرةَ حَرّة بنى عضدة إلى أدنى دار عمر بن عبد العزيز إلى الدار التى يقال لها دار الخرازين .

قلت : وذلك بالحرة الغربية .

سعة المدينة فى عهد النبى

ومن تأمل ما ذكر فى دور المهاجرين ومنازل القبائل منهم — مع ما سبق فى منازل الأنصار — رأى أمراً عظيما فيما كان من عمارة المدينة وسَعَتها ، واتصال بعضها ببعض ، وآثار ما كان من العمارة شاهد بذلك اليوم ، واسمُ المدينة صادق على ذلك كله ، وسيأتى فى ترجمة قباء أنها كانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة الشريفة ، أى بما بينها من النخيل ، ولهذا لم تكن الجمعة تقام بغير المسجد النبوى ، ولو كانت قباء وغيرها من القرى المنفصلة اليوم منفصلة فى زمنه صلى الله عليه وسلم وبها تلك القبائل من الناس لوجَبَ إقامة الجمعة فى كل قرية بها أربعون كما تقرر فى موضعه ، فقد كانت كلها فى حكم البلد الواحد ، فسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

اتخاذ سور المدينة

ولما طَرَق المدينة الشريفة الخرابُ فى أطرافها جعلوا لها سوراً ، قال المجد الفيروزبادى : سور المدينة الشريفة بَنَاه أولا عضدُ الدولة بن بُوَيْه بعد الستين وثلاثمائة فى خلافة الطائع لله بن المطيع لله ، ثم تهدم على طول الزمان وتخرب لخراب المدينة ، ولم يبق إلا آثاره ورَسْمُه .

وقال المطرى فى الكلام على مسجد جهينة : إن ناحية جُهَينة معروفة غربى حصن صاحب المدينة والسور القديم ، بينها و بين جبل سَلْع ، وعندها أثرُ باب للمدينة معروف بدرب جهينة إلى تاريخ كتابه ، وهو سنة ست وستين وسبعمائة .

قلت : قد قدّمْنا ما يخالف ما ذكره فى ناحية جهينة ؛ لأنا و إن لم نَرَ البابَ الذى أشار إليه ، لكن رأينا آثار السور القديم قبلى جبل سَلْع ، وقرب الحصن المذكور . ويظهر من حاله أن غالب منازل جُهَينة وغيرها من المنازل المتقدمة كانت فى جوفه ، وأنه كان فى جهة المغرب على شَفير بطحان بالعُدْوة الشرقية ؛ لأن الأقشهرى نقل فى روضته عن صاحب سور الأقاليم أنه قال : المدينةُ أقلُّ من نصف مكة ، وهى فى حَرّة سَبِخة الأرض ، وبها نخلٌ كثير ، ومياه نخيلهم وزرعهم من الآبار يسقى منها العبيد ، وعليها سور ، والمسجد فى نحو من وسطها . ثم ذكر صفة المسجد والقبر الشريف ، ثم قال : ومُصَلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان يصلى فيه الأعياد من غربى المدينة داخل الباب ، انتهى . فكون المُصَلى داخل الباب شاهدٌ لما ذكرنا ، وقد صرح بنحوه الإمام أبو عبد الله الأسدى فإنه ذكَرَ المساجد الخارجة عن المدينة ، ثم ذكر المساجد التى بالمدينة فقال : وداخل المدينة مُصَلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم .

وقال المطرى بعد ذكره لما تقدم من باب هذا السور القديم : ونقل ابنُ خلكان أن سور هذا الباب القديم بناه عَضُد الدولة بن بُوَيه بعد الستين وثلاثمائة من الهجرة فى أيام الطائع لله ابن المطيع ، ثم تهدم على طول الزمان وخرب لخراب

سور آل زنكى المدينة ، ولم يبق إلا آثاره حتى جَدَّد لها جمالُ الدين محمد بن أبى منصور – يعنى الجواد الأصبهانى وزير بنى زنكى – سوراً محكما حول المسجد الشريف على رأس الأربعين وخمسمائة من الهجرة ، ثم كثر الناس من خارج السور ، ووصل السلطان الملكُ العادل نور الدين محمود بن زَنكى فى سنة سبع وخمسين وخمسمائة إلى المدينة الشريفة بسبب رؤيا رآها ، وذكر ما قدمناه عنه فى خاتمة الفصل التاسع والعشرين .

ثم قال : إنه لما ركب متوجِّهاً إلى الشام صاح به مَنْ كان نازلا حول السور واستغاثوا وطلبوا أن يبنى عليهم سورا يحفظ أبناءهم وماشيتهم ، فأمر ببناء هذا السور الموجود اليوم ، فَبَنَى فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وكتب اسمه على باب البقيع ؛ فهو باقٍ إلى تاريخ هذا الكتاب .

قلت : وهو باقٍ على باب البقيع إلى أن كتبنا كتابنا هـذا ، وصورته فى صفحات الحديد المصفح بها الباب : هذا ما أمَرَ بعمله العبدُ الفقير إلى الله تعالى محمود بن زنكى بن أقسنقر ، غفر الله له ، سنة ثمان وخمسين وخمسمائة . وهذا لايدل على أنه أنشأ السور .

وعبارة البدر بن فرحون عنـد ذكره لمحاسن نور الدين الشهيد رحمه الله ما لفظه : و بنى أيضاً سورَ بعلبكّ ، وكمل بناء سور المدينة ، وهو سورُها الموجود اليوم ، واسمُه مكتوب على باب البقيع ، وأما السور الذى داخل المدينة فإنما أحدثه الوزير جمالُ الدين محمد بن أبى منصور ، وكان وزيراً لوالِدِ الملكِ العادل يعنى زنكى ثم استوزره بعد زنكى ولدُه غازى بن زنكى يعنى أخا الملك العادل ؛ فهذا يقتضى أن الملك العادل إنما كمل بناء السور الموجود اليوم فقط ، ويبعده ما ذكره من بناء الجَوَاد لسوره ؛ فإنه لو كان السورُ المذكور موجوداً لكان هو أكمله ولم ينشىء سورا غيره ، ومدة بناء السورين المذكورين متقاربة كما يعلم مما قدمناه .

من مآثر الجواد الأصفهانى

وقال المجد : إن الشيخ شهاب الدين عبد الرحمن بن أبى شامة قال فى كتابه ما صورته : ومن أعظم الأعمال التى عملها نفعا ــ يعنى وزير الموصل جمال الدين الجواد ــ أنه بنى سوراً على مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب ، وكان أهلها فى ضَنْك وضرٍّ معهم .

قال ابن الأثير : رأيت بالمدينة إنسانا يصلى الجمعة ، فلما فرغ ترحَّم على جمال الدين ودَعا له ، فسألناه عن سبب ذلك، فقال : يجب على كل مسلم بالمدينة أن يدعُوَ له ؛ لأننا كنا فى ضر وضيق ونكد عيش مع العرب ، لا يتركون لأحدنا ما يواريه ويشبع جوْعته ، فبنى علينا سوراً احتمينا به ممن يريدنا بسوء ، فاستغنينا ، فكيف لا ندعو له ؟ قال عقبه : قلت : وهذا السور الذى بناه جمال الدين هو السور الثانى ، والسور الذى بناه الملك العادل نور الدين هو السور الثالث ، أى بحسب الزمان ، وعلى كل منهما اسمُ بانيه على الأبواب ، وأما السور الأول الذى بَنَاه عضد الدولة فلم يبق منه أثر يعرف به مكانه ، انتهى . هكذا نقلته من تاريخ المجد . وبقوله انتهى ظهر أن قوله قلت إلى آخره من كلام ابن أبى شامة ، ويحتمل أن يكون من كلام ابن الأثير .

وقال المجد عقبه : قال : وكان الخطيب بالمدينة يقول فى خطبته « اللهم صُنْ حريمَ مَنْ صان حَرَمَ نبيك بالسور محمد بن على بن أبى منصور » فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخرا ، فكيف وقد أصابت صدقتُه تخومَ الأرض شرقاً وغربا وبرا وبحرا ؟ .

وأما شدَّةُ عنايته بأهل المدينة فكانت عظيمة ، قال ابن الأثير : حكى لى بعضُ الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النشاى شيخ شيوخ الموصل قال : أحضرنى الشيخُ فقال لى : انْطَلِقْ إلى مسجد الوزير بظاهر الموصل واقْعُدْ هناك ، فإذا أتاك شىء فاحفظه إلى أن أحضر عندك ، ففعلت ، فإذا قد أقبل جمع كثير من الحمالين يحملون أحمالا من النصافى والخام ، وإذا نائب جمال الدين قد جاء

مع الشيخ ومعهما قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدة كثيرة من الجمال ، فقال لى : تأخذ هذه وتسير إلى الرحبة وتوصل هـذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان ، فإذا حضر لك فلان العربى فتوصل إليه هذه الرزمة الأخرى وهذا الكتاب وتسير معه ، فإذا أوصلك إلى فلان العربى توصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب ، وهكذا إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فتوصل إلى وكيلى فلان هذه الأحمال ، وهـذه الكسوات والمال الذى عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة ، ثم تأخذ الباقى الذى عليه اسم مكة فتسير إليها فيتصدق به وكيلى بموجب الجريدة الأخرى ، فسِرْنا بذلك إلى وادى القرى ، فرأينا هناك جمالا كثيرة تحمل الطعام إلى المدينة ، وقد منعهم خوفُ الطريق ، فلما رأونا سارُوا معنا إليها فوصَّلْناها والحِنْطة بها كل صاعين بدينار مصرى ، والصاع ـ أى فى ذلك الزمان ـ خمسة عشر رطلا بالبغدادى ، فلما رأوا المالَ والطعام اشتروا كل سبعة آصع بدينار ، فانقلبت المدينة بالدعاء له .

قلت : وقد قدمنا كيفية نقله إلى المدينة الشريفة بعد موته ودفنه بتربته التى برباطه المجاور للمسجد الشريف عند ذكر باب عثمان وهو باب جبريل لمقابلته له ، وتقدم ذكره أيضاً فى ترخيم الحجرة الشريفة .

ومن أعماله الحسنة تجديد مسجد الخيف ، وإجراء عين عرفة ، وبناء جدار الحجرة وترخيمه ، وتجديد باب الكعبة ، وكان النعش الذى حُمل فيه هو باب الكعبة القديم ، وفيه يقول أبو المجد بن قسيم :

أغَرُّ تُبْصِرُ منه الناسَ فى رَجُلٍ وَاللَّيْثَ فى بَشَرٍ، والبَدْرَ فى غُصُنِ
سَمَــا بهمته فى المكرمات إلى عَلْياء تَقْصُر عنها هِمَّةُ الزَّمَنِ

إلى أن قال فيه :

صان المدينةَ تَنْويرا وصَوَّرَها فى الحُسْنِ غادَةَ مُلْكِ الشام وَالْيَمَنِ .

وصان بالمال أهْلِيهَا فمـــا بَقِيَتْ هزلاء إلاَّ تَشَـكَّتْ كثرة السِّمَنِ

ولسور المدينة اليوم أربعة أبواب غير باب حصن أمير المدينة المعروف بباب السر، وهو باب عظيم كله من الحديد .

أبواب السور

وأما الأبواب الأربعة :

فأحدها : الباب الذى غربى المدينة فى جهة المصلى عند منزلة الحاج المصرى ، ويعرف بدرب المصلى ، ودرب سويقة ، وذَرْعُ ما بينه وبين عتبة باب السلام ستمائة ذراع وخمسة وأربعون ذراعا ، وكان عليه باب مُتْقَن أحْرَقَه بعضُ صبيان الأمير ضغيم سنة عزله ، فأخذ أمير المدينة باب الحوش الذى عمره الأمير ضغيم وجعله عليـه ، ثم عُمِلَ له باب مُتْقن كالأول فى عمارة المسجد المتجددة بعد الحريق الثانى .

ثانيها : الباب الذى فى جهة المغرب أيضاً عند رحبة حصن أمير المدينة يعرف بالدرب الصغير .

ثالثها : الباب المعروف بالدرب الـكبير ، وبالدرب الشامى .

رابعها : الباب المعروف بدرب البقيع فى شرقى المدينة ، ويعرف بدرب الجمعة ، وعليه باب متقن مغشَّى بصفائح الحديد ، والظاهر أنه باقٍ من زمن نور الدين الشهيد لما قدمناه من الـكتابة عليه .

وذَرْع ما بينه وبين عتبة باب المسجد المعروف بباب جبريل أربعمائة ذراع وثلاثة وثلاثون ذراعا .

وفى قبلة سور المدينة موضعُ بابٍ مسدود اليوم ، وكان يعرف بدرب السوارقية

ولم يزل الملوك يهتمون بعمارة سور المدينة ، ويصلحون ما وَهَى منه.

وقد ذكر الزين المراغى أنه جُدِّد فى سنة خمس وخمسين وسبعمائة فى أيام الملك الصالح صالح أحد أولاد الناصر محمد بن قلاوون .

وذكر البدر ابن فرحون أن الأمير سعد بن ثابت بن حماد ابتدأ فى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة عملَ الخَنْدَقِ الذى حَوْلَ السور المذكور ، ومات ولم يكمله ، وأكمله الأمير فَضْل بن قاسم بن حماد فى ولايته بعده ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

تم ـ بحمد الله تعالى وحوله ـ الجزء الثانى من كتاب « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى » صلى الله عليه وسلم . ويليه ـ إن شاء الله ـ الجزء الثالث ، وأوله « الباب الخامس ، فى مُصَلَّى النبى صلى الله عليه وسلم فى الأعياد » نسأله ـ جَلَّت قدرته ـ أن يُعين على إكماله ، بمنه وفضله وتيسيره ، إنه لا ييسر إلى الخير سواه .

فهرس الموضوعات الوارة فى الجزء الثانى

من كتاب « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى »

لنور الدين على بن أحمد السمهودى ، المصرى ، المدنى

وقد تمت فهرست الجزء الثانى من كتاب « وفاء الوفا » والحمد لله أولا وآخراً ، وصلى الله على سيدنا محمد خير خلق الله وأكرمهم عليه ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً إلى يوم الدين .